PHILBY

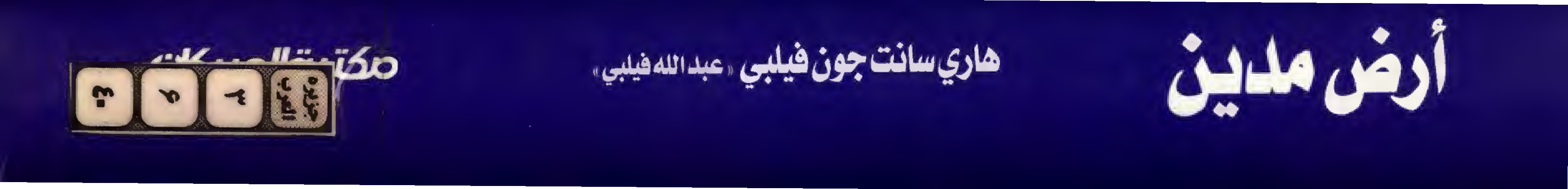


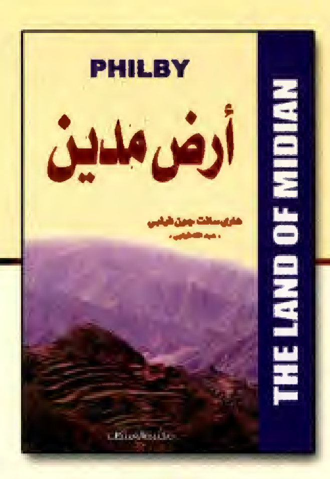
هاري سانت جون فيلبي

« عبد الله فيلبي »

THE LAND OF MIDIAN

مكتبة العبيكان


أرض مدين
هاري سانت جون فيلبي «عبد الله فيلبي»
جزيره العرب
٣
٦
٤٠



تعد كتب فيلبي أول موسوعة معربة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية، حيث غطت حقبة زمنية مهمة، وقد تناول فيها فيلبي تاريخ المملكة وجغرافيتها وأعلامها وآثارها واقتصادها وقبائلها بأسلوبه الرصين، وتحليله العلمي الدقيق، وقد دعم ذلك كله بالكثير من الصور الشمسية التي تعين القارئ على تصور الأشياء وحسن فهمها.

وقد جاء عمل فيلبي هذا ثمرة للمدة الطويلة التي أقامها في المملكة واتصاله بالملك عبد العزيز -يرحمه الله- مما أتاح له فرصة التنقل في مختلف أرجاء الجزيرة العربية، والاطلاع على المواقع الأثرية والنقوش القديمة. وقد تم انتقاء مجموعة من هذه الكتب لنشرها في سلسلة تاريخية؛ لتكون رافداً ثقافياً لأبناء هذا الجيل، ومن هذه الكتب كتاب (أرض مدين) الذي قدم فيه المؤلف وصفاً حيّاً للمنطقة الشمالية من المملكة حيث جاءت معلوماته عن هذه المنطقة المهمة أدق وأشمل ممن سبقوه؛ لأنه قدم صورة مركبة «لأرض مدين» ورسماً توضيحياً لكل الأماكن التي زارها، وقد ركز في هذه الرحلة -إضافة إلى وصفه للنبات والطيور والوديان- على جمع الكثير من النقوش القديمة والنصوص الثمودية والنبطية والمعينية مما كان الأثر الكبير في إثراء البحوث المتعلقة بهذه الدراسات الأثرية.

ومكتبة العبيكان يسرها أن تقدم للقارئ الكريم هذه الكتب لأول مرة باللغة العربية إدراكاً منها لأهمية الدور الثقافي الذي تقوم به خدمة للوطن، وأداءً لواجبها في إبراز الجوانب المضيئة من تاريخها لأبناء هذا الوطن الغالي، راجيةً الفلاح للجميع.

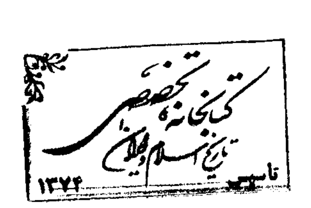
هذا والله من وراء القصد.



أرض مدين

تأليف

هاري سانت جون فيلبي



تعريب

د . يوسف مختار الأمين

مراجعة وتدقيق

أ . عبدالله بن محمد المنيف

مكتبة العبيكان

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٣هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

فيلبي، هاري سانت جون

أرض مدين./هاري سانت جون فيلبي. - الرياض، ١٤٢٣هـ.

٦٠٠ص، ١٦,٥X٢٤سم

ردمك: ٣-٢٧٠-٤٠-٩٩٦٠

١- مدائن صالح (السعودية) ٢- السعودية- آثار ٣- السعودية وصف ورحلات أ- العنوان

ديوي ٩١٥,٣١٢٨٠٤ ٦٥١٢ / ١٤٢٣

ردمك: ٣-٢٧٠-٤٠-٩٩٦٠ رقم الإيداع: ٦٥١٢ / ١٤٢٣

الطبعة الأولى

١٤٢٤هـ / ٢٠٠٣م

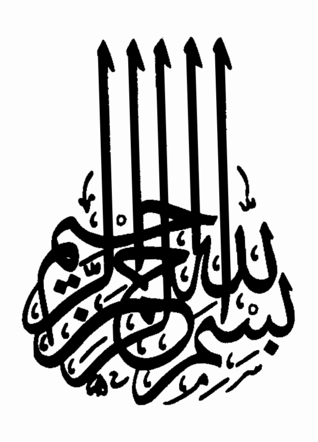
الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة.

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤، فاكس: ٤٦٥٠١٢٩


بسم الله الرحمن الرحیم



الإهداء

إلى مارجريت قووديير :

" وهذه تسمى الجزيرة العربية ... (جزيرة) السكيناتي ؛ إنها مشهورة بقفرها ... وليس فيها ما يلفت النظر سوى جبل كاسيوس ... ".

بليني ، الكتاب الخامس ، الفصل الثاني عشر



كلمة الناشر

يطيب لمكتبة العبيكان أن تقدم للقارئ الكريم سلسلة كتب فيلبي التاريخية ذات العلاقة بتاريخ وجغرافية المملكة العربية السعودية لأول مرة باللغة العربية.

ويأتي إصدار كتب فيلبي خاصة، لعدة اعتبارات أدبية، من أهمها أن فيلبي سبق له أن أقام في المملكة العربية السعودية مدة طويلة، واتصل بالملك عبدالعزيز، وقد أتاح له ذلك فرصة إشباع رغبته في الترحال والاطلاع على كثير من المناطق والمواقع الأثرية في مختلف أنحاء المملكة، وقد أفادت رحلات فيلبي وكتاباته تاريخ وجغرافية بلادنا بشكل متميز، باعتبار أنه قدم من خلال ما كتبه وصفاً حياً لكثير من المواضع الجغرافية، والمواقع الأثرية، مما نتج عنه نقل عدد كبير من أسماء المواضع في مختلف أرجاء الوطن.

ومما يميز كتب فيلبي التي سبق أن صدرت بلغتها الأصلية قبل أكثر من سبعين عاماً أنها احتوت على معلومات تاريخية وجغرافية مهمة، ومن هنا تم انتقاء مجموعة منها لترجمتها إلى اللغة العربية نظراً لأهميتها التاريخية.

كما تمتاز كتب فيلبي أيضاً بأنها تضم عدداً لا بأس به من الصور الشمسية (الفوتوغرافية) لبعض الأعلام والمدن والمعالم الجغرافية،

وهذه الصور لا شك أن لها دوراً إيجابياً يعين على تصور بعض المعالم الجغرافية إضافة إلى بعض الجوانب الحضارية التي كانت سائدة تلك الفترة.

وسيلاحظ القارئ الكريم عندما يقرأ في كتب فيلبي أنه أمام موسوعة مختصرة لتاريخ المملكة العربية السعودية غطت حقبة زمنية مهمة حيث كتب فيلبي بأسلوبه السلس الرصين عن تاريخ المملكة، وجغرافيتها، وأعلامها، وآثارها، واقتصادها وقد كان أثناء سياقه للأحداث العامة أو ذكرياته الخاصة لا يغيب عنه -كلما سنحت له الفرصة- إبداء إعجابه بشخصية الملك عبدالعزيز -رحمه الله- وبجهاده في توحيد البلاد، ثم إعجابه بسياسته في الارتقاء ببلاده حتى صارت دولة حديثة تحظى بتقدير العالم، وهذا الإعجاب له ما يبرره وسوف يتنبه القارئ إلى بعض مواطن هذا الإعجاب والتقدير في مواضعها من كتب فيلبي التي تمت ترجمتها في هذه السلسلة.

وفيما يخص هذا الكتاب فإن له خصوصية حيث تمت ترجمته بواسطة الأستاذ عمر الديراوي ونشر في طبعته الأولى عام ١٩٦٢م، غير أن هذه الترجمة كانت مليئة بالكثير من الأخطاء في المسميات، هذا بالإضافة إلى ما فيها من نقص وتحريف، وقد أشار إلى ذلك علامة الجزيرة الشيخ حمد الجاسر -يرحمه الله- في موضعين من كتابه (في شمال غرب الجزيرة) ص٢٧٨، ص٣٥١، وقد دعا

-يرحمه الله- إلى إعادة الترجمة بطريقة صحيحة لتلافي هذه الأخطاء.

وقد لبت هذه الدعوة مكتبة العبيكان حرصاً منها على سلامة تراث المملكة التاريخي والجغرافي والحفاظ عليه، فقد أخذت على عاتقها إعادة الترجمة بطريقة جيدة تكشف ما وقع في الترجمة السابقة من أخطاء وتبين وجه الصواب فيها وتتدارك ما فيها من نقص وتصحيح ما فيها من تحريف، ومن أهم الأخطاء ما عُنون به الكتاب حيث كان اسمه (أرض الأنبياء: مدائن صالح) والصواب ما وضع له من عنوان الآن (أرض مدين).

هذا وسوف نترك للقارئ الفاحص الوقوف بنفسه على الفرق الشاسع بين الترجمتين السابقة واللاحقة ليدرك مدى الجهد الذي بذل لتحري الدقة في كتابة أحداث تاريخنا وأماكن بلادنا وحفظهما من التشويش.

إن مكتبة العبيكان للنشر والتوزيع لترجو أن تكون قدمت بهذا الجهد -الذي تم بإشراف لجنة علمية متخصصة- جزءًا من خدمة بلادها من خلال إحياء تاريخها. وقد حرصت المكتبة على إخراج الكتب وترجمتها إلى اللغة العربية كما جاءت في النص الإنجليزي. ومع ذلك فإن جميع الآراء والأحداث التي ذكرها المؤلف في كتبه

التي تنشرها المكتبة تمثل وجهة نظر المؤلف الخاصة، ولا تعبر بالضرورة عن رأي الناشر.

وأخيراً فإن المكتبة لا يسعها إلا أن تشكر المترجم الدكتور يوسف مختار أمين والمراجع التاريخي الأستاذ عبدالله بن محمد المنيف على ما بذلاه من جهد صادق في هذا الكتاب.

والله ولي التوفيق،،

الناشر

مكتبة العبيكان

المقدمة

كان ذلك اليوم يصادف الثالث من أكتوبر ١٩٢٠م الموافق للعشرين من ذي الحجة (عام ١٣٣٩هـ)، وهو اليوم الذي يلي عيد الميلاد القمري الثاني والسبعين لابن سعود. وفي هذا العام لم يشعر الملك برغبة في مواجهة الحر الشديد لشهر سبتمبر في مكة، حيث أناب ولي العهد ليتولى رئاسة هذه المناسبة السنوية.

وقد مكثت أنا أيضاً في الرياض حيث إنني باستثناء زيارة واحدة لجدة لمدة أسبوعين لأداء بعض الأعمال في أغسطس، لم أغادرها منذ عودتي من إنجلترا في نهاية مايو. ويجب أن نقر بأنه في تلك السنوات القليلة الأخيرة من حياة الملك لم يكن روتين البلاط السعودي الرتيب مثيراً إلى حد كبير، على الرغم من أن العالم كان مليئاً بالتوترات بين الشرق والغرب: فالحرب الكورية كانت على أشدّها، والصينيون كانوا في طريقهم لاحتلال التبت.

وإذا اقتربنا أكثر من ديارنا نجد أن مراجل الشرق الأوسط كانت تغلي بالمشاكل: فقد ضاعت فلسطين، ولم يكن الملك مرتاحاً من السياسات المشبوهة للعراق والأردن، بينما كان يرى أن الملك فاروق لم يكن حكيماً في الضغط لإجلاء البريطانيين من منطقة القناة.

وتجاه كافة هذه الأمور كان رد فعله هو ما يقوم به رجل منهك طاعن في السن، لا يستطيع أن يفعل شيئاً لتحسين الأمور وهو يرى في كل ما حوله الإشارات المتوقعة لعالم متهالك يترنح نحو نهايته. ولم يكن الجو العام يبعث على البهجة إلا نادراً، وأعتقد أنني قد أصبحت أشعر بقليل من الملل من رتابة الحياة في العاصمة الرياض.

وربما ظهر ذلك جلياً في هذه المناسبة. عندما سألني الملك فجأة: "ماذا يدور في خلدك يا فيلبي؟" "هل أنت بحاجة لمال؟ قل لي وستناله" فأجبت: لا. ليس المال ما أحتاج، ولكن، إذا أردت أن تعلم ما أريد، فإنني أود أن أقوم برحلة في الربع الخالي وأزور البريمي وعُمان[1]. فأجاب فوراً: إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك. فقد يظن البريطانيون أنني أرسلتك لتثير المشاكل، مثلما فعلوا في رحلتك إلى حضرموت[2]. ليس ذلك الآن، ولك ما أردت من شيء آخر. فقلت للملك حسناً إذن دعني أرحل شمالاً إلى خيبر وتيماء وأرض مدين. وأجاب: بالتأكيد. تستطيع أن تفعل ذلك متى ما أردت. عليك أن تناقش الترتيبات الضرورية مع يوسف والآخرين، وأخبرني متى تريد أن ترحل.

(١) لمزيد من المعلومات عن هذه الرحلة انظر كتاب: الربع الخالي، للمؤلف، نشر مكتبة العبيكان عام ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

(٢) لمزيد من المعلومات عن هذه الرحلة انظر كتاب: بنات سبأ، للمؤلف، نشر مكتبة العبيكان ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠١م.

وفي الحقيقة كان لديّ قدر معين من العمل المطلوب إنجازه بإلحاح نيابة عن شركتي، ويتطلب ذلك زيارة لمدة عشرة أيام لمدينة جدة، إضافة لأعمال أخرى. ولم أغادر الرياض إلا في ١٨ نوفمبر عندما وليّتُ وجهي شطر مدين. ولم يُقدّر لي أن أرى العاصمة السعودية مرة أخرى إلا في أوائل مارس. كان معي ألف جنيه أعطاني إيّاها الملك لتغطية نفقات رحلتي، بينما أهداني ولي العهد الأمير سعود منظاره الشخصي عندما ذهبت للسلام عليه في الليلة السابقة لمغادرتي.

عندما ذهبت لجزيرة العرب أول مرة في ١٩١٧م[(١)] كان الموقف فيما يختص بمعرفة العالم لهذا البلد جيداً خاصة الجزء الشمالي منه أي فوق الخط الذي يربط ميناء العُقير على الخليج العربي بالرياض والمدينة. وذلك نتيجة للرحلات الشهيرة لكثير من أبرز الرحالة والمكتشفين المتميزين من العصر الفيكتوري والقليل من الذين سبقوهم من العهود السابقة. وقد سُجّلت مآثرهم وأعمالهم الجليلة في قصة رائعة عنوانها "اختراق الجزيرة العربية" التي نشرها في ١٩٠٥م الدكتور دي. جي. هوغارث، الذي أحرز قصب السبق في إعداد قائمة بالمناطق التي لم يكن يُعرف عنها شيء حتى ذلك

(١) لمزيد من المعلومات عن هذه الرحلة انظر كتاب: بعثة إلى نجد، نشر مكتبة العبيكان عام ١٤١٨هـ/ ١٩٩٧م.

الوقت إلا من خلال الإشاعات والأقوال المتناقلة. وتقع كلها جنوب الخط المشار إليه أعلاه، وبغض النظر عن حدود هذه المناطق المعروفة نسبياً إذ يسهل الوصول إليها عن طريق البحر إلا أن أياً منها لم تره عين غير عيون ساكنيها الأصليين. وقد كانت هدفاً واضحاً لأي طامح في شرف الريادة، وخلال العشرين عاماً القادمة كنت في وضع يسمح لي بأن أزعم أنني قد رأيتها كلها، ووضعت خرائط لها، ووصفتها وصفاً دقيقاً في أربعة مجلدات ضخمة[1]، وفي الوقت نفسه كان هناك آخرون قد أغراهم السير في نفس الاتجاه. فهناك آر. ائي. تشيزمان الذي كان أول أوروبي يزور واحة يبرين المجهولة على الطرف الشمالي من الربع الخالي في عام ١٩٢٣م، في حين كان بيرترام توماس أول من عبر هذه الصحراء الجنوبية العظيمة في عام ١٩٣١م من الجنوب للشمال، أي قبل عام واحد من عبوري لها من الشمال للجنوب ومن الشرق إلى الغرب.

وقد سبقني ألماني - يدعى هانز هيلفرتز - إلى شبوة بعام أو عامين، بينما كان فان دير مولين وفون ويزمان يقومان ببعض العمل الجدير بالإعجاب في أجزاء أقل شهرة في محمية عدن.

---

(١) وهي: قلب الجزيرة العربية، الربع الخالي، بنات سبأ، نجود الجزيرة العربية. المؤلف.

ولا ينبغي لنا أن ننسى عمل فريا ستارك[1] ودورين إنجرامز وزوجها في منطقة حضرموت. ويمكن أن يقال: إن استكشاف الجزء الجنوبي من الجزيرة العربية قد أنجز بالطريقة المثلى القديمة قبل ظهور السيارات والطائرات؛ لتبدد أسرارها وخفاياها التي كانت منيعة ذات يوم. وقد أصبحت المنطقة كلها الآن مألوفة بدرجة كافية لموظفي شركة أرامكو وصيادي الجراد. وفي فبراير ١٩٥٥م كنت قد دُعيت لقضاء عطلة نهاية الأسبوع في قلب الربع الخالي مع بعض الأصدقاء في أرامكو!! بيد أن المحدثين -مع ذلك- لم ينجحوا بالكامل لأخذها على طريقتهم الخاصة، حيث لم تنقض سنوات طويلة منذ أوضح ولفرد سثيجر مرتين أن الربع الخالي لا يزال ممكناً عبوره بأصعب الطرق.

ومن المؤسف أنه كان شديد التكتم، قليل الكلام عن خبراته وتجاربه العظيمة في تلك الصحاري. ويمكن أن يُوجّه نفس النقد للعديد من المكتشفين الأمريكيين الذين قاموا بعمل أصيل ذي قيمة عالية في الكثير من أجزاء الجزيرة العربية، ولكنهم في الغالب تواروا بعيداً عن الأضواء والشهرة، واعتراف الناس بمساهمتهم التي لا تقدر بثمن في المعرفة الإنسانية. إنني أشعر بالامتنان لهم -فقط-

---

(١) صدر هذا العمل بعنوان: البوابات الجنوبية للجزيرة العربية سنة ١٩٣٦م بانجلترا.

لأنه ما زال يبقى لأيام شيخوختي ما يكفي من المسارات التي لم يسلكها أحد قبلي وظلت بكراً لي حتى تطأها قدماي في الأرض التي كرست لها الجزء الأعظم من حياتي.

والآن، لقد تحدثنا بما يكفي عن الجنوب، وإنني -بالطبع- لم أهمل الفرص الكثيرة التي سنحت خلال صلتي على مدى أربعين عاماً بالصحراء حتى أتنقل بشكل واسع في المناطق الشمالية، حيث كانت في أحيان كثيرة تثيرني مقارنة تجاربي الشخصية مع تجارب الكثير من الرحالة المشهورين في الماضي مثل تشارلز داوتي، وولفرد والليدي آن بلُنت، وتشارلز هوبر، وريتشارد بيرتون، وكارلو غوارماني، والكثيرين غيرهم. لقد غطت رحلاتي في الحقيقة المنطقة الشمالية بالكامل تماماً مثل المنطقة الجنوبية، ولكن مثل ما كانت المرتفعات البارزة من مرتفعات عمان تمثل فجوة هائلة في معرفتي الشخصية بالجنوب، فقد كانت هناك أيضاً ثغرة موازية لها في خبرتي بالشمال. وبغض النظر عن رحلة قصيرة واحدة في ١٩٣١م من المدينة إلى العلا على طول خط سكة حديد الحجاز، وزيارات إلى مواني مختلفة على البحر الأحمر شماليّ جدة، فإن كامل المنطقة الواقعة بين المدينة والعقبة، وبين البحر وخط يمتد للشرق من السكة الحديدية كانت مجهولة بالنسبة لي. وهذه هي المنطقة التي حظيت الآن باكتشافها على خُطا داوتي، وبيرتون،

ووالين وأويتنغ وهوبر وجوسين وسافيناك والويس موسيل وكاروثرز، ناهيك عن لورانس ورفاقه في الحرب العالمية الأولى الذين قاموا ببعض العمل الجغرافي القيّم خلال فترات أنشطتهم المدمّرة.

وأعتقد أنني أستطيع الآن بصورة موضوعية أن أزعم أنني قد رأيت الكثير من هذه المنطقة أكثر مما قد رآه جميع هؤلاء ممّن سبقوني مجتمعين. لقد امتزت، بالطبع، عليهم بالاستفادة من التنقل بالسيارات، بينما كانت رحلاتهم على ظهور الجمال، مع بعض الاستخدام للسكك الحديدية من قبل الأربعة الأخيرين ممن سبق ذكرهم أعلاه. ومع احتساب الرحلة إلى العلا المذكورة أعلاه، فقد استطعت أن أقوم بأربع رحلات منفصلة في المنطقة، وكانت الثلاث الأخيرة بين نوفمبر ١٩٥٠م ومارس ١٩٥٣م، أي أنها امتدت في مجموعها إلى نحو ستة شهور من الاستكشاف المكثف لسهول، وأودية، وجبال أرض موغلة في القدم والتي يرجع أوج مجدها إلى عهود إبراهيم وموسى وسليمان (عليهم السلام)، هذا فضلاً عن نبوخذ نصر البابلي الذي كانت تيماء عاصمته الصيفية، أو عن ملوك اللحيانيين، والمعينيين، والأنباط الذين حكموا على التوالي عرب عاد وثمود، وسيطروا على طريق التجارة العظيم الذي سارت في دروبه التوابل والعطور من اليمن السعيد إلى مراكز الحضارة العظمى في الأيام الخوالي.

وحيث إن بعضاً من هذه البعثات قد تداخلت فيما بينها في نقاط معينة بالضرورة، فقد سعيت لتقديم صورة مركّبة " لأرض مدين " بناءً على ما وفرته هذه البعثات كلها، بدلاً من محاولة تقديم وصف مفصّل لكل واحدة منها على حدة. ونتائج رحلاتي سوف يتم تجميع معظم أجزائها حول إطار العمل الذي قامت عليه الرحلة، وهو الذي برزت فكرته في الرياض كما أسلفت. وقمت بها بمفردي مع المرافقين العرب الذين كان اهتمامهم بالأحداث، كما سيظهر في حينه، يتسم باللامبالاة وتعوزه الحماسة.

وفي البعثات الثلاث الأخرى كان معي رفاق أكثر ذكاءً، والذين أقّر بتعاونهم في تكوين الصورة بأقصى قدر من الشكر والامتنان، وعلى وجه الخصوص تعاون بوغ (دك) من " منظمة النقطة الرابعة الأمريكية " في جدة، وهو اختصاصي في الجيولوجيا ذو خبرة واسعة وشهرة عريضة، كما أنه أمريكي خشن شأن الأمريكيين ولكن قلبه بالغ الرقة والعذوبة وكان رفيقاً مرحاً وأحياناً صعباً، وتعلمت منه أكثر مما يمكن أن يعبر عنه الكلام. وربما كان يدين لي بحقيقة بقائه على قيد الحياة الآن، بيد أنه يجب الاحتفاظ بهذه القصة لوضعها في مكانها الصحيح لاحقاً. وفي الرحلتين الأخيرتين كان معي رفاق مصريون من ذوي الكفاءة الفنية الفذة والجاذبية الشخصية وهم: إبراهيم كردي، الذي يعمل لدى شركة ماركوني

للإشراف على تركيب محطات اللاسلكي في المدينتين المقدستين مكة والمدينة، ومصطفى صادق، وهو اختصاصي في علوم طبقات الأرض (الجيولوجيا) وذو خبرة هائلة في المناجم والرواسب المعدنية في وطنه، والذي مهّد تقريره عن احتمالات العثور على الكبريت والحديد في مدين، الطريق للبعثة الأخيرة مع بوغ.

وإلى هؤلاء الثلاثة، ثم إلى جميع محافظي وأمراء وحكام المناطق والأقاليم التي زرتها خلال هذه الرحلات، والذين كان كرمهم وحسن ضيافتهم وتعاونهم فوق كل ثناء، يعود الفضل الأكبر في تجميع كل المعارف والمعلومات الواردة في هذه الصفحات. إن آلام ومعاناة تلك الرحلات في الصحراء العربية يجب تسجيلها عند وقوعها لبعث البهجة والسرور في نفس القارئ، ولكن هذه الآلام أصبحت بالفعل في طي النسيان والغفران عندما ينظر المرء للوراء بفخر حقيقي للعمل الذي تم تنفيذه والنتائج التي تم تحقيقها. ولا أندم سوى على عجزي عن إعداد خريطة كاملة لتلك الأصقاع في وقت صدور هذا المجلد، بيد أنني آمل أن يكون الرسم التوضيحي المرافق للمجلد هذا مفيداً للرحالة الآخرين الذين ستغريهم الصحراء إلى آخر الزمان، وهذا طبقاً لحديث صحيح من أحاديث النبي ﷺ: «**يُوشِكُ يَا مُعَاذُ إِنْ طَالَتْ بِكَ حَيَاةٌ أَنْ تَرَى مَا هَاهُنَا قَدْ مُلِئَ جِنَانًا**»[1].

(١) انظر صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب في معجزات النبي ﷺ برقم (٢٢٨١/ ١٠-٧٠٦).

وكانت المدينة نقطة الانطلاق المناسبة لبعثتي إلى مدين، وكان أحد أهدافها الرئيسة جمع النقوش القديمة في مجال نال اهتماماً جزئياً من قبل تشارلز هوبر وجوليوس أويتنغ في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي، وكذلك اهتمام بير جوسين وسافيناك من القدس بين عامي ١٩٠٧م و١٩١٠م. ولم أكن أتوقع أن أعثر على أي شيء شديد الإثارة مثل مسلة تيماء الشهيرة، الموجودة الآن في متحف اللوفر، أو النقوش الملكية المعينية في مدائن صالح والعلا (ديدان القديمة)، ولكن النصوص الثمودية والنبطية الجديدة سيتم اكتشافها بكل تأكيد تقريباً، هذا فضلاً عن بعض النصوص السبئية والمعينية بل وحتى اليونانية، بينما كان أحد أحلامي الذي بعث برغبتي في زيارة مدين هو احتمال اكتشاف مصدر في شمال غرب الجزيرة العربية لنقوش سيناء البدائية الشهيرة، والتي لم تكن معروفة حتى ذلك الوقت إلا من سيناء نفسها ويعتقد أنها أصل الأبجدية.

وفي الحقيقة فإن أحد النقوش التي اكتشفها ريتشارد بيرتون في مدين قد أدرجها جي. ليبوفتش في الجدول الذي وضعه لنقوش سيناء البدائية، والتي نشرها في ١٩٤٠م، على الرغم من أنها قد تبدو الآن نقوشاً ثمودية في الواقع. ويجوز لي أن أقول في الحال: إن بحثي عن مادة من هذا النوع كان سلبياً بالكامل من حيث النتائج على الرغم من أنني قد جمعت فعلاً ما يقرب من ألفي نقش من

أنواع مختلفة، كانت مبعثرة في منطقة شاسعة تمتد من المدينة إلى خليج العقبة. وبالتالي ربما يكون من الأسلم أن نفترض أن نقوش سيناء لم تنبع من جزيرة العرب. ومع ذلك، فقد وجدت بالفعل بعض النصوص التي يمكن مقارنتها، فيما يبدو لي، مع نص بيرتون المذكور أعلاه في بعض القرى القريبة من الرياض.

لقد أخبرني عن وجود هذه النصوص أحد أصدقائي العرب قبل حوالي عشرين عاماً، عندما مررنا على بُعد من تلك القرية في طريقنا إلى المجمعة، ولكن لم تتوفر لي أبداً فرصة زيارة الموقع منذ ذلك الحين. والآن، على كل حال، ومع وجود متسع من الوقت، فقد قررت أن أسير إلى المدينة، ليس بالطريق الرئيسي السريع، ولكن عبر الطرق غير الممهدة التي تمر على هذه المرتفعات نفسها في حصاة القريف، حيث استطعت أن أتحقق من دقة معلومات صديقي.

ولكي أصل إليها، فقد سرت في شعيب حريملاء العظيم وعبر الواحات الكثيرة الواقعة على مجراه، الشهيرة في تاريخ نجد بنشأة بعض أشد الرجال والأكثر تمرداً في فترة كانت الحركة الوهابية - وهي لا تزال فتية بعد - تحاول أن تشق طريقها للأمام ضد أبطال الفوضى والاستقلال الأقوياء.

وكانت العقيدة هي التي انتصرت في النهاية، حيث وجدت أقوى وأشد المدافعين عنها من مواطني حريملاء وضواحيها، والذين شكّلوا العمود الفقري للجيش الذي ساعد ابن سعود في وقتنا الحالي على إقامة حكمه في الجزيرة العربية كلها. لقد كان في حريملاء مكان إقامة والد محمد بن عبد الوهاب بعد فصله من وظيفة القاضي في مدينة العيينة موطنه الأصلي، وهناك أيضاً انضم إليه ابنه الشهير بعد "رحلته العالمية" لنشر فلسفته الداعية لتطهير العقيدة والتي -بعد الكثير من الابتلاء والامتحان- أصبحت تسيطر على عموم الصحراء لما يقرب من قرنين من الزمان إلى أن ذابت في الثورة الاجتماعية التي صاحبت اكتشاف البترول. وقد قيل لي عن وجود بعض الكتابات القديمة في المنطقة المجاورة لحريملاء ولم أتمكن من العثور عليها [1].

تحتل حريملاء موقعاً استراتيجياً طبيعياً قرب رأس الوادي على طرف جبل طويق، ومنها نزلنا إلى حوض شعيب العتك والذي يمثل حدوداً بين منطقة العارض وسدير. ثم -ومروراً بقرية رغبة التي يوجد بها أطول برج مراقبة على الأرجح والذي ما يزال قائماً منذ أيام الاضطرابات والحروب القبلية الماضية، التي سبقت إقامة نظام

(١) وقد استطعت أن أحصل على نسخ من هذه الكتابات بعد ذلك بحوالي ست سنوات. المؤلف.

الحكم الوهابي- أتينا إلى واحة ثادق الهامة، وبعد ذلك فوراً دخلنا مرتفعات سدير، وهي منطقة اشتهرت في الماضي بالحروب الضروس بين الكثير من قراها المسوّرة وفصائل قبائلها الكبرى.

وهنا خلف مدينة وواحة جلاجل التي كانت مهمة ذات يوم، ضربنا خيامنا وسط تلال حصاة القريف ذات الأحجار الرملية، لنسخ النقوش التي ذكرناها من قبل. وفي اليوم التالي وصلنا إلى المجمعة، وهي أكبر المدن والعاصمة الحالية للمنطقة، والتي أدى مواطنوها دائماً دوراً هاماً في الحياة الفكرية للمنطقة. ولبعضهم ندين بجميع ما نعرفه عملياً عن تاريخ نجد والحركة الوهابية، وكان من بينهم الكثير من أشهر الزعماء الدينيين في العصور الحديثة، وكان بعضهم شعراء ذوي شهرة عريضة، والذين لأشعارهم ذوق وطعم ديني قوي، وهي تحتفي بالانتصارات شبه الحربية للعقيدة الدينية وبخدمات أولئك الذين ساهموا فيها.

ووراء المجمعة كانت تلال الأحجار الرملية المتناثرة في سهل واسع من الصحراء الجرداء قد وفرت لي محصولاً آخر من النقوش الثمودية، عندما كنا نسير في راحة وتمهل إلى قرية الغاط الساحرة في أخدود كبير ينزل من أعلى الجرف إلى السهل في الأسفل. وهنا يقع موطن عائلة السديري المشهورة، وهي في الأصل من الدواسر ولكنها استقرت في سدير منذ أمد طويل، والتي زودت هذا البلد

بالكثير من أشهر إدارييها كما زودت العائلة بالبنات للزواج حيث أصبحن زوجات وأمهات للملوك والأمراء. وكان ابن سعود نفسه مولوداً من أم سديرية، وكان اثنتان من زوجاته اللائي بقين على قيد الحياة بعد وفاته أيضاً من نفس العائلة، وما لا يقل عن واحد وعشرين من ذريته المباشرة (أولاده وأحفاده) من أصل سديري من جهة الأم، وفي اليوبيل الملكي (١٩٥٠م) كان ثلاثة عشر فرداً من هذه العائلة يحتل مناصب أمراء المناطق. والممثل الوحيد لهذه القبيلة المقيم في وطنه القديم في وقت زيارتي كان يدعى ناصر، وهو واحد من القلائل الذين لم يتولوا أبداً أي منصب إداري هام، على الرغم من أنه كان أحياناً ينوب عن أخيه الشقيق، عبد الله، أمير المدينة. وقد أخذني في جولة على القصر الجديد الذي كان يشيده لفخذه من العائلة ليحل محل المنزل المريح -ولكنه من الطراز القديم- المبني من الطين. لقد كان أسلافه أشد سعادةً ورضاءً به.

ونظراً لأننا قد رفضنا دعوة ناصر الملّحة لقضاء الليلة معه، فقد واصلنا السير لنضرب خيامنا على مشارف نفود صلانج وهي شريط عريض من التلال الرملية التي تفصل منطقة سدير عن منطقة القصيم. وخلال الليل استمتعنا بتجربة نادرة برؤية قوس قزح قمري، حيث كانت تحيط بالقمر التام هالة مضيئة تزيد عن ثلاثة أضعاف قطره، بينما على مسافة مقدرة من المجموعة، واعتماداً

على الغيوم في الأفق، ارتفع قوس قزح أبيض هائلاً من بين الغيوم في أحد النواحي حتى الذروة "السمت" ليهبط مرة أخرى إلى حافة الغيوم في الناحية الأخرى.

لقد كانت تفاصيل هذه الظاهرة الطبيعية واضحة وكاملة تماماً ويالها من منظر رائع. والمسار عبر التلال، وهو واحد من عدة مسارات كانت تطرقها الجمال فقط في الأصل، أصبح الآن مساراً يمكن للسيارات أن تسلكه أيضاً. ولم يكن صعباً بالرغم من أن مقطورة سيارتي اللاندروفر قد تعرضت لبعض المشاكل في الأجزاء الأكثر نعومة وانحداراً. وفي وقت مناسب وصلنا إلى طريق الرياض - بريدة الرئيس على طول الجانب البعيد، وبحلول الظلام وصلنا بريدة نفسها، لنتمتع بكرم ضيافة أميرها عبد الله بن مساعد. والقصيم، التي كانت ذات يوم موئل حرب مستمرة بين الأسر الحاكمة في الرياض وحائل، مع تدخل الأتراك المسلح لصالح الأخيرة في عدة مناسبات، لم تعد الآن عنصراً هاماً في المملكة العربية السعودية وهي تشكل منطقة فرعية تابعة لمنطقة حائل الشمالية، أو جبل شمر حيث كان عبدالعزيز والد عبد الله يمارس سلطة كاملة على إدارة ولده وعلى جميع الجزء الشمالي الشرقي من المملكة العربية السعودية، من حدود الحجاز حتى المستنقعات الغربية في العراق.

لقد سافرت على نطاق واسع في منطقة القصيم خلال أيامي الأولى بالجزيرة العربية، وفي مناسبات عديدة مؤخراً، ونشرت وصفاً مفصلاً لها في كتابي "جزيرة العرب الوهابية" (١٩٢٨م)، والذي يمكن للقارئ أن يعود إليه للحصول على معلومات عن هذه المنطقة وتاريخها المضطرب.

وما إن وصلنا إلى الجزء الغربي من المسار حتى أصبحنا الآن في أرض جديدة مرة أخرى وسط ميادين معارك المليدا والبكيرية والشنانة الشهيرة. وكانت الأولى قد أطفأت مؤقتاً حكم آل سعود في صحراء الجزيرة العربية، ووضعت هذا البلد لأكثر من عقد من الزمان (١٨٩١م- ١٩٠٢م) تحت رحمة محمد بن رشيد المشهور، الذي كان يحكم حائل في زمن داوتي، وابن أخيه الذي خلفه في الحكم. والموقعان الأخيران شهدا انتصار ابن سعود الحاسم في ١٩٠٤م على ابن رشيد وحلفائه الأتراك، الذين جاؤوا بما لا يقل عن ثماني كتائب نظامية من بغداد والمدينة في محاولة يائسة لكبح جماح النجاحات المتزايدة للدولة الوهابية.

وكانت المناطق الرملية القاحلة تنقطع هنا وهناك بواحات من النخيل التي تظهر بصورة عرضية، وفي إحداها، رياض الخبرا، اختبأنا في الليل من عاصفة مفاجئة من أمطار فيضية، والتي وجدنا في وسطها صُدفة طائراً وحيداً من طيور البجع يستمتع بالفيضان غير

المألوف في صحراء ليس فيها ماء، وبعيداً عن البحر الذي ضل طريقه إليه.

ومن المؤكد أن منطقة القصيم هذه التي تمتد عبر نهر وادي الرمة القديم، كانت مركزاً للنشاط البشري منذ الأزمان الباكرة، ولكنها كانت خالية تماماً من النقوش الثمودية أو غيرها، التي لا تظهر إلا على حوافها الشمالية في واحة العيون وصخرة ساق المعزولة في وسط هذه البرية.

لقد زرت الأولى منذ عدة سنوات مضت لأنفي وجود ستون هنج Stonehenge[١] التي ذكرها وليم جيفورد بالجريف خلال جولاته الخيالية حقاً في الصحراء العربية عام ١٨٦٣[٢] والآن فقد

(١) "ستون هنج" أحد أضخم وأشهر المباني الحجرية في انجلترا. يوجد في سالزبوري وهو عبارة عن تشكيلات نصب حجرية ضخمة رصفت بطريقة هندسية داخل خندق دائري الشكل.
وكان يعتقد في السابق أنها معبد بناه الدرود ولكن الأبحاث الأثرية الحديثة أوضحت أنه موقع أثري معقّد التكوين ومنه هذه النصب الحجرية التي تفسر على أنها أضخم جهاز معماري هندسي رفيع لقياس حركات الشمس والقمر وأحداث الكسوف والخسوف، ويعتقد أنها بنيت في حدود ٢٠٠٠ ق.م. المترجم.

(٢) وهذه الرحلة نشرت تحت عنوان:

Persomal Narrative of A year's Journay thraugh Central and Eastern Arabia. 1862-1863, London: Darf Publishers Limited, 1985.

ثم خرجت في مجلدين عن طريق المجلس الأعلى للثقافة في مصر، وقام بترجمتها: صبرى محمد حسن، ٢٠٠١م.

زرت تل ساق حيث يوجد القليل من الآثار القليلة التي تذكرنا برجل ثمود القديم .

وإلى البعيد في الغرب أتينا على واحة النبهانية حيث باءت جهود الأتراك لسحق ابن سعود بالفشل والمأساوية في النهاية ، ومنها عبرنا وادي الرمة في طريقنا إلى قريتي مسكة وضرية التي سمع داوتي حكايات عنهما خلال رحلاته ، على الرغم من أنه لم يزرهما حقيقة . لقد بدا وجودهما مشكوكاً فيه بدرجة كبيرة ، على الرغم من أنهما كانتا موضوعتين في الخرائط القديمة بناءً على قوة تقارير داوتي . ويبدو أن هناك شكاً في وجودهما لدرجة أنهما قد حذفتا من أحدث طبعات الخرائط الدولية مقياس المليون ، والتي يجب أن تعاد إليها ، حيث إنني قضيت ليلة في كل واحدة منهما . لقد كانتا في الحقيقة مركزين معروفين على درب الحج القديم من العراق للمدينة ومكة ، ويشهد على ذلك وجود العشرات من النقوش الكوفية في ضرية .

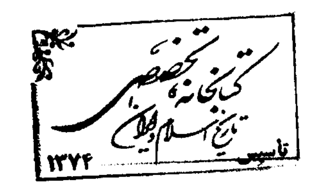
ومن هنا كنت أخطط لقطع المنطقة عبر طريق غير ممهد ولم يكن مكتشفاً أو مرسوماً على الخرائط بالكامل . وفي وسطه زرت الموقع المهجور لإحدى قرى الإخوان من أوائل العهد الوهابي ، حيث قامت مجموعة من الأتقياء منهم بمحاولة العيش بدون الاعتماد على شيء إلا رحمة الله .

وبالقرب تقع مجموعة رائعة من النتوءات الجرانيتية الجرداء، تسمى الحسو، ووراءها زرنا آبار الطلاب حيث هاجم أحد أوائل حكام آل سعود قبيلة مطير، حيث استولى على جميع إبلهم بعد معركة ضارية[1] وقامت القبيلة بهجوم مضاد وأرسلت حشداً من رجالها واستدعت تعزيزات لمساعدتها، إلا أنها خسرت جميع غنائمها وكافة معدات معسكرها.

وإلى الوراء من ذلك وصلنا إلى البركة التي تعد نموذجاً رفيعاً ورائعاً لكثير من خزانات المياه العظيمة المتناثرة في صحراء الجزيرة العربية، على طول الدروب المختلفة التي عبر من خلالها في العهود الماضية الحجاج من العراق وبلاد فارس الجزيرة العربية في طريقهم إلى مكة والمدينة.

وبعد حوالي سبعة أميال وصلنا إلى واحدة من مناطق تقسيم مياه الأمطار الرئيسة في الصحراء بين أنظمة أودية رغوة والبقر، حيث إن وادي رغوة وجميع القنوات الواقعة إلى جنوبه تعد روافد لوادي الرمة، التي تنطلق من مرتفعات حرة خيبر البركانية وتسير باتجاه الشرق نحو الخليج الفارسي بالقرب من البصرة، في حين يتدفق الأخير وروافده باتجاه الغرب إلى واديي العقيق والحناكية العظيمين،

(١) وهو فيصل بن تركي (١٨٣١م) وكان ولده سعود الثالث قد تعرض لتجربة مشابهة في عام ١٨٧٣م، المؤلف.



اللذين يلتقيان قرب المدينة مع وادي حمض الذي ينشأ أيضاً في حرة خيبر، ويشكل النهر الكبير الذي يتدفق باتجاه الشمال على طول خط سكة حديد الحجاز لمسافة مئة ميل قبل أن يتحول لاتجاه الغرب ليصل إلى البحر الأحمر. ويقع خزان البركة في نقطة تتقابل فيها جداول مائية كثيرة، من نظام التصريف باتجاه الغرب ومن جهات مختلفة لتصب فيضاناتها في خزان مستطيل، وهو مصمم لتنقية المياه وترشيحها قبل أن تمر عبر البوابات الموضوعة على مستوى أعلى في خزان دائري ضخم، مبني بصخور الجرانيت المشذبة تشذيباً جيداً ومليّسة بالإسمنت. ولا يزال هذا البناء في حالة جيدة، على الرغم من أنه لا يوجد ماء في أي من الخزانين، ربما بسبب الإهمال الطويل لقنوات التغذية منذ تحويل حركة مرور الحجاج إلى خط جهة الشمال أكثر ملاءمة للسيارات.

إن كل المنطقة المحيطة بالخزان لمسافة بعيدة في جميع الاتجاهات كانت تعرف حتى وقت قريب باسم حمى الحناكية (أي أرض مرعى)، وكانت محظورة بصورة صارمة لرعي إبل الأسرة المالكة. بيد أن استبدال الإبل بالسيارات قد جردها من أهميتها القديمة، وقد تخلى ابن سعود مؤخراً عن امتيازاته في الرعي بالمنطقة لصالح البدو من مربي الإبل. وتبلغ قياسات خزان الترشيح والتنقية ١٦٢× ٤٥× ١٠ أقدام، مما يسمح بترسب طبقات الطمي الكثيفة التي تثقل الآن

قاع الخزان، وكانت سعته حوالي ٧٣٫٠٠٠ قدم مكعب من المياه عند امتلائه. والخزان الدائري محاط بجدار من الجرانيت سمكه ٢٫٥ قدم وارتفاعه ١٢ قدماً، بينما يبلغ محيطه حوالي ٦٥٧ قدماً، وقطره حوالي ٢١٩ قدماً.

ونحن الآن نسير باتجاه الحافة الخارجية لسلسلة جبال تغطي الطرق الشرقية المؤدية إلى المدينة، وقد مررنا بها وعلى طول حوض الملح الكبير في الحناكية، إلى واحة الحناكية نفسها، التي كانت ذات يوم مركز مراقبة واستطلاع خارجي مهماً لمدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم). وقد عملت أيضاً في عام ١٨١٨م كقاعدة متقدمة لجيش إبراهيم باشا المصري في حملته ضد الوهابيين، التي نتج عنها تدمير الدرعية العاصمة السعودية بالكامل، في تلك الأيام، والاختفاء المؤقت لأسرة آل سعود. وقد انخفضت هذه المستوطنة الآن إلى عدد محدود من الأحياء غير الهامة في غابة هائلة من أشجار النخيل والدوم والتي تم مؤخراً استخدام قليل من ماكينات الضخ لريها.

والآن عدنا إلى دروب السيارات الرئيسة المؤدية من المدينة إلى حائل والقصيم، والتي سلكناها عدة مرات في سنوات خلت. ومع ذلك فقد طلبت أن نتوقف قليلاً لتناول الغداء عند عبورنا وادي الصويدرة لكي أقوم بفحص سريع لبعض النقوش الثمودية والصور الصخرية، التي رأيتها من قبل بطريقة عابرة. بيد أنني قررت مرة

أخرى أن أؤجل الاستكشاف الصحيح لهذا الوادي وتلال جبل المكتب (أي التل ذو الكتابات) المجاورة له إلى مناسبة أخرى تكون أكثر ملاءمة، وهكذا ضاعت فرصة عظيمة لإضافة نصوص هذه المنطقة إلى المادة المتوفرة لدراسة نقوش وتاريخ ثمود. وخلال سيرنا، أعطانا ارتفاع طفيف في حقل الرواسب البركانية (لافا)، الذي كان الطريق يمر خلاله، أول لمحة لقُبّة ومنارات مسجد الرسول (صلى الله عليه وسلم)، الذي لا يزال يبعد عنا بثلاثة عشر ميلاً. وقبل الغروب بحوالي نصف ساعة كنا ندخل المدينة، حيث تم استقبالنا بحفاوة وكرم في بيت الأمير، في ٤ ديسمبر ١٩٥٠م، وهي الذكرى الثانية والأربعون لوصولي لأول مرة إلى لاهور لأتولى واجبات وظيفتي في الخدمة المدنية الهندية عام ١٩٠٨م.

لقد قطعنا مسافة تزيد عن ٩٠٠ ميل (تبلغ في الحقيقة ١٤٦٨ كيلومتر) من الرياض لنصل إلى المدينة، نقطة البداية الحقيقية للرحلة التي عزمنا عليها، على الرغم من أننا لم نستطع أن ننطلق فيها إلا في العشرين من ديسمبر. فقد كنت مضطراً لزيارة جدة لأداء بعض الأعمال، التي استغرقت وقتاً أطول مما كنت أتوقع. وعلى كل حال فقد عدت للمدينة في الخامس عشر من ديسمبر، وقضيت هذه الأيام الفاصلة في عمل ترتيبات الرحلة، وحزم الإمدادات والمؤن وجمع فريق جديد من المرافقين ليحل محل أولئك الذين أتوا معي من بريدة.

إن هذا التأخير الذي كان يثيرني ويؤلمني قد ثبت أنه نعمة من الله، فرب ضارة نافعه، ففي نفس ليلة انطلاقنا الحقيقي تلقيت بريداً من جدة، يحتوي على مجلد كان إضافة هائلة لقيمة الرحلة القادمة والاستمتاع بها، وهو نسخة أولى من الدراسة الشاملة التي قام بها بيريه ألبرت فان دين براندن عن كافة النقوش الثمودية المعروفة للعالم في ذلك الوقت، على الرغم من أنها لم تشمل إلا حوالي ٨٠٠ أو يزيد من مثل هذه النقوش من التي نسختها في عامي ١٩٣٦ - ١٩٣٧ من المناطق الجنوبية من المملكة العربية السعودية. هذه النقوش وتلك التي جمعتها خلال الرحلة التي نحن بصدد وصفها الآن قد نشرها في مجلدين بيريه فان دين براندن في هريسه بلبنان[1]، في حين يوجد ٩٠٠٠ نص ثمودي تم جمعها من نجران وما حولها والمناطق المجاورة لها في عامي ١٩٥١م- ١٩٥٢م خلال البعثة التي نظّمها جي. ريكمانز وأنا، ويجري أيضاً الإعداد لنشرها في المستقبل القريب بواسطة الأستاذ نفسه وابن أخيه جاكس ريكمانز الذي كان أيضاً في البعثة وفي طريقه إلى أن يصبح أحد الخبراء البارزين في نقوش وتاريخ جنوب الجزيرة العربية. وبالنسبة لي فلا أدعي فخراً سوى تقديم بعض الخدمة لعلم النقوش السامية، وبأنني

(١) تحت عنوان النصوص الثمودية لدى فيلبي. مجلدين. طبعا في هريسه ونشرا في لوفان ١٩٥٦م. المؤلف.

كنت مسؤولاً بصورة مباشرة أو غير مباشرة عن زيادة العدد المعروف الآن من النقوش الثمودية، من حوالي ٢ر٠٠٠ إلى ما يربو على ١٣ر٠٠٠ نقش. والنقوش السامية هي التي كتب عنها دكتور ليدزبارسكي، عالم الساميات الشهير، منذ حوالي نصف قرن مضى قائلاً: «أعتقد أنه من الخطأ أن نتوقف عند هذه الترهات».

الفصل الأول

من المدينة إلى خيبر

خلال الأيام القليلة التي قضيتها في المدينة كنت شديد الانشغال بالتحضيرات للرحلة لدرجة منعتني من حضور الفروض الدينية الواجبة على جميع زائري مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم). ولم يسمح لي بتجاهل هذه الحقيقة من قبل الرجل الشهم الذي كان سينال شرف إرشادي إلى هذه المشاعر الواجبة، وكان في الحقيقة يعمل دليلاً لي في زياراتي السابقة للمدينة المقدسة. وقد كان الأمير يودعني عند باب بيته عندما جاء الرجل يشتكي من عدم انتباهي لواجباتي الدينية، واضطر الأمير إلى أن يؤكد بأنني -في الواقع- قد ارتكبت مخالفة للشرع. وتمت تسوية هذا الأمر بسهولة، فقد كان كل ما يريده الرجل هو المال، وقد دعا الله أن يمنحني البركة مقابل النقود التي أخذها، وأعرب عن أمله في أنني سوف أمنحه شرف مرافقتي لمشاهدة المواقع التاريخية في المنطقة عندما أمر بهذا الطريق في المرة القادمة.

وبعد أن خرجنا من المدينة عبر بوابة دمشق وتفادينا كوم آثار يثرب، العاصمة القديمة، فقد دخلنا منطقة العيون الغنية بحدائق

النخيل في أقصى الطرف الشمالي لمنطقة المدينة. وعلى طول الجانب الأيمن لنا يمتد جبل أحد التاريخي، والذي يوجد على ذروته العليا واحد من قبور هارون الكثيرة. وفي مستوى أدنى كثيراً كانت توجد قلعة تركية صغيرة مهجورة تغرينا بفحصها وتمكّنا من إلقاء نظرة عامة جيدة على المعالم الموجودة أمامنا وخلفنا.

ومشينا، دليلي -ويدعى عياضاً وهو من قبيلة بني راشد (هتيم)- وأنا صعوداً إليها بطريق عربات متهدم كان الأتراك قد شيّدوه، والذي استمر على طول حافة جبل أحد لينزل إلى وادي نقمي، الذي يعد في الواقع قناة من وادي حمض الكبير، في النقطة التي يدخل عندها الأخير امتداد وادي العقيق في عيون حمزة وهو الوادي الذي يقع رأسه بعيداً في جبال الطائف إلى الجنوب. وبينما تكاسل بقية مرافقينا بجوار العربات، فقد قمنا -عياض وأنا- بدراسة المنطقة، التي يعرفها جيداً.

إن قبة قبر النبي (صلى الله عليه وسلم) تقع في اتجاه جنوب -جنوب- شرق على بعد حوالي خمسة أميال، تحيطها المعالم المألوفة لمنطقة المدينة، والتي لست بحاجة إلى الإسهاب في وصفها. وتحتنا مباشرة، وفي أقصى الطرف الشمالي من حزام نخيل العيون، كان هناك التقاء الواديين الكبيرين العقيق والحمض اللذين يتدفقان شمالاً تحت اسم الحمض الذي يصل بعد مسافة إلى البحر الأحمر

ليصب فيه إلى الجنوب قليلاً من الوجه. وخلفه، إلى الشمال الغربي منا، يرتفع جبل البيضاء الجرانيتي الضخم الذي يتكون في أعلاه صخر في شكل قبة كاملة وشكل أنف، والتي تقول الشائعات أن بها شجرة بُن واحدة، ربما بقيت من مزرعة قديمة، وهي الآن ملعب للوعول والنمور. وباتجاه الشمال قليلاً ومما يهمني كثيراً، يقع جبل ذو خشب الأسود(١)، الذي سوف يمر من خلاله طريقنا. وليس من الضروري ذكر النقاط الكثيرة الأخرى بالتفصيل، تلك التي كنت قد دوّنتها في مذكراتي لأرسمها في خريطتي المتوقعة. بيد أن عياضاً تطوع بتزويدي بمعلومة ملأتني بأمل سعيد. لقد كنت قد أخبرته عن اهتمامي بكتابات وصور القدماء، مما جعله يذكر لي اسم مكان يقع في طريقنا ويوجد به الكثير من تلك الأشياء، ذلك هو وادي النمرانية.

وعند استئناف سيرنا، التزمنا مجرى وادي نقمي (الحمض) حوالي عشرة أميال حتى نقطة تركناه عندها، لنصعد باتجاه شمال -شمال شرق- شرق، بينما تابعنا أحد روافده ويسمى وادي ممناه، الذي يتجه نحو الشمال الغربي، لقد كان سيراً شديد الصعوبة على أرض حوض السيل الحجرية، الذي يبلغ اتساعه حوالي ٥٠٠ ياردة وتحفه على كلا الجانبين جبال المريخ وأم جرفين الشديدة السواد، بينما يرتفع أمامنا جبل (ذو خشب) الأسود عالياً فوق التلال المحيطة

(١) هذا اسمه القديم ويعرف حالياً بأبي النعم. انظر: الشريف إبراهيم العياشي، مجلة المنهل، مجلد ٢٦، عدد ٣، ص١٩١.

به. وامتد دربنا في قلب هذا الحاجز الضخم بممر ضيق، يتراوح عرضه بين ١٠٠ و٥٠ ياردة، وأرضه حجرية صلبة مع بقع من الرمال العميقة في قناة السيل. لمسافة تقترب من ثلاثة أميال، كافحنا وزحفنا في سير بطيء عبر هذا المانع قبل أن نخرج إلى منطقة أكثر انفتاحاً بعده، حيث توقفنا لنقدر الموقف بالقرب من رأس وادي ممناه. وكانت قبة وأنف جبل البيضاء الآن إلى الجنوب قليلاً من الغرب، وأمامنا تمتد مجموعة من التلال والجبال غير الهامة نسبياً.

وفي ذلك الحين كان النهار يقترب من نهايته، وكان أهم ما يشغلنا أن نجد موقعاً ملائماً لنصب خيمة نقضي فيها الليل. وكنت أمسح المنطقة المجاورة مسحاً أخيراً عندما شقت طلقة نارية صمت الجبال، وبعد لحظات قليلة خرج رجل من أخدود قريب، يطلب المساعدة في إحضار وعل (تيس الجبل) كان قد اصطاده لتوه. وتركنا السيارة اللوري للقيام بالمهمة المطلوبة، وواصلنا السير حتى رأس ممر ممناه الضيق، لنضرب خيامنا على المنحدر المعاكس لشعيب رديدة (أو الفريش).

وعند موقع تقسيم مياه الأمطار وجدنا الكثير من أكوام الحجارة الكبيرة، من الواضح أن الناس قد جمعوها معاً لسبب غير واضح، على الرغم من أنها بالتأكيد ليست قبوراً أو بقايا مساكن.

ولم نكد نحط رحالنا وننصب خيامنا حتى وصل اللوري مع الصياد ووعله. لقد كنا بحاجة إلى اللحم، وقررت أن أشتريه منه، وعرضت عليه عشرين ريالاً، قبلها على مضض نظراً لأنه كان يستطيع أن يحصل على ضعف هذا المبلغ أو أكثر لو استطاع أن يأخذ التيس إلى خيبر. ولدهشتنا رفض الرجل دعوتنا لقضاء الليلة معنا والانضمام إلينا في هذا الاحتفال. بيد أننا عندما قمنا بإحضار البهيمة من اللوري لسلخها وتجهيزها للطبخ، اكتشفنا أنه - على الرغم من أنها قد ضُربت بالطلقة المميتة في مؤخرة رقبتها - إلا أن عملية الذبح الحلال (التحليل) بقطع رقبتها قد أهملت.

وقد نظر "مجلس الحرب" الجائع في المشكلة، وتقرر بأسف شديد أن مثل هذا اللحم حرام على معدة المسلمين!! وقد أذعنت بكل خضوع لهذا القرار، بينما ترك لحمه للضباع وصقور السماء. لقد أخبرنا الصياد أنه كان أكبر حيوان في مجموعة من خمسة، تشمل نعجتين كاملتي النمو وذكرين صغيرين، وكان قرنه الأيسر من أعلى طرفه حتى قبضتيه، يبلغ ٣٣ بوصة. لقد كان الوعل أوفر حظاً من غزلان السهل، ومن البقر الوحشي والنعام، حيث إن السيارة لا تستطيع الوصول إلى أوكارها العالية في وسط صخور البازلت والجرانيت المتكسرة، ولا يستطيع إلا الصياد الماهر أن يحضر للسوق طريدة مذبوحة منها من وقت لآخر. ولقد واتتنا في الحقيقة فرصة

تذوق لحم الوعول أكثر من مرة خلال مرورنا عبر منطقة الفضاء الجبلي الوعرة، التي تمتد من المدينة إلى ما بعد خيبر بكثير. إن خط سكة حديد الحجاز يعبر هذه المنطقة، وهو ليس ببعيد إلى الغرب من معسكرنا الحالي، على أنني لم أسمع عن أي زائر أوروبي سابق تخطى هذا المسار شرق الخط بين منطقتي المدينة وخيبر. وعلى كل حال، في هذه الأيام لا يستطيع المرء أبداً أن يكون واثقاً من أن أحد الجيولوجيين أو المنقبين الأمريكيين قد ألقى نظرة خاطفة على أسرار هذه الأرض البكر.

لقد تساقط بعض المطر في هذه الأجزاء مؤخراً، حيث كانت الأرض حول معسكرنا رطبة تماماً لعدد من البوصات تحت السطح. وبدأت غيوم العاصفة تتجمع حولنا بعد الغروب، على الرغم من أن الهواء ظل ساكناً ودافئاً. وكانت لمبة المفتاح المضيئة في الراديو بجوار فراشي، قد جذبت جميع الحشرات الموجودة في المنطقة المجاورة، وكان أبرزها وأشدها إزعاجاً نوع من العثة التي تلتف حول النبات. وقد أحصيت ما لا يقل عن ثلاثين منها في مرة واحدة، تلتف حول الضوء في حالة من الذهول المطلق. وقبل استئناف سيرنا في الصباح، قضيت أنا وعياض بعض الوقت على قمة جبل الضُّلُوع، الذي يطل على معسكرنا، لدراسة المنطقة من حولنا. وكان جبل البيضاء وذو خشب يحتلان المشهد من خلفنا، ولكننا لم نستطع أن

نرى شيئاً من خط سكة الحديد، على الرغم من أن العلامات الأرضية الصغيرة في الملليح، التي يمر من خلالها، كانت مرئية وواضحة في جهة الغرب. لقد زرت هذا المكان في ١٩٣١، لفحص آثار متواضعة لمستوطنة قديمة في وادي القرى الذي كان مشهوراً ذات يوم ونادراً ما يتذكره أحد الآن. ولا تزال الآبار القليلة قائمة، على الرغم من أنها ليست مستخدمة، ولكنها تدل على إمكانية إعادة بعث بعض النشاط الزراعي في المنطقة. وللأسف فإن الحكومة السعودية شديدة التحفظ في أمور خطط التحسين المتعلقة بتطوير المناطق النائية الواقعة تحت مسؤوليتها. ومن حين لآخر، وعلى مدى الثلاثين عاماً الماضية، جاءتنا تأكيدات بأن خط سكة حديد الحجاز سيتم إصلاحه وإعادة افتتاحه للمرور، بيد أن هذه الوعود لم يتم تنفيذها أبداً. فإذا تم الوفاء بها، فإن الملليح سوف تستعيد بالتأكيد مكانها المتواضع في اقتصاد الصحراء، وربما تكشف أيضاً عن بعض الآثار المثيرة من مجتمعها اليهودي القديم.

أمامنا كتلة متشابكة من الجبال، التي تمر خلالها قناة الفريش المكوّنة من التقاء شعيب رديدة وشعيب السيفر، ولتأخذ طريقها إلى الشمال ثم الشمال الغربي لمسافة قبل أن تتحول للغرب لتتصل بوادي الحمض في الملليح. ويتبع طريق السيارات تقريباً بحوضها البالغ ٢٠٠ ياردة لحوالي أربعة أميال، قبل أن يمر في قناة المدرج،

التي تنزل تجاه مجموعة من التلال الجرانيتية والبازلتية، التي تشمل لسان اللافا بقمته المسطحة وتحفه تلال النحسة الجميلة. وقبل أن نصلها فقد تحولنا خارجين من شعيب المدرج لعبور حوض شعيب الدارة القاسي المكون من الصخور إلى تلال الزريق الجرانيتية الحمراء، التي يدخلها الطريق عبر ممر ضيق.

وبالقرب من هنا دخلنا في مكان معزول لزيارة مجموعة من الآبار تسمى الأطْبَق، تقع في واد صخري موحش، شديد الضيق في أجزاء منه وشديد الوعورة. وكانت البئر الرئيسة، واحدة من ستة، يوجد به ماء على عمق خمسة قامات (والقامة تساوي ٦ أقدام)، ولم يُعَدْ حفره إلا في العام الماضي من قبل مالكيه، وهم بنو رشيد.

وقد تم تدعيم فتحة البئر بكتل صلبة من البازلت حتى مستوى الماء، والفتحة دائرية الشكل، وقطرها حوالي ياردة. إن وصولنا قد أزعج قطيعاً من ست أو سبع غزلان (ريم)، التي قفزت تعدو فارة إلى الممر الضيّق، وفي الأجراف المتحدرة خلفه، بينما بدا أيضاً أن أسراباً عديدة من طائر الطيهوج (وهو من فصيلة الدجاج) قد ضاقت باقتحامنا المنطقة قبل أن تتمكن من تناول شرابها اليومي. وكانت علامات قديمة للمياه تزيّن الصخور المجاورة لنا، ولكن لم يظهر بالمكان ما يوحي بأنه كان منتجعاً مشهوراً.

عدنا إلى طريق السيارات الذي سلكناه على طول وجه جبل زريق حتى نهايته الغربية، وبعدها كنا ننتقي طريقنا وسط متاهة من الوديان الضيقة شديدة الانحدار وسلاسل الجبال إلى أن أتينا على قناة وادي اللحن الكبرى حيث صعدناها باتجاه الشمال الشرقي. هذا الوادي الذي يبدأ في منطقة حرة خيبر المكوّنة من الحمم البركانية ويتصل به في مساره وادي شداد وبعض قنوات الصرف الصغرى، يصل في النهاية إلى الفرشة في طريقه إلى المليليح ووادي الحمض. إن وادي اللحن، الذي مشينا فيه طوال ما تبقى من اليوم، حوالي اثني عشر ميلاً، هو من أكثر الأودية التي رأيتها في الجزيرة العربية وعورة، حيث تبلغ سعته حوالي ألف ياردة عند نقطة دخولنا فيه، ويضيق إلى نصف هذا الاتساع في مناطق متفرقة منه، ثم يتسع بعد ذلك لما يزيد عن ميل.

ويحده على الجانبين سلاسل من جبال البازلت على قواعد الرايولايت مع أغطية متقطعة من الحمم البركانية، يتراوح سمكها بين عشرة إلى عشرين قدماً. إنه ليس خالياً تماماً من الشجيرات أو النباتات الأخرى، بيد أن كل شيء بدا ميتاً أو إلى زوال، وكان من الواضح أن المنطقة لم تتعرض لأي أمطار أو سيول من فترة طويلة. وكان السير صعباً على كتل العشب الميتة، وأشد صعوبة في الرمال الخشنة الثقيلة بقناة بطن الوادي. إن قمم جبل شميذ الحمراء

العظيمة، التي لاحظتها لأول مرة منذ مسافة بعيدة في وادي الفرشة، كانت لا تزال تبدو بعيدة جداً عندما كنا ننظر إليها أمامنا، وكنا لا نزال نستطيع رؤية جبل البيضاء خلفنا. وتوقفنا مدة قصيرة لأداء الصلاة وكسر رتابة هذا الأصيل المتعب، وعندما استأنفنا السير كان الوادي قد استدار فجأة نحو الشمال على طول جبل الراعيات المنخفض والمسطح، على الرغم من أنه لا تبدو له نهاية.

وكان عياض الذي أظهر أنه دليل ممتاز يعرف المنطقة معرفة تامة، قد أصابه النعاس، وربما كنت أنا نفسي أشعر بقليل من الإنهاك والتعب، عندما ارتفع مسار العربة فجأة خارجاً من الوادي ليتفادى بقعة طويلة وواسعة من الرمل ظهرت أمامنا. وعندما تأكدت من هذه الواقعة، رأيت بجوار الطريق مجموعة صغيرة من قبور عربية حديثة وعادية جداً، وسألت عياض بصورة عرضية عن سبب وجودها هناك، وكانت إجابته قد أبعدت النوم من عيني، فقد قال؛ هذه هي النمرانية! إنني لم أنس هذا الاسم أبداً، ولا وصفه للصور والكتابات التي كلمني عنها عندما كنا لا نزال على مرأى من المدينة المنورة.

وعندما سألته لماذا لم ينبهني بأننا نقترب من المكان الذي حدثني عنه، نظر إليّ في دهشة خالية من التعبير والانفعال. وسألني: أي مكان؟ وأي صور؟ وأصر على أنه لا يعرف شيئاً عن أي صور أو أي نقوش في هذه البقعة. بل إنه قال تقريباً: إنه لم يأت إلى هنا أبداً

في حياته، وبدا أنني قد حلمت بالحوار الذي أشير إليه!! وفي ذلك الوقت كانت العربة قد صعدت، وأعلنت عن نيتي في إقامة مخيمنا في المكان الذي يجب علينا فيه بحث المنطقة بكاملها عن الكتابات القديمة التي أخبرت عنها من قبل. وبالتالي افترشنا مساحة واسعة من الأرض بجوار القناة الرملية، على الرغم من أن الوقت لم يكن متأخراً في عصر ذلك اليوم. وأخذت كبير الخدم معي، وهو يدعى محمد العريفي، من حاشية أمير المدينة، وانتحيت به جانباً لأخبره بالقصة وأطلب منه تقصي الأمر، بينما قمت باستكشاف المنطقة حولنا مباشرة حتى حلول المساء.

ولم أتعرف أبداً على سبب وجود هذه المقابر الحديثة في مكانها بجانب الطريق، وهو على كل حال ليس ذا أهمية كبرى. بيد أنه كان من الواضح لأول وهلة أن الطريق الذي كنا نخيّم فيه كان في وقت ما من الماضي مشهداً لتطور زراعي مهم. فكلتا ضفتي الحوض الرملي الواسع للوادي قد تم تبطينها بعناية بجدران حجرية في النقطة التي يلتقي فيها برافدٍ نشط، يسمى شعيب نمران من الجبال المجاورة، في ما يشبه الدلتا الواسعة. وكان التبطين مكوناً من حجارة بازلتية ضخمة، غير مشذبة، ولكنها مبنية بناءً حسناً، وكان من الواضح أن منطقة الزراعة الرئيسة تقع في الضفة اليسرى للوادي. وتتناثر هنا

وهناك على المنحدرات المؤدية إلى هذه المنطقة بقايا منازل قديمة، في حين كان في الأرض المنبسطة حفرة دائرية ذات جدران من الحجارة، والتي يحتمل أن تكون خزان مياه. ولم يكن هناك بالتأكيد أي شيء يشير إلى وجود آثار عظيمة، فلا توجد بقايا فخارية على سطح الأرض، على الرغم من أنها قد تكون جرفتها السيول، كما لا توجد صور ولا نقوش من أي نوع ما عدا قليلاً من الوسوم القبلية.

إن المقبرة الصغيرة بجانب الطريق قد تكون مدفناً لأسرة واحدة أو اثنتين، تحاولان الاستفادة بالعيش المجرد في موقع قديم مهجور. وبقايا قصر الطين على ارتفاع المنحدر، وبعض جدرانه التي لا تزال واقفة بارتفاع أقدام قليلة فيبدو أنه يتكون من ثلاث غرف وفناء، يمثل بلا شك بيتهم في وسط هذا القفر الموحش. وبالقرب منه، على المنحدر أيضاً، كانت بقايا مبنى صغير مستطيل موجودة مع جزء صغير من جداره الحجري ما زال يقف سليماً. هناك خزان المياه الذي لا يزيد قطره عن حوالي اثني عشر قدماً، وما زال ممكنا تتبع جداره الدائري بالكامل إلى ارتفاع يتراوح من قدم إلى ثلاثة أقدام. لقد شغلتني أعمال الفحص هذه طوال ما تبقى من ساعات النهار منذ وصولنا عصراً، علاوة على ساعتين إضافيتين قبل أن نشد رحالنا في صباح اليوم التالي.

وفي أثناء ذلك، وبجوار نيران المخيم، فقد سعيت أن أكشف سر حماس الدليل منذ عدة أيام قليلة مضت وصمته العنيد الآن. وكان هناك ثلاثة أسباب ممكنة لتفسير هذا الأمر. فربما كان يتملقني لكسب رضاي في بداية رحلتنا، وأغراه ذلك لتفخيم أو تضخيم بعض الذكريات الغامضة عن الوسم القبلي في هذه المنطقة، أو أنه قد أخبر رفاقي بما يعرفه ولكنهم حذروه من تشجيعي على إضاعة الوقت بغير ما ضرورة في الطريق، أو أنه كان خائفاً من الأرواح التي يُعتقد بصورة شائعة أنها تسكن مثل هذه الأماكن القديمة، وقرر عدم المجازفة بالتعرض لغضبها إن هو كشف أسرارها التي سجلها أصحابها على صخورها.

إن هذه التجربة ليست أمراً غير عادي، عندما تسافر مع عرب بسطاء يصدقون الخرافات. وأتذكر حادثاً قرب الطائف، عندما أقدم زعماء قرية صغيرة في عشية ليل ما، بكل شغف أن يأخذوني إلى قمة قُرْنَيْت ثاني أعلى قمة في جبال الحجاز. وفي الصباح التالي، وعندما كنا نقترب من القمة ذات الرأسين، كان هناك بعض الهمس بين الأدلاء، ولسبب ما لم أكتشفه أبداً، اتجهوا نحو الرأس السفلى من الاثنين ورفضوا بصورة مطلقة أن يستمعوا لاحتجاجي.

وقد كان هناك فرق بسيط في الارتفاع بين الاثنين، ربما حوالي خمسين قدماً، ولكن رعبهم الظاهر من القمة العليا اضطرني إلى أن

أعتقد أن لديهم بعض الاعتراض الخرافي أو الديني على كشف أسرارها لغريب مثلي. وربما كان هذا مكاناً للتضحية القبلية (غير الإسلامية) أو كان بحق مكاناً مليئاً بالآثار. وفي حدود علمي لم يُفسر هذا اللغز أبداً، على الرغم من أن زيارتي قد تمت منذ ما يقرب من عشرين سنة مضت.

ومهما يكن من أمر، فقد خرجنا خاليي الوفاض تماماً من منطقة كانت تبدو مثيرة عن بُعد، وكان علينا، أن نعرب عن خيبة أملنا بأحسن صورة. لقد فشل عياض في هذا الاختبار ومن المؤكد أنني لن أستعين به في أي عمل مهم في المستقبل، ولكن لم تبدُ عليه أي إشارة للتوبة أو الندم.

ولم نكد نسير حوالي ميل، عند استئناف سيرنا، حتى لاحظت صقراً جاثماً على قمة جبل صخري صغير على حافة وادي اللحن عند مصب رافد صغير يدعى شعيب أبو إباه وطار الصقر عندما استدرت على الطريق متجها نحو الصخرة على أمل أن أعثر - ربما - على عشه، فما وجدته في الحقيقة، وما أثار سخط عياض بوضوح كان شيئاً مختلفاً تماماً، وهو معرض صغير وغير مثير للاهتمام بشكل كبير لصور الأقدمين!! كانت معظم الرسومات للجمال أو البعير، بيد أنه كان يوجد رسم لرجل، وآخر لتيس، وثالث لنعامة.

وقال عياض إنه لم يرها أبداً من قبل، على الرغم من أنني لم أشك مطلقاً في أن هذه الصور كانت هي في الحقيقة مصدر إلهامه الأصلي. وسرنا بصعوبة حوالي ثلاثة أميال، حتى وصلنا إلى رأس وادي اللحن، الذي يبلغ طوله بالكامل قبل التقائه بوادي شداد حوالي عشرين ميلاً. وكنا الآن على حافة منطقة حرة خيبر البركانية الواسعة والمشهورة، وإلى البعيد، البعيد جداً كنت أستطيع أن أرى سلسلة الجبال العالية وقمة الجبل الأبيض.

ويُعتقد أنه قد سُمي بهذا الاسم لأنه كان أسود فاحماً. ومن الممكن -بل من المحتمل في الحقيقة- أن يكون هذا الجبل قد تعرض لهطول الثلج عليه في فترات زمنية بعيدة من تاريخ البشرية، ولكنه في أحيان كثيرة يلمع بضوء أبيض قليلاً نتيجة انعكاس أشعة الشمس على صخوره السوداء المصقولة.

وبيننا وبينه، كانت تمتد الحرة العظيمة بلا انقطاع حتى الشمال، والشرق، والغرب، بينما خلفنا كانت تمتد منطقة من البازلت الداكن والجرانيت الأحمر والتي سرنا خلالها على مدى اليومين الماضيين. وعلى طول حافتها القريبة، من الشرق للغرب، كانت تمتد قناة وادي الغرس العظيمة، التي تهبط من مستجمع أمطارها المشترك مع أودية شقراء (وهو أحد روافد وادي الحناكية) والصويدرة والنخيل وتستمر قناة الغرس من خلال الجزء الجنوبي من الحرة، حيث تتجمع

مياه التصريف من قنواتها الصغرى الكثيرة على الطريق، وتمر جنوب خيبر نفسها لتعبر خط السكة الحديدية وتتصل بوادي الحمض. إن سلاسل جبال ومرتفعات مستجمع مياهها الشرقي كانت ظاهرة بوضوح على مسافة، في حين كان بجوارنا نحو الغرب يقف جبل شـميذ الأحمر الهائل كحارس على مدخل كان ذات يوم معقلاً مشهوراً. وخلفنا على نفس الطريق كان جبل البيضاء لا يزال ظاهراً بجلاء، بينما كانت صحراء الحرة أمامنا تمتلئ بما لا يمكن حصره ولا عده من القمم، والأقماع، وفوهات البراكين الخامدة.

الآن ولحوالي خمسة عشر ميلاً يزحف طريق السيارة على طول حافة حقل الحمم البركانية، بحثاً عن ممر سهل، قدر الإمكان، في وسط منطقة تتناثر فيها الصخور والحجارة الجلمودية وعبر خطوط تصريف هائلة تجري من التلال في الجنوب إلى وادي الغرس. لقد كان سيرنا قاسياً، ولكنه لم يكن صعباً للغاية، على الرغم من الصعود الشديد الانحدار من شعيب كنيفه إلى شفا الحرة كان سهلاً بكل المقاييس.

ومن هنا بدأ العبور الحقيقي لحقل الحمم البركانية، الذي يمتد مسافة بعيدة على كلا جانبي الطريق، الذي أصبح ممهداً بصورة معقولة بسبب تكرار مرور السيارات عليه، عندما كنا نتجه بصورة

غامضة إلى سلسلة جبال وقمم العطوة، التي تبعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً في اتجاه الشمال من الطريق، على الضفة البعيدة (اليمنى) لوادي الغرس. وعلى كلا الجانبين لم يكن هناك شيء إلا الكرات السوداء الصلبة والصخور والحجارة القاسية في الحرة، وأقماعها وفوهاتها الكثيرة، والتي كنت قادراً على تسجيل أسمائها من ذخائر المعرفة الغنية التي يختزنها عياض. وكانت عدة فروع من وادٍ عميق، يسمى شعيب خبو تمتد خلال الصحراء السوداء في طريقها إلى وادي الغرس، قد سببت لنا بعض المشاكل بمنحدراتها الحادة القاسية ومرتفعاتها الصخرية التي لا تقل حدة عن منحدراتها. بيد أن السير كان معقولاً بصورة عامة، والذي يستحق الشكر الجزيل عنه الرواد الأوائل لهذا الطريق.

وخلف فوهة الخرنيق الجميلة المتهدمة، توقفنا لفحص آثار مبنى صغير مجهول، والذي من الممكن أن يكون قبراً لأحد الأعيان المنسيين. ومن الواضح أن بُناته قد تكبدوا المشاق في بنائه، على الرغم من أن الزمن والإهمال قد حطما جزءاً كبيرا من عملهم.

ومر علينا مواطنان من خيبر، يركبان على الحمير ويبدو أنهما في طريقهما إلى المدينة، عندما كنا منهمكين في ذلك العمل، وتوقفا ليتبادلا معنا الأخبار. لقد سمعا بالفعل عن وصولنا، وكانا يأملان بصورة غامضة أن يكون هدف بعثتنا تخليص واحتهم من الملاريا

وتنظيم مشاريع الري لصالح سكانها. وقد سبقنا آخرون، منهم عدد من الخبراء الأمريكان، في السنوات الأخيرة، ولكن لم تظهر نتائج ملموسة بعد زياراتهم.

ومن المؤسف أن هذه الحالة ستعقب زيارتنا أيضاً، على الرغم من أنني كنت قادراً على إعطاء وزير المالية بعض الأفكار التي كان من الممكن تطويرها للاستفادة من مزاياها في حالة عدم تحويل جميع الأموال المتوافرة إلى مشاريع ذات مصلحة أو فائدة فورية لساكني المدن الكبرى.

لقد وفر لنا تل مريقب الذي يبلغ ارتفاعه خمسين قدماً، من صخور البازلت الضخمة قرب قمة حقل الحمم البركانية، أن نلقي نظرة رائعة على الحرة نفسها وعلى الجبال الشاهقة بعيداً خلف خيبر.

إن هذا الجزء من الحرة، على طول الضفة اليسرى لوادي الغرس، يبدو أنه يُعرف باسم حرة الكرى، في حين أن اسم حرة خيبر يمتد إلى ما وراء تلك القناة، ولكنه كان من الناحية الجوهرية حقلاً بركانياً وحيداً يتم تصريفه بشريان مركزي.

وسرعان ما كنا على رأس منحدر يهبط بنا من هضبة الحرة إلى وادي السُّلَيْم وهو رافد رئيس من وادي الغرس.

وكان جرف الحرة الآن يبرز في مستويات منخفضة فيما وراءنا في سلسلة من الأصابع الرائعة، وكل زوج من هذه الأصابع كان يطوق وادياً، يقوم بدوره بتصريف الأرض المرتفعة ويشق طريقه نحو الشريان المركزي. وفوق أحد هذه الأصابع كانت تقف بقايا قلعة قديمة، من المحتمل أن تكون تركية، ولا تبعد كثيراً عن طريقنا. ويبدو أنها لا تستحق الفحص عن قرب، كما أن الوقت كان متأخراً في عصر ذلك اليوم. وكان من الواضح أن المنطقة أمامنا لن توفر لنا مكاناً مريحاً لإقامة مخيمنا الليلي، ولكننا انطلقنا بأقصى سرعة نستطيعها على الطريق الوعر بحثاً عن بعض الأماكن المناسبة المفتوحة. وقد غربت الشمس، وأطبق علينا الظلام، بيد أننا واصلنا السير إلى أن أتينا في النهاية إلى مخيم كبير لرجال قبيلة حرب مع الكثير من قطعان أغنامهم فيما يشبه الوادي الضيق المليء بأشجار السنط، ووراء ذلك بقليل وجدنا منطقة طينية منبسطة ومناسبة محاطة بأشجار مماثلة بعيدة عن الطريق بقليل، وهنا توقفنا لقضاء استراحة الليل. ومن منتصف الليل فما بعد هبت علينا ريح باردة جداً، ولكنها ليست قوية، كما كان الجو قارساً جداً في الصباح.

ومن سوء الحظ أن نتج عن سيرنا الصعب في الحرة مأساة خطيرة؛ إذ عندما فتحت جهاز المذياع لأسمع أخبار المساء، رفض

أن يعمل، وكان السيد، الاسم الذي نطلقه جميعاً على سائق اللوري، ربما لأنه كان رجلاً وقوراً، أو على الأرجح بسبب مظهره المميز، هو الرجل الوحيد بيننا الذي لم يكن لديه أي ادعاءات بالكفاءة الميكانيكية. قد ناديته لممارسة موهبته على المذياع، وسرعان ما اتضح أنه يعلم قليلاً عن مثل هذه الأشياء، ربما أكثر قليلاً مني أنا الذي لا يعرف شيئاً على الإطلاق. واستسلمت لاحتمال أن أظل بدون أخبار طوال ما تبقى من مدّة الرحلة، أو إلى أن ننال فرصة العثور على خبير في خيبر أو تيماء، بينما استمر هو في العبث بالجهاز، وقد كوفئ على صبره ومثابرته، وطرت فرحاً، في الساعة العاشرة، عندما انفجر صوت مفاجئ يفيدني بأنه قد اكتشف وأصلح العطل. وكان هناك أمر آخر أقض مضجعي في تلك الليلة وهو، على الرغم من أن خيبر كانت الآن على مرمى حجر منا، ويمكن أن نصلها بسهولة، ربما في حدود ساعة أو ساعتين، إلا أنني كنت شغوفاً بتأخير دخولي في ضيافة الأمير إلى أن أقوم ببعض الاكتشافات في الجزء الشرقي من الحرة حيث كان يوجد هناك بعض أعمال الري الشهيرة والسدود القديمة.

وقد ناقشت هذه الخطة مع عياض، عندما كان يركب معي في السيارة اللاندروفر، بيد أنه اعترف صراحة أنه يجهل تماماً هذا الجزء من الحرة، والتي لا يمكن الوصول إليها بالسيارة بأي حال من

الأحوال. وربما كان يتوق للوصول إلى خيبر بأسرع فرصة ممكنة ويقبض أجره ويرحل في سلام، مع ذلك فإنني أعتقد أنه كان أميناً ومخلصاً، وقد أسدى لي بالتأكيد خدمات كافية، على الرغم مما حدث من هفوة بصورة غريبة في النمرانية. ولم أشأ أن أضغط عليه بلا داع، لأن أفضل هؤلاء الأدلاء في الصحراء اليوم لهم حدودهم الإقليمية في معرفة الطرق على عكس الأدلاء من الجيل القديم، الذين كانت معرفتهم بمناطق شاسعة تعد شيئاً ملحوظاً ومطلوباً وذا أهمية عظيمة بالنسبة للقبائل المغيرة وللمواطنين الآمنين الذين ينشدون الأمن والماء أثناء تجوالهم في أعمالهم المشروعة على حدٍ سواء.

وكانت المشكلة أن أجد بديلاً عن عياض، وكنت آمل أن أجد شخصاً مناسباً في مضارب قبيلة حرب التي مررنا بها في طريقنا، ويكون ملماً بالمنطقة التي أردت زيارتها. لقد جاء بعض رجال القبيلة ليشاركونا العشاء، وقد كلفت العريفي بأن يتحسس إمكانية مثل هذا الإجراء. وكان من الواضح نسبياً أنه هو ورفاقه كانوا أشد شغفاً للوصول إلى ملذات خيبر أكثر من رؤية عجائب قصر البنت (العذارء)[١]، بيد أنني قلت لهم إننا سنمكث في مكاننا هاهنا إلى

(١) يشبه المؤلف قصر البنت في هذه المنطقة بـ: "Maiden Castle" وهو من أجمل القلاع الطينية وأكبرها في أوربة ويوجد في مدينة دورست بجنوب انجلترا ويعتقد أنه بني في حدود ٣٠٠ ق.م. المترجم.

أن أعثر على دليل. وقد أسعفني الحظ. ففي صباح اليوم التالي، وعندما كنت أحتسي الشاي، دخلت علينا شاحنتان -جاءتا من المدينة- في مخيمنا بغرض الاستراحة وتبادل الحديث مع "السيد" الذي كان معروفاً للسائقين وكان بحق شخصية محلية جديرة بالاحترام. كان من بين الركاب في الشاحنتين أحد الشيوخ القبليين عائداً من المدينة المنورة إلى خيبر، والذي كان مهتماً بكل سهولة بمشروعي، ربما لأسباب مالية فقط.

لقد كان يعرف الحرة بالكامل، ويعلم الطريق للأماكن التي أود رؤيتها، وفي الحقيقة كان من الواضح أنه ينتمي للمنطقة، واتضح بعد ذلك بصورة جلية أن جماعته يقيمون فيها منذ خمسة أجيال، والتي ذكرها صراحة لمصلحتي. وكان اسمه ويبان بن محمد بن لافي بن عتقه بن دخيل الله بن سعد. وكان - مثل عياض - من بني راشد، الذين - طبقاً لما قاله - ليسوا فرعاً من هتيم ولكنهم كانوا اتحاداً يضم قبائل الشرارات والفقيهات والعوازم وهتيم، وهي كلها قبائل غير أرستقراطية. ومن بين هؤلاء كانت العوازم تنحدر من سلف يسمى راشد، وهو أخو رشيد الجد الأعلى للمجموعات الثلاث الأخرى.

لقد قطعنا الآن حوالي مئة ميل (١٦٣ كيلومتراً) من المدينة المنورة، حيث تبلغ المسافة في خط مستقيم من هنا إلى خيبر ١٤٠

كيلومتراً، على الرغم من أننا كنا لا نزال على مسافة طويلة بعيداً عن خيبر. وقد ثبت أن ويبان كان حسن الصحبة رقيق المعشر، مما يؤكد زعامته المعترف بها في مجاله وحظه الوافر من الحكمة العملية الناجمة عن تجارب الصحراء. وبوجوده بجواري، سرعان ما وصلنا إلى حافة وادي الغرس، والذي توقفنا في منتصف قناته لعمل مسح سريع للموقف. وكان الوادي ينحدر إلى هذه النقطة من سلاسل الجبال البعيدة في الجنوب - الشرقي، ويواصل سيره قليلاً نحو الشمال - الغربي حتى غابة من أشجار السنط والدوم، والتي ينحني عندها الوادي إلى اليسار تجاه خط السكة الحديدية ووادي الحمض، وأمامنا مباشرة، على طول حافة الضفة اليمنى يمتد جبل العطوة وهو خليط من صخور البازلت والرايوليت. ويمر خلاله طريق خيبر عبر مضيق منخفض، ليطوق الجانب الآخر البعيد من الجبل في اتجاهه للواحة.

وعلى بُعد نحو ميل من الممر، كنا قد قطعنا الآن ١٧١ كيلومتراً من طريق المدينة، استدرنا تقريباً تجاه الشرق، متجهين نحو قمة الجبل الأبيض البعيدة عبر سهل منبسط تجاه أرض طينية تُعرف باسم قاع القَعْقَران، وكانت محاطة بالكامل تقريباً بالحرة، وعلى مدى ميلين تسابقنا فوق سطحها المنبسط حتى نهاية كومة من الحجارة فوق لسان منخفض من اللافا على الطريق الآخر. وقد تشكل هذه المسافة

أرضاً نموذجية لهبوط الطائرات وسط منطقة وعرة. ومن هنا كان علينا أن ندخل حقل اللافا، حينما أخبرني ويبان أنه لم تنجح من قبل إلا سيارة واحدة في الوصول إلى هدفنا الحالي، وهو وادي الثمد وسدوده الشهيرة. وهذا كان - فيما أعتقد - عندما قام تويتشل، في سيارته الفورد، بزيارة المنطقة لفحصها وكتابة تقرير عن إمكانياتها الزراعية منذ عدة سنوات مضت.

ومن المؤكد أن المنطقة لم تبدُ مغرية جداً، بيد أننا كنا ملتزمين بالمهمة، وعلى مدى مسافة أول ميلين كنا نستفيد من مزايا لسان ضيق من الأرض الطينية يخترق حقل اللافا. وفيما وراء ذلك كنا نضطر إلى اختيار طريقنا وسط أرض شديدة الوعورة تتناثر فيها بقع صغيرة من الطين الأجرد، إلى أن واجهنا موقفاً بدا مزعجاً بحق؛ فأمامنا يمتد واديان، وهما رافدان من وادي الغرس، وكانا ينذران بصعوبة بالغة، واقترحت أثناء الراحة أن نسير على الأقدام لنكوّن فكرة عن المشاكل والمتاعب التي تنتظرنا. لقد كان من الواضح بصورة جلية أننا لا يمكن أن نجازف بإدخال اللوري في مثل هذه الأرض، وقررت أن نتركها هناك حيث تقف في أرض طينية منبسطة بها بعض الشجيرات، وأن نتقدم بسيارة اللاندروفر فقط مع جماعة صغيرة لا تحمل إلا القليل من الأمتعة. وأصبحنا الآن على بُعد حوالي خمسة أميال من النقطة التي تركنا عندها الطريق الرئيس في وسط قفر غير مرغوب بحق.

وسرعان ما تم اتخاذ التعديلات الضرورية، وحيث إننا كنا نأمل متفائلين أن نعود إلى رفاقنا قبل حلول الظلام، فقد بدأنا مغامرتنا على الفور، وبيان وعياض وأنا وعضو آخر من المجموعة، مشينا بصعوبة بالغة فوق الصخور حتى حافة شعيب هدنة ثم هبطنا في واديه الذي يبلغ اتساعه نحو ٥٠٠ ياردة. ويوجد به آثار قصر صغير على التيار بُني فوق صخرة مستديرة، وقيل إنه تم بناؤه منذ حوالي سبع أو ثماني سنوات مضت بواسطة جماعة من المزارعين المغامرين. وبشيء من الصعوبة تمكنا من عبور الوادي، وخرجنا منه لنصعد إلى مرتفع منحدر ووعر يفصله مجرى آخر مماثل له ويسمى شعيب السُّمَيْنَان وكان اتساعه حوالي ٢٠٠ ياردة فقط، وبه بقايا لقصر آخر على مسافة في اتجاه المجرى وكذلك بقايا سد قديم على امتداد خط عبورنا.

وقد بدا أنه تم بناؤه بصورة متينة من صخور البازلت قليلة التشذيب ولكنها مبنية بناءً حسناً، على الرغم من أن الزمن والإهمال قد تركاه تحت رحمة السيول. وإلى البعيد من شمالنا يمتد نتوء ضخم ناعم أجرد من الجرانيت الأحمر، ويسمى السُّرَيِّر، يفصل قناة شعيب السُّمَيْنَان عن قناة شعيب الثمد، ويطل على منطقة مليئة بالنخيل بشكل هائل، وبها حي صغير مهجور كانت تسكنه من قبل مجموعة من الإخوان أيام التمسك بالاعتكاف الديني. ولم

نقطع تقريباً إلا ثلاثة أميال، بغير قليل من المتاعب والمصاعب منذ أن غادرنا اللوري، حتى وصلنا إلى الضفة اليسرى من الشريان الرئيس لهذه الأجزاء، وهو شعيب الثمد، أحد روافد وادي الغرس؛ لقد كان ذا اتساع عظيم وأكبر كثيراً من القناتين الأخريين اللتين عبرناهما بالفعل. وهو يتكون من عدة أفرع تجرى بالتوازي مع أفرع مشابهة لها من وادي الغرس نفسه. وكان من الواضح أن هذين المعلمين يندمجان هنا في دلتا واسعة، ذات أشجار كثيفة ومياه غزيرة في نقاط كثيرة. وبعد أن عبرنا خليجاً واسعاً يكوّن ما يشبه شاطئاً خلفياً للوادي، أتينا إلى أول فرع ينقل سيل الثمد في نقطة بها بستان هائل من أشجار النخيل يحيط ببركة ينبع مَعْرشَ الذي كانت مياهه -على كل حال- شديدة الملوحة وليست صالحة للشرب. وبعد سيرنا مسافة ميل تقريباً وصلنا إلى الفرع الثاني من الوادي، ربما يحمل اسم شعيب الثمد نفسه، والتزمناه في اتجاه عكس التيار حتى جئنا إلى واحة ساحرة من أشجار النخيل والدوم والقصب، تزدهر في سلسلة من برك المياه العذبة اللذيذة، والتي أطفأنا بها عطشنا.

وبعد حوالي ميل عكس التيار أتينا إلى آثار ومبانٍ سوداء قاتمة لقرية تقبع على جرف اللافا (الحمم البركانية) المنخفض في الضفة اليمنى للوادي. وكانت هذه القرية تدعى هجرة الثمد، وتعرف

أيضاً باسم هجرة ابن لافي، والتي أقامها الجد الأعلى لويبان ليسكن فيها مجموعة صغيرة من الوهابيين الملتزمين خلال الجزء الأول من القرن الحالي (العشرين) وعندما تركناها لنفحصها فيما بعد، واصلنا السير في الوادي، ولكن بعد أقل من ميل كنا قد اضطررنا لمغادرة السيارة وتنفيذ ما تبقى من الاستكشاف سيراً على الأقدام. لقد وصلنا إلى بقعة فائقة الإثارة والجمال من الأرض، والتي كان المعلم البارز فيها هو سد الحَصيد العظيم. إن شعيب الحَصيد الذي يهبط من المستويات العليا للحرة بين سلاسل الجبال البازلتية واضحة المعالم ليتصل بشعيب الثمد، كان مليئاً تماماً بالسدود التي بناها الأقدمون، وربما كانوا هم يهود خيبر، لتوفير ري دائم طول السنة في الوادي الرئيس. وكان خزان المياه الذي استحدث بهذه الطريقة يمتد عدة أميال ويبلغ متوسط اتساعه نحو مئة ياردة والحد الأقصى لارتفاعه يصل إلى أربعين قدماً.

والشيء المذهل حقاً هو أن السد نفسه -حسب بنائه في الأصل- يبدو أنه قد بقي سليماً بالكامل، بالرغم من أن الصخر على جانبيه قد تآكل بصورة طفيفة بعوامل الزمن والسيول، ونتج عن ذلك فجوة أو ثغرة حوالي اثني عشر قدماً على كلا الجناحين، تتدفق من خلالها السيول الحالية بصورة بطيئة وهي في طريقها غير الممهّد إلى البحر. وبين هذه الفجوات صمد هذا السد العظيم شامخاً أمام

العواصف والضغوط لما لا يقل عن خمسة عشر قرناً من الزمان، بطوله البالغ ٢٥٠ قدماً وارتفاعه ٤٠ قدماً. وبناؤه مشيد من أحجار بازلتية غير مشذبة وكبيرة نسبياً، بطريقة رائعة ومحمية من الجانب المواجه للتيار بإدخال ملاط من الجبس فيه، مفتت في بعض الأماكن ولكنه مدهش وبحالة جيدة على العموم.

أما الجانب الآخر من السد باتجاه التيار فمزيّن ببناء غطاء من الحجارة الصغيرة المشذبة، وبروز مقوس بحجم الإنسان لا تعرف أهميته، على الرغم من أنه محتملٌ أن يكون لمجرد الزينة فقط؛ ذلك لأنه لا يوجد رابط بينه وبين الجانب الآخر من السد في أعلى التيار.

ويبلغ سمك ثلثي الجانب الأدنى ضعف سمك القسم العلوي وقد وضعا في وسطه ليوفرا رصيفاً واسعاً على كلا الجانبين. ولم أتمكن من العثور على أي علامة للبوابات في البناء أو الهيكل، وهذه، إن وجدت على الإطلاق، قد تكون في كل من طرفي السد في الفجوات التي ذكرتها سابقاً. وليس من المؤكد، على كل حال، أن هذه السدود العربية القديمة، التي توجد أمثلة جيدة منها في الأودية حول الطائف، قد صممت لتوفر الريّ بالقنوات في اتجاه مجرى التيار. ويبدو أن بعضها على الأقل بُني لحجز السيول لزراعة أحواض من الرواسب الطينية، بعد استقرار المياه وتوقفها.

وفي هذه الحالة فإن المياه التي حجزها السد قد تمتد عدة أميال عكس اتجاه التيار، مما يوفر مئات الأفدنة أو أكثر من التربة الخصبة. وأمام السد باتجاه مجرى التيار يوجد حوض هائل، شبه مستدير والذي من المؤكد أنه كان منطقة للزراعة، بالمياه التي حجزها السد وتصرف من خلال بوابات، إذا كان هناك فعلاً أيٌّ منها، أو من العيون والينابيع التي تشكلت من تسرب الماء بشكل طبيعي تحت السد. وفي الحقيقة، توجد واحدةٌ من تلك العيون عند أسفل السد، مع آثار باقية من قنوات الري التي تمتد منها في الحوض، الذي تنتشر فيه أشجار النخيل انتشاراً طيباً.

هذه العين، على كل حال، لم تكن متدفقة في وقت زيارتنا، على الرغم من وجود المياه في حفرتها الضحلة، والتي تعطلها تقريباً بعض الأعشاب المزدهرة. ويجب علينا أيضاً أن نذكر أن قناة شعيب الثمد، التي يبدو أنه لم يوجد بها سدود على الإطلاق، تدخل هذا الحوض من الجانب المقابل للسد، وتوفر بلا ريب مياه السيول على فترات متفاوتة. وعلى أرض مرتفعة قليلاً قرب مخرج الحوض تقف قلعة قديمة، مشيّدة من صخور البازلت القوي، غير المشذبة في الداخل ولكنها لا تزال تحتفظ بأجزاء من الحجارة المشذبة في أجزاء باقية من الجدران الخارجية. ويحتمل أن تكون من عصر السد نفسه، ولكنها كانت في حالة من التهدم الشديد الذي لا يسمح لنا بأي استنتاج.

وبعد أن انتهينا من فحصنا للسد وما حوله فقد عدنا للسيارة، وتقاسمنا شاي الترحيب من الإبريق الخاص بي، وجمعنا حطباً لنوقده في الليل الذي من المؤكد أنه سيكون بارداً، ثم رجعنا إلى هجرة الشمد. ولم نكن قد وضعنا في حسباننا قضاء الليل في الخارج، ولم نحضر معنا إلا القليل من المؤونة، بيد أن ويبان لم يكن ليهزمه هذا الموقف، فقام يتجول بحثاً عن الطعام وأوانٍ لجمع الماء من البرك الواقعة في اتجاه مجرى التيار. ولم يمض وقت طويل حتى عاد إلينا، مع صديق وصبي وقربة ماء.

وأخذته بالسيارة إلى البرك حتى يملأ القربة، ثم سرعان ما استقر بنا الحال في المسجد المكشوف (بغير سقف) في القرية المهجورة ونلنا قسطاً من التدفئة بالنيران المشتعلة الجميلة، التي كان الطفل يطهو عليها عشاءنا. وكان رفيقنا الجديد يُدعى دليم بن سمران بن محمد ابن سمرة، من فخذ آخر من بني رشيد. ولا يعلم هو أو ويبان شيئاً عن الأصل المحلي لهذه السدود أو مصيرها. وحتى الاسم المثير والمحير لقصر البنت لم يُثر لديهما أي فضول أو تساؤل، على الرغم -طبعاً- من أنهما يعلمان أنه سد وليس حصناً. وكانت جدران المسجد توفر لنا حماية طيبة من الريح، التي كانت تهب بقوة معظم النهار واستمرت حتى الليل. ولاحقاً تمكن الطفل من تدفئة دواخلنا بتقديم الطعام.

وجاء دور الشاي بعد العشاء، ولم يكن هناك ما يعكر صفونا في تلك الليلة، إلا أنني قد نسيت أن أضع علبة الدخان في محفظة أغراضي الخاصة، وقد استنفذت الآن ما كان معي. ولم يكن لدينا أسرّة بالطبع، ولكننا تغطينا بعباءتنا حول النار، التي كان دليم يشبّها من حين لآخر، ورحنا نغط في نوم عميق على الرغم من البعوض الذي كان شديد الإزعاج خلال الليل، مع أن دخان النار كان يحد نسبياً من رغبته في مص دمائنا. وكانت هجرة الثمد تبعد حوالي اثني عشر ميلاً بجانب مسارنا من النقطة التي تركنا عندها الطريق الرئيس.

وقد استيقظنا عند الفجر للصلاة وشرب الشاي، وتجمعنا حول النار مدة انتظاراً للشمس حتى نعطيها فرصة لتدفئة الجو الخارجي.

وبعد الساعة الثامنة مباشرة ذهبت لتشغيل السيارة، ولكن المحرك كان بارداً، ورفض أن يستجيب لمفتاح التشغيل، ولجأنا إلى دفع السيارة بقوة، ولكن على الرغم من أنّ حدوث حركة واحدة في المحرك دفعت الأمل في قلوبنا، إلا أن ذلك كان بغير جدوى. وبكل شهامة تطوع ويبان ليعود سيراً إلى مكان الشاحنة لطلب المساعدة، وقضيت وقت الانتظار هذا في دراسة المنطقة الجرداء حولنا من القرية من فوق تل ملائم قريب.

لقد اختفى الآن جبل البيضاء بصورة نهائية، ولكن الجبل الأبيض كان ظاهراً للعيان في اتجاه شرق - شمال - شرق، مع سلسلة جبال الحرة العالية التي كان نقطتها المركزية. وفيها عددت ثلاث عشرة قمة عن شمالها وسبع عشرة عن يمينها، وهي كلها فوهات لبراكين موغلة في القدم. وإلى البعيد باتجاه الشمال الغربي على كتف جبل عطوة تمتد جبال الهجر العظيم، بقممها الثماني الشاهقة التي تشكل قوساً حوالي خمس عشرة درجة. وفي مسافة أبعد إلى الشمال كان قمع جبل الغَمْرَة الرائع يمثل علامة طريق السيارات من خيبر إلى حائل، الذي يجب علينا التزامه قريباً في جزء من مسيرتنا. والطريق المباشر من خيبر إلى العلا على خط السكة الحديدية عبر سهل الصحن يستغرق ثلاثة أيام بالجمال.

كانت الساعة الثالثة عصراً تقريباً في ليلة عيد ميلاد المسيح عندما عاد ويبان بفريق الإنقاذ لنا، محمد العريفي نفسه وبالطبع " السيد " الذي سرعان ما جعل اللاندروفر يتحرك بهدوء ولم أكن نادماً على مغادرة المكان الذي اضطررنا إلى الإقامة المؤقتة فيه. فالمسجد نفسه، بعد أن أصبح مهجوراً وغير مستعملٍ في الغرض الذي بناه من أجله مؤسسوه، قد كان من الواضح مستخدماً بصورة منتظمة كحظيرة للأغنام ولأعمال المطبخ. ولم تمتد قناة وادي الغرس الرئيسة إلا مسافة ميل واحد، وقد سرنا بها في الاتجاه المعاكس للتيار حتى آبار

العَفَرِيَة، حيث تمنع الصخور الكبيرة من الوادي أي مزيد من التقدم على العجلات. ولم يكن السد ببعيد أكثر من ميل واحد، وقد مشينا عليه على أرض من اللافا القاسية في الضفة اليسرى، ثم عدنا بعد ذلك لمجرى السيل، الذي كان فيه الكثير من برك مياه الأمطار الأخيرة، والتي قيل إنها سببت سيلاً صغيراً قبل خمسة أسابيع. إن ستّاً من آبار العَفَرِيَة كان بها الكثير من المياه العذبة في أعماق تتراوح من اثنتين إلى أربع قامات (والقامة مقياس لعمق المياه يساوي ٦ أقدام)، في وسط مزرعة رائعة، على الرغم من صغرها، من أشجار الدوم. كان اتجاه الوادي من هذه النقطة من الجنوب - الشرقي إلى الشمال - الغربي.

إن سد قصر البنت الشهير ذو أبعاد أكبر بكثير من أبعاد سد الحصيد، بالرغم من أن ربعه في طرف الضفة اليمنى قد انهار بالكامل بسبب السيول، ولم يبقَ إلا أجزاء من البناء الذي يستند على الضفة. وكان الباقي سليماً، بارتفاع يبلغ نحو ٥٠ قدماً، ويبلغ سمكه ١٣٫٥ قدماً في القمة، ويتسع السُمك إلى ضعف ذلك في القاعدة.

ولابد أن البناء الأصلي كان طوله ٥٠٠ قدم تقريباً، وكان مشيداً من صخور البازلت المشذبة بصورة مهملة، ولكنها مركّبة مع بعضها بصورة رائعة ومتماسكة بملاط من الجبس.

والوجه المعاكس لمجرى التيار كان مبطناً بالإسمنت من القمة حتى حوالي عشرة أقدام من القاعدة وربما تكون الطبقة السفلى من الإسمنت قد تكسرت بفعل السيول وانجرفت بعيداً. وهنا مرة أخرى لا يوجد أي أثر للبوابات، والاحتمال الذي ذكرناه فيما يتصل بسد الحَصِيد ربما ينطبق أيضاً على سد قصر البنت. ولابد أن الزراعة التي كانت تروى منه كانت في اتجاه عكس التيار، حيث توجد الآن مزرعة مزدهرة من أشجار الدوم وكثير من نباتات الصحراء. وفي طرف الضفة اليسرى، باتجاه مجرى التيار، يوجد جدار يبرز منها حوالي ١٠٠ قدم يشكل نوعاً من الرصيف يصعب تحديد الغرض منه. ولا يتذكر ويبان أي سيل عظيم في هذا الوادي، إلا أن الأسطورة المحلية لا تزال تقول، حسب ذاكرة الأحياء، حدوث السيول مرتين في وادي الحَصِيد، حيث غمرتا وفاضتا من فوق السد، مرة منذ عشرين عاماً مضت، والثانية قبل ذلك بحوالي خمس سنوات.

وعند عودتنا للمخيم، لم يكن لدينا إلا بعض الطعام البائس في ليلة عيد ميلاد المسيح، وفي الحقيقة لم يكن هناك شيء غير الخبز الناشف "شابورة"، وهو محمص إلى حد ما، والذي كنا نغمسه في الشاي حتى نجعله صالحاً للأكل. كذلك لدينا علبة واحدة من كمثرى كاليفورنيا.

لم يكن هناك فرصة للحصول على لحم، إذ لا يوجد هناك رعاة يرعون قطعانهم تلك الليلة في المنطقة المجاورة لنا، وليس هناك من تبغ للغليون، على الرغم من أنه كان معي صندوق من السيجار، الذي كنا ندخنه بلذة ونحن نرشف الشاي حول النار. وقد أمتعنا "السيد" بحكايات عن شهامة العرب التي استقاها من قراءاته المدرسية، وأسهم ويبان بشذرات من المعلومات عن المنطقة. وكان بئر العَفَريَة الرئيس، الذي يبلغ عمقه ٢٫٥ قامتين ونصف القامة، وقطره ١٢ قدماً، مكسواً حتى مستوى الماء ببناء من الحجارة البازلتية الصغيرة غير المشذبة. وعلى الصخور المجاورة وجدت ثمانية نصوص عربية قصيرة ليس لها أهمية تذكر، فقد كانت نقوشاً بسيطة عبارة عن دعوات بالرحمة على شخص ما ميت. وكان تاريخ أحدها يعود إلى عام ٣١٢ ربما ١٣١٢ هجرية (١٨٩٤ - ١٨٩٥ ميلادية)، وكانت تبدو جميعها معاصرة لبعضها، ربما تخليداً لذكرى أسرة كانت تحاول إقامة مستوطنة على هذه الآبار. ومرة أخرى كان هناك الكثير من البعوض.

وقد بدأنا يومنا مبكراً في صبيحة عيد ميلاد المسيح عندما كانت أشعة الشمس الشاحبة تسطع بين أشجار الدوم، وسرعان ما عدنا إلى برك مَعْرَش المالحة ومن هناك سلكنا الطريق الذي أتينا منه لننضم مرة أخرى إلى رفاقنا. وهنا التهمنا تمور المدينة واحتسينا

الشـاي، بينمـا اسـتطعت أن أشـبع نهـمي من الغليـون. وقـد انكب طبّاخنا على العمل لإعداد وجبة إفطار فاخرة من " الحنيني " ، وهو هريس بارد من التمور، والعجين والسمن، في حين كنت أستمع للأخبار من هيئة الإذاعة البريطانية.

وكان الوقت يقترب من الحادية عشرة صباحاً قبل أن ننطلق، مع نسيم لطيف يهب علينا من الجنوب - الشرقي ويدفعنا للسرعة. وسرعان ما عدنا إلى الطريق الرئيس، وولينا وجهنا شطر خيبر، وسرنا فوق سهلٍ من ا لحصباء الخفيفة، مع سلسلة جبال عطوة على طول جناحنا الأيسر، والحرة تمتد موازية إلى اليمين حوالي نصف ميل. وبعد أميال قليلة تمتد الحرة مرة أخرى، وأصبح السير أكثر صعوبة وقسوة، ولكن لم يمض وقت طويل حتى وجدنا الواحة الشهيرة تمتد أمامنا بكل بهائها الخبيث، وقلعة قديمة تجثم على صخرتها، ترتفع إلى أعلى فوق أشجار النخيل الكثيفة والقرى البائسة في وادٍ تاريخي. وهنا توقفنا بعض الوقت لنسجل كل شاردةٍ وواردةٍ بالتفصيل عن هذا المشهد الطبيعي الرائع قبل أن ندخل القرية نفسها، حيث أوقفنا - بعد حين - سياراتنا في باحة سوق الشريف. لقد قطعنا ما مجموعه ٢٢٥ كيلومتراً منذ أن غادرنا المدينة، وكانت المسافة منها إلى خيبر ١٧٩ كيلومتراً على الطريق الرئيس. وكان قصر البنت يبعد حوالي ٣٠ كيلومتراً عن خيبر، وهذا يعادل تقريباً المسافة من خيبر إلى سد الحَصيد.

الفصل الثاني

خيبر ومحيطها

غمرني شعور وأنا في خيبر بأنني على أرض مقدسة، وطأها تشارلز داوتي قبل أكثر من سبعين عاماً قبلي، ووصفها بالسحر والتميز ولم يترك شيئاً يذكر ليقال عن هذه المستوطنة القديمة، التي لم تتغير إلا قليلاً منذ أيام زيارته. لقد بقيت في الحقيقة سليمة تقريباً بدفاعاتها الطبيعية ضد السيارات، وبغض النظر عن حقيقة انهيار بعض المباني التي رآها داوتي إلى أنقاض، فإن التغيير الوحيد الذي يتمثل في نمو ضاحية صغيرة على الهضبة التي تشكل الحافة الخارجية الجنوبية للحوض الذي تقع فيه هذه الواحة.

وهنا يتوقف مرور السيارات، وعلى الجبل نشأ حي تجاري صغير، فيه دكاكين ومستودعات حول ساحة السوق، ومنازل سكنية، أحدث طرازاً من تلك التي في الحارات القديمة، وتنتشر بجانبيها على طول الأرض المرتفعة من الهضبة. وهنا أقام الكثير من تجار المدينة وغيرها فروعاً لمحلاتهم وبيوتاً لزيادة وترويج مصالحهم التجارية. ومن المعتقد بصورة عامة أن هذا المكان ملائمٌ صحيّاً أكثر من الأرض المنخفضة والرطبة، إذ يقل فيه البعوض. وكان

ذلك أمراً نسبياً تماماً، حيث إن البيت الجديد الذي حدد لإقامتنا خلال زيارتنا كان مليئاً بهذه الحشرات المخيفة، بل ولم يكن فيه دورة مياه، ناهيك عن الحمام أو مرافق الصرف الأخرى من أي نوع كانت.

وفور وصولنا، تركنا السيارات في عهدة سائقينا وخدمنا، ومضينا فوراً للتشرف بالسلام على أمير المنطقة. وكان طريقنا يمر خلال بساتين من النخيل الكثيفة ويمر بجوار ثلاث من العيون التي توفر المياه للبساتين، حتى أدى بنا إلى سفح صخرة القلعة. وقد تسلقناها بدرجٍ حادٍ وصعب، لنجد أنفسنا أمام مكتب وسكن الأمير، الذي وقف عند بابه الخارجي ليرحب بنا بلطفٍ موروث من الزمن القديم.

لقد كان حمود بن سيف، وهو أصلاً من سكان حائل، رجلاً نشيطاً في السبعين من عمره، وظل يحكم خيبر لنحو عشر سنوات، ويبدو أن له معرفة جيدة جعلته يسيطر على منطقته، التي تمتع بالسفر والتنقل فيها أكثر من غيره من الموظفين العاديين ومسؤولي المناطق. وكان يساعده اثنان من أولاده الكبار، وهما عبد الكريم وإبراهيم، وكلاهما عضو في هيئة موظفيه يتلقيان أجراً على أعمالهما. وكان الأول مسؤولاً عن منطقة قبلية صغيرة في إمارة جيزان عام ١٩٣٧، عندما كان يرافقني في رحلتي لمسح ذلك الجزء من الحدود السعودية

اليمنية، وقد رأيت فيه ممثلاً حكومياً كفئاً ومتعاوناً في منطقة قبلية حساسة. وقد تحدثنا عن تلك الأيام، وعن المناطق التي نود أن نكتشفها الآن، بينما كانت فناجين القهوة تدور علينا. وغادرت مضيفي بشعور الواثق من أن طلباتي سوف تجاب بالكامل. وعدنا إلى الشريف بالطريق الذي أتينا به، ودخلنا المساكن المخصصة لنا في أحد المباني الجديدة تحت الإنشاء، والتي تخص تاجراً من المدينة يدعى حسن غوث وأخذت غرفة كبيرة تفي بمعداتي الكثيرة، بينما ازدحم رفاقي جميعاً في غرفة أخرى لمزيد من الدفء حول موقد القهوة الكبير، والتي جلسوا فيها يحتسون مشروبات الضيافة ويقابلون الزوار من القرية ليلاً ونهاراً.

وفي المساء، بعد غروب الشمس، مشينا مرة أخرى إلى قلعة مرحب ليقابلنا الأمير بحسن الضيافة بتقديم وليمة تتناسب وكرم الأمير ومقدار الضيوف. فيها الأرز ولحم الغنم والوعل، مع الأطباق الجانبية العادية. وفي زمن الأتراك، وربما خلال زمن زيارة داوتي كانت قلعة مرحب أنقاضاً متهدمة وكان مقر الحكم يقع في مبنى يسمى قصر الصفصافة، وهو الآن مهجور في حالة تهدّم، في الأرض المنخفضة بين أشجار النخيل المرتفع الخارجي من الحوض الرئيس، قرب عين تحمل نفس الاسم. بيد أنه تحت الحكم السعودي، وخلال الثلاثينيات (١٩٣٠م) كان العمل قد بدأ في ترميم

قلعة مرحب لتستعيد مجدها القديم، بطلب من الحاكم الذي فضل أن ينام في راحة نسبية في ذلك المكان المرتفع كثيراً عن مستنقعات الواحة الموبوءة بالبعوض.

وخلال العشاء وبعده كان الحديث يدور حول موضوعات مختلفة، منها التاريخ التقليدي لخيبر، التي غزا الرسول (صلى الله عليه وسلم) شعبها اليهودي. وقد وقعت المعركة الحاسمة في موقع قرية أم كدا، على بعد ميلين تقريباً إلى الجنوب - الغربي من القرية الكبرى، قرية البشر، وعلى أرض مرتفعة على كلا جانبي وادٍ يجري إلى الأسفل عبر الحرة ليتصل بروافد أخرى من وادي الغرس وهناك مسجد عادي يبين المكان الذي وقف فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) خلال الاشتباك، في حين تم دفن شهداء المسلمين الذين سقطوا في القتال في مقبرة أطلق عليها اسم مقبرة الشهداء في منطقة قرية بشْر، وفي أرض مستنقعات مالحة ترويها بسخاء عيون كثيرة. والأرض المرتفعة من الحرة المحيطة بحوض خيبر تتناثر فيها الكثير من الأسوار (زرائب)، المشيّدة جدرانها من حجارة البازلت المركّبة فوق بعضها بطريقة غير منتظمة لتشكل مجمعات سكنية غير مسقوفة للبدو في أثناء زياراتهم السنوية لخيبر لجمع نصيبهم من المنتجات الممتازة من بساتين النخيل الغنية. وهؤلاء البدو يتقاسمون ملكية هذه البساتين مع العبيد الذين يقومون بجميع أعمال الزراعة

في الحوض الموبوء بالملاريا على نفقتهم الخاصة، في حين أن البدو ليس لهم دور في مثل هذه الأعمال إلا جمع نصيبهم المقرر. وإذا قدرنا عدد البدو من خلال عدد الزرائب، التي تعرف باسم المرابط (أي الأسوار) فلابد أن يكون التدفق السنوي للبدو كان بأعداد كبيرة. وتبدو هذه المساكن للوهلة الأولى، وبعضها لا يزيد حجمه إلا قليلاً عن الحفر الفردية للجنود في ميدان القتال، كأنها صممت لتزويد خيبر بنظام دفاعي في العمق ضد هجمات البدو، على الرغم -كما أوضحت- من أن غرضها الحقيقي كان عكس ذلك تماماً وهو توفير السكن لهؤلاء الذين لا يرغب أحد في غزواتهم على الدوام. والحكومة، بالطبع، تأخذ العُشر من إجمالي الإنتاج في الواحة قبل تقسيم ما تبقى من الرديء منه بين المشتركين في الملكية، وفي مقابل هذه الضرائب لا تفعل شيئاً على الإطلاق لتحسين أحوال وحظوظ كثير من البشر البائسين والذين يقاسون منذ أمد طويل.

وفي الأزمنة الأخيرة، أحياناً، يقوم الأمريكيون وبعض الخبراء الآخرين، ومنهم بعض الأطباء المصريين بزيارة خيبر لإعداد تقارير عن إجراءات القضاء على البعوض وتطوير مرافق الري في المنطقة. بيد أن البعوض لا يزال متفشياً كالمنتصر في هذه المعركة ولا يزال الماء يتدفق خارجاً من الأرض السبخة كما أراد له الله منذ بداية الزمان.

وبغض النظر عن رواتب ومخصصات المسؤولين الحكوميين، والشرطة، والموظفين الآخرين، الذين لا يقبضون رواتبهم أبداً بصورة منتظمة، إذ أحياناً يمكثون شهوراً بلا رواتب، فإن خيبر لم تر شيئاً من الثروة الهائلة التي صبها تدفق البترول في خزائن المملكة. حتى الأمراء المحليون في هذه المناطق النائية المهملة من الدولة يعترفون أحياناً برأيهم في سوء أنشطة الحكومة المركزية.

وبعد تناول الغداء في مسكننا يوم وصولنا، قضيت العصر في بحث مكثف عن النقوش والرسومات الصخرية على طول خط جرف الدنانة (التي تطل على عين إبراهيم) والصفصافة (فوق الحصن الذي يحمل نفس الاسم). وقد رافقني وبيان وعياض في هذا البحث، ولم يمض وقت طويل حتى وجدنا جزءاً عظيماً من سكان الواحة، بما فيهم -كما يبدو بوضوح- كل شباب خيبر، وهم يلتفون حولنا توقعاً لرؤية حدوث بعض المعجزات الخارقة، وقد عرضت بصورة غبية نسبياً جائزة مقدارها ريال لمن يقدم أي معلومات تقودني إلى نقوش قديمة في هذه المنطقة، على الرغم من أنني سرعان ما قلت لرفاقي، بعد أن دفعت مقابل ما حصلت عليه، إنني لن أدفع بعد الآن لأي صور أو خربشة عربية عادية. فقد كانت الجُرف تعج بهما وما كنت أبحث عنه هو النصوص الثمودية أو العبرية، وبينما حصلت بالفعل على حصيلة صغيرة مخيبة للآمال

من النوع الأول، فلم يكن هناك ولو سجل واحد عن أي اسم أو نشاط يهودي. والسبب في ذلك يعود كما يبدو، إلى أن اليهود، نظراً لتقدمهم أكثر من العرب في عصرهم، استخدموا الرق أو سعف النخيل أو أي مواد أخرى قابلة للتلف لتسجيل وثائقهم ومراسلاتهم، فمن النادر أن تبقى مثل هذه الأشياء في محيط العفن الرطب بالواحة. وكانت الأسماء والنصوص العربية التي ليس لها شأن كثيرة جداً وبدرجة كافية. ومن بين الصور كان وعل الجبل يحتل مكان الصدارة دون منافسة، مع وجود البعير أو البقر الوحشي أحياناً، أو صورة لإنسان من أجل التغيير.

لقد كان ذلك المساءُ مخيباً للآمال إلى حد ما، ولكن ما زال لديّ خيوطٌ كثيرة في قوسي، إذ إن الأجراف أعطتني الكثير من الفرص المثيرة لدراسة امتداد الأرض. فوراء الدنانة والصفصافة كان خط الأجراف يمتد بجبل الوطى الذي له خصائص مغناطيسية، حسب ما ظهر من سلوك بوصلتي. ومهما يكن من أمر فمن هنا كنت أتمتع بإلقاء نظرة شاملة على الواحة، حيث كانت قلعة مرحب في الناحية الشمالية - الشرقية تقريباً وضاحية شريف نحو الشرق - شمال - شرق. وإلى البعيد كانت قمة الجبل الأبيض تمتد من جهة الشرق، بينما تحتي مباشرة كانت قرية بشْر ونخيلها يقومان مقابل سفح صخرة القلعة. وإلى اليمين قليلاً من هذه المجموعة تمتد العيون التي

ذكرناها من قبل بما فيها عين علي في بقعة تقول الروايات عنها إن سيدنا علياً -وهو صهر الرسول (صلى الله عليه وسلم)- قد ذبح في معركة مرحب الوحيدة زعيم اليهود. وعين إبراهيم، هي المروى، أي المصدر الرئيس لمياه الشرب في القرية، (فمعظم هذه العيون ذات طعم معدني غير مستساغ) في حين توجد عين أخرى، وهي عين الراية التي تبين الموضع الذي غرس فيه الرسول (صلى الله عليه وسلم) رايته. ويمتد جزء قرية أم كدا على التوالي إلى الجنوب - الجنوب الغربي والجنوب - الجنوب الشرقي، بينما قرية رُوَان وأحياناً تُنطق روال التي تجثم على جرف مرتفع في واديها، تمتد إلى الركن الشمالي - الغربي من الواحة، بينما قمم القُرين الثلاث البارزة والمكّونة من الحجر الرملي تبدو وكأنها ترتفع عالياً فوق سريرٍ من سعف النخيل في وسط الحوض.

وكان اليوم التالي مخصصاً للتجول في الحرة الكبرى، لزيارة موقعين اثنين قيل إنهما مليئان بالنقوش، حسبما يظهر من اسميهما حقيقةً؛ وهما، المكتب وأبو كتيبات، وبرفقة ويبان ورجل من أتباع الأمير يسمى عبد الله، ركبنا جميعاً على الحمير، ومررنا عبر الحوض وعلى واحد من روافده يسمى شعيب الزيدية الذي أتينا فيه على مزرعة العمينى الصغيرة، التي تحتوي على بئر وبستان نخيل وبعض حقول الذرة. وهنا صعدنا إلى الحرة نفسها، حيث كانت

قناة الزيدية عن يميننا، وشعيب هلهل -الأكبر أهمية- عن يسارنا، وفيه بستان نخيل صغير. وبعد مسافة قصيرة وصلنا إلى مزرعة عين القصبة وينبوعها وهي بقعة ذات سحر عظيم، بغزارة شجر القصب الطويل وسط الأزهار المجنحة، ووفرة نمو القصب والبردي الكثيف (القرت)، ناهيك عن حقول الذرة على طول خط مسيرنا.

وسرعان ما وصلنا إلى نهاية هذه البقع المليئة بالزراعة، وخرجنا إلى المنطقة البركانية الجرداء الخالية من المياه، حيث صارت قناة هلهل الآن على يميننا تجري نحو المناطق المرتفعة في الحرة وبعد ذلك وصلنا إلى منخفض المكتب الصخري في منطقة في أعلى مجراه بالأرض الأكثر قسوة والصخور الضخمة التي تسد الوادي لتشكل بركة من المياه المالحة، والتي يسقي منها البدو ماشيتهم وقطعانهم من قديم الزمن. وعلى الصخور تركوا سجلاتهم الثمودية، التي قمت كما ينبغي بنسخها وتصويرها في أثناء راحتنا للغداء.

وبعد ذلك توجهنا نحو الجنوب - الغربي لهدفنا الثاني على طول مسار ضيق للحمير يمر من خلال تلك الصخور الجلمودية في هذه البرية السوداء التي لانهاية لها. لقد مضى ما يزيد عن ساعة حتى وصولنا إلى (أبو كتيبات)، وهو غدير (أي بركة) في قناة شعيب سدير وعلى عكس المكتب، الذي كان جافاً من ناحية عملية في هذا الوقت، على الرغم مما قيل إنه يحتفظ بمياه وافرة لشهور في فصل

السيول الغزيرة. وقد وجدنا البركة هنا مليئة بالمياه، وتشكل بحيرة بيضاوية طولها ١٠٠ متر ومتوسط عرضها ٥٠ متراً، في مشهد أكثر عظمة وجلالاً بين جبال البازلت العالية والمنخفضة على الجانبين، والتي كوّنت الصخورُ الجلمودية المتساقطة منها في طرف اتجاه مجرى التيار ما يشبه السد تقريباً ليحجز مياه السيول. وهنا أيضاً كانت توجد نقوش كثيرة على الصخور، وقد كانت كلها باللغة العربية وليست ذات شأن كبير، وربما كانت من عمل الحجاج الذين يتركون الطريق الرئيس للتزود بالمياه.

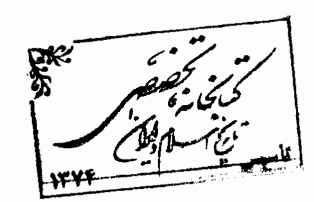
إن شعيب السديرة ينضم بصورة كاملة إلى شعيب الزيدية في حوض خيبر، وقد سرنا في قناته المليئة بالشجيرات في هذا الاتجاه لبعض الوقت قبل أن نقطع بالعرض في مسارٍ أكثر نعومة من الحرة نحو طريق المدينة الرئيس، حيث وجدنا سيارة اللاند روفر في انتظارنا بناءً على التعليمات، وسط الزرائب والحفر (العماير) التي تحد الطريق.

والمنطقة التي مسحناها خلال هذه الجولة كانت كلها تقع تقريباً شرق خيبر، وعند الاقتراب من بركة (أبو كتيبات) كنا قد أزعجنا قطيعاً من الغزلان (الأديمي) والتي صوب عليها ويبان بندقيته، فأصاب واحدة من إناثها.

وقد تُركنا وشأننا خلال وجبة العشاء، وبعدها ذهبنا بدعوة لتناول القهوة في منزل تاجر كبير بالقرية. وكان عبد الله الهندي، حسب ما يظهر من اسمه، مواطناً هندياً من أهل المدينة، وقد استقر به المقام هنا منذ أمد طويل، وازدهرت تجارته أيضاً. إنه الآن أحد مُلاك الأراضي الكبار، حيث اشترى قطعاً من الأراضي وعدداً من بساتين النخيل من مُلاكها البدو وطوّرها بطريقة ذكية.

ومن بين ضيوفه الآخرين كان قاضي خيبر -الشيخ علي أبا الخيل- وهو من عائلةٍ كان منها أمراء ذات يوم في بريدة، وكان يميل لاحتكار الحديث. وقد ناقشنا التاريخ المحلي، والنقوش، وشؤوناً أخرى ذات اهتمام عام جاءت من حقيقة أن مضيفنا كان يمتلك جهاز مذياع (راديو) ويستمع بانتظام للأخبار من مراكز عربية مختلفة. وفي مواسم السيول الغزيرة - حسب ما أخبروني - تتدفق عيون خيبر في جداول مائية تشبه الأنهار إلى حد كبير، والتي توجد فيها أسماك ضخمة يصل طولها إلى قدمين أحياناً في البرك المختلفة، وتُصاد للأكل. وبالإضافة للتمور كان القمح والدُخُن (وهو نوع من الذرة) يُزرع على نطاق واسع، وتخضع أيضاً لزكاة العُشر، والتي تجُمع عيناً من قبل بعثات تمثل أمير حائل.

وكان من الصعب الحصول على أي فكرة محددة تحديداً دقيقاً عن كميات هذا العُشر، ولكن النتيجة العامة من سماع الكثير من



المناقشات عن هذا الموضوع توحي بأن نصيب الحكومة من محصول التمور في موسم عادي قد يصل إلى ٣٠٠ حمْل جمل (والحمل يتكون من فردتين) أو وحدتين، وكل وحدة تزن ٧٠ وزنة وهي التي تعادل محلياً كيلوغراماً تقدم للأمير وموظفيه في حائل بالإضافة إلى رسوم أخرى قدرها ١٠٠ حمل إضافية لتسديد نفقات البعثة التي تجمع هذه الضريبة، وهي تسافر دائماً في أبهة وفخامة، وعلى رأسها أحد كبار الرجال. وهكذا يصل عُشْر التمر إلى حوالي ٥٦٫٠٠٠ كيلو غرام، على أساس إجمال المحصول السنوي وقدره ٥٦٠٫٠٠٠ كيلو غرام أو ٥٦٠ طناً.

ويتم تقدير عُشر محاصيل الحبوب بنفس الطريقة، ولكنه يباع محلياً من قبل جامعيه، الذين يأخذون نصيبهم نقداً. ومن الطبيعي أن يختلف هذا المبلغ من عام إلى عام، على حسب أسعار السوق للدُخن والقمح، ولم يكن بمقدور عبد الله الهندي أن يعطيني رقماً متوسطاً تقريبياً لنصيب الحكومة. وتقديري العام هو أن المساحة المزروعة بمحاصيل الحبوب في المنطقة لابد أن تكون واسعة في أي سنة طيبة.

وطبقاً لما ذكره عبد الله فإن عدد السكان القاطنين في الواحة لا يزيد عن حوالي ٣٫٠٠٠ نفس، موزعين على القرى السبع في الحوض وهي: - قرية البشْر (وهي المركز الإداري)، وأم كدا،

وروان، ونتاح، وأبو واشع، والوجده، والوادي. وتضم الأخيرة حوض وادي الغرس فوق التقاء روافده الكثيرة، وتوجد قرية زبران على ضفته اليمنى. وقد قدّر عبدالله البدو الوافدين في موسم خراص التمر بما يتراوح بين ٥٠٫٠٠٠ و ٦٠٫٠٠٠ شخص، وهذا يمكن أن يكون تقديراً معقولاً، بحكم المنطقة الواسعة التي تغطيها زرائبهم. ولا ريب أن الكثير منهم كانوا مجرد زائرين، يأتون لشراء ما يحتاجونه من التمر للسنة القادمة. ومن ناحية أخرى كان تقدير الأمير - بصورة عرضية - للسكان المستقرين حوالي ١٫٠٠٠ رجل بالغ، وهذا قد يعني تقديراً أكبر لمجموع السكان مما ذكره عبدالله، أي حوالي ٤٫٠٠٠ شخص أو أكثر قليلاً.

واليوم التالي كان مخصصاً لفحص طويل وأشد تعباً للمناطق المجاورة مباشرة للواحة. ومن حسن الحظ كان حماري "العَجْلة" أو "السريع" يتمتع بخطة ممتازة، ويتحرك فوق المسارات الصعبة بسلاسة وبمعدل سرعة ثابت. وقد رافقني ويبان أيضاً في هذا اليوم، علاوة على رجل الأمير - ويدعى عبد الله - وهو من قرية الزلفي في نجد، وكان معنا أيضاً رفيق ثالث، وهو مطيري من قرية البشْر، الذي كان على دراية حسنة بالمنطقة التي سوف نفحصها. ولم يكن أي من رفاقي من جماعة المدينة مهتماً بصورة كافية بمنطقةٍ لم يزرها أبداً من قبل حتى يود مرافقتنا في يوم عمل طويل، وظلوا جميعاً

في السكن لسعادتهم، وهم يستقبلون ضيوفهم من القرية حول نار القهوة. وبعد أن تجازونا عينين من عيون الواحة (عين الراية وعين الدفيفة)، صعدنا وادي شعيب الذي يماثل شعيب الزيدية، على الرغم من أن الاسم يُطلق فقط على الامتداد العلوي للأخير، بعد التقائه بشعيب السديرة. والجزء السفلي من الشعيب كان كثيف النخيل حتى عين الدفيفة، التي يشترك في ملكيتها صديقي عبد الله الهندي، كما يشترك أيضاً في ملكية البستان الذي يعتمد عليها، والذي اشتراه منذ بضع سنوات مضت بـ ٣٠٠ ريال.

وفيما وراء النخيل، أتينا مرة أخرى على حقول الذرة في العمينى، حيث بدأنا ننحرف عن مسارنا في اليوم السابق لنمر من خلال حقول ذرة الغياب، التي كان الفلاحون منهمكين بالعمل فيها. وكان المطيري لا يعرف معنى كلمة "قتنى" التي استخدمها داوتي للعمال الزراعيين. هذه القطعة الصغيرة من الأرض، مع بئرها، كان قد اشتراها وطورها أصلاً عبد الله الهندي، ولكنه باعها مؤخراً لرجل من أم كدا، وهو محمد بن حيدر الحاجي.

وعندما اقتربنا من عين وأشجار قصب هلهل في قناة تحمل نفس الاسم، رأينا صقراً جاثماً على جُرُفٍ قريب، وقام ويبان، المستعد دائماً ببندقيته، بإطلاق النار عليه ولكنه أخطأه. وبعد حوالي نصف ساعة من هذا المكان أتينا على واحد من أهدافنا الرئيسة لرحلتنا،

وهو سد المَشْقُوق الذي يمتد في شعيب بنفس الاسم. وبعد الحَصيد وقصر البنت، كان هذا السد بناءً مخيباً للآمال، إذ لا يزيد ارتفاعه عن ستة أقدام وسمكه خمسة عشر قدماً، وطوله ١٤ ياردة بين الجبلين الصخريين المنخفضين على الجانبين، كما أنه كان مشيّداً بصورة بدائية من الحجارة والأنقاض وجذوع الأشجار، وقد فتحت السيول ثغرة واسعة فيه حوالي ثلاثين ياردة في الضفة اليمنى، حيث تم بناء جدار قصير من الصخور لمنع مياه السيول من الانتشار فوق الأرض المجاورة. وربما كان المشهد الأكثر إثارة هو تلك المنطقة الصغيرة من الزراعة المعتمدة على بئرين في اتجاه "مجرى التيار" أمام السد. وكانت هناك أيضاً بعض البيوت المتناثرة حول الحقول في الأرض المرتفعة.

هذه القطع يملكها شخص يُدعى علي بن أحمد من قرية بشر، ومن الواضح أنه قد طوّر سداً وجميع ما يلزم في السنوات الأخيرة نسبياً، على الرغم من أنه قد يكون من المؤكد أن القدماء لم يهملوا أيضاً الإمكانات الواضحة لهذا الموقع. وكان هناك نبات الذرة ينمو بصورة جيدة في مساحة طولها ٥٠٠ ياردة وعرضها ٢٥٠ ياردة، وشعيب المَشْقُوق رافد من روافد شعيب هلهل، الذي يدخله في بستان نخيل مررنا به في طريقنا إلى هنا.

وصلنا بعد عشرين دقيقة من الركوب اليسير على منحدر من الضفة اليمنى للشعيب إلى جبل كنا نطل منه على حوض نقرة الحرضة الكبير، الذي يُحاط بالكامل بجرف الحرّة الذي يرتفع إلى خمسين قدماً، وتنتشر فيه آبار كثيرة تخدم منطقة زراعية واسعة تربتها من رمل خصب ممزوج بذرات الحمم البركانية المتحللة. وكان هناك في هذه المنطقة وحولها صخور كثيرة معزولة من البازلت والتي بدت كما لو أنها سوف تعطينا بعض النقوش، وأول واحدة فحصناها أعطتنا ذلك فعلاً، وكذلك نفس الشيء في الصخور الأخرى. ومنها جمعت محصولاً مناسباً من النصوص الثمودية، معظمها أسماء شخصيات، تعود إلى عصرٍ موغلٍ في القدم عندما كان مستوى العلم ومعرفة القراءة والكتابة بين العرب أعلى بكثير مما هو عليه اليوم. وبلا شيء يكتبون عليه غير الصخور استطاعوا بصورة جيدة وكافية أن يحافظوا على إفادة أصدقائهم (وأعدائهم) بأنشطتهم البسيطة.

ومن المحتمل أن يكون مؤلفو هذه النقوش هم أول من امتلك وزرع حوض الحرضة هذا، الذي يشكل بروزاً واسعاً من الضفة اليسرى لشعيب الحرضة، ينزل إلى أسفل على طول الجانب البعيد من سلسلتي جبال صفر والأَحْفَرَة في الشمال - الغربي ليلتقي بشعيب الأَحْفَرَة، على الجانب البعيد من نفس سلسلتي الجبال ومن

جبل آخر يسمى دهام، في طريقه إلى قناة وادي الغرس الرئيسة. وفي قاعدته يبلغ هذا البروز أكثر من ميل ونصف، وينزل إلى أسفل بانحدار شديد نحو الشرق إلى أن ينتهي في لسانٍ اتساعه حوالي ٥٠٠ ياردة، وإجمالي طوله حوالي ميلين. وفيه يوجد حوالي اثنتي عشرة بئراً، بها ماء في عمق قامتين فقط. وفي هذا الوقت كانت واحدة فقط صالحة للتشغيل لري رقعة واسعة من الذرة اليافعة قرب اللسان الضيق سابق الذكر. والآبار الباقية والحقول التي تُروى بها كانت تبدو مهجورة، أو ربما تركت للراحة انتظاراً لأمطار الشتاء وسيوله التي كانت قليلة أو نادرة حتى الآن. وكانت غربان الصحراء بنوعيها موجودةً بأعداد هائلة، بيد أن علامة الحياة الوحيدة الأخرى هي وجود الجماعة والثور الذي يشغل البئر الوحيدة والرجل المسؤول عنها.

وعند استئناف سيرنا، سرعان ما أتينا إلى النقطة التي يخرج فيها شعيب الحرضة من الحوض، وبعد ذلك بوقت قصير جداً وصلنا بعض المنخفضات ذات المياه المتدفقة ببطء والتي تصب فيها سيول شعيب هلهل في طريقها للالتقاء بوادي الغرس. وعند خروجها من حلقة جُرُف الحرّة، وعلى كلا جانبي القناة توجد بساتين النخيل الغنية لكل من نتاح وأبو واشع، وحقول الذرة في القريتين يمتد أمامنا حتى حافة جبل دهام إلى الغرب منا. وبعدهما تقع بحيرة حقيقية،

تحدها نباتات البَرْدي والقصب، التي عبرناها على جسرٍ ممهد بصورة غير دقيقة، عرضه عشرة أقدام، لنصعد إلى الحرة عبر ممر منخفض. ومن هذا نزلنا مرة أخرى في سهل طيني مالح واسع، يسمى سهلة، التي تشكل جزءاً من حوض خيبر، ولم يمض وقت طويل حتى وصلنا إلى سفح قلعة مرحب، حيث مررنا من خلال قرية بشر، وبمقبرتها الموحشة الكئيبة، حتى مقر سُكنانا في شُرَيْف.

وفي المساء، بعد العشاء، الذي تناولنا فيه لحم التيس مرة أخرى مثل الليلة السابقة (هدية من الأمير)، قمت بزيارة القاضي، الذي وجدت عنده الأمير وآخرين، يحتسون القهوة وهم مرتاحون. وفي مجرى الحديث أثرت سؤالاً كنتُ شديد الشغف باستقصائه بالكامل حسبما قد يسمح به مضي السنوات الطويلة. إن قراء داوتي سوف يتذكرون أن مضيفيه، خلال إقامته المؤقتة في خيبر، كانا الأخوين محمد وأحمد، ويلقبان بالنجومي اللذين يملكان بيتاً في الشارع الرئيس الضيق القذر بقرية بشر. وفي هذا المساء دلّني المطيري على هذا البيت، وقال إنه يستخدم الآن كمقر للمحكمة المحلية التي تعقد جلساتها فيه، ويرأسها القاضي نفسه. هذا القاضي، نظراً لأنه غريب، لم يكن من المرجح أن يعرف كثيراً عن عائلة كانت تملك البيت منذ زمن طويل قبل عصره، بما أنه كان من أهل بريدة فمن الواضح أنه لم يسمع أبداً عن داوتي. بيد أنه بطريقة أو بأخرى خلال

إقامتي تمكنت من جمع بعض المعلومات المثيرة عن عائلة النجومي، التي زرت بيتها مرة أخرى والتقطت له بعض الصور في المساء التالي. ومن المدهش حقاً أن صديقي الهندي -عبد الله- وهو يعرف كثيراً عن هذا الموضوع أكثر من أي شخص آخر يعيش في خيبر بل إنه كان يرتبط أيضاً بالعائلة.

إن بئر غيهب التي زرتها في ذلك الصباح، كانت في الحقيقة تخص محمد النجومي، ومن المرجح أن هذه هي نفس البقعة التي قضى فيها داوتي يوماً يتنزه مع مضيفه. لقد ذكرت فيما قبل أن هذه القطعة من الأرض قد طوّرها عبد الله الهندي، وباعها مؤخراً إلى رجلٍ من قرية أُم كدا.

إن حقّ عبد الله في هذه القطعة قد جاء من عائلة النجومي، فربما كان من حفيدة محمد أو أحمد، أصدقاء داوتي؛ والتي من الممكن أنه قد تزوجها ليضمن السيطرة على أرض غيهب التي ورثتها من أبيها عبد المطلوب (أو ربما عبدالمطلب) النجومى، الذي لا أعرف اسم والده. ولابد أنه قد تزوجها في المدينة أو ينبع، حيث إن وصوله لأول مرة في خيبر كان عام ١٩٣٣م. ويبدو أن الزواج قد نشأ بسبب الحاجة لتولي شؤون أرضها وأملاكها، والتي بعد وفاتها في ١٩٣٧م أدارها باسم ابنتها ووريثتها، التي تزوجت صالحاً، أحد أبناء أحمد الخطيب، الإمام المسؤول عن مسجد قرية بشر في وقت

زيارتي. وعلى كل حال فقد ماتت بعد ثلاث أو أربع سنوات، ومن المحتمل أن يكون ذلك هو الوقت الذي باع فيه أرض غيهب. وقال لي أحمد الخطيب إن أصدقاء داوتي -محمد وأحمد- قد اغتالهما رجل من قبيلة جهينة، الذي فاجأهما بغتة في منزلهما أثناء لعبهما لعبة تسمى "بيع" وربما تكون لعبة النرد. وربما يكون ذلك أمراً ثأرياً، حيث إن هذا الشخص الجهيني ويسمى ابن نُجيم كان مرتبطاً بطريقة غامضة بورثة الأخوين النجومي، اللذين كانا أنفسهما من قبيلة حرب أصلاً. وتظل الحقيقة غامضة؛ وذلك لأن سلالة النجومي قد انقرضت من خيبر، في حين تقول بعض الروايات: إن بعض بقايا العائلة قد استقرت في ينبع حتى يومنا هذا، ولم تتح لي أبداً فرصة تقصي هذا الموضوع.

إن عبد الله الهندي نفسه قد نشأ في قرية بمنطقة كراتشي، التي هي الآن جزء من باكستان، والتي تركها منذ زمن طويل يعود إلى عام ١٩٠٨م، ليؤدي مناسك الحج بمكة المكرمة ويقضي بقية أيامه في جزيرة العرب. وبعد خمس أو ست سنوات في مكة هاجر إلى المدينة، وبعد ذلك بحوالي عشرين سنة تزوج من وريثة خيبر، وانتقل معها إلى بيت أسلافها، ليستقر هناك ويزدهر حاله. لقد كان رجلاً ذا جاذبية وسحر عظيم، وله نظرة فلسفية للحياة، ومع اقتناء المذياع والسيارة يظلّ دائماً على صلة بعالم كان قد هجره من زمن طويل.

وقد قضيت آخر يوم لي بالواحة في اكتشاف قطاعها الجنوبي. وبعد مرورنا على امتداد جبل الدنانة وراء عين الصفصافة وقلعتها، عبرنا جبل الصفصاف بوادٍ ضيق إلى منخفض السبيكي المسطح، الطيني المالح، الذي كان سطحه يلمع ببرك المياه أو الملح الصلب على خلفية خضراء داكنة من أشجار النخيل على طول سفح الجبل المقابل. وقادنا مسار ضيق بين النخيل والجبل إلى بساتين نخيل الوطيح الكثيفة، والتي تُروى من عين البحير، والتي تدفقت منها مياه صافية رائعة بجوارنا ونحن نتغلب على التواءات المسار بين جدرانٍ من البازلت بارتفاع ستة أقدام.

وبعد لحظات قليلة كنا نصعد بصورة حادة على جرف "أم كدا" إلى بوابته الرائعة من العالم القديم، ومن خلفها قمنا بالالتفاف حول القرية، حتى نصل إلى منطقة واسعة مفتوحة على هضبة ضيقة بينها وبين بساتين النخيل. وفي هذه كما في محيط خيبر، كانت تتناثر زرائب البدو من حاصدي التمور، وقد أعطتنا نظرة رائعة على المنطقة المحيطة بها. وكانت قلعة مرحب تقريباً إلى الشمال - الشرقي، بينما كانت رُوّان على جرفها العالي في الشمال تقريباً، وتحتنا مباشرة، إلى الغرب والشمال - الغربي، يوجد مجمع أو ملتقى الأودية الذي تكثر فيه بساتين النخيل، التي سوف نزورها في الوقت المناسب.

وفي أثناء نزولنا من المنحدر تجاه بستان نخيل طيران وجدنا عدة رسومات على الصخر في الأجراف المجاورة، علاوة على بعض النصوص العربية الموجزة وأسماء ثمودية أحياناً. بيد أن بؤرة الاهتمام هنا كانت على عين طيران والكهف المجاور لها، الذي كان مدخله مملوءاً بالصخور والأنقاض المتساقطة. تذكر الأسطورة أن الكهف كان مملوءاً بالكنوز، التي أغرت بعضاً من قوم المنطقة لتقصي الأمر، وأقسم فتى من ضمن الزحام الذي تجمع حولنا، عندما كنا نتأمل في الموقع وما حوله، مؤكداً لنا أن والده واثنين من الرجال الآخرين، أثناء حفرهم في الطرق المؤدية للكهف، قد هاجمهم التنين الحارس للكهف. وكان ذلك عقرباً -كما قال- كبيراً مثل الثور، وماتوا جميعاً من جراحهم.

ولم يكن لدينا وقت ولا رغبة لنجرب العناية الإلهية في البحث عن كنز غير محتمل، فواصلنا طريقنا بين نخيل طيران وبُحير إلى منطقة واسعة مكشوفة، توجد فيها قرية صغيرة تسمى الدكاك بناها محمد الفرحات حديثاً لنفسه، ولأسرته وأتباعه في زياراتهم أيام الحصاد لخيبر. وهو شيخ قبيلة عيضة من اتحاد قبائل عنزة. ولم يكن هناك سوى اثني عشر بيتاً صغيراً مع مبنى أكثر اتساعاً ليستخدمه الشيخ نفسه، بيد أن المكان كان في هذا الوقت خالياً تماماً من الناس. ووراءها تقع قرية أخرى صغيرة تسمى السلالم التي مررنا منها إلى

حزام آخر من النخيل وأنقاض قرية قديمة قرب تل بارز. وهذا ذكّرني بهضبة مشابهة في منطقة المدينة، التي تخصصها الأحاديث المحلية لليهود، وقررت أن نجعل توقفنا في منتصف النهار هنا، لفحص إمكانياتها. إن التل والأنقاض تعرف باسم قصر السلامة، ولكن خبرائي المحليين لم يستطيعوا تنويري بمعلومات إضافية عن تاريخه أو قصته، ولم أجد شيئاً ذا بال في أنقاض مباني البازلت أو فوق التل، الذي كان مغطى تماماً بالتراب حتى إنني لم أستطع أن أحدد ما إذا كان ذلك طبيعياً أو اصطناعيا، وربما يكون الاحتمال الثاني صحيحاً، وفي تلك الحالة قد يكون الموقع معبداً صغيراً في هذه القرية.

ومن قمة التل، وأثناء تناولي طعام الغداء من البسكويت والأناناس المعلب، مع الشاي حتى يسهل بلعهما، تمتعت بإلقاء نظرة رائعة على المنطقة التي سوف نمر خلالها عندما نستأنف جولاتنا في الغد. وإلى البعيد نحو الغرب، قرب السكة الحديدية، كانت ترتفع للسماء القمم العالية لكل من المخطط و الحصيّن والغرّة ويمتد حقل الحمم البركانية تماماً حتى سفوحها، وفي نفس الاتجاه يبرز تل أصغر يسمى جبل السورة يبيّن موقع قلعة الحجاج القديمة التي تسمى قلعة السورة ومحطة السكة الحديدية بها. وعند الالتفاف للشمال - الغربي كانت تنتشر سلسلة من الجبال الشاهقة هي الحِصَار وأثمار

وطَرْبان وضريب على حسب هذا الترتيب من اليسار لليمين، والأخير يحدد اتجاه سهل الصحن في الطريق إلى العلا. وإلى الشرق قليلاً من الشمال، كان قمع غمرة علامة بارزة لرحلتنا القادمة إلى قرية وآبار الحفيرة في الشمال تقريباً على خط مستقيم ومنزل آخر لشيخ قبيلة عيضة.

وسوف نسير في أرض هذا الشيخ لبعض الأيام القادمة، حيث دخلناها عند وصولنا إلى رأس وادي لحن حيث خرجنا من نطاق منطقة قبيلة حرب. وعند استئناف سيرنا، سرعان ما ضللنا طريقنا في متاهة من المجازات الضيقة المسدودة وسط بساتين النخيل، واضطررنا لإعادة تتبع خطواتنا إلى قصر السلامة عندما جرّبنا طريقاً آخر بمزيد من النجاح، وتجاوزنا بدورنا عيون السلالم وعين أم البيضة، حتى وصلنا إلى بئر قديمة تسمى مطيراً اعتاد سكان خيبر أن يجتمعوا فيها قبل أيام حكم ابن سعود، للاحتفال بألعابهم القديمة وتضحياتهم الخرافية في المروج المنحدرة إلى القناة، التي تتجمع فيها مياه خيبر من اتجاهات كثيرة مباشرةً قبل الالتقاء مع وادي الغرس. وكان من الواضح أن رفاقي المحليين كانوا صغاراً في السن بدرجة كبيرة بحيث إنهم لم يشاركوا في الحقيقة في مثل هذه الاحتفالات ويبدو أنهم كانوا يتحرجون قليلاً من أوصافها، ومن المحتمل أنهم كانوا لا يحبون الحديث عن مثل هذه الأشياء الشريرة في ظل الدعوة

الإصلاحية. وفي هذه النقطة كان اتساع الوادي يبلغ نحو ألف ياردة، وبه مجرى مائي يتدفق بقوة، بينما وراءه تنتشر كتل بساتين نخيل الروّان المكتظة. إنني لم أزر القرية في جرفها العالي المنحدر، وقد استدرنا شرقاً للعودة إلى البيت.

وبعد عين القُوَير وهي عين مكتشفة حديثاً ولم يحاول الناس تجربة الزراعة بمائها بعد، أتيت إلى معلم بارز من الحجر الرملي في الطرف الشمالي - الغربي من جبل القرين وهو لوح هائل من الصخر يقف بصورة أفقية، وغير قائم على أساس وطيد من جميع الوجوه، على حافة الجرف المنخفض. وتقول الروايات إن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد استراح في الظل الوارف لهذا البروز أو النتوء خلال حملته على خيبر، ومن هنا يمكن تفسير اسمه ثوير النبي، وهو مصطلح يصعب تفسيره، على الرغم من أنه ربما يكون إشارة إلى معنيين في الانفجار البركاني أو الانتفاضة البشرية أو الثورة. وعلى واجهة الجرف توجد نقوش عربية طويلة بصورة غير عادية تتكون من سبعة خطوط، وهي قد تعرضت، لسوء الحظ، للتلف والتآكل بسبب العوامل الجوية إلى درجة أنه كان من المستحيل نسخها. وربما تكون قد حوت بعض الرموز لأسطورة طواها النسيان. وتسلقت إلى اللوح المعلّق، بيد أنني لم أجد شيئاً ذا بال عليه إلا خربشة عربية صغيرة. وكان هناك بعض رسومات الحيوانات على الجرف، والتي حاولت تصويرها ولم أنجح.

والآن مضينا مباشرة لقلعة مرحب التي ترتفع بجلال فوق نخيل الوادي الكثيف، حيث دخلنا قرية بشر، مما يبدو أن بوابتها الوحيدة الباقية، باب خوخة، إذا كان في الحقيقة يمكن أن يطلق عليه بوابة على الإطلاق؛ إنه بالأحرى نفق محفور في الطابق الأرضي لمبنى هائل جداً يبرز من وجه جرف مرحب المنحدر تجاه النخيل، والذي يفصله عن الطريق هنا جدار بازلتي سميك. وفي المبنى، أو في بيت مجاور له، كنا قد دُعينا لشرب القهوة والشاي من قبل ابن صاحب البيت، حسن غوث، الذي نسكن فيه بضاحية شريف، وكان معه أحد أقارب دليلنا مطير، وهو رجل يسمى أحمد، وكان إماماً لمسجد الجامع المحلي، وكان يُعرف بصورة عامة باسم أحمد الخطيب (أي الواعظ).

كان الحكم السلفي يذيب بالتدريج الفخر بالقبيلة والعادات القبلية القديمة في هذه القرى الصحراوية النائية، ولكن أحمد ومطيراً كانا يفخران بنسبهما، وكانا يستطيعان أن يأخذا باعتزاز شجرة نسبهما لحوالي عشرة أجيال مضت، ربما نحو ٢٠٠ سنة منذ استقرار العائلة في خيبر. وأوضّح ذلك هنا لفائدة القراء الذين قد يكونون مهتمين بجداول علم الأنساب، والتي كانت ذات يوم أمراً ذا أهمية بالغة في النظام العربي، على الرغم من أنه يوجد اليوم قلة من أعضاء الأسر العريقة، ومنها أسرة آل سعود، الذين يشغلون

أنفسهم بمثل هذا الأدوار البسيطة في عالم اليوم المزدحم بالمغامرات والمنافسة. ومهما يكن من أمر، فإن شخصاً اسمه حسين في الماضي البعيد رُزق بولد اسمه حسن، الذي أنجب بدوره علياً، الذي أنجب حمـوداً، الذي أنجب زاهر الأول، الذي كان له ولدان صالح ومطير. وقد أنجب أكبرهما عليان، الذي أنجب جزاعاً، الذي أنجب عبد الرحمن، الذي أنجب أحمد الخطيب. أما مطير، الابن الأصغر، قد أنجب زاهر الثاني الذي أنجب عياضاً، الذي أنجب علياً، الذي أنجب مطير الثاني وهو دليلنا. ومن الواضح أن الأخير ليس لديه أبناء أحياء في هذا الوقت، بيد أن أحمد لديه ما لايقل عن سبعة من الأولاد، أكبرهم، حامد، وكان موظفاً في مكتب الأمير، بينما كان الثاني، حمود، أيضاً في خدمة الحكومة في وظيفة صغيرة المرتبة. وكان الباقون جميعاً أطفالاً صغاراً في هذا الوقت وهم: صالح، وعبد الرحمن، وراشد، وإبراهيم، وعبد الكريم. وهكذا كان أحمد ومطير أولاد عمومة في الجد الرابع.

وقد صعدنا الآن الدرج إلى قلعة مرحب لنُحيِّيَ الأمير ونودعه. ومعه أيضاً شربنا الشاي والقهوة، وقدمت له شكري على كل ما أولاه لنا من كرم الضيافة والمساعدة خلال إقامتنا المؤقتة كضيوف عليه في خيبر، وأخبرته باختصار بما فعلته خلال إقامتي، وانطباعاتي العامة عن منطقته، علاوة على الأفكار التي كانت عندي

بشأن تطويرها في المستقبل، والتي تعهدت بتزكيتها وتقديمها لعناية وزير المالية، عبد الله السليمان، عند عودتي إلى مكة. وعندما نهضت للاستئذان والخروج، أسعدني الأمير بقوله إنه يريد أن يرافقنا إلى أقصى مسافة ممكنة حتى أراضي المرعى التي ترعى فيها إبله وأغنامه، وحيث أرسل عائلته مؤخراً للتخييم في البر أثناء الإجازة، وقد رحبت بهذه الفكرة، في حين حذرته من عادتي في السير ببطء حتى يمكن أن أرى المنطقة بالتفصيل وأدّون كل معلم من معالمها لرسم خرائطي. ولم يكن لديه اعتراض على ذلك، حيث تمنى أن تكون زيارتي لمصلحة منطقته.

وفي طريق عودتي، بددت الوقت سدى في القرية، حيث قمت بزيارة مسجدها الكبير، وسوقيها الاثنين، السوهان والرحبة، اللذين وطأتهما خطى أقدام داوتي قديماً. وقد التقطت أيضاً صوراً فوتوغرافية لبيت النجومي، الذي عاش فيه داوتي والمدرسة المقابلة له في الشارع الرئيس. وقد غربت الشمس قبل أن نصل إلى منزلنا لأداء الصلاة وتناول العشاء. لقد قضيت أربعة أيام فقط في خيبر، لم تتخللها لحظة واحدة من الكسل أو التراخي.

الفصل الثالث

من خيبر إلى تيماء

عندما كتب في عام ١٩١٧م عن موضوع رحلات غوارماني في شمال الجزيرة العربية خلال عام ١٨٦٤م، قال دوجلاس كاروثرز إن المنطقة الواقعة مباشرة بين تيماء وخيبر لم يعبرها أحد بالعرض أبداً من قبل، ولم يرها غير داوتي منذ ذلك الحين. وهذه بالتحديد هي المنطقة التي أنا على وشك أن أقوم باكتشافها الآن، على الرغم من أنني كنت على دراية كاملة بحقيقة أنه، منذ الحرب العالمية الثانية، قام كثير من الأمريكان بزيارة معظم المراكز الرئيسة في المنطقة بحثاً عن الزيت أو المعادن الأخرى والمياه.

وفي أثناء ذلك، كان من الواضح أنهم قد غطوا كثيراً من المنطقة الداخلية بطريقتهم السريعة والفعالة، وهي تنفيذ عملهم دون تجشم عناء تسليم الأجيال القادمة كلها أي سجل عن تفاصيل رحلاتهم. وإذا لم أكن أعرف ذلك مقدماً، فإنني قد وجدت كثيراً من دلائل مرورهم في نقاط مختلفة على دربي. بيد أنه يجوز للمرء أن يلومهم بصورة عادلة، مثلما يجوز أيضاً انتقاد غوارماني في هذه المنطقة على وجه الخصوص، لأنانيتهم وتمتعهم وحدهم بفرص

عظيمة للسفر والترحال في منطقة مجهولة، أو معروفة قليلاً، بدون الشعور بمسؤولية المكتشف في تدوين تفاصيل ملاحظاته على الأقل لخط مساره وأسماء الأماكن التي زارها أو رآها. وفي حدود ما لدي من معلومات قد تكون هذه الحقائق مدّونة في سجلات في بعض الخزائن أو الصناديق التي لا يمكن الوصول إليها في أحد المكاتب الحكومية أو التجارية، بيد أنني لن أتردد في إعلان، بقدر ما يتصل ذلك الأمر بالمنطقة التي سوف يرد وصفها، أن الرغبة الطبيعية لدى البشر في معرفة شيء ما عن الأماكن والمناطق النائية والبعيدة من عالمهم لم يشبعها بشكل ما أي ممن سبقني باستثناء، طبعاً، داوتي. إن رحلاته وجولاته يمكن دائماً تتبعها واقتفاء أثرها دونما أدنى صعوبة لأي شخص يزور المنطقة التي تجوّل فيها.

في صباح ٢٩ ديسمبر ١٩٥٠م كان كل شيء يضج بالحركة والنشاط في مقر إقامتنا بحي شريف، وبأعجوبة كان كل شيء جاهزاً للانطلاق في التاسعة والنصف صباحاً. حتى الأمير وأتباعه كانوا قد انضموا إلينا، وكنا نحتسي قهوتنا أثناء تحميل السيارات. وقرروا أن يسافروا في اللوري، بينما رافقني دليلي الجديد، محماس، في سيارة اللاندروفر التي تجر مقطورة تحمل أحمالاً ثقيلة. وسرنا مرة أخرى على طريق المدينة مسافة ميلين حتى نقطة عدنا منها مرة أخرى على طول الضفة اليسرى لوادي سلامة هذه

القناة تهبط من الحرّة المرتفعة في ما جاور جبل الأبيض، وتلتقي هنا بقناة التصريف من منحدرات عطوة، وفي المنطقة السفلى تمر من خلال قرية أم كدا في حين التزمنا يسارها بشدة حتى نتفادى غابة شجر السلم الكثيفة التي تحدد مجراها. وكان السير سهلاً يسيراً بدرجة كافية خارج الحرّة الوعرة التي يجري فيها الوادي إلى أن يخرج منها في بستان نخيل يحمل اسمه، وهو تابع لأم كدا.

وبعد ذلك بفترة وجيزة مررنا على بئر وحقول الذرة في بئر عبداللطيف، وبعد ذلك فوراً تقريباً نزلنا في المنحدر السهل إلى قرية الدكاك والآن نمر بين نخيل طيران وسلالم وعبر نخيل الدواعي ووجدة وأتينا إلى الوادي الرئيس قبل التقائه مباشرة مع وادي الغرس، وكان عرض الجدول المائي خمسين ياردة، ويجري بقوة وبعمق نسبياً، وقد كان الدليل ماهراً في إرشاده حيث عبرناه في خط دائري دونما صعوبة تذكر.

ووصلنا إلى النخيل في قاع واد يسمى مَعْناً، ينحدر إلى المجمعة (الملتقى) بين جبال دهام والأحفرة. وكان اتجاهنا الآن نحو رأس الوادي مروراً بالعين في منتصف الطريق، حيث توقفنا هناك لتقييم الوضع من مكاننا ومحيطه. ومن هنا تبدو قلعة مرحب في الجنوب - الغربي، أمام جبل عطوة، والنقطة التي تركنا عندها طريق المدينة. لقد سافرنا نحو تسعة أميال حتى نصل إلى نقطة على بُعد حوالي

أربعة أميال من نقطة انطلاقنا. بيد أننا من هنا فصاعداً أصبحنا نستطيع السير إلى الأمام باتجاه الشمال - الشرقي. وبعد عبور الوادي المنخفض الذي يصل جبال دهم وصفر، وصلنا إلى نقطة حيث يبدأ لسان من الحرّة سميك صار من المستحيل معه أن يتقدم المرء أكثر من ذلك. وتوقفنا لندع الدليل يتجول ليحدد المسار الذي فقدناه بطريقة أو بأخرى.

و اضطررنا إلى إعادة تتبع دربنا حوالي ميل، حتى نجد أنفسنا أمام عقبة أخرى، تمنعنا من التقدم على الرغم من أننا سرعان ما وجدنا طريقاً عبر شعيب الأحفرة عبر ممر وسط سلاسل جبال الأحفرة حتى قرية الخضرانة وحقول الذرة فيها. المياه هنا على عمق قامتين فقط من السطح والعدد المقدر من أشجار النخيل يضفي جمالاً على هذه القرية، وهذا الوادي رافد من وادي الأحفرة، الذي يعد بدوره رافداً من وادي الغرس. يمتد طريقنا باتجاه الشرق على طول جرف بارتفاع ١٠٠ متر من الحمم البركانية التي تحد ضفته اليمنى. ومن قمته كان لا يزال باستطاعتي رؤية قمم العطوة، ولكنني لم أعد قادراً على رؤية أي شيء من معالم خيبر. وسرنا نحو ميلين من الآبار عكس اتجاه مجرى التيار ثم استدرنا بصورة مفاجئة لنخرج من الوادي باتجاه الشمال حتى نصل إلى مخيم الأمير في روضة أُمّ العَمْر، بعد أن قطعنا حوالي عشرين ميلاً، على الرغم من أننا لم

نكن نبعد عن خيبر أكثر من خمسة عشر ميلاً. وقد قطعنا هذه المسافة في ما يزيد قليلاً عن خمس ساعات، بيد أن كثيراً من هذه المدة قد قضيناه في وقفات طواعية أو اضطرارية، مِمّا مكنني من تنفيذ مسوحاتي أثناء سيرنا.

كانت الروضة بقعة ساحرة أخاذة، وتتكون من عدد من قطع الأراضي الطينية المنبسطة والتي تفصل بينها ألسنة أو رقع من بازلت الحرّة، وبها العديد من البرك ومجمعات المياه من السيول الحديثة، ووفرة من أشجار السنط الصغيرة. وكانت رياح جنوبية تهب وتسوق الغيوم منذ أمس، وعند الغروب كانت السماء ملبّدة بالسحب، مع غيوم رعدية سوداء في أقصى الغرب.

وكان الكثير من طيور الزعرور البرّي تطير بسرعة بين الزهور الصغيرة البيضاء والحمراء في شجيرات العوسج، التي نما الكثير منها لمستويات تقارب حجم شجرة كاملة في تلك الأرض الخصبة هذه؛ وكل الأراضي تصرف مياهها في وادي خضرانة، وكان من الواضح أن جزءاً عظيماً من السيول الأخيرة قد ذهب في هذا الاتجاه، بينما تسرب معظم ما تبقى إلى باطن الأرض، أو بالتبخر.

وكانت البركة في الحوض الذي خيّمنا فيه قد انخفضت إلى نسبة معتدلة، بينما تقع علامة ارتفاع المياه في السيول، وهي حطام

الأعشاب وروث الحيوانات الطافية، على بعد حوالي خمسين ياردة على الأقل باتجاه مجرى تيار البركة.

وقد قضيت ما بقي من فترة العصر بجوار ركام من الحجارة المصفوفة فوق الجزء المرتفع من الحرّة المجاور لنا، أدرس وأفحص المنطقة بمساعدة محماس. ولم يمض وقت طويل من ركوبنا معاً حتى اكتشفت أن معرفته الجغرافية قد اختفت أو تضاءلت بسرعة مثل معالم خيبر المألوفة التي اختفت وراءنا.

ويتضح الآن جلياً جهله بالمنطقة التي سوف نزورها بدرجة لا يمكن إغفالها أو التغاضي عنها، وقد صرفته من العمل مع رسالة إلى أتباعي والأمير بأنني سوف أبقى حيث أنا، طول الليل إن اضطررت إلى ذلك، حتى يؤتى لنا بدليل كفء. لقد اكتشفت أنه من المفيد أحياناً مع مثل هؤلاء الناس أن تقطب الوجه وتعبس الجبين وترفض الكلام، حتى ولو وصل الأمر إلى رفض الطعام، وهو شيء لا يمكن لأي عربي أن يتفهمه. ومن الصُدف الغريبة أنه فيما عدا ما تناولته من شاي في الصباح فإنني لم أتناول أي مرطبات طول اليوم، حيث إن رفاقي قد أخذوا احتياطاتهم وتناولوا إفطاراً مشبعاً قبل بدء الرحلة، ولم يروا أنه من الضروري دعوتي لمشاركتهم. وعندما اكتشفت ذلك فيما بعد لم أتوانَ في التعبير عن رأيي بصراحة في مثل هذه التصرفات، وعندما حاولوا أن يسترضوني بالبسكويت

والخبز قلت لهم إنني لم أعد جائعاً. وبحلول هذا الوقت كان محمد العريفي وباقي الطاقم الذي خصصه لي عبد الله السديري في المدينة قد سقطوا من تقديري؛ فعلاوة على جهلهم التام بالمنطقة، فقد كان عدم اهتمامهم بها مدهشاً و مفجعاً، وتعجبت ما الذي أغراهم بمرافقتي وإظهارهم لشيء من الحماسة وكان عليّ أن أكتشف ذلك لاحقاً، وكنت أستطيع أن أرى من المكان الذي أقف فيه أن فصل محماس قد أحدث هياجاً في مخيمنا الهادئ، ولم يمض وقت طويل حتى تم تجنيد صبي من الرعاة وإرساله لي، وكان يسير ويعمل معنا بصورة طيبة، إلى أن رأى فجأة أحد أغنامه تضل عن أخواتها، فتركني دون أي مراسم وداع. وقد وجدته بعد ذلك في خيامنا يحتسي بكل سعادة الشاي والقهوة، ولذلك وبخته وعنّفته وأمرته أن يضربها، وقد فعل.

وفي هذه الأثناء استمر البحث عن دليل ملائم للغد، ولكنني انتظرت إلى ما بعد غروب الشمس حتى قُدم لنا خمسان من بني رشيد، وهو رجل من عشيرة ويبان، وقد أقر بأنه يعرف المنطقة كلها من هنا وحتى الحفيرة، وأفطرت من صيامي على عشاء ممتاز قدمه الأمير، مع شعور بأن كل شيء سيكون على ما يرام عندما نستأنف رحلتنا، وكان الليل معتدل الحرارة بصورة تبعث على السعادة، فقد كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة ٥٩ (فهرنهايت. وكنا نرتقي بصورة

لطيفة إلى الأعالي منذ أن غادرنا وادي خيبر، وكان ارتفاعنا هنا تقريباً هو نفس ارتفاع الأجزاء العالية من الواحة. وتشكل الروضة مستطيلاً تقريباً، طوله نحو ٣٫٥٠٠ ياردة من الجنوب - الغربي إلى الشمال - الشرقي، وعرضه أكثر بقليل من ألف ياردة. والنقاط الوحيدة فيما جاور خيبر مباشرة التي يمكن أن نراها كانت قمة عطوة وتل أم الرَّقَبَة ذي الأصبعين، الذي يطل على ملتقى الأودية. وأمامنا تمتد الجبالُ الشاهقة، مع جبلي الغَمْرَة والمُسَيْلَخَة المعزولين والناتئين، وكان الأول أسود اللون والآخر أحمر، وهما يوضحان دربنا المقبل. وهذه الجبال التي تمتد إلى الجنوب قليلاً من الغرب وحتى الشرق قليلاً من الشمال، تشمل عدداً من الجبال المميزة؛ وهي: الحِصَارُ (في أقصى الجنوب)، وذُرَيْب السهل، وجبلا أثمر وطَرْبَان بعد النصبة وذُرَيْب الوَعْر وأم عَنَاب، والوَجْرَة، وأخيراً وَبَر الحَجَر. وأحياناً يتجمع نظام السلاسل الجبلية كلها في مكان محليّ واحد مثل جبال الحَجَر أو جبال العَنْز، التي تشتمل على نحو ست عشرة قمة بارزة، ربما يصل ارتفاعها إلى ٥٫٠٠٠ قدم فوق سطح البحر.

وبعد أن استأذنا من الأمير وودعناه، والذي عاملنا بالتأكيد بكثير من اللطف والكياسة المتوارثة والتعاون المستمر فقد بدأنا مرحلة أخرى من رحلتنا. وبعد حوالي ثلاثة أميال دخلنا قناة شعيب العين

وسميت بذلك لوجود بعض العيون على بُعد أميال قليلة في مجرى القناة، -وهي بقعة ساحرة تتناثر فيها أشجار الدوم- الذي يبدأ في تل يسمى جرثاً (أو يرثاً ويحتمل أن يكون هو نفسه الذي سماه داوتي قرصاً) يقع إلى الشمال - الشرقي منا، ويلتقي بعد حوالي ميلين بعد عبورنا، بشعيب سمحة، الذي يوجد به عيون وحديقة صغيرة من النخيل. وأسفل موقعنا تجري القناة في اتجاه جنوب - غرب لتلتقي بوادي غَمْرَة في طريقها إلى وادي الطَّبَق (الذي يشبه الامتدادات المنخفضة لوادي الغَرَس)، وهو رافد رئيس من وادي الحمض الكبير بعد خط السكة الحديدية.

وعقب تمايلنا عبر الوادي وصعودنا ضفته اليمنى، فقد أتينا بسرعة شديدة بعد ذلك على آخر جبل من سلسلة جبال الحرّة في خيبر، والتي يمكن أن يقع حدها الشمالي تقريباً في قناة وادي غَمْرة، التي تمتد الآن مسافة قصيرة أمامنا. إنني أميل إلى الاعتقاد بأن وصف غوارماني الغامض بشدة وغير المقنع لزيارته إلى خيبر يمكن تفسيره بطريقة ذكية على أساس افتراض معقول ينطلق من أن المكان الذي كان يخيم فيه الشيخ رجاء آل عيضة في ذلك الوقت هو روضة أم العَمْر. لقد كتب يقول: «لثلاثة أيام، ظل دليلي متجهاً للجنوب - جنوب - شرق (من تيماء)، يبحث عن مخيم رئيسه على طريق خيبر، بين الصخور الشمالية للحرة، وبعد لحظات قليلة إلى الشرق

من أحد الخزانات الطبيعية الكبرى للمياه. . . كانت خيبر لا تزال على بُعد يوم كامل من المسير» وبعد أن ركب إلى بيضا نثيل (وهي مكان غير معروف)[1] وعاد إلى موقعه في ستة أيام، كتب يقول إنه استغرق "إحدى عشرة ساعة" (بالجمال طبعاً) حتى وصل خيبر. لقد أوضحت النقاط الجوهرية في الموضوع، ولا تختلف أي واحدة منها عن رأيي القائل بأنه قد سافر من تيماء إلى خيبر بنفس الطريق الذي التزمه أيضاً الآن من الاتجاه المعاكس.

وأعتقد أن الجبال التي أشار إليها هي جبال الحَجَر المذكورة أعلاه، والتي بينها وبين الجزء الشمالي من الحرّة لابد أن يقع طريقه إلى بيضا نثيل (جيوف ولد سليمان). وبالنسبة لرحلته اللاحقة من خيبر تجاه القصيم، يبدو أنه قد التف حول الحافة الغربية للحرة، ربما عن طريق رأس وادي اللحن، حيث كان يستطيع من هناك المرور بسهولة إلى ما جاور الحناكية، ويستمر في السير حتى الدرعية. وقد سلك "دث" طريقاً أكثر استقامة ومباشرة من ذلك الذي التزمته حديثاً بين هذه النقاط. إن وجود القرى الثلاث المذكورة أعلاه قد شكك فيه البعض على الرغم من توفر الدليل المؤيد بقوة، بيد أنه

---

(١) بل المكان معروف ويقع على خط طول ٢١َ ٤٠ْ وخط عرض ٠٤َ ٢٧ْ.
انظر: حمد الجاسر شمال المملكة، إمارات حايل والجوف وتبوك وعرعر والقريات، الرياض، دار اليمامة، ١٣٧٩هـ/ ١٩٧٧م. ص٢٤١.

الآن أصبح من المؤكد أنها كانت موجودة منذ ١٥٠ عاماً على الأقل، وربما أكثر من ذلك. وعندما دخلنا وادي الغَمْرة قادمين من الشمال - الشرقي إلى الجنوب - الغربي، في نقطة يلتف عندها حول جبل الضهيرة مرت طائرة من فوقنا، متجهة نحو الشمال على الأرجح من جدة إلى دمشق عن طريق المدينة. وفي حوض الوادي كان هناك بئر وشجرة أو اثنتان على مقربة منها، وتل الغَمْرة ذو الرأسين ليس ببعيد إلى الشمال - الشرقي. واضطررنا إلى عبور القناة مرتين فوق رمالٍ كثيفة، ولكن كان أمامنا أثر سير جماعة من عنزة التي كانت قد زارت خيبر من دمشق منذ شهر مضى، ليدلنا على الطريق.

ومع ذلك فقد ثبت أن المقطورة كانت أكثر مما يمكن أن تحتمله عربة اللاندروفر، ولذلك فقد غرزت السيارة في الرمل، بينما تمكنت الشاحنة، وهي تسير في أرض بكر، من عبور منطقة الرمال بلا صعوبة. وقد عانينا شيئاً من الصعوبة في الخروج من المشكلة، وواصلنا سيرنا في الوادي، الذي يتراوح اتساعه بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ياردة، والحرّة تلامس ضفته اليسرى. وعلى الفور تقريباً تحولنا إلى رافد منه، يسمى شعيب حلوباء باتجاه الشمال، وتركنا وادي الغَمْرة لنتجه شرقاً إلى مصدره في الجبال. ويقع رأس رافد الوايد في الشمال - الغربي بين مرتفعات الوَجْرَة ووَبَر، بيد أننا سرعان ما تركناها لنسير فوق سهل هين حتى تل شهيل حلوباء البارز، بارتفاع

نحو ٣٠٠ قدم. وقد صعدناه أنا وخمسان في حين انتقل رفاقنا إلى المهمة الأكثر ملاءمة لمزاجهم وطبيعتهم، ألا وهي إعداد القهوة. من هنا كنا نستطيع أن نرى قمة العطوة في خيبر، بل وحتى تل صرير بالقرب من وادي الثمد علاوة على جبل أم الرَّقَبَه. وإلى الشمال الغربي منا يمتد ممر ريع شرف الإمامة على اليسار من جبل عَنَاب، وتل طويلة الغزوة الصغير خلفه مباشرة، حيث حارب بنو رشيد وقتلوا ابن رفادة من قبيلة بلي خلال تمرده الفاشل ضد ابن سعود في أوائل الثلاثينيات الميلادية.

وكنا نستطيع أيضاً أن نرى بساتين نخيل سمحة إلى الشرق وجبل البرك المنخفض في الحرّة، وهو منشأ شعيب هلهل بينما كانت تقع حافة الحرّة الآن على بعد حوالي ميلين في اتجاه الجنوب - الشرقي. وتقع بئر حلوباء إلى الشرق قليلاً من الشمال، بينما في الشمال - الشرقي كانت تقع أمامنا تلال جَرْث وامتدادها في قمم عتّاب التي تشبه الفقاعات. وكتلة مُسَيْلخَةَ الجرانيتية التي تقع في الشمال تقريباً، ومن التلال خلفها تنزل قناة خضيرة الغضن في عدة فروع، عبر سهل يحمل نفس الاسم الذي يمتد أمامنا الآن أثناء مرورنا على طول سفح تلال الغَمْرة، التي يمكن رؤيتها الآن على أنها فوهات بركانية متحللة.

ونحن الآن في المنطقة التي سار فيها داوتي وهي: تل اليمن وبئرها وتلال خفيضة وختم. وكان السهل أمامنا عامراً بشجيرات

السنط الوفيرة، ومسارات الإبل في وسطها تقود إلى موقع المياه وفيه تمر الكثير من قنوات التصريف من جبلي وَبَر وعنَابَ عن يسارنا، عبر السهل بين شرائط البازلت الصلبة المتناثرة. وتقع بئر العَشَاش في الشمال - الشرقي عند التقاء وادي عزيز مع وادي خفيضة. وكنا في وسط متاهة غير عادية من الجبال وسلاسل الهضاب والتلال والأودية التي تعتمد عليها، في حين كان هدفنا المباشر ممراً ضيقاً عبر كتل مسيلخة الجرانيتية الحمراء وبالتالي كان علينا أن نعبر خطوط التصريف الثلاثة وهي غضن وعزيز وذو خشب التي تلتقي مع بعضها في المنطقة المنخفضة بالأسفل حسب هذا الترتيب قبل أن تندمج بصورة نهائية في وادي خفيضة بعد التقائه بوادي الغمرة، وهو الشريان الرئيس في المنطقة كلها. ومن خلال الثغرة التي صنعوها بين المرتفعات المحيطة بهما كنا نستطيع أن نرى قمة جبل الأبيض ومنطقة هائلة من الحرّة المجاورة. ويقال إن مرتفعات جَرْث (وربما تكون جرس) وعَتَّاب هي المكان المفضل لتيوس الجبال.

وقد عبرنا وادي غضن على بعد حوالي ميل من جبال منشأة، وسرعان ما كنا أمام ممر مسيلخة، حيث توقفنا للحظات قليلة لننظر بإعجاب إلى ممر ضيق بين كتلتين ضخمتين من الجرانيت الأحمر المكشوف. وكان طول الممر أقل من ميل وعرضه ٢٠٠ ياردة تقريباً، ولكنه لم يشكل أي صعوبة لنا، وسرعان ما كنا نعبر حوض شعيب

عزيز الوعر على بعد ميلين تقريباً من منشأه في جبل شَقْرةَ على يسارنا. وللوراء منه كان المسير وعراً على صخور بازلتية متناثرة، والتي تمتد وراءها تلال أم بردية وذو خشب في حين كنا نلمح من ورائهما أيضاً جبل حَمْرَاء بضيع الشديد الاحمرار إلى الشرق قليلاً من الشمال. ولم يمثل شعيب ذو خشب الصغير أي صعوبة، ومررنا خلال الجبل نفسه بممر سهل، بعد أن قاسينا من بعض الأرض شديدة الوعورة في الاقتراب منه. والآن كنا نجابه قناة وادي الحُفَيِّرة الواسعة، التي تتراوح في اتساعها بين ألف إلى ألف وخمس مئة ياردة بين سلسلتي جبل ذو خشب وأم رَضَام، وكلاهما من البازلت شديد السواد في ضوء شمس الغروب الخافت. وقد اخترنا بقعة جميلة مليئة بالشجيرات على ضفة الوادي اليمنى والتي سرعان ما حططنا رحالنا فيها لقضاء الليل بعد عناء يوم مثير وعامر بالعمل، والذي قطعنا خلاله ثلاثين ميلاً. إن وادي الحفيرة هو آخر الروافد في نظام التصريف الذي يشكل رأس وادي الغَمْرة، وكان علينا أن نكتشف -بعد أن سرنا فيه حتى رأسه قرب آبار الحفيرة- أنه ليس أقلها على الإطلاق. وكان الليل معتدلاً، وأدنى درجات الحرارة فيه كانت ٥٠ درجة فهرنهايت، بينما كنا على ارتفاع أعلى من خيبر بنحو ١٠٠٠ قدم، وعلى بُعد خمسين ميلاً فقط منها.

وأجبرتنا كثافة الرمل في حوض الوادي على أن نزحف على طول ضفته اليمنى، حيث كان هناك مسار وعر، ولكنه غير صعب،

معبّد بحجارة البازلت بمرور السيارات سابقاً. والنتوءات الشاهقة العرضية من ذو خشب وسلاسل الجبال على شماله كانت تشكّل طريقاً متعرجاً وسهلاً، وكانت قمة ذو خشب تعطينا نظرة طيبة على المنطقة المجاورة من حين لآخر.

وبعد حوالي ثلاثة أميال من مخيمنا، أتينا على جبل خنزيرة الأحمر البارز، الذي كانت صخوره الرايولايت اللامعة تقف في تناقض رائع مع الكتل السوداء المحيطة به. وبعد عبور شعيب خنزيرة، وهو رافد من الحفيرة، توقفنا مدة وجيزة لتدوين ملاحظاتي، وبينما كنت منهمكاً في ذلك، عثر رفاقي على حفرة حيوان الشيهم (وهو من القوارض مثل القنفذ)، وقد جمعت عدداً من فقراته. إن هذا الحيوان -الذي ينشط بالليل- نادر في هذه المناطق الجبلية، وعلى الرغم من أنه نادراً ما يرى، إلا أنني لم أر أبداً واحداً منه حياً في بيئته الطبيعة من قبل. وقبيلة هتيم والقبائل الأخرى من المرتبة الدنيا لا تشمئز من أكل لحمه، ولا من لحم القنفذ، على الرغم من أن كليهما لا يعدان لحماً شرعياً في الدوائر الأكثر أرستقراطية أو غنىً. وقال لي خمسان إن المنطقة الجبلية حول جرث كانت ملجأ مشهوراً لحيوان الشيهم. ويدخل شعيب صولة وادي الحفيرة مقابل خنزيرة، وهو ينبع من مجمع جبال أم رضم الذي يقال إنه يمتد لعدد من الأميال للخلف من الضفة اليمنى

للوادي. وإلى مسافة بعيدة باتجاه عكس التيار على الضفة اليمنى، كان الرافد الكبير لشعيب حريمل يهبط خلال تلال وجبال الأرَاكَة وأم سَهْليل غير المعروفة، والتي تستمر حتى جبل أم رضم باتجاه الشمال. وكنا ننحرف مبتعدين تدريجياً عن قناة الحفيرة، التي انتهت أو انتفت الآن لتبتعد عنا وتتجه إلى الأراكه وأم رضم، بينما دخلنا نحن وسرنا بالتزام حريمل عبر مجمع جبال أم سهليل. وفي هذه المنطقة أقلقنا راحة غزالة وحيدة وجدناها، وغراب الصحراء العادي (Ruficollis) قد أفسح الطريق لابن عمه بذيله الذي يشبه المروحة (Rhipidurus). وكانت هناك بعض الأكوام من الحجارة التي تمثل على ما يبدو قبوراً، ولكن اتضح أنها غير ذات شأن، ولم يكن خمسان يعلم عنها شيئاً.

وقد انحرفنا الآن مبتعدين عن قناة حريمل، التي تجري عبر التلال في مجرى شمالي - غربي، بينما سرنا في أرض فضاء بين تلال أم سهليل باتجاه الشمال. ومن هذه النقطة كنا لا نزال نرى في الأسفل مباشرة الحفيرة باتجاه موقع مخيمنا وما وراءه، ولكن بعد أن وصلنا إلى مضيق بين جبلين في قمة الأرض الفضاء، لم نعد نستطيع أن نرى علامتنا الأرضية السابقة، في حين يمتد أمامنا سهل بيضاوي الشكل قليل الانحدار، باتساع ميل تقريباً ومحاط بتلال سهليل الصغيرة. وفي أدنى هذه النقطة كان يقع دربنا، ولكن قبل أن نشرع

فيه توقفت لتدوين ملاحظات عن المنطقة الجديدة التي لاحت لأنظارنا. وكنت آمل أن نسير بالقرب من الأجراف الحمراء التي تدعى (حَمْراء بَضيع) لنحدد ما إذا كانت من صخور الرايولايت مثل جبل خنزيرة، أو من الصخور الرملية، والتي ستكون شيئاً مثيراً للدهشة والإعجاب.

بيد أننا تركناها بعد مسافة ما عن يميننا، وربما على ضفة حفيرة، وكنا الآن لا نستطيع أن نرى أي شيء منها. وعلى كل حال فقد رأيت أمامنا بالفعل كتلة من الصخور شديدة الاحمرار، وعندما سألت خمسان عن اسمها، أذهلتني إجابته وملأت عقلي بتوقعات غريبة، فقد قال إنّ اسمها المَذْبَح (المضبح) كما لو كان ذلك اسماً من بين الأسماء الكثيرة التي كان يعطيني إياها خلال الثماني والأربعين ساعة الماضية لإشباع نهمي الذي لا ينتهي من الأسئلة والاستفسارات. ومن واجبي أن أقر حقاً إنصافاً له، بصدق مزاعمه بأنه يعلم كل معلم من المعالم الأرضية الواقعة بين قرية الروضة وحفيرة والتي تأكدت فعلاً بأدائه خلال مرافقتنا. ومن المؤكد أنه لم يعي تماماً أن هذا الاسم يعني "مذبح الأضاحي" ، وربما كان ذلك مكاناً مقدساً لدى الأقدمين. وسألته عما إذا كان قد رأى أبداً أي صور أو نقوش في هذا المكان، وكانت إجابته بالنفي. وكان من الواضح أنه لم يتجشم أبداً عناء الانحراف عن الدرب المعبّد، وهو

على مرمى حجر من الجبل الأحمر، ليفحص عن كثب سلسلة مميزة من الصخور والشقوق والمنحدرات. ووراءها، أشار إلى قناة شعيب يَطرُوح، مع جبل بنفس الاسم على طول ضفتها اليسرى، والتي - كما قال - تتصل بجبل يمن بعد مسافة بعيدة في الجنوب وجبال الختام الشاهقة بالقرب من رأس وادي الغَمْرة. كل هذه الأسماء قد سجلها داوتي في أثناء جولاته، ولكن من الواضح أنه لم يزر وادي يطروح، ولم يسمع باسم المذبح، وعلى مسافة بعيدة وراءه يقع جبل آخر أحمر اللون قليلاً يسمى الأبْرَقيَّة، والذي كان أيضاً يبدو لي من بُعد أنه من الحجر الرملي.

وبعد حوالي ميلين أو أكثر قليلاً تحوّل تصريف السهل البيضوي بصورة حادة إلى اليمين ليدخل وادي الحفيرة على بُعد ميل تقريباً من دربنا، الذي استمر بصورة مستقيمة حتى مضيق بين قمتين، ومنه يمكننا رؤية شعيب حريمل آخر إلى أسفل وهو يقطع طريقنا ليدخل الحفيرة عن يميننا. وكنا الآن نستطيع أن نرى أن الوادي يجري بين الأرض المنخفضة التي يمتد عليها طريقنا وقوس جروف المذبح الحمراء الرائعة ماراً بمسافة قدرها خمس وأربعون درجة من الشمال - الغربي حتى الشمال. وعلى الجانب البعيد من ضلع الحجر الرملي يقع وادي يطروح الذي ينتهي عند جبل بنفس الاسم. وبعد عبور شعيب حريمل كنا على بُعد ميل من حافة وادي الحفيرة، التي قطعتها

في خط مستقيم حتى وصلت أول مجموعة من جروف الحجر الرملي، بالرغم من أن خمسان احتج على تركي مسار السيارات والمخاطرة بالوحل في الرمال.

لقد مضى كل شيء على ما يرام، وفي لحظة اندفعت إلى سفح الجرف لأقف أمام معرض للصور القديمة عليها توقيعات ثمودية، التي يحتمل أن تكون للفنانين الذي أسهموا فيه. ولم نكن قد تقدمنا سوى اثني عشر ميلاً تقريباً من آخر مخيم لنا، ولكني قررت أنه سيكون من الأفضل أن نخيّم في مكاننا هذا بقية اليوم، وهو آخر أيام العام. وثبت أن ذلك كان جديراً حقاً بالاهتمام، بعد أن مضت إحدى عشرة ساعة من العام الجديد عندما تركنا نهائياً درب الضبح.

ومن الممكن أن غوارماني أيضاً قد سلك هذا الطريق، على الرغم من أنه لم يدرك أهميته، بينما إن داوتي -كما ذكرنا من قبل- لم يكن على دراية به.

لقد كان من الواضح أنني أول زائر أجنبي لمشهد من الأحداث القديمة، التي لا يمكن تحديد طبيعتها بدقة من أول وهلة، على الرغم -حتى وأنا أكتب هذا الوصف لتجاربي في عجلة- من أن النقوش التي جمعتها من المذبح والأماكن الأخرى التي زرتها خلال رحلتي هذه تخضع الآن للدراسة على أمل نشرها قريباً بواسطة الدكتور/ فان دين براندن في هريسه على الجبل التالي نحو الشمال من الجبال

اللبنانية، على بُعد أقل من ميلين في خط مستقيم[1]. ومع توقعات نتائج استكشافي للمنطقة، يجب عليّ أن أعترف فوراً أن أحد اكتشافاتي هو أنني بعد كل شيء لم أكن أول أجنبي يزور المكان. لقد عثرت على أحد النقوش العربية المخربشة على أحد هذه الأجراف، ومن الواضح أنه قد كتبه المترجم العربي لجماعة ما زارت المذبح منذ عدة سنوات، والتي كانت تضم اثنين من علماء الجيولوجيا الأمريكيين.

وكان أول همي، بعد نسخ النقوش والصور في المنطقة المجاورة لنا مباشرة، أن أتسلق قمة الجزء الرئيس من جبل الحجر الرملي، التي ترتفع ٢٠٠ قدم تقريباً، والتي كنا نخيّم بجوارها. إن الخط العام لكتل الحجر الرملي في المنطقة، والتي تنفصل عن بعضها البعض بثغرات ذوات اتساع متباين، كان من الجنوب - الشرقي إلى الشمال - الغربي وكلها تمتد في بقعة قدرها ميلان بين واديي الحفيرة ويطروح، اللذين يلتقيان عند أقصى طرفيهما الجنوبي. وإلى الجنوب - الغربي وراء الضفة اليمنى للحفيرة تقع منطقة أم كليل الجبلية، وجبل الصَّفْرَان وراءها على بُعد ستة أميال تقريباً، والذي يتميز بقمتين شاهقتين. وعند الالتفاف إلى مسافة بعيدة نحو الغرب

(١) نشرت في ١٩٥٦م. المؤلف.

والشمال- الغربي كان الأفق مسدوداً بجبل الحما ذي اللون الأسمر الفاتح، وكتلة شاهقة عرضية، وإلى البعيد باتجاه الشمال - الغربي، يظهر جزئياً جبل الأرْدَام الطويل المتقطع. وينتمي الأخير إلى ما يسمى بالهضبة، أو الشفا في حين تعد منطقة الحفيرة، من المنحدر الطفيف الذي يشكل حدها الفاصل، جزءاً من نظام جبال الحجر الذي يمتد نحو الجنوب - الشرقي حتى رأس الغمرة ويشمل أم كليل ويطروح، وذو خشب وأم رضم، علاوة على الختام والمخيط والتلال الموجودة حول آبار يمن. ومن المحتمل أن تكون جرث والعتاب جزءاً من هذا النظام أيضاً، وبالصدفة لم يكن جبلا عتّاب والحمراء يضيع من الممكن رؤيتهما من هنا من بين العلامات الأرضية البارزة في خلفية رحلتنا.

وإضافة إلى ذلك يعد نظام جبال الحجر جزءاً من الحجاز، في حين يستبعد الشفا من ذلك، على الرغم من عدم تحديد صلاتها الجغرافية بوضوح. وأعتقد أنه سيكون من المعقول أن ننظر إلى الحجاز الحقيقي على أنه يمتد باتجاه الشمال ليضم كامل وادي الحمض وجميع روافده، ويصل إلى ساحل البحر الأحمر إلى نقطة تقع في مكان ما شمال الوجه. ومن الصعب أن نقترح اسماً ملائماً جامعاً لكل المنطقة شمال هذا الخط حتى العقبة وخليجها، ولكن، بعد عمل تعديلات طفيفة على الخط لصالح المنطقة الشمالية واحتراماً

لأسباب سياسية قديمة، أعتقد أن الأخيرة يمكن أن تعد بشكل معقول "أرض مـدين"، التي تكون حـدودها الجنوبيـة تمتـد من الطرف الجنوبي لجبل المذبح وشاملة المنطقة حتى بئر مغيرة على سكة حديد الحجاز جنوب العلا، ومن هناك حتى رأس وادي عَنْتَر، ومتابعته حتى البحر ويبدو أن السبب الذي يجعل تقديم اقتراحي هذا غير منطقي نسبياً هو أن الخط الذي رسمته يبدو أنه يحد المنطقة باتجاه الجنوب التي كانت تحت الاحتلال الفعلي خلال القرون الأولى قبل وبعد الميلاد من قبل الأنباط الذين قضوا على المعينيين في العلا ومدائن صالح والحجر والذين بدورهم جاؤوا بعد اللحيانيين الذين يمكن، حسب أقصى ما نعلم، أن يكونوا هم المدينيين، أنفسهم أو الذين خلفوهم بعد هزيمتهم.

والشيء الوحيد المؤكد هو أنه –وبصرف النظر على ما يبدو عن مناجم الذهب الشهيرة في مدين، والتي سوف يظل الكثير منها تبعاً للخط الذي رسمته واقعة في الحجاز– ليس لدينا أي دراية عن أي مستوطنة مدينية في المنطقة، وفي الحقيقة ولا أي دليل تاريخي أو آثاري لوجودهم خارج الروايات الواردة في الإنجيل. ومهما يكن من أمر، فإن النسبة العالية لنقوش الأنباط التي اكتشفتها في صخور وأجراف المذبح لا تدع مجالاً للشك في أن الناس الذين دوّنوها كانوا على دراية بهذه المنطقة. وقد أتوا إليها ربما للصيد أو للتخييم

في الربيع من مدائن صالح، وهم كانوا يحكمونها بصفتهم ملوكاً، أو زائرين لها لبعض الأغراض الدينية، وهو الشيء الذي يعنيه الاسم الباقي حتى هذا اليوم.

وعندما نزلنا من النقطة المميّزة التي ارتقيناها، بدأت في جولة على المنطقة، لأمسح الأجراف في أثناء ذهابي باتجاه الجنوب، وأجمع النقوش من هنا وهناك، التي كان معظمها ثمودية. ومن النقطة الجنوبية في جبل الرملي انحرفت إلى وادي يطروح، أتفحص الوجه الشرقي للصخور حتى وصلنا إلى أرض فضاء تربط الواديين من خلال ثغرة في جبل المذبح. ومن وراء طرفه الغربي مباشرة، وباتجاه الشرق من مكان قريب خارج خط الأجراف، أتينا إلى صخرة معزولة من الحجر الرملي، حفرتها الطبيعة في شكل يشبه أبا الهول.

وكان رأسه المسطح، ورقبته، وجسمه، ومخالبه يمكن تمييزها بصعوبة، وخلفها يوجد الجسم بظهره المسطح، الذي تخيلته مكان المذبح الذي توضع فيه القرابين لبعض الآلهة. وعلى الكَفَل، الذي كان ناعماً ومسطحاً لوضع القرابين، كان هناك نقش من سبعة أو ثمانية سطور طويلة، والتي كانت لسوء الحظ متآكلة بصورة سيئة جداً يستحيل معها فك رموزها، أو حتى تحديد ما إذا كانت من الأنباط أو الثموديين. وكان هذا أعظم خيبة أمل لي بيد أنه كان لديّ

قليل من الشك في أننا قد تمكنا من تحديد المذبح الذي أخذت منه المنطقة اسمها. وكان الوقت قد أصبح متأخراً حيث عدنا أدراجنا إلى المخيم، وتركنا فحص باقي المنطقة حتى الغد.

وقد رأينا عدداً من الأرانب البرية وطيور الحجل خلال نزهتنا، ولكننا لم نصد شيئاً منها لطبخه، ولم أكن قادراً على تحديد أنواع الطيور بأي قدر من التأكد. فربما تكون طيور الحجل من نوع السيسي، لأنها لم تبدو كطيور الحجل العربية ذات الرأس الأسود (Melanocephala)، ولا يمكن أن تكون من النوع الذي رأيته في وطني بأقصى الشمال. وتناولنا عشاءً خالياً من اللحم في ليلة رأس السنة الجديدة، وكانت ليلة رائعة ذا ت حرارة معتدلة وندى خفيف. إن العرب يميّزون الاختلاف المناخي بين منطقة الحجاز الدافئة والشفا في الحافة الغربية لصحراء شمّر الكبرى، ولكن التغيير لم يكن واضحاً إلا قليلاً بالنسبة لي، وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ست وأربعون درجة فهرنهايت. وكنا الآن على بُعد حوالي اثنين وستين ميلاً من خيبر، وما يزيد عن ٢٠٠ ميل من المدينة.

وفي الصباح الباكر من اليوم التالي، وهو أول أيام السنة الجديدة، واصلنا فحص أجراف المذبح وراء فجوة أبي الهول، على الرغم من أننا لم نحصل على مزيد من النقوش. وهنا وهناك كنا نتعرض لصعوبات بسبب الرمل الكثيف، لا سيما في أول جرف

وراء الفجوة، الذي يمتد منه شريط من الرمل إلى مسافة حتى يقترب من قناة الحفيرة. وكان آخر رأس من منطقة الحجر الرملي متوجاً بقمة مستدقة رائعة، ولكن الأجراف تحتها لم يكن بها أي نقوش. ولذلك واصلنا طريقنا باتجاه الشمال - الغربي حتى وادي الحفيرة، ونسير فوق مرتفع من البازلت يُعرف باسم عَبْد الحفيرة، الذي يميز تقريباً موقع الآبار، التي وصلنا أولها بعد ميلين. وفي أثناء ذلك أزعجنا في طريقنا سرباً صغيراً آخر من طيور الحجل، الذي كان بالتأكيد من النوع ذي الرأس السوداء.

وتعرف البئر السفلى باسم حفيرة الدنيا، وبها ماء على عمق ست قامات بفتحة مبطنة بالحجارة. وكانت فوهة البئر بيضوية الشكل طولها خمسة أقدام وعرضها ثلاثة أقدام. وبالقرب منها يوجد بيتان صغيران بائسان مهجوران، كان يسكنهما ذات يوم حراس جاؤوا بلا شك من القرية العليا، على بُعد حوالي ميل. والآن قد وصلنا هذه القرية لنجد فيها قصراً متوسط الحجم يعود لرئيس قبيلة عيضة وحوله بيوت قليلة (بعضها متهدم) فارغة، حيث هجرها ساكنوها إلى مخيماتهم الربيعية، باستثناء امرأة عجوز وابنتها ذات العشر أو الاثني عشر ربيعاً، علاوة على كلبين. وقد تركت هذه العجوز لتتولى شؤون الرعاية والاهتمام في غياب الشيخ، الذي كان من الواضح أنه قد أهمل توفير احتياجاتها المعيشية. وكان بإمكاني

المساهمة في ذلك بما تبقى من طعام غدائي، الذي تناولته هنا بجوار البئر الرئيسة. لقد كان من الواضح أن الأم وابنتها من العبيد، وكانت حالتهما مزرية شديدة البؤس، على الرغم من أنهما كانتا ودودتين مستسلمتين لحظهما القاسي، الذي علّمتهما دنياهما ألا يتوقعا أفضل منه. وفي الوادي الذي يشكّل أحد عدة رؤوس لوادي الحفيرة، توجد عدة آبار وبستان نخيل صغير، وبعض حقول الذرة الضئيلة.

إن المجموعة الصغيرة التي استوطنت هذه القرية كان أفرادها من الواضح أنهم من "الإخوان" في زمن الأيام الباكره للتمسك بالدين، بيد أن حالة التهدم والخراب الذي كانت عليه معظم البيوت القليلة، باستثناء القصر، توحي بأن القوم كانوا يفضلون الحياة في الصحراء الشاسعة على بيوتها. والقصر نفسه كان، بصورة رئيسة، بمثابة مستودع لممتلكات الشيخ. وكانت بئر المروى (مياه الشرب) مبنية بصخور البازلت، بإفريز مائل من الطوب الرملي، نقش عليه أحدهم اسم "محمد بن فرحان". وتقع عند الحافة الخارجية لجبال أم سحيل، وبها ماء على بعد ثلاث قامات. ويجري شعيب الجفر، وهو أحد رؤوس الحفيرة، إلى أسفل في مسار صخري شديد الضيق، بينما يهبط رافد آخر من منحدر تل عبد الحفيرة، ويبدأ الأول في سلسلة ويوجد في حوضه بئر، على بُعد حوالي ميلين في اتجاه عكس التيار من القصر.

وقالت لنا المرأة العجوز إن القبيلة كانت تخيّم حول آبار المِنْدَسَّة على بعد مسافة ما نحو الشمال، وإلى هناك كان هدف استئناف سيرنا، وبعد أن عبرنا سهل الجهراء المنحدر انحداراً خفيفاً وهو يشكل رأس واديي الحفيرة ويطروح، فقد توقفنا عند واحد من العدد الهائل من نتوءات الحجر الرملي، والتي تشكل بقعة تُعرف باسم طويلات (أو ضليعات) الضاعى، لنحصل على قراءات اتجاهنا من قمته المسطحة. إن جبل الأردام من الحجر الرملي، طويل، ومنخفض، وبلا ملامح تقريباً ويقع على بُعد حوالي عشرة أميال إلى الغرب منا، مع جبل آخر من جبال الشفا، يُدعى الأسياخ، على مسافة أبعد إلى الخلف ونحو الجنوب - الغربي.

وكنا لا نزال نستطيع رؤية قمة عتاب والآن ولأول مرة رأيت البركان المرتفع الذي يسمى جبل اثنان، وهنا رأى داوتي بقربه أسراباً من النعام، التي انقرضت الآن من الجزيرة العربية، والأخير هذا يقع تقريباً للشرق تماماً منا على مسافة بعيدة، في حين، أمامنا نحو الشمال - الغربي، وأيضاً لأول مرة، رأيت جبل بِرْد العظيم، الذي يرتبط في ذهني بكل من داوتي، وهوبر، والمكتشفين المشهورين الآخرين، وقد نطق خمسان اسم الجبل بالكسر بِرْد وهو قد كان موقع حراسة متقدم لتيماء القديمة. وأمامنا مباشرة باتجاه الشمال- الشرقي يمتد حوض المندسّة الطويل الواسع، ويدعمه جرف طويل

منخفض من الحجر الرملي، بالقرب منه بعض الآبار بنفس الاسم التي وجدنا فيها مخيّماً كبيراً من الخيام السوداء لشيخ قبيلة عيضة، وكل قبيلته ومواشيه. وكانت الوديان وسلاسل الجبال التي واجهناها في الأيام القليلة الماضية قد أفسحت الآن المجال لسهلٍ صحراوي فسيح ينفتح باتجاه الشرق نحو حدود شمر؛ أرض حاتم الطائي صاحب الكرم الأسطوري. وكانت خيبر الآن إلى الجنوب منا تماماً تقريباً، في حين كانت العلا أمامنا في جهة الغرب.

واصلنا سيرنا بصورة رائعة من حافة منخفض المندسّه، حتى ثلاثة أميال على أرض طينية منبسطة بأقصى ما يمكن أن يتصوره الإنسان، لقد كانت ديتونة (Daytona) مصغّرة، والتي انحدرنا خلالها حتى نصل إلى النقطة الوحيدة التي يمكن عندها أن تصعد السيارة على الجرف المنخفض في الضفة البعيدة، وما هي إلا لحظات قليلة حتى كنا نقف بين خيام آل عيضة. ولسوء الحظ كان محمد بن فرحان نفسه غائباً، على الرغم من أنه كانت مفاجأة سارة أن نجد ولده، ظهر، يقوم على تشريفات القبيلة، ولقد استضافني بحفاوة وكرم شديدين في عام ١٩٣٧ بالليث، التي كان أميراً عليها، بمناسبة زيارتي لها عند عودتي إلى مكة من حدود اليمن. وبعد المراسم الأولية لاستقبالنا، استأذنت منه في أن ننصب خيامنا على مسافة ما من مخيمه تحت حمى الجرف الذي كان به عدد من النقاط التي

تمكنا من مسح المنطقة. ووراء السهل الفسيح الذي يمتد من سلاسل الجبال هذه نحو المنطقة الجبلية التي غادرناها تواً، كان المشهد يضم طيات وسلاسل جبال يطروح، والمذبح، وأم كليل (وعلى البعد مرتفعات الصَّفران)، وجبال صناف، وأجارم، وأسياخ، والأردام، والتي تغطي الطريق إلى العلا ومدائن صالح والسكة الحديدية. وكنا أيضاً نستطيع أن نرى خنزيرة، على الرغم من أننا لم نعد نرى عتّاباً، وتقع خلفنا باتجاه الشرق منطقة مرتفعة وواسعة من صخور الحجر الرملي القاسية والمتكسرة، دون أي علامات أرضية بارزة باستثناء تل أم رقيبة النحيل على مسافة بعيدة إلى الشمال - الشرقي. وتوجد آبار الحفيرة شملى على الطريق من تيماء إلى حائل فيما وراء هذا التل في نفس الاتجاه، حيث بدا أن السماء تمطر هناك بالفعل، ومن مكاننا ألقيت نظرة على آبار المندسّة في الأسفل، التي كانت الإبل والأغنام تشرب منها في ذلك الوقت. وكذلك توجد آبار أخرى عند سفح الجبل التالي باتجاه الشرق، وتسمى الأبرقيّة وكانت جميع المراعي المحلية في حالة سيئة، لأنه لم يسقط المطر بعد في هذه الأنحاء خلال الشتاء الحالي.

وبعد غروب الشمس مباشرة كنا قد دُعينا لتناول العشاء في خيمة الشيخ، حيث اجتمع عدد من كبار رجال القبيلة لمقابلتنا، وكان ظهر، مضيفاً ظريفاً، ذا أخلاق رفيعة وموضوعات كثيرة يتحدث

عنها، والوليمة التي وضعها أمامنا كانت وفيرة بدرجة كافية، وتتكون فقط من لحم الضأن والأرز مع بعض الأصناف الغريبة الأخرى، التي لم تكن مطهية بصورة جيّدة ويصعب أكلها في الظلام، وآل عيضة هم الجزء المهم أو البارز من فرع أولاد علي من عنزة، وكان محمد بن فرحان قد ذهب مؤخراً إلى بئر مغيراء على حدود منطقة قبيلته قرب العلا، والذي دخل بشأنه في نزاع طويل مع قبيلة بلي؛ لقد ذهب بنفسه مع ابن رفاده من القبيلة المنافسة لزيارة الملك في الرياض خلال الصيف لدراسة الموضوع وحله هناك، ومن الواضح أن القرار النهائي كان في صالحه بالنسبة لملكية البئر، على أن يخضع ذلك لشروط معينة تضمن حق الجميع قاطبة وبلا استثناء، ومنهم قبيلة بلي في استخدام المروى لكافة الأغراض الشرعية. لقد كان ابن سعود عازماً منذ زمن على إلغاء العادة القبلية القديمة في احتكار المياه.

وقبل المغادرة كان محمد يستضيف خالد السديري -أمير تبوك- أثناء سيره ماراً بالمندسّة في طريقه إلى الرياض، عن طريق حائل. لقد مرت سياراته الخمس بأسفل القاع أو الأرض الطينية المنبسطة، حتى لسان الأبرقيّة التي تركوها على اليمين في طريقهم إلى بيضا نثيل. وعندما تحدثنا عن النقوش أخبرني ظهر أنه كان هناك بعضٌ منها على جبال خنزيرة، التي فاتتنا لسوء الحظ، وربما يتوقف عندها

بعض الرحالة في المستقبل قليلاً من الوقت لبحثها، وكان يعلم أيضاً بالبعثة الأمريكية إلى المذبح بصحبة أحمد فخري[1]، وهو تلميذ قديم لـ كي. إس. تويتشل. وكان آنذاك مديراً لإدارة المناجم والمشاريع بوزارة المالية، ولكنه توفي بصورة مفاجئة عام ١٩٥٤م. وبصفته الرسمية كان المدير الفعلي لمتحف جدة، الذي تم إنشاؤه بمبادرة من رجل ويلز (إنجلترا) يُدعى غيبس، ويمتلئ المتحف بأشياء أثرية وجيولوجية وجدتها أنا خلال رحلتي الحالية وبعثاتي اللاحقة. إن مغادرة غيبس عند انتهاء عقده مع الحكومة قد ملأ قلبي خوفاً وخشية من أمر مرتقب بخصوص مصير المتحف ومحتوياته، وبعضها فريد من نوعه وأحياناً عالي القيمة.

إنني لم أقابل مسؤولاً في الحكومة، كبيراً أو صغيراً، كان علم بوجود هذه المؤسسة، أو تجشّم عناء زيارته عندما أذكر له وجوده. وقد قدمت اقتراحاً، في مناسبة متأخرة، أن يقوم الملك الحالي بتشريفه بزيارة رسمية، ولكن لم يُلتفت إلى اقتراحي فأهمل تماماً. وكان من الواضح أن أحمد فخري هو الذي سجّل النقوش الموجودة بالمذبح خلال زيارة الأمريكان، وكان ظهر على دراية أيضاً بأبي الهول في المذبح، والذي قال إنه معروف محلياً باسم القطيعة. كما

(١) الدكتور أحمد فخري، عالم مختص في الآثار المصرية، ولد في الفيوم ومات في باريس، كان مولده في عام ١٣٢٣هـ، ووفاته في ١٣٩٣هـ، الموافق ١٩٠٥م إلى ١٩٧٣م. انظر الزركلي، الأعلام، ط١٣، ج١، ١٩٤.

تطوع أيضاً بإفادتي بأن الأمريكان لم يروا أو حتى لم يبحثوا عن النقوش.

وقد وعدنا ظهر بتوفير أدلاء ملائمين للجزء التالي من رحلتنا، ولكن لم يظهر أحد حتى وقت استدعائنا مرة أخرى في الصباح لتناول الفطور مع مضيفنا. وحيث إننا كنا نأمل أنهم سيكونون موجودين في خيمته، فقد قمنا بتجهيز وتعبئة حاجياتنا في السيارات استعداداً للانطلاق، ولكن لم يُقدّم لنا إلا اثنان بعد الانتهاء من طعام الفطور، ولم يكن واضحاً مدى معرفتهم الدقيقة وما بدا منهما لم يكن مشجعاً جداً ولكنهما كان يريدان من ينقلهما إلى تيماء لأسباب تخصهما، وعندما حاولت أن أقرر أيهما سيكون الأفضل قالا بكل صراحة إنه يجب علينا إما أن نأخذهما معاً أو نتركهما معاً، وكان لدينا الكثير من الأماكن المتاحة، فقررت أن أقبلهما الاثنين، واخترت واحداً منهما جزافاً ليركب معي، بينما ركب الآخر في الشاحنة. وقد وضعت خمسين ريالاً في جيبي لتوزيعها بين خدم الشيخ كعلامة شكر على استضافتنا، وكنت الآن أبحث عن الوسائل الحكيمة لأنقل النقود من جيبي إلى أيديهم بحذر وكتمان، وعندها سحبني ظهر جانباً وهمس في أذني قائلاً إنه إذا كان عندي أي نقد فائض فإنه يستطيع أن يستفيد منه بطريقة أفضل. ولم يكن من عادتي أبداً أن أقدم حافزاً (بقشيشاً) لمن يستضيفوني في رحلاتي

بالجزيرة العربية، بيد أني كنت ألتزم دائماً بالعادة الصحراوية في إعطاء خدم مضيفي بقدر ما آخذ من سيدهم. وهي بصورة عامة مسألة حساب بسيط لقيمة الخراف التي ذُبحت على شرفي، مع بعض الريالات الإضافية للأرز والقهوة، وقليل من الريالات الأخرى للسعة، وكانت الخمسون ريالاً التي قدمتها تمثل مبلغاً وفيراً في حد ذاتها، ولكنني الآن جوبهت بموقف غير عادي، ومضيفي يطلب المكافأة أو التعويض لنفسه، وبدون إبداء أي إكراه أو سوء فهم، فقد وضعت النقود في يده "لتوزيعها على خدمه". وانكبّ على عنقي يقبله بشكر عميق، ثم ركبت سيارتي وقدتها مبتعداً بأسرع ما أستطيع. لقد كان رجلاً صغيراً في حجمه، في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر، لطيفاً ودمث الأخلاق، ولكنه ربما تعوزه الحكمة والتعقل قليلاً، ومن الواضح أنه طماع وجشع، وهذا لا يبشر كثيراً بأنه سوف يرث الزعامة في قبيلة عربية عظيمة. وأثناء رحيلنا رأيت الإبل والأغنام تمضي في طريقها الشاق إلى مراعيها الخاصة بكل منها، فالأغنام تتجه لليسار صاعدة الجبل، والإبل تتجه لليمين على طول حافة الأرض الطينية المنبسطة الواسعة.

وسرنا ثلاثة أميال قبل أن نقف لنسجل ملاحظاتنا عن المنطقة المحيطة بنا، وقد التزمنا الأرض المرتفعة على طول جبل المندسّة، والأرض الطينية الواسعة عن يسارنا، والتي سماها دليلنا الجديد

أم شيتات، وكان من الواضح أنها حوض تصريف بدون منفذ أو مخرج للأمطار والسيول الآتية من المنحدرات المجاورة. وكنا الآن على طرف جبل المندسّة، متجهين نحو سهل وادي قَوّ الفسيح، والذي كان يمر من خلاله متعرجاً وادي المندسّة على طول الجانب البعيد لجبل الأردام حتى منطقة السلامة الطينية المنبسطة الواسعة في اتجاه تيماء.

ومن هنا سرنا بصورة جيدة فوق أرض سهلة إلى معتدلة من الحجر الرملي، ونحن نقتفي أثر عجلات سيارة الشيخ عبد الله الشنيفي[(١)]، في رحلته لتولي إمارة تيماء قبلنا بشهور قليلة. وفي غالب الاحتمالات كان خالد السديري قد سار مؤخراً أيضاً في نفس هذا المسار بالاتجاه الآخر. وبعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال من خيام عيضة، وصلنا قناة قَوّ في النقطة التي تنحني عندها من الغرب، ومن هناك فصاعداً التزمنا مجراها بصورة وثيقة تقريباً، حالياً على هذا الجانب وبعد حين على الجانب الآخر، باتجاه الشمال - الغربي على سطح مليء بالحصباء وغير مستو مع انتشار

(١) هو عبدالله بن إبراهيم الشنيفي تولى إمارة تَيماء في أول سنة ١٣٧٠هـ، كأول أمير سعودي لها. وكان قبلها أميراً على الدوادمي، كما عين أخوه عبدالعزيز أميراً على الخرج عام ١٩٤٩م.
وفي عام ١٣٨٤هـ تولى إمارة تيماء سليمان بن يوسف الشنيفي، واستمر أميراً لها حتى زيارة حمد الجاسر لها عام ١٣٩٠هـ. انظر: حمد الجاسر، في شمال غرب الجزيرة، ص٣٤٨.

معقول لشجيرات الرمث الجافة نوعاً ما، وبعد أن سرنا عدّة أميال عبرنا الحوض الرملي الوعر للوادي من على ضفته اليسرى، لنختصر اتساعه وانحداره عن جهة يميننا وبعد أربعة أميال من هنا يأتي مجرى الوادي على مسارنا مرة أخرى وينتشر في السهل الكثير من التلال الصغيرة هنا وهناك، وبالقرب من هذه النقطة توجد بئر قو (مشاش) على قناة الوادي وعلامتها البارزة تلة كحيل قو. وبعد ذلك بعشرة أميال التف مسارنا قليلاً إلى الشمال من الغرب مع اقتراب الوادي بجوارنا على اليمين، ولكن المنطقة كانت قفراً خالياً من أي علامات مميزة، على الرغم من أن مسيرنا كان سهلاً. وقد أصبحت تفاصيل جبل برد وصخوره ونتوءاته أكثر وضوحاً كلما اقتربنا منه.

وكانت قمة برد مسطحة ومربعة تماماً، بينما عن يمينها تقف صخرة مفصولة، مع صخرة أخرى صغيرة حادة الأطراف تظهر على البعد في الشمال. وأصبح السهل المنبسط بالتدريج أكثر تموّجاً، وكان السير فيه منتظماً وبسهولة ويسر على سطح من الحصباء. وبدأت تظهر أعداد من المعالم الجبلية والتلال على مسافة بعيدة عن يسارنا، وعندما قطعنا حوالي خمسة وثلاثين ميلاً من مخيم عيضة، عبرنا أول رافد للقو من اليسار، وربما يكون ذلك هو شعيب فارات وبعده فوراً أتينا على رافد آخر أكبر منه لنعبره وهو

شعيب هبير الذي يأتي أيضاً من تلال فارات في الشمال - الغربي لنا. وهنا وجدنا بعض الإبل ترعى على شجيرات طيبة إلى حد ما، وهي الرمث والرمرم والعذر، وفي حوض الرافد، كما في قناة قو نفسها، كان هناك عدد من أشجار الطلح الضخمة.

ونسير الآن بصورة ممتازة مسافة سبعة أميال على سهل من الحصباء الناعمة، وفيه، بجوار الطريق، مررنا على شجرتين كبيرتين من أشجار الطلح في أقسى مكان من الصحراء الجرداء. وكان جبل برد الآن يقع على الشمال - الشرقي منا، مع التلال الصغيرة التي تحيط به، في حين إلى خلفه كان يوجد جبل الوسك يمتد على شكل قوس قدره خمس وثلاثون درجة، ثم تل بارز آخر هو رُؤَاف[1] ويقع في الشرق تماماً، وإلى الغرب يمتد جبل عُرَيْضَة الطويل والمنخفض في جزأين اثنين يفصل بينهما ممر يسمى بُويب، والذي تمر منه قوافل الإبل المتجهة إلى العلا.

وبدأنا نقترب من المنطقة الوعرة التي تُطبق على حوض تيماء من الناحيتين الجنوبية والغربية، ولكن لا يزال أمامنا نحو اثني عشر ميلاً أخرى في سهل من الحصباء المسطحة اليسيرة، علينا أن نقطعها حتى نصل إلى الحافة الخارجية لبقعة وعرة من منطقة تسمى الحجيرين

(١) كما يمكن أن يرسم: رُواف.

بينما كانت قناة قوّ تبتعد عنا باستمرار عن اليمين لتهبط بصورة تدريجية سلسة إلى نهايتها في حوض السلامية الكبير. وكان اتجاهنا العام لا يزال نحو الشمال - الغربي باتجاه العديد من التلال والهضاب الصغيرة المستديرة من الحجر الرملي، وبعضها كان فيه تشكيلات مذهلة وغريبة الهيئة والتي كانت بمنزلة علامات بارزة وجيّدة في المنطقة بكاملها. وفي فترة العصر اعترضنا سرب كبير نسبياً من الجراد، وكان هذا أول سرب رأيناه منذ غادرنا المدينة، وكان يُمتع نفسه بالتهام الشجيرات في قنوات الصرف الكثيرة التي تقطع أو تسير على طول دربنا في وادي قو. كما كان هناك أيضاً الكثير من أشجار الطلح كاملة النمو في هذه البقاع المحظوظة، بينما كانت معظم الأعشاب من نوع الرمث.

وكنا لا نزال على بُعد حوالي ثلاثة أميال من حافة الحوض، عندما استدار الطريق، المميز بعلامات واضحة والذي كنا نسلكه، بصورة مفاجئة وحادة نحو الغرب. وقيل لي إن هذا كان هو الطريق الذي سلكه مؤخراً خالد السديري عند مجيئه من تبوك، ربما لتفادي تيماء وما يحيط بها من أراض وعرة. ونظراً لأن تيماء نفسها تقع إلى الشمال -الشمال- الغربي تقريباً فقد قررت، مع إذعان دليلي لذلك، أن نواصل السير في خط مستقيم عبر هذه المنطقة الوعرة في نفس الاتجاه على أمل أن نجد لنا طريقاً خلال الأحواض المتداخلة.

ومن حسن الحظ، كان الأمير الجديد لتيماء، عند ذهابه من حائل، قد التزم طريقاً قريباً من الجبال عن يميننا، ليخرج، بعد جهد وصعوبة، عند حافة حوض تيماء نفسه تحت مرتفعات جبل غُنيم البارزة، التي كنا نراها الآن أمامنا. وكان الجراد لا يزال كثيراً عندما دخلنا في منخفض محصور مليء بالشجيرات، قدنا فيه سيارتنا على هضبة غنيم، بينما كان جبل برد يقع الآن في الشرق تماماً. وبعد ذلك مباشرة تقريباً خرجنا منها لندخل في واحد من الأحواض العظيمة، تعرف باسم حفرة الجهراء وهنا وقعنا فعلاً في مصاعب جمة. لقد كانت حفرة حقيقية من الأرض الوعرة وبها أسطح متقطعة من الحجر الرملي المكشوف، مسطح أو مستدير برفق، على أرض من الرمال الكثيفة، المغطاة بكثافة بشجيرات الحمض، ومعظمها على نتوءات بارزة من الرمل لم تكن تسمح للاندروفر ومقطورتها بالسير.

وقد قاسينا من هذه العوائق مسافة ميلين حتى وصلنا مرتفعاً من الحصباء، لا لشيء إلا لنكتشف أن اللوري قد انغرز بصورة سيئة فعلاً وراءنا عند الحافة البعيدة للحوض، ومما زاد الطين بلة أن دليلنا هزاع بن سطام من أولاد علي كان قد فقد الاهتمام بما يجري حوله. لقد كان أداؤه طيباً حتى هذه النقطة، لكنني لاحظت لبعض الوقت أنه أصبح أكثر هدوءاً وسكينة، ولم يعد يتكلم، ويميل أكثر إلى

الاقتضاب في إجابته عن أسئلتي، وفي ذلك الوقت كنت قد عرفت المنطقة المحيطة بنا وأسماء المعالم البارزة فيها معرفة جيدة، وأثناء سيرنا على امتداد سهل الحصباء الناعمة كنت أستطيع أن أقطع مسافة طويلة دون التوقف مراراً لأتبين معالم الطريق. والآن كل شيء مختلف، وأنا بحاجة في الحقيقة لإرشاده وتوجيهه، وعندما أعيد النظر فيما جرى لنا أجد أنه كان من واجبه بوضوح أن يقول لنا إن الأرض التي كنا على وشك أن ندخلها كان من المستحيل المرور فيها بعربة محملة، ولكنه لم يكن على طبيعته، وعندما توقفنا على بقعة الحصباء التي كنا بها انتظاراً للشاحنة حتى تخرج من أزمتها وتلحق بنا انهار هزاع في نوبة قشعريرة من الملاريا، مثل ورقة من أوراق شجر الحور الرجراج، وهو يتأوه ويتألم بيأس، فقلت إن أفضل شيء نفعله هو أن نجد مكاناً ملائماً لنقيم المخيم فيه، وبعد أن تركت اللوري ليلحق بنا، فقد واصلت السير مع مريضي.

وقد تقدمنا لما يزيد -تقريباً- عن ميل عندها سحبت المقطورة السيارة للتوقف، وعندما أخرجنا أنفسنا من الرمل، دون أي أخبار عن الشاحنة التي لم نكن نراها، قررت أن نعود ونخيم مع رفاقنا لأن الوقت كان قد أصبح متأخراً من فترة العصر، وقد وجدنا اللوري قادماً نحونا وتوقف فور وصوله عندنا حيث أقمنا مخيمنا في هذه البقعة، وقضينا الليل بأفضل ما نستطيع في هذه الحالة غير المنتظمة

والمربكة إلى حد ما في رقعة الحصباء المحاطة بالرمل الناعم ونتوءات الحجر الرملي الكبيرة البارزة من المناطق العارية في أرضية الحجر الرملي. وحولنا كان هناك عدد وفير من شجيرات الحمض اليانعة والأعشاب الأخرى، التي كان من الواضح أنها قد نالت كثيراً من المطر في الأسابيع الأخيرة. وقد وضعنا هزاعاً البائس على الفراش ليرتاح بعد جرعة قوية من الأسبرين، ولكن في وقت متأخر من الليل كان هو الذي يتحدث كثيراً حول نار المخيم، فمن الواضح أنه قد عوفي تماماً. وكانت السماء ملبدة بالغيوم الكثيرة الخفيفة خلال الليل، الذي كان معتدلاً تماماً مرة أخرى.

وبعد حوالي ثلاثة أميال في الصباح التالي أنهينا طريقنا خلال الحوض في متاهة من الممرات بين نتوءات الحجر الرملي محافظين بأقصى ما نستطيع على السير فوق الأرض الصلبة من الحجر الرملي، ومتفادين الرمل والشجيرات. وبعد ذلك وصلنا إلى أرض أشد ارتفاعاً وراء الحوض، وسرعان ما وصلنا إلى طريق السيارات، الذي كان من الواضح أنه يطوق بقعة الأرض الوعرة، التي قضينا فيها ما يربو على عشرة أميال كاملة من الاهتزازات والارتجاجات المستمرة. ويمتد الطريق الآن مسافة كبيرة على جبل يقسم حوض الجهراء عن حوض السمك وجمعها السُمك، والذي هبطنا فيه بعد حوالي نحو خمسة أميال. وكان حوض السمك شبيهاً من جميع

النواحي بحوض الجهراء، ولكننا الآن كنا نتمتع بمسار سيارات واضح المعالم والذي أدى بنا بعد خمسة أميال أخرى إلى الجانب البعيد من الحوض وطلعة حادة إلى هضبة من الحصباء، وكان السير عليها طيباً. وكانت تدور حول الأحواض أو تشكل ممرات من خلالها، وتلتف وتدور بطريقة مذهلة، ولا تخلو من رُقع الرمل الصعب لاسيما في حفر المسار، الذي كان متعرجاً.

ومن معسكرنا حتى النقطة التي خرجنا عندها من منخفض السُمك كنا نسير باتجاه الغرب تقريباً، بينما فور وصولنا إلى مسار السيارات كنا نتجه شمالاً - شمال - غرب، بينما تصبح مرتفعات غنيم الآن للشرق تماماً من الشمال. وكان منخفض السُمك مثل بحرٍ واسعٍ غائرٍ، وسهل الحصباء فيه يشكل شطاً واسعاً حول جانبيه الشمالي والغربي. وإلى مسافة بعيدة في الغرب يقع جبل جَبَلة الطويل المنخفض في اتجاه مدائن صالح، بينما في المنخفضات كانت النقاط البارزة هي جبل نصله المرتفع، وعلى البعد للجنوب من الشرق تقريباً يوجد جبل برد مع نتوء أو مسلة جبل السُمك المتقطع، والذي يبدو أنه يشكل العمود الفقري في هذه الأرض الوعرة.

ويلتف طريقنا الآن إلى الشمال، ممتداً حوالي ثمانية أميال على مجرى متعرج إلى أن وجدنا أنفسنا أمام تل العُقَيْلة الصغير، في الحوض إلى الشرق منا، مع بئر عند سطحه.

ومن الشمال -الغربي إلى الشمال- الشرقي، كان يمتد أمامنا سهل الجريداء العظيم الذي يرتفع ارتفاعاً تدريجياً، وتتناثر فيه هنا وهناك مجموعات من صخور الحجر الرملي المتكسرة والمنخفضة ذات الأشكال الرائعة (مثل المسلة والعصى والأعمدة) وتُعرف باسم غراميل الرولة. ولمسافة بعيدة خلفها، وفي جهة اليمين منها، كنا نستطيع رؤية جبل غنيم ممتداً باتجاه الشمال في أجزاء متقطعة من رأسه العظيم، مما يشكّل حافة عالية لحوض تيماء الحقيقي، الذي لم نكن نرى منه شيئاً بعد.

لقد ذكرتني هذه المنطقة من نواح كثيرة بمشهد وادي السرحان وأحواض الجوف وسكاكا. ومن خلال الفجوة بين جبل العقيلة بالقرب منا وغنيم بعيداً عنا، كنا نطل على قفرٍ خالٍ من أي معلم يمتد امتداداً هائلاً في الأفق البعيد.

وبعد أن قطعنا ما يربو قليلاً على ثلاثين ميلاً على طول الطريق، بدا أن هذه الصحراء الخالية من أي معالم قد انتهت في واد فسيح تحفه على الجانبين سلاسل جبال واضحة ومميزة وهي، الجزء الغربي من السُمك، ويليه أبيرق الحمض عن يسارنا، مع جبل غراميل الرولة وأعمدته على يميننا. هذا الوادي، وادي الجريداء يصرّف مياه الأرض المرتفعة أمامنا في حوض السمك، وطريق السيارات، الذي يمر به الآن، يمتد وسط مراعٍ طيبة، مزدهرة بسبب السيول الأخيرة.

وعندما تحولنا جانباً عن الطريق بضع لحظات لفحص مجموعة من أعمدة الغراميل، على أملٍ ضئيل أن نجد بعض النقوش عليها ولكن دون جدوى، فقد واصلنا سيرنا بين الجبلين في قناةٍ تضيق بالتدريج، والتي اتسعت مرة أخرى حوالي ميلين، وفي هذا الجزء فوجئنا برؤية خيمة وحيدة وسيارتين تقفان أمامها بالقرب من الضفة الأخرى للوادي. ونظراً لأنني لم أرد إضاعة الوقت في التحري عن قرب، فقد أرسلت مرافقنا في اللوري لرؤية من يكون مقيماً هناك، بينما ذهبت لأمسح المنطقة. وبعد ذلك فوراً رأينا الشاحنة تعود إلينا مصحوبة بسيارة أخرى، تُقّل عبد العزيز السديري، أخو خالد أمير تبوك، وهو نفسه أمير ما يسمى بالمناطق الشمالية ومقره في النبك بوادي سرحان. وقد جاء هنا لمقابلة بعض الأمراء السعوديين، المتوقع وصولهم بعد فترة وجيزة في تيماء، وكان يقضي الوقت في مخيم بالبر على الطريق الذي سوف يأتون منه آملاً في أن يجد شيئاً يطارده بسياراته. وكنت شغوفاً بأن أصل إلى تيماء قبل غروب الشمس، واعتذرت عن قبول دعوته الملحة لقضاء الليلة معه وجماعته.

وقد كنت أعرف عبد العزيز منذ أن قابلته أميراً -وكان صغير السن في ذلك الوقت- للجوف في عام ١٩٣٥م، أثناء عودتي أنا وزوجتي بالسيارة من إنجلترا عن طريق الساحل الشمالي لأفريقيا

ودمشق . وهو أخو حصة زوجة الملك كما أنه الثاني من ثمانية أولاد لأحمد السديري الشهير ، وكلهم باستثناء الصغير يحتلون مناصب في ذاك الوقت كأمراء مناطق في المملكة العربية السعودية . وكان هو نفسه مسؤولاً عن منطقة الحدود الهامة عدة سنوات ، وأحياناً كان يتكلم بتقدير عن جلوب باشا الذي كان يتصل به مراراً لتسوية حوادث الحدود . وفي عام ١٩٥٥م تم استدعاؤه من إمارة منطقته ليتولى وظيفة وزير الزراعة ، ولكنه وافته المنية خلال شهر من وصوله جدة .

وأفضى بنا الوادي الآن في اتجاه شمالي - غربي إلى سلسة من المسطحات الطينية حوالي خمسة أميال تقريباً بعد ذلك ، ومنها صعدنا بالتدريج إلى حافة سهل فسيح من الحصباء ، ومنه بدأنا نرى سلاسل الجبال المختلفة ، التي تشكل قوساً واسعاً يمتد تجاه تيماء من أقصى الغرب ، ومن سوء الحظ أن هزاعاً كان يعلم فقط اسم واحد منها ، وهو ضِبْع ، وهو أحد الجبال إلى تيماء ، ولم أعلم المزيد عنها إلا بعد مرور عدة أيام . ومن الطريف أن عبد العزيز قال لي إن اسم الأعمدة والمسلات التي كانت في طريقنا هو سرائب الكشل وليس غراميل الرولة ، وربما يكون على حق ، لأن الاسم الأخير يُطلق على مجموعة متشابهة ومثيرة للاهتمام كثيراً من أعمدة الحجر الرملي في أقصى الغرب على طول السكة الحديدية ، والتي زرتها بعد ذلك بعدة سنوات .

إن وصولنا عند حافة السهل قد أزعج زوجاً من الغزلان حتى انطلق في سباق أمامنا، وخلاف ذلك كانت الصحراء جرداء لا أثر فيها للحياة. ومنذ وصولنا المسطحات الطينية كنا نتجه نحو الشمال ولكننا كنا نستطيع أن نرى لمسافة بعيدة خلفنا أثناء سيرنا بالنهار في اتجاه الجنوب - الجنوب - الشرقي. ولمسافة بعيدة نحو الشمال كان يبدو أن السماء تمطر بغزارة، بينما كانت الغيوم الرعدية قد بدأت تتجمع فوق جبل ضِبْع والجبال الأخرى، ولكننا واصلنا السير. وبعد حوالي ميلين أتينا على طريق متشعب عندما التقى طريقنا بطريق تبوك - تيماء الرئيس، الآتي من الشمال - الشمال - الغربي من خلال ثغرة في القوس الجبلي، والآن يتجه للشمال - الشرقي. وقد تراكمت السحب الكثيفة فوق جبل ضِبْع والجبل الذي عن يمينه، مع ريح قوية تهب من الجنوب - الغربي، تسوق عاصفة رملية أمامها نحو الشمال. وبعد ميلين التقينا بما بدا أنه أحدث خط لطريق تيماء - تبوك، وعلى طوله استدرنا نحو الجنوب - الشرقي، على هضبة غنيم بشكل أو بآخر.

ومن الطريق المتشعب نزلنا في واد واسع، به مسطح طيني طويل حوالي ميلين، يجري باتجاه حوض تيماء مع جبل ارتفاعه خمسون قدماً على الضفة اليسرى، بينما يمتد الجزء المرتفع من الهضبة. وواصلنا سيرنا بسرعة حيث إن العاصفة قد بدأت تتجمع حولنا،

وكانت السماء في الحقيقة قد بدأت تمطر، وبعد الغروب بقليل، ومواصلة السير نحو عشرة أميال وصلنا حافة حوض تيماء تحت جرفٍ عالٍ توجد فوقه أنقاض قلعة قديمة.

وكانت هذه القلعة تُعرف باسم منطر بني عطية وهنا قررنا أن نخيّم بأفضل ما نستطيع لقضاء الليلة، والريح القوية تهب علينا تحت سماء تنذر بالمطر، وقد أجبرني المطر الخفيف المتقطع على المبيت في السيارة الاندروفر، حيث أستطيع على الأقل أن أحافظ على جفاف ملابسي. وقد تمكن رفاقي من إعداد وجبة عشاء طيبة من لحم الضأن (هدية من عبد العزيز) والأرز، وفي أثناء انشغالنا بالطعام مرّت بنا مجموعة من أتباعه، كانوا في طريقهم إلى تيماء لمقابلة الأمير عبدالله بن فيصل، حيث توقفوا ساعة لمشاركتنا هذه الوليمة. وحدث أن عبد الله بن فيصل وصل شعيب هبير خلال النهار، وكان يخيّم هناك لقضاء الليل قبل دخوله إلى تيماء. وكانت وقفته السابقة في حفيرة الشملى، التي وصلها في يوم واحد من حائل، وبعد العشاء فوراً بدأ المطر ينزل بلطف، ولكن باستمرار، وفي منتصف الليل بدأ يهطل بغزارة، واستمر بصورة متقطعة مع زخات كثيفة منه حتى الفجر. ولابد أننا تعرضنا لبوصتين من المطر خلال الليل مما جعل كل شيء مبتلاً بالماء عند حلول الصباح لقد كان معنا خيام بالطبع، ولكننا نادراً ما كنا نجد أنه من الضروري نصبها لقضاء ليلة قصيرة.

وفي الصباح صعدت إلى القلعة المتهدمة، التي كان من الواضح أنها مركز لحرس حدود الواحة، على الرغم من أنها كانت فاخرة في جميع الأحوال. إن الطوب المصنوع من الجزء الرملي والمشذب تشذيباً جيداً يدل على أن بعض الجهد قد بذل لضمان راحة وأمن الحامية، ولكن المكان لم يكن مستخدماً منذ سنين طويلة، وكانت الجدران متهدمة، بالرغم من وضوح مخطط الأرضية تماماً والذي يتكون من غرفتين مربعتين بمساحة أربعين قدماً، ومتجاورتين مع بعضهما، ومتجهتين نحو الشرق لتطلا على الحوض، وفي كل طرف من الجهة الشرقية يوجد برج مستطيل، أو غرفة مراقبة مساحتها ٥ر٧ × ١٠ أقدام. وكانت القلعة تطل وتتحكم في الطريق الذي جئنا منه لتونا، واستمراره على طول سطح الجرف حوالي ميل في اتجاه شمال - شرقي.

وبعد ذلك كان الطريق ينحني شرقاً عبر الحوض نحو الواحة، بينما ينحني الجرف لليسار ليلتف حول المسطح الطيني الكبير، أو ما يعرف بالسبخة، التي يتجمع فيها صرف الحوض كله. وإلى الشمال - الشرقي، على مسافة من وراء الجرف، يوجد تل طويل سعيد البارز مع القلعة التي تقوم على حراسته، في حين على نفس حافة الجرف يرتفع تلاّن يطلق عليهما جال الملح (أي جرف الملح) يقع نخيل الواحة الطويل الذي يوجد في وسطها، ويميز موقع عينها

الشهيرة باسم هدّاج إلى الشمال قليلاً من الشرق. أما باقي الواحة فينتشر بدرجات متفاوتة على ناحيتي الشمال والشرق. ووراءها بمسافة بعيدة يمتد جبل الكتيب البعيد، مع خلفيته من رمال النفوذ، بينما في المقدمة من الشرق إلى الجنوب - الشرقي تقع المرتفعات المكونة لسلسة جبال غنيم. وبصورة عامة لم يكن هذا الموقع مؤثراً أو مثيراً للإعجاب بشدة بما يتناسب مع علامة شهيرة في التاريخ العربي القديم.

وعلى الرغم من هطول الأمطار فقد كان الليل معتدلاً، حيث كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة ٥٥ درجة فهرنهايت. ومرت من فوقنا طائرة متجهة نحو الشمال في أثناء مواصلة سيرنا صباحاً، ولم يستغرق المرر منا وقتاً طويلاً حتى قطعنا ستة أميال أو ما يقرب من ذلك والتي كانت تفصلنا عن السد الذي يحمي واحة تيماء من أعدائها وسيولها.

وبعد حوالي ميل آخر وصلنا إلى بوابة قلعة الأمير عند الحافة الخارجية للقرية. ومن خيبر حتى حافة حوض الجهراء كنا قد قطعنا ٢٢٩ كيلومتراً، وفي هذه النقطة ربما كنا على بُعد حوالي ٣٠ كيلومتراً من تيماء في خط مباشر إلى الشمال - الشمال - الغربي، ويصل طوله ٢٦٠ كيلومتراً تقريباً. بيد أن دربنا قد أخذنا عبر الأراضي الوعرة القاسية حوالي ١٧ كيلومتراً حتى التقينا بما كان في

ذلك الوقت الطريق الطبيعي، الذي كان يلتف حول الأحواض لضعف هذه المسافة تقريباً، ومن تلك النقطة كنا قد سرنا ١١ كيلومتراً حتى نصل إلى تيماء.

لقد سافرنا ٣٥٧ كيلومتراً، وقد دخلنا تيماء من الناحية الجنوبية - الشرقية، ولكننا جئنا إليها في الحقيقة من الشمال - الغربي، أو ما هو عكس اتجاه البوصلة !!. لقد قطعنا في الواقع ٦٥٧ كيلومتراً من المدينة، على الرغم من أن المسافة الحقيقة، طبقاً لحسابي، لم تكن تزيد على ٤٢٨ كيلومتراً، أو ٢٧٤ ميلاً. وكان دخولنا تيماء في يوم ٤ يناير ١٩٥١م، وخرجنا منها في ١٣ منه لإنجاز المرحلة التالية من جولاتنا.



الفصل الرابع

تيماء وما جاورها

كان عبد الله الشنيفي صديقاً قديماً لي، وكنت أحياناً أتمتع بزيارته خلال مدة ولايته الطويلة لإمارة الدوادمي، وهي المحطة الكبرى على الطريق الرئيس من مكة للرياض. وكان هو الذي -في أوائل صيف عام ١٩٥٠م- رتّب بكرم شديد الترتيبات التي مكنتني من زيارة ونسخ النقوش السبئية الشهيرة الآن في وادي ماسل والتي دونها ملوك سبأ في القرنين الخامس والسادس بعد الميلاد، وكان وجودها قد بلغني بصورة غامضة نسبياً عن طريق أخو الملك، الأمير عبد الله ابن عبد الرحمن، وخلال شتاء عام ١٩٤٩م- ١٩٥٠م زارها فؤاد حمزة من وزارة الخارجية السعودية، وأرسل لي بعض النسخ الجزئية، وكما ثبت فيما بعد، أنها غير دقيقة إلى حد ما؛ فقد أعدها على عجل ليعود إلى الراحة والرفاهية في الدوادمي. وقد أرسلت هذه النسخ إلى البروفسيور جي. ركمانز من جامعة لوفيان، وهو أكبر خبير في العالم في تاريخ سبأ ونقوشها، وقد ناقشها في محاضرتين ألقاهما في لندن وأكسفورد في أوائل شهر

مـايو ١٩٥٠م، وفي نهـايتـه رأيتـهـا ونسـختـهـا بالكامل بأفـضل مـا أستطيع من مهـارة. وقـد نشر البروفسـيور ركمـانز كمـا ينبغي النسخ التي أعـددتـهـا قـرب نهـاية العـام، وفي فـبـراير التـالي سـررت سـروراً عظيـمـاً عندمـا وصل هو وزمـلاؤه الخـبـراء إلى الموقع نفسـه في نهـاية جولة طويلة قمنا بها معاً إلى نجران والحدود الجنوبية للمملكة العربية السعودية.

ولدي سبب وجيه للشعور بالشكر والامتنان لعبد الله الشنيفي على تعـاونه الأخـوي في اكتـشـاف ونشـر النقـوش السبـئـيـة الملكيـة الوحيدة نشراً كاملاً والتي اكُتشفت لتوها في وسط الجزيرة العربية. إن عبد الله وأخـويه، عبـد الرحـمن وعبـد العزيز، رجـال ذوو سـحـر عظيم وكـرم ولطف يعود للزمن القـديم، كما أن حسن ضيـافتـهم كان عظيـمـاً ومشـهـوراً إلى حـد بعيـد. وقـد انحـدرت العـائلة أصـلاً من حـائل، حيث لا يزال أبوهم، إبراهيـم الشنيـفي، يعيش هناك خـلال هذه الأعوام، مع أنه من المتوقع وصوله إلى تيمـاء خلال فترة وجيزة مع عـائلة الأمير نفسه، التي تركـهـا وراءه في الدوادمي أثنـاء انتـقـاله على عـجل نسبياً ليتولى مسؤولية منطقته في الوقت المناسب، وفي غضون ذلك، كـان أخوه عبد العزيز في ١٩٤٩م قد عُيّن أميراً لمنطقة الخرج ومقر إقامته في إمارة الدوادمي. وغني عن القـول أن إقامتي المؤقتة لتسعـة أيام لم تكن بهيـجة وسارة جداً فقط بل كـانت أيضـاً مثمـرة إلى أقصى حد بسبب تعاون وكـرم ضـيـافة عبـد الله، على

الرغم من أنه كان غائباً عن تيماء حوالي نصف المدة تقريباً ولم يعد إلا في الوقت المناسب لتسريع انطلاقنا على طريقنا نحو الشمال. وكان غيابه بسبب انشغاله بقرب وصول والده المسن وزوجاته وأطفاله، فمن أجل مصلحتهم كان يحاول أن يحسّن من الطريق الرديء الذي سيأتون منه. إن الحافز الشخصي لأنشطته وأعماله هذه لم يكن إلا مقدمة لقرب إنشاء طريق سريع جديد له فائدة لا يمكن تقديرها لتيماء والدولة عموماً، إن الطريق الفرعي الطويل والشاق الذي يلتف حول الأراضي الوعرة والذي أتينا منه، قد أصبح شيئاً من التاريخ، ولم يعد يشجع على المرور بين تيماء وحائل أو خيبر.

ولولا مبادرات الأفراد الساعين للتطور مثل مضيفنا في تيماء، وهناك الكثير منهم بين حكّام المناطق في السعودية، لكان عدم الاكتراث من الحكومة المركزية بالأمور المتعلقة بالمناطق النائية سبباً في حدوث حالة من الفوضى مثل التي انتشرت في شبه الجزيرة العربية منذ قرون طويلة مضت، عندما كانت الإمبراطورية العربية شديدة الانشغال بفتوحاتها الخارجية لدرجةٍ أنستها التفكير في أرض مولدها.

إن عبد الله الشنيفي، الذي لم يأت إلى هنا إلا في أكتوبر الماضي بصفته أول أمير لتيماء، قد استضافنا إلى غداء كبير مترف في منزل صيفي رائع ذي حديقة ساحرة داخل حدود القلعة، المصممة بعناية

لتزويد العائلة الحاكمة بجميع المتع والرفاهية البسيطة في الحياة العربية مع الأمن التام من الأعداء الحقيقيين أو المتوهمين من باقي العالم. لقد كان المهندس المعماري رجلاً مجنوناً، ولكن الحديقة على الأقل قد أكسبته التقدير، بصفوفها المكتظة بأشجار الليمون والقريب فروت (الليمون الهندي)، وشجيرات الرمان، وأشجار الخوخ والعنب المعروشة وأشجار النخيل الطويلة التي كانت تتمايل برؤوسها الجميلة فوق المتنزه التابع للقصر. ومحصول التمر، الذي يتأخر هنا عما في الجنوب، لم يُجْمع إلا للتو، وحتى قبل عشرة أيام فقط كانوا يأكلون تموراً طازجة من الأشجار مباشرة.

لقد كانت الحديقة متاخمة لسور القلعة العظيمة التي كانت بمنزلة مقر خاص لسكنى الأمير، الذي أخذ الحيطة بتركيب أبواب مصفحة بالحديد وذات قوة وصلابة هائلة على المدخل الوحيد ليضمن حصانة كاملة من أي إزعاج خلال ساعات الظلام في الليل. وفي صالة القهوة عند المدخل رأيت نقشاً عربياً طويلاً. واستطعت بعد عدة أيام أن أحكه بصورة غير مُرْضية إلى حد ما، ولا أستطيع القول ما إذا كان حديثاً ومعاصراً لبناء القلعة في السنوات الأولى من القرن الحالي، أو أنه ربما شديد القدم وتم تركيبه في البناء الحديث ليضفي جواً من الاحترام على المكان. ولم يُتح لي فرصة فحص الأجزاء الخاصة من هذا المبنى، التي كانت بلا شك لا تختلف عن الطراز

النجدي العادي في الأثاث. وبعد الغداء بفترة وجيزة من العبث والتلكؤ البهيج في الحديقة، تم إيصالنا إلى المنزل المخصص لنا طوال مدة إقامتنا المؤقتة. لقد كان أكبر بقليل من حوش مكشوف به غرفتان أو ثلاث غرف صغيرة مبنية بالطين ومتاخمة لفناء صغير شديد القذارة، وغرفة وحيدة في الطابق الأول، يمكن الوصول إليها بمزلقان طيني مكسور، ذي درج رديء. وقد اتخذت الغرفة العلوية لنفسي وتركت باقي المنزل لرفاقي ومستودعاتنا. ويبدو أن السقف سوف يسرب الماء عند هطول المطر، والنافذة عبارة عن كوة مفتوحة في أحد الجدران بينما في كلا الطرفين كان هناك باب مركبّ بصورة سيئة، وكان الباب البعيد منهما يفضي إلى سقف أحد الغرفتين السفليتين، والذي يوجد فيه مرحاض صغير بدون سقف وذو جدران سيئة يمكن أن يستخدم في حال الاضطرار لقضاء الحاجة كدورة للمياه.

لقد كانت الحياة في الخيام خارج المدينة أفضل بكثير، ولكن بسبب توقع هطول الأمطار بغزارة اعتقدت أنه من الأفضل أن نقبل ما يُعطى لنا. وقد قضيت ما تبقى من فترة العصر في زيارة بئر هداج الكبيرة وجولة سريعة على الواحة ومشاهدها المختلفة بصحبة اثنين من شباب المدينة، وهما محمد وضيغام من أحفاد سلامة الذي كان شيخاً لأحد الأحياء الثلاثة التي كانت تنقسم إليها القرية الرئيسة

عندما زار داوتي تيماء في عام ١٨٧٧م. وقد ترك سلامة ولدين، هما حسين وعيد، وكان للأول ولدان هما عبيد وحميدي، وكان رفاقي أولاد الأخير، في حين يوجد آخر اسمه محمد، وهو طفل في الثامنة، الولد الوحيد لعبيد.

وكان لعيد ولد واحد اسمه صنعان، الذي كان ضيفان هو ولده الوحيد الباقي على قيد الحياة، والآن أصبح رجلاً كامل الرجولة. وكان هناك خَلَف العُمر، شيخ حي آخر في زمن داوتي، ممثلاً بحفيده دفّاق بن حميدي، وهو رجل في حوالي الخامسة والثلاثين من العمر.

ونما عندي انطباع بأن مناخ تيماء وظروفها قد حصدا أرواحاً كثيرةً ومتزايدة من سكانها البؤساء إلى حد ما، لقد قابلت بالفعل بعضاً من الشيوخ وكبار السن، ولكن لم يكن هناك خطأ في تخيل الجو العام للفقر والجوع الذي بدا أنه يخيم على المكان، فقد قال لي أحد الشباب الذين كانوا معي في هذا الأصيل الأول، عندما سألته عما إذا كان الجراد قد زارهم خلال الموسم، إنه صراحة يأمل في أن يأتي الجراد قريباً حتى يوفر إضافة مطلوبة لمخزونهم الضئيل من الطعام. وفي سنوات الجراد "الطيبة" عندما يأتي الجراد بكثرة فإنهم لا يأكلون فقط ملءَ بطونهم من هذه الحشرات المشوية، ولكنهم أيضاً يدخرون مخزوناً مقدراً منها للمستقبل، ولبيعه للبدو عندما يأتون

إلى السوق. وكذلك في هذا الموسم، بعد جمع محصول التمر، فليس هناك الكثير من الأذى الذي يمكن أن يحدثه الجراد.

وتضم واحة تيماء ثلاثة أقسام متميزة، أهمها القسم الأوسط، الذي تتجمع فيه بساتين النخيل الواسعة والمزدهرة في شكل بيضوي متسع حول بئر هداج. والقرية عبارة عن مجموعة، لا يمكن وصفها، من بيوت بسيطة بصورة أو بأخرى تنتشر بغير نظام في وحل بساتين النخيل على طول الأزقة الضيقة والمرهقة التي تؤدي إليها. ولا يوجد مكان للسوق يمكن تمييزه، أو ما يسمى بمركز التسوق، ولكن الدكاكين، كما هي قائمة فعلاً، يبدو أنها تشكل جزءاً من مساكن مالكيها.

إن "الشارع الكبير" الواسع المؤدي من قلعة الأمير إلى بئر هداج يبدو من الواضح أنه قد تم تطويره حديثاً ليكون ذا طبيعة إستراتيجية، فهو قد صممه آخر حاكم من أهالي الواحة أنفسهم ليسيطر به على طريق الوصول إلى مياه الشرب، ولتوفير مجال للهرب من قلعته في حالة حدوث أي عدوان من ابن رشيد في أوائل هذا القرن، أو من ابن سعود منذ استيلائه على حائل في ١٩٢١م. والجهة الشمالية من هذا القسم تقع على طول حافة مسطح السبخة الكبير الذي يمتد لأكثر من ميل باتجاه الجرف الذي يطوق المكان من الهضبة التي وراءه باتساع يبلغ نحو ثلاثة أميال أو أكثر. وفي الجنوب تمتد المنطقة

الواسعة من الأنقاض البائسة في تيماء القديمة، التي كانت ذات يوم العاصمة الصيفية لنبونيدوس، ملك بابل.

والضاحية الجنوبية، التي تُعرف باسم الغرب مفصولة عن الواحة المركزية بقناة وادي السيفية الواسعة، أثناء مروره في السبخة. وفي الأزمان الغابرة كانت سيوله تروي مناطق شاسعة من حقول الذرة على الجانبين، أما الأرض العليا على ضفته اليسرى فلم تكن تشمل فقط قرية صغيرة بل كان بها الكثير من الآبار لري بساتين النخيل ومحاصيل الحبوب. والمنطقة كلها أنقاض وخرائب، أو كانت أنقاضاً في وقت زيارتي لها، بعد أن دُمّرت عن عمد في عام ١٩١٦م من قبل الحاكم المجنون مراعاة لأفكاره عن الأمن الإستراتيجي. ونفس المصير بعد مرور خمس سنوات من ذلك، قد أصاب الضاحية الشرقية التي تسمى الشرق، لقد كانت آبارها وبساتين نخيلها ومزروعاتها -باستثناء بستان وحيد قرب القسم الأوسط- قد دمرت بفجور شديد خشية أن توفر غطاءً وحماية لأي محاولة ممكنة من ابن سعود لاحتلال الواحة.

والآن وقد ولى النظام القديم إلى غير رجعة، وحل السلام والأمن الأكيد بالضم السعودي الفعلي لها، فلا يشك المرء في أن قسطاً من الرخاء سيعود إلى تيماء، بيد أن هذه العملية ستكون بطيئة ما لم تتخذ الحكومة السعودية إجراءات نشطة لمساعدة مواطني

الواحة على استعادة آبارهم وإعادة زرع بساتينهم التي دمرت كلها بالقوة القاهرة من الطاغية المستهتر الذي يبدو أن انشغاله الدائم بهجماتٍ من الأعداء قد أعماه عن الخطر الأشد قرباً من السخط الفظيع بين أهل بيته نفسه. إن اغتياله في حصنه على يدي ابن عمه في سبتمبر ١٩٥٠م، وما نتج عن ذلك من احتلال الواحة من قبل الحكومة السعودية، قد ألقى بالمسؤولية عن التكفير عن جرائمه على الطرف الأخير. لقد زار الملك سعود تيماء ضمن جولته التي أعقبت الانتصار على مناطقه الشمالية في ١٩٥٤م، ولا بد من أنه كان يعلم بحاجته العاجلة للمساعدة، إلا أنني لم أسمع عن أي إجراء اتُّخذ منذ ذلك الحين ليخفف من أسى شكل القرية البائسة.

ويبدو أننا لا نعرف سوى القليل عن تاريخ تيماء خلال الاثني عشر قرناً أو ما يقترب منها بعد خضوعها التقليدي للرسول (صلى الله عليه وسلم)، والذي يرتبط مكان مخيمه وقت المعركة بصورة غامضة في الأسطورة المحلية بدرب المحجة في الأرض السبخة (أي مكان الحجاج) على الرغم من أن الاسم كان من الواضح أنه أشد قدماً مما يوحي به هذا الارتباط، حسبما يتضح بصورة جلية في أحد النقوش الثمودية التي اكتشفتها في المنطقة. وعلى كل حال، على مدى المئة عامٍ الماضية، كانت تيماء دائماً تحتل مكاناً بارزاً إلى حد ما في الهيكل السياسي للجزيرة العربية، وتتمتع بحالة من شبه

الاستقلال مع فترات من شبه الاعتماد على قوة حائل المتزايدة، منذ أن تم تأسيس الأخيرة وجعلها إمارة على يد عبد الله بن رشيد في منتصف الثلاثينيات من القرن الماضي (١٨٣٠). وعندما زار غوارماني تيماء في ١٨٦٤ متخفياً على هيئة مبعوث من الحاكم التركي لدمشق ومكلف بشراء خيول، يبدو أن الواحة كانت مستقلة تماماً تحت إدارة حاكم محلي هو رمان بن هتيمي، والذي كان أحفاده حكاماً لها معترفاً بهم حتى قبل وقت زيارتي لها مباشرة. وبما أن اسم الأسرة الحاكمة هو ابن رمان فإن ذلك يوحي بقوة شديدة أن رمان نفسه كان مؤسسها، وحيث إنه كان رجلاً في حوالي الستين من العمر، فإن بداية عهده في تيماء قد تعود بصورة معقولة إلى حوالي ١٨٤٠م، وقد وجده غوارماني ودوداً تجاه الأتراك، وأنه كان على درجة كافية من العلاقات الطيبة مع طلال بن رشيد، حاكم حائل في ذلك الوقت، حتى إنه أعطاه خطاب تزكية وتعريف إلى ذلك الحاكم.

وعندما وصل تشارلز هوبر تيماء في أوائل الثمانينيات من القرن الماضي (١٨٨٠م)، بعد أن سبقه داوتي بسنوات قليلة، كان الحاكم يدعى عبد العزيز، الابن الأكبر لرمان، ويشير هوبر بوضوح نسبياً، دون أن يطيل في كلماته، إلى أنه كان تابعاً لحائل، التي كانت في ذلك الوقت تحت حكم محمد بن رشيد الشهير. ومع ذلك، لم يكن

لهذا الأخير أي وكيل يمثله في تيماء، التي كانت إداراتها كلها على يد حاكمها المحلي: -ويذكر هوبر أيضاً مقابلته اثنين من إخوان الأخير وهما ثويني وزيد- وليس على يد الذي قُدر لولده عبد الكريم أن يحكم الواحة معظم سنوات النصف الأول من القرن الحالي. وبعد هوبر لا يوجد لدينا وصف أولي لتيماء لربع قرن من الزمان، وعندما زارها دوجلاس كاروثرز في ١٩١٠م كانت إدارتها الفعلية بيد وكيل ابن رشيد، سعيد (على الرغم من أن كاروثرز لم يذكر اسمه) الذي خلفه بعد ذلك بفترة وجيزة شخص يدعى ناصر بن عتيق. وفي عام ١٩١٦م كان هذا الأخير مع حراسته كلها قد تم تصفيتهم من قبل عبد الكريم، والذي أكد بفعلته تلك استقلال أسرته الحاكمة؛ ولكي يدافع عنها ضد دعوة ابن رشيد، فقد شرع في العمل فوراً على بناء الجزء الرئيس من القلعة الحالية على حافة حزام النخيل. ولم يُضف مبنى ثانياً لعائلته إلا بعد ذلك بعشرين عاماً، لزيادة أمنه أثناء الليل وخلال أوقات الراحة العادية، في حين أحاط المنطقة كلها بسور شاهق للاحتياط الكامل.

ولقد ذكرت من قبل الباب المصفح بالحديد، والمنفذ الوحيد لمبنى الحريم، وباباً آخر مشابهاً لهما، وهما يوفران، على ما أعتقد، الوسيلة الوحيدة للوصول إلى القسمين الرسمي والعام من مبنى القلعة، التي كانت مكتفية بذاتها، مع مسجد فسيح، وصالة قهوة

كبرى والتي توظف أيضاً كغرفة طعام للموائد الرسمية عندما يستضيف الحاكم أتباعه في مناسبات خاصة. والبرج العالي العريض الذي يعلو هذه الغرفة الكبرى يحتوي على المكاتب الإدارية للمنطقة في الطابق الأول، مع غرفة حراسة فوقه، تتمتع برؤية رائعة للمنطقة المجاورة كلها مسافة أميال في دائرة مستديرة. وقد سُمح لي أن أنال فرصة زيارة هذه المنطقة الإستراتيجية لمسح المنطقة والتقاط بعض الصور الفوتوغرافية. ولا ريب أن شيوخ ابن رمان، الذين يبدو أنهم من قبيلة شمر (سنجاره) أصلاً، كانوا يحتفظون بعدد هائل من الحراس الشخصيين من بين التابعين الموثوق بهم، وكثير منهم كانوا عبيداً أرقاء، لتسيير دوريات وحماية الأسوار، وفي الليل لا يبقى أحد في حدود القلعة إلا الحاكم وعائلته، وخدمهم وحراسهم. ومن الطريف أن هؤلاء الحكام كانوا، قبل ١٩١٦م يسكنون في قلعة من الطين أشد صغراً وأكثر روعة، بناها لهم أتباعهم دون أجر، في وسط بساتين النخيل الرئيسة عند حافة منطقة مساحتها واسعة ومفتوحة تضم بئر هداج.

وفي غضون ذلك -وكما ذكرت سابقاً- قام عبد الكريم بتدمير ضاحية الغرب تدميراً كاملاً والجزء الأعظم من ضاحية الشرق وهكذا قلل بصورة كبيرة من الأهمية الاقتصادية لمملكته أو منطقته، حتى يضمن ميداناً مفتوحاً للرماية بالنار لحماية استقلاله في حالة

تعرضه لأي تهديد من الخارج. ويبدو أن الضرر والأذى الخطير الذي لحق بمصالح أتباعه لا يهمه في قليل أو كثير، ومن الواضح أنه كان قوياً بدرجة كافية لفرض إرادته وسيادته على مجتمع بائس. وفي الحقيقة لا يبدو أن سعود بن رشيد، الذي كان منهمكاً بالكامل في الدفاع عن مناطقه ضد القوة المتنامية للرياض، لم يبذل أي محاولة على الإطلاق للانتقام لمقتل وكيله، أو لإعادة تأسيس سلطته في تيماء.

وعندما سقطت حائل نفسها لابن سعود في ١٩٢١، كان من الواضح أن العاهل السعودي قد اكتفى بترك حاكم تيماء في حالة من شبه الاستقلال، وبشرط ألا يتعدى على أقاليمه الأخرى. وعلى كل حال لم يستمر عبد الكريم ابن رمان سوى ثلاثين عاماً في حكم الواحة بدون أي تدخل من الإدارة السعودية المركزية، التي كانت ملحقة بها بصورة غامضة، مثل دويلة وسيطة.

هذا الموقف كان متوازياً مع حالة واحة نجران المضطربة في جنوب المملكة العربية السعودية التي كانت قد تركت لشأنها حتى أصبحت، في أوائل الثلاثينيات الميلادية (١٩٣٠م)، سبباً للنزاع بين ابن سعود والإمام يحيى في اليمن، وبعد ذلك تم إدخالها بصورة واضحة في المملكة العربية السعودية بعد كفاح قصير من جانب واحد من المتنافسين.

وربما كان عبد الكريم شديد الشك والارتياب في جيرانه لدرجةٍ تمنعه من أن يسلم بقوة حصانته الواضحة من اهتمام ابن سعود، ومن الممكن أيضاً إن لم يكن من المحتمل أنه في يومٍ ما سيتم دمج تيماء بالكامل في المملكة العربية السعودية، بيد أن ابن سعود كان رجلاً واقعياً، لا يؤمن بإثارة أي موقف قبل أوانه والذي سوف يتطور بصورة طبيعية في الوقت المناسب بمرور الزمن، وربما كان أيضاً يعتقد أن الوقت المناسب لاستيعاب هذه الإمارة في مملكته سوف يأتي بموت عبد الكريم، الذي كان على الرغم من طغيانه ومعاملته القاسية لشعبه، شخصية من طراز الأبطال الشجعان في الصحراء، مثل فيصل الدويش، وفيصل بن حشر و خالد بن لؤي، وغيرهم الكثير، ومنهم محمد بن رشيد، وفي هذا الإطار، ابن سعود نفسه.

ولكن أيام بطولة الصحراء كانت تميل إلى الغروب، وهذا ما يثير الشفقة والأسى إلى حد بعيد، مذعنة بعناد وتصلب، لعصرٍ جديد من الكُتّاب والصحافيين المنتفعين والمرائين المنافقين الذين يتظاهرون بالتقوى والصلاح. لقد كان عبد الكريم ابن رمان بالتأكيد شخصية من نسق الصحراء، ومن المؤسف كثيراً أنه ليس لدينا وصف واقعي له من مصادر أولية؛ فلا دوجلاس كاروثرز ولا بيريز جوسين ولا سافيناك قد اتصلوا به وتعرفوا عليه خلال إقامتهم المؤقتة في

تيـمـاء عـام ١٩١٠م، ومنذ ذلك الحين فـصـاعـداً يبـدو أن الواحـة الشـهيرة كانت مغلقة في وجه الأوربيين حتى زيارتي لها بعد ذلك بأربعين عـامـاً، وعندها كل مـا رأيتـه من عـبـد الكريم كـان قـبـره ذو الشكل الجديد في المقبرة الواقعة خارج قلعته مباشرة، وبالقرب من المسجد الكبير في الأيام الخوالي، والذي كانت أعمدته توحي لي، كما أوحت من قبل لهوبر في عام ١٨٨٤م، أنها آثار باقية من معبد قديم. بل لقد صد عبد الكريم الأمريكان الموجودين في كل مكان في عصر البترول وأبقاهم على مرمى حجر، على الرغم من أن جماعة منهم، وربما تكون هي نفس الجمـاعـة التي وجـدنا أثر سيـرها في منطقـة المذبح، قـد وصلت إلى حـد بعـيـد حـتى برج طوّيل سـعـيـد البارز، وعنده ألقوا نظرة فاحصة على الأرض " الحرام " من بعيد. وعلى برج الحراسة القديم في قمة طوّيل سعيد، المدوّن عليه أسماء كثير من الزوار الثموديين قديماً، كانوا قد حفروا الأحرف الأولى من أسمائهم كدليل على مرورهم بهذا المكان.

وبحلول عام ١٩٥٠م، وبعد أن ظل عبد الكريم حاكماً لتيماء ما يقرب من خمسين سنة، لا بد من أنه قد أصبح رجلاً كهلاً، وليس من غير المحتمل أن يكون أتباعه -بعد أن أصبحوا الآن على دراية بالكثير من مشاريع التنمية التي بدأت في المناطق المجاورة لهم اعتماداً على قوة الثروة الجديدة التي أخذت تنهمر على المملكة

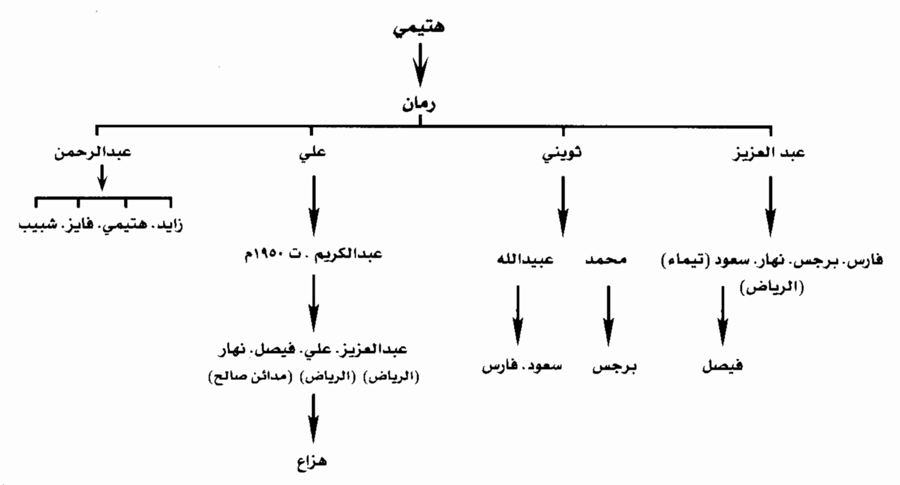
العربية السعودية- قد بدؤوا يتململون من الأحوال البائسة التي حكم عليهم بها بسبب طغيانه وأنانيته. وكان بعض أفراد عائلته نفسها أيضاً متعاطفين مع السخط السائد، ووصلت المشكلة إلى أوجها فجأة في ٦ أكتوبر ١٩٥٠م، عندما كان عبد الكريم خارجاً من مسجد القلعة بعد صلاة الجمعة[١] أطلق ابن ثويني بن رمان النار عليه فأرداه قتيلاً، وقد قام عبيد القصر بقطع رأسه في الحال. ومن المثير للفضول حقاً، أنه قبل هذا الحادث بثلاثة أيام فقط كان الملك قد أعطاني تصريحاً بزيارة مدين، وكانت خططي بالطبع تشتمل على إقامة مؤقتة في تيماء.

وقد كنت من بين الحضور في مجلس الملك المسائي ليلة السادس من أكتوبر، عند وصول أخبار الحقيقة المؤكدة لاغتيال عبد الكريم عبر جهاز اللاسلكي، وردّ ابن سعود فوراً بإصداره أمراً يقضي بإعدام فوري للقاتل بعد محاكمة عاجلة، بيد أن القاتل كان، بالطبع، ميتاً بالفعل، وساد اعتقاد في ذلك الوقت أن عبد العزيز، الابن الأكبر للحاكم الراحل، سوف يخلفه، ولكن نظراً لاحتمال نشوء اضطرابات تمّ إصدار أوامر سرية باللاسلكي إلى خالد السديري، أمير تبوك، ليتقدم فوراً بقوات كافية إلى تيماء لضمان المحافظة على

(١) أشار حمد الجاسر إلى أن مقتله كان بعد صلاة الفجر. انظر: في شمال غرب الجزيرة: نصوص ومشاهدات، وانطباعات، ط٢، الرياض، دار اليمامة، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م، ص٣٧٠.

النظام والأمن. وفي الحقيقة قام أول ابن عم للقاتل، ويدعى برجس ابن محمد بن ثويني، بتولي السيطرة على الموقف بعد هذه المأساة، وسلم تيماء للحكومة السعودية عند وصول خالد السديري في ٩ أكتوبر. وكان برجس نفسه، مع ثلاثة من أولاده، وأخيه، وحفيده، وابن أخيه قد تمت دعوتهم للإقامة في الرياض كضيوف على الملك، ومن المحتمل أنهم ما زالوا هناك إذا ما كانوا أحياء حتى الآن. ومنذ ذلك الحين استقر الابنان الأصغران للحاكم القتيل في مدائن صالح، وسمح لهما بأن يظلا هناك بينما العضو الوحيد من العشيرة الذي سُمح له بأن يظل في تيماء وكان موجوداً هناك في وقت زيارتي لها، هو سعود بن عبيد الله، أخو القاتل، وهو شخص عديم الأهمية.

وتم استيعاب تيماء في النظام الإداري العام للمملكة العربية السعودية، وبنهاية أكتوبر سلم خالد السديري إمارتها إلى عبد الله



الشنيفي. وهكذا طوى النسيان أسرةً حاكمةً شهيرة، ولم يبق منها إلا القبرين المتجاورين لآخر حاكم لها وقاتله ليدلا على نهايتها. وفيما يلي نسب العائلة:

ويسد حوض تيماء من الجهتين الغربية والشمالية جبل منخفض من الحجر الرملي، يبدأ من قلعة منطر بني عطية وينحني مستديراً إلى تل جال الملح المنخفض ومن الأخير يمتد سورٌ واقٍ اصطناعي نحو الجنوب حوالي ميلين قبل أن يلتف باتجاه الغرب على طول الحدود الجنوبية للحوض لكي يلتقي بجبل منطر؛ وطول هذه القاعدة للمنطقة المثلثة تقريباً يبلغ ثلاثة أميال أو أكثر بقليل. وداخل هذه الحدود تقع الواحة مع بيوتها الحديثة وأنقاضها القديمة، ويغطي نصف المنطقة مسطح طيني مالح من الأرض الجرداء تماماً (سبخة).

وعلى طول الطرف الجنوبي منه تقع بساتين النخيل، وحقول الذرة، ومساكن الواحة الحديثة، في حين توجد بينها وبين السور الواقي الخارجي آثار تيماء القديمة، وفيها أجزاء من السور الدائري المبني من الحجارة المشذبة لا تزال قائمة على الرغم من أن كل شيء آخر في حالة شديدة من الفوضى، وليس هناك غير معاول علماء الآثار ممن يستطيع أن يكتشف الأسرار التي تخفيها الحجارة والأنقاض على السطح الحديث.

وفي أعلى نقطة من الجبل المنخفض الذي يمتد عبر المدينة القديمة توجد أنقاض لما يبدو أنه مبنى من العصور الوسطى، والذي تربطه الأسطورة المحلية بشخص يُدعى بدر بن جوهر، وهو بطل من العهود القديمة والذي يبدو أنه لا يُعرف عنه شيءٌ، على الرغم من أنه من المرجح جداً أن يكون يهودياً.

وإلى الغرب قليلاً من أنقاض المدينة الرئيسة، في ضاحية الغرب وقريباً من النقطة التي يقطع عندها طريق السيارات السور الخارجي إلى داخل منطقة المدينة، تقف أنقاض قلعة أكثر قدماً و أفضل حالا في الاحتفاظ بحالها، والتي تشتهر باسم قصر الأبلق أو "قصر السموأل" حيث اكتسب السموأل اليهودي خلوداً وشهرة دائمة في الشعر العربي لأمانته ووفائه مع عدوه الذي أودعه أسلحته وممتلكاته لحفظها في أثناء طلبه السلامة لنفسه هرباً من أعدائه. ولا يوجد بالطبع شيء في مثل هذه الأعمال التراثية الغامضة ما يمكن أن يحملنا وراء "أيام الجاهلية" التي سبقت ظهور الإسلام.

بيد أنه في ضاحية الغرب هذه نفسها رأى هوبر في ١٨٨٠م لأول مرة، بل وفي ١٨٨٤م اشترى بمبلغ زهيد أحد الآثار القديمة الشهيرة حقاً، يعود للقرن السادس قبل الميلاد، وهو مسلة تيماء التي توجد الآن في متحف اللوفر، وقد كانت تشكّل جزءاً من حجارة البناء المستخدمة في إنشاء منزل مغمور يُعرف باسم بيت الطليحان، الذي

دمره عبد الكريم منذ أمد طويل. لقد قمت بزيارة وتصوير هذه البقعة الشهيرة، ولكني لم أستطيع أن أعثر على أي أثر لأي من أحفاد مالكه السابق، وقيل لي إنهم قد فروا إلى بقعة أكثر نفعاً للصحة.

ويبدو من غير المرجح عندي أن يكون هذا الأثر هو الذي رآه داوتي في ١٨٧٧م بين ركام حجارة البناء المنهارة من جزء من بئر هداج، ولكن الأمر سوف يحتاج إلى حفريات لاكتشاف معبد الإله صلم، الذي وجد فيه على الأرجح. إنه ليس من الصعب أن تجد بين أنقاض تيماء القديمة أشتاتاً وأشتاتاً من الآثار، وقطعاً من الحجارة التي تحمل نقوشاً، وكسراً من الأواني الفخارية والمسكوكات وما شابه ذلك، والمجموعات التي جمعتها من مثل هذه الأشياء يمكن معاينتها في متحف جدة. بيد أنني وضعت جانباً علبة كبريت مليئة بمسكوكات غير هامة على ما يبدو لتقديمها إلى المتحف البريطاني، ومن بينها اكتشف أمين قسم المسكوكات في المتحف، جون واكر، قطعتين فريدتين نادرتين، وهما اللتان لا يمكن أن أقول شيئاً عنهما إلا بعد أن ينشر وجهة نظره بشأنهما، ويبدو أنهما تعودان إلى عهد المعينيين في آخر قرن تقريباً من فترة ما قبل ميلاد المسيح.

إن الطريق من تيماء إلى حائل يمر من خلال الأنقاض بفتحة أو ثغرة في الجزء الباقي من السور الدائري القديم، حيث يشكل زاوية حادة، توجد خارجها مساحة شاسعة من الأنقاض حول حفرة مفتوحة واسعة، وهي كل ما تبقى من بئر قديم، أو عين تُعرف باسم

الوجّاج، لماذا أو متى جفت لا أحد يدري، ولكن المرء يستطيع أن يخمن أنها قد تكون مصاحبة، أو حتى سابقة على هدّاج، التي لا بد من أنها تقع أسفل منها بحوالي خمسين قدماً. إن جفاف الآبار عبر العصور قد يعلل فشل أو نضوب العيون العليا، ولكن مثل هذه المواضيع متروكة لفحص الخبراء، وعلى الرغم من ذلك ربما أجازف بتخمين أن قليلاً من التنظيف والتطهير وتعميق الحفرة القديمة قد يعيد العين إلى سابق نشاطها، فهناك في الأسفل عند عمق ما لا بد أن يوجد ماء، لأن نفس وجود تيماء من أقدم العصور، مثل ما هو الحال الآن، قد اعتمد على حقيقة أن حوضها المغلق يتلقى، كما تلقى منذ قرون، المياه المنصرفة من منطقة تجمع أمطار شاسعة، تمتد على شكل مروحة في الشرق، والجنوب، والغرب لنحو عشرة أميال أو أكثر، وتعبرها سبع قنوات رئيسة، ناهيك عن روافدها الكثيرة.

ومن تلال الربا في شرق تيماء تماماً، ينحدر وادي الحمل، الذي يقويه في وسط مجراه بالمياه المنحدرة من وادي الأطرش الآتية من جبل برقة أم سبا. ويليه في اتجاه الجنوب وادي الحسينية الذي ينحدر من المرتفعات بين برقة أم سبا وجبل سَمْرَة، ويدخل حوض تيماء عند نقطة إلى الشمال شرق من ضاحية الشرق. والقناة الثالثة، وادي الخويلد الذي ينحدر من جبل سمرة ليمر بين الشرق وقطاع هدّاج الرئيس مروراً إلى السبخة.

ومن الكتلة العظيمة لجبل غنيم نفسه يأتي وادي السيفية الذي يمر بين الواحة الرئيسة والغرب، بعد مروره عبر أو على طول جانب المدينة القديمة. وإلى الغرب من الأخيرة يصرف المنحدر الصحراوي مياهه في السبخة عن طريق قناة فاو الطليحات، التي تجري خارج حدود الواحة تماماً عبر منطقة من ألواح الحجر الرملي المسطحة المدون عليها نقوش معظمها باللغة العربية، والتي تبدو أنها كانت تستخدم غالباً في العصور السابقة موقعاً لمعسكرات الحجاج المتجهين إلى المدينة. ولم أرَ أي أثر لأي مبانٍ في هذه البقعة، على الرغم من وجود عدد من القبور العادية. وأخيراً يوجد شعيب الرضّمة وليس غدام كما يظهر على خرائطنا الذي يجري على طول الجرف الغربي، ويتلقى المياه المنصرفة من الهضبة. والنهر السابع من العدد التقليدي لأنهار تيماء كان على الأرجح الأطرش، المذكور آنفاً، على الرغم من أنه يلتقي " بوادي الحمل " قبل أن يصل إلى السبخة. وربما يكون شعيب غيرَان البَنَات الذي يبدو أنه رافد لقناة الحسينية. وينكسر السور الدائري على مسافات متقطعة ليسمح بمرور خطوط تصريف المياه إلى الحوض الأسفل، وهو ربما كان مصمماً لحماية منطقة تيماء من السيول أكثر من الأعداء.

إن أهم وأبرز معلم في تيماء هو بلا شك بئر هدّاج الشهيرة. وهي حفرة هائلة مستديرة تقريباً مضفورة بحجارة مقطوعة جيداً، ويحتاج إصلاحات هنا وهناك، ولكنْ لها مَعينٌ لا ينضب من الماء،

الذي يصل سطحه إلى حوالي ست قامات أسفل حافة البئر. هذه الحافة تحمل هيكلاً خشبياً بدائياً جداً وشديد التعقيد ليسند البكرات التي تتدلى منها حبال البئر المربوطة بقِرَبٍ مختلفة الأحجام من جلد الماعز و الإبل، ويسحبها البعير للخَارج إلى أن تصل فوهاتها إلى مستوى الأحواض التي يتم صب محتوياتها فيها. كما أن ترتيب الأحواض الكثيرة العدد أشد تعقيداً من الهيكل الخشبي العلوي، فبعضها يمر أسفل بعض وكلها تنتشر على شكل مروحة في دائرة واسعة لتمر على مختلف بساتين الواحة.

ويقال إنه قد جرت العادة على توفير مساحة لتسعة وتسعين جملاً تسحب الماء في وقت واحد لتلبية الحاجات الملحّة أثناء ذروة الصيف، بيد أنه قيل إن العدد لا يزيد عادة هذه الأيام عن سبعة وسبعين جملاً في موسم الجفاف. وعندما رأيتها في يوم وصولي، بعد فترة من الأمطار الطيبة، كان هناك ثلاثة فقط من الإبل تعمل في سحب المياه. وبعد ذلك بأسبوع كان هناك سبعة وثلاثون جملاً في الحقيقة تسحب المياه، وقد عددت ثلاثاً وأربعين بكرة فقط في الموضع، ولكن عندما زار الملك سعود تيماء في ١٩٥٤م، أعتقد أن مجهوداً خاصاً قد بُذل لإثارة إعجابه بشيء مثل سبعين جملاً تسحب الماء، وبدا من الواضح لي أن محركاً واحداً ذا طاقة عالية يمكن أن يعفيَ هذه الحيوانات من عبئها، ويضاعف من إنتاجية الواحة بإلغاء النسبة الكبرى من منتجاتها الزراعية المطلوبة الآن لغذاء

هذه الحيوانات. ومنذ ذلك الحين قام خبراء من منظمة الأغذية والزراعة التابعة للأمم المتحدة بلا شك بزيارة هذه القرية التي كانت ذات يوم مزدهرة، والآن بائسة فقيرة، إلا أن السلطات السعودية لم تنشر شيئاً عن مثل هذه الخطط، إن وجدت، التي قد يكونون اتخذوها لتنفيذ المشورة التي قد تلقوها من هذه المنظمة. وإذا كان من الممكن أيضاً استئناف تشغيل عين وجّاج، فربما يكون هناك سبب وجيه يدعو للأمل بأن تيماء ستكون مزدهرة ثرية من جديد مثلما كانت بلا ريب منذ ٢٥٠٠ عام تقريباً. وينقل الماء في قنوات صغيرة ضيقة مبنية بصورة غير منتظمة من الحجارة، وقد عددت منها سبعاً وعشرين في حالة صالحة للعمل، بينما أربع أخرى من الواضح أنها لا تستخدم.

وبناءً على ذلك قد يبدو أن ملكية الماء مقسمة إلى حوالي ثلاثين قسماً أو حصة، ليست بالضرورة موزعة على العدد نفسه من العائلات. ويبدو كذلك أن كل قسم أو حصة تمثله تقريباً ملكية ثلاث بكرات، على الرغم من أنه قد قيل لي إنّ بعض الملاك كانوا في فقر مدقع حتى إنهم لا يستطيعون شراء أو تأجير إبل مناسبة. ويفيدنا هوبر بأن عدد النخيل في الواحة الذي يملكه رمان أصلاً كان ٨٠٠ نخلة، ولكن خليفته بعد أن استلم نصيبه الشرعي من أملاك أبيه، لم يكن لديه أكثر من ٢٠٠ نخلة. وإذا كان والد عبد الكريم قد

ورث أيضاً العدد نفسه فإنه وأخاه الوحيد لا يمكن أن يكون عندهما أكثر من مئة نخلة لكل منهما، على الرغم من أنه من المحتمل جداً أنه استطاع أن يضيف عدداً هائلاً من أشجار النخيل لميراثه على حساب رعاياه. وقد تجول داوتي أحياناً في بساتين النخيل هذه، وقد قدر ارتفاع مجموعة من النخيل الفارع الطول في وسط الواحة بخمسين قدماً وهو ما يعد علامة بارزة تسهل رؤيتها من مسافة بعيدة في جميع الاتجاهات وهذا قد أثار دائماً اهتمامي وفضولي مدة طويلة قبل أن أراها على الإطلاق، على الرغم من أن أشجار النخيل التي رأيتها قد تكون بصعوبة هي نفس التي وصفها داوتي، على أي حال، قررت أن أضع المسألة موضع اختبار، وطلبت متطوعين لتسلق أطول نخلة.

وقد كان طباخ الأمير، التيماني هو الذي جعلني التزم بدفع ريالين (أربعة شلنات) عندما انضمّ إلينا في نزهتنا. لقد رأيت أحياناً جامعي محصول التمر وهم يتسلقون النخل لجني الثمر، ومن المؤكد في معظم الأحوال أنهم كانوا يستخدمون نوعاً من الأحزمة يحيط بالنخلة من أحد الجوانب وبظهورهم على الجانب الآخر، والذي كانوا يقذفونه إلى أعلى في أثناء تسلقهم، وهم يمسكون ساق النخلة بأيديهم ويضعون أقدامهم على الجذوع التي يُقطع منها السعف في كل موسم. وكان الطباخ قد ازدرى أي مساعدة نأتيه بها في مثل هذه

المغامرة، وتسلق النخلة، واثقاً بالكامل بيديه وقدميه، حتى وصل إلى مجموعة السعف في القمة ووقف على رأس الساق، وكان قد أخذ معه لفة من الحبال مربوطة بحجر، وعندها أشرنا إليه أن الحجر قد وصل الأرض من يده المفرودة، فقام بقطع الحبل من مستوى يده. وكان قياس طول الحبل ٧٥٠ بوصة، وقدرت أن أطول سعفة كان حوالي خمسة أقدام فوق يده، ومجموع ذلك كله ٨١٠ بوصات أو ٦٧٫٥ قدماً. ونزل من فوق النخلة بالطريقة نفسها التي تسلق بها، وتمتم بسعادة عندما ضاعفت له الجائزة وذلك لحسن أدائه الممتع والبنّاء. إن المرء ينال قدراً عظيماً من الثناء والشكر في الجزيرة العربية عن مثل أعمال التقدير الفوري هذه لخدمات شخصية بسيطة، وربما سوف يظل بعضهم يذكرني لحين من الدهر بأنني الرجل الذي ضاعف مبلغ الجائزة لعمل عادي جداً مثل طلوع نخلة. ولا يزال هوبر يُذْكَر بصورة غامضة فيما يتصل بحجر (مسلة) تيماء الشهير، الذي دفع مقابله نفس المبلغ تقريباً الذي دفعته الآن لتسلق النخل، بيد أنني لم أستطع أن أجد أي صدى لزيارة داوتي من أي شخص، كما لا توجد أي ذكريات باقية من زيارة كاروثرز أو مبشري القدس[1].

ويُقدّر عبد الله الشنيفي السكان المستقرين في تيماء بما لا يزيد عن ألف شخص، وهو هبوط مؤسف عن العهود القديمة، حكماً على ما يبدو للمرء من نطاق أنقاض المدينة القديمة، التي تُعرف محلياً

(١) أي جوسين، وسوفينياك.

باسم القرية. ففي هذه الأنقاض رأيت كتلة من الحجر نصف مدفونة وعليها نقش، كان قد عثر عليها -مؤخراً- الباحثون عن الكنوز، وكان هناك أيضاً أحجار أخرى عليها أسماء ثمودية في المقبرة القديمة، التي كشطتها أو محتها الرمال تقريباً، في الطرف الغربي من المدينة القديمة. وفي المقبرة الحديثة قُرب قلعة الحاكم القديم كانت القبور في بعض الحالات تحمل أسماء من دُفنوا فيها لا أكثر. ومعظمها كان بدون أسماء، ومنها قبرا عبد الكريم وقاتله، اللذان دُفنا جنباً إلى جنب بعد صلاة الجنازة المشتركة عليهما. ففي الموت لا يتم التفريق بينهما، على الرغم من أنهما نادراً ما كانا حميمين في حياتهما. وكان مقر الحاكم الأصلي عند حافة منطقة هداج يُسمى قصر مغيض وفيه برج رائع على نحو لافت للنظر، ويحتمل أن يكون قد بناه عبدالعزيز لأنه كان موجوداً في زمن زيارة هوبر. وقد امتلكه بعد ذلك وكلاء ابن رشيد وظل مقراً رئيساً لهم إلى أن قضى عليهم عبد الكريم في ١٩١٦م.

وكان آخر يوم لي في تيماء هو ١٢ يناير ١٩٥١م، الذي قضيته في مسح وفحص مكثف للمدينة القديمة، حيث زرت خلاله قصر بدر[١] أشهر وأبرز مَعْلم فيها. وهو يقف مقابل سور داخلي يمتد

(١) يعرف هذا القصر بقصر بدر بن جوهر، ويقع جنوبي تيماء، وتحاك حوله قصص خرافية كثيرة، كما يعرف أيضاً بقصر الشايب.
انظر عنه: حمد الجاسر، المرجع السابق، ص٣٩٥.

على طول الجبل المرتفع للقرية، في حين يوجد وراءه امتداد المدينة الذي يصل إلى السور الدائري الخارجي المشيّد من الحجارة، الذي يلتقي طرفاه بالسور الخارجي لمنطقة تيماء. وكان اتساع المنطقة الخارجية حوالي ٢٥٠ ياردة، ويمر طريق حائل عبر منطقة الأنقاض في النقطة التي يلتقي عندها السوران على الجانب البعيد من بئر الوجّاج، وتقع قلعة الحاكم القديم على بُعد ميل إلى الشرق قليلاً من الشمال، مع برج رائع يسمى الغرافة في قرية صغيرة على سور المدينة الحديثة على زاوية ضيقة عن يسارها.

وعلى مسافة بعيدة في نفس الاتجاه تنتصب قلعة طويّل سعيد وبرجها، أما قصر الأبلق، الذي يشتهر محلياً باسم قصر زلوّم[(١)]، فيقع نحو الشمال - الغربي منا، على بُعد ميل أيضاً، بينما كانت بئر الوجّاج في الجنوب - الجنوب - الشرقي تقريباً، وأقرب من الأول قليلاً.

وعلى بُعد منه، وخلفه تماماً يرتفع لسان خشم غنيم الكبير مع الجبال الصغيرة التابعة له والتي تمتد منه باتجاه الشمال على مسافات متقطعة، تشمل كلاً من السمراء وأم بطحاء وقمة القليب وأم سبع والضُليعات، وقمة غار الحمام التي تعلوها قلعة، وجبال الربا التي تغطي الشرق، وتنتهي بقمة قرن البدن الشاهقة. وإلى الشمال قليلاً

---

(١) الصحيح أن قصر السموأل هو المعروف بقصر الأبلق، أما زلوّم، فهو قصر آخر يقع إلى القرب من تيماء، بالقرب من وادي يعرف بالاسم نفسه.
انظر عنه: حمد الجاسر، ، في شمال غرب الجزيرة، ص٣٩٥.

من الغرب كان هناك منطر بني عطية الذي يُعرف محلياً الآن باسم القصير والذي دخلنا منه في حوض تيماء، وتمتد أمامنا مباشرة مساحة الواحة بالكامل تغطي أكثر قليلاً من ربع الدائرة (٩٠ درجة) من الشمال - غرب إلى شرق - شمال.

هذه هي تيماء نفسها كما رأيتها على فترات مختلفة بين رحلات كثيرة في المنطقة المحيطة بها بحثاً عن النقوش. وكان هدفي الأول قمة جبل غنيم وهي قمة بكْرٌ ترتفع لحوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر. وعند مرورنا من خلال ثغرة في السور الخارجي قرب الأنقاض المقفرة في ضاحية الشرق (بعد أن بدأنا بداية خاطئة استلزمت عودتنا إلى المدينة بحثاً عن دليل جديد ليحل محل الشخص الغبي الذي بدأ معنا)، اتجهنا نحو جنوب - جنوب - شرق لندخل صاعدين شعيب خويلد.

وسرعان ما تركنا هذه القناة لنزور بعض الصخور التي تُسمى رضمة الحنوف، حيث وجدنا بعض الخربشات العربية غير ذات شأن وعدداً كبيراً من رسومات خطية بدائية لرماة راكبين ومعهم رماحهم، وإبل وحيوانات أخرى. ومن هنا مضينا إلى قمة غار الحمام المستدقة الرائعة، وقد سميت بذلك للتشابه العظيم بين القلعة الصغيرة على ذروتها وبرج الحمام. يبلغ طول الجدار الشرقي للمبنى، اثني عشر قدماً، وكان سليماً نسبياً وبه سبعة عشر مدماكاً

من البناء الجيد الجميل وستة من النقوش العربية، والتي وجدنا فيها أيضاً ثلاثة عشر نقشاً على الصخور المجاورة. ومن الواضح أن هذه النقوش كانت من عمل الحجاج المارين بهذه المنطقة. وكان الجدار الشمالي أفضل حالاً من سابقه، وبه ثلاثون مدماكاً من البناء الباقي وبنفس الطول، وعليه كان يوجد نص ثمودي من سبعة حروف. أثرت فيه عوامل التعرية كثيراً. والجداران الآخران من المبنى المربع الأصلي قد انهارا بصورة سيئة، وكل ما بقي منهما سبعة أو ثمانية مداميك من البناء. وبدا الداخل صلباً وصامداً تماماً بأنقاض وركام السقف والجدران المتهدمة، على الرغم من أن المبنى الأصلي لا بد أنه كان برج مراقبة من طابقين. إن قمة غار الحمام قد أعطتنا نظرة رائعة على واحة تيماء إلى الشمال - الغربي، وإلى البعيد نحو الجنوب - الشرقي على جبل حَلْوان وتلال الكتيب ودفافات (الرمال الراقصة) الشاهقة أمامه. ويقع رأس شعيب خويلد عند سفح هذه الصخرة.

وقد سرنا الآن ملتزمين سفح سلاسل جبال غنيم عبر رؤوس سهلة نسبياً للقنوات البارزة منها حتى وصلنا إلى سفح جبل غنيم نفسه بعد ثمانية أميال تقريباً. إن صخوره الرملية المشبعة بالحديد إلى درجة عالية والتي ترتفع إلى ألف قدم، وقد كساها الطقس وعوامل التعرية لوناً أسودَ تتخلله عروق من الصخور ذات اللون القرنفلي والأصفر، لم تمثل لنا أي صعوبة، مثلما كانت أقدام ثمود العديدة

بدأت ومهدت لذلك منذ زمن بعيد، طريقاً واسعاً ومناسباً على مدرج سهل إلى القمة، حيث كنت أقف لأكتشف بلا ريب "المكان السامي" للآلهة القديمة، وربما الإله صلم نفسه. ويحمل وجه الجرف الناعم من الجناح الشمالي لكتلة القمة كثيراً من الرسومات لوجه صلم -ومنها البيضوي الشكل، بدون لحية- أو صورةٍ للوجه مستدقة نسبياً وجبين عريض مستقيم، والذي كانت توضع على أطرافه قرون أو آذان طويلة، تبدو في الحقيقة مثل ريش الطيور الذي يرتديه الهنود الحمر في القصص والروايات التي كنت أقرؤها أيام شبابي، مع ملامح نحيلة عادية. وأمام هذه الستارة السوداء توجد منصة، التي كانت بلا شك موقعاً لمذبح الأضاحي، على الرغم من أنه لم يكن من الممكن تحديدها بين كتل الصخور الرملية المنهارة والتي تغطي سطح الأرض.

ويستطيع المرء أن يتخيل المشهد في العصور القديمة، عندما كانت حشود الناس الوثنيين، جلوساً أو وقوفاً على كل نقطة من نقاط الرؤية الممتازة على جوانب الجبل، لتشاهد باهتمام عظيم المهرجين من الكهنة، وهم يستعدون للتضحية بحيوان ما أو ببكْر عازبة للإله صلم الكبير. وأثناء انتظارهم، ربما لساعات وساعات، على قمة الجبل، لبدء مراسم احتفال التضحية، كانوا يقطعون الوقت بنقش أسمائهم أو تحياتهم أو صلواتهم على الصخور من حولهم. وكان بعضهم صنّاعاً مهرة رائعين ذوي حس مرهف لفن الخطوط

والتزيين، بينما كان آخرون فلاحين بسطاء لا يعلمون أكثر من كتابة أسمائهم أو خربشة صورة بسيطة لحيوان ما على الصخور. وقد مكثت أربع ساعات من فترة ما بعد الظهر أدوّن وأنسخ الكتابات والرسومات، وأسجل جميع تفاصيل مشهد الصحراء الذي كنا نطل عليه. وفي الطريق ونحن صاعدون على المنحدر لاحظت قليلاً من الوسوم البدوية، ولكن لم يكن هناك أي نقوش عربية على الإطلاق، حيث من الواضح أن المتعصبين في فترة صدر الإسلام أو من الوهابيين فيما بعد لم يجدوا طريقهم أبداً إلى هذا المشهد من الطقوس العربية القديمة، والتي كانوا لن يتركوها أبداً سليمة حتى يتسنى لي اكتشافها.

وأعتقد أن الدليلين اللذين كانا معي، وهما رجلان من تيماء يدعيان صويلحاً وليلياً كانا مندهشين أيضاً بنفس القدر الذي اندهشت به من روعة صف وترتيب الآثار القديمة التي عثرنا عليها في القمة. ومن المؤكد أن هوبر كان سيزور المكان لو أخبر بالكتابات الموجودة به، وكذلك بيريس جوسين وسافيناك، اللذان جمعا محصولاً وفيراً من النقوش في اثنين من منخفضات الخبو على بُعد حوالي ثلاثة أميال جنوباً من الغرب، كانا سيفعلان نفس الشيء. كما أنهما لم يعلما أو لم يكتشفا منطقة المحجّة التي كانت صخورها -حسبما اكتشفت فيما بعد- مغطاة بمئات النقوش والصور. وأعتقد

أن اكتشافي " للمكان السامي " على جبل غنيم من بين النتائج الرئيسة لجولاتي الطويلة في أرض مدين. والرسم الأكثر إثارة للاهتمام والإعجاب هو ذلك الذي يبين إهداء رمح ملك بابل، ربما كان نبونيدوس، للإله من قبل رجل حصل عليه فيما يبدو في معركة ما. وهناك نقش آخر حفره رجلٌ شارك في الحرب ضد دادان (العلا الحالية).

إن الصحراء بين جبل غنيم وجبل برد الذي يبرز بصورة واضحة على مسافة في الجنوب - الشرقي، تُعرف باسم خولة، والأرض الوعرة تحدها على اليمين وتملأ المنطقة الجنوبية كلها من سبخة السلامية والحوران الكبرى على اليسار، مروراً بحوض " حفرة الجهراء "، وحتى حافة الهضبة، التي يحدها جبل جبلة الطويل وقوس الجبال الممتد قريباً منها ثم يستدير لليمين تماماً نحو الشمال - الغربي لحوض تيماء. وأسماء هذه الجبال لم يعرفها هزاع ونحن في طريقنا إلى معسكرنا بمنطر، بيد أن ليليّاً كان قادراً الآن على سد هذه الثغرة في معرفتي. وقد أدى ضباب بعيد إلى عدم ظهور الجبال عن يسار جبل ضبع، الذي ذكر هزاع اسمه صحيحاً، ولكن الجبل عن يمينه كان اسمه غمرية، يليه بعد مسافة بعيدة على اليمين جبل جَريش، والثلاثة تشكل نسقاً واحداً. ورحلتنا القادمة إلى تبوك سوف تتفادى كل هذه الجبال الثلاثة إلى الشرق منا، وعند ذلك سوف نذكر ونحدد الجبال التي عن يسارنا. وأصبحنا الآن نستطيع

أيضاً أن نرى الخط العام لمسارنا المتجه إلى الداخل بعد الوصول إلى طريق السيارات على طول أحواض السُمك. وعند هذه النقطة كان السُمك الحقيقي يقع عن يسارنا، بينما على اليمين كانت توجد مسلة السُمك، التي تشكل واحدة من مجموعة القمم الثلاثية المعروفة باسم ثليثوات وبعد أن سرنا مسافة مررنا بين جبال سويقة (على يسارنا) وإبدا - العقيلة التي تُرى الآن خلف أحواض الخبو.

وبعد مسافة أيضاً كان الطريق ينحني بين جبل شمرخة من الجبال الكثيرة ذات الأحجار الرملية وساحل الخشيبوات الطويل المنخفض حتى يدخل ويصعد قناة الجريدا. ومن الطريف أنه قد اتضح أن شمرخة هو الاسم الصحيح للمعلم الأرضي الذي سماه هزاع غراميل الرولة وسماه عبد العزيز السديري "سرابط الكشل". إن تغيرات المسميات العربية (التي يصعب التنبؤ بها) في أفواه الأدلاء المختلفين تمثل مصدر الأذى واللعنة التي تواجه مكتشف الجزيرة العربية، الذي يضطر إلى التأكد وإعادة التأكد من كل اسم يسمعه إلى أن يقتنع ويرضى تماماً بأنه -من خلال عملية المسح والإلغاء والاستبعاد- قد حصل على الاسم الأكثر ترجيحاً ليضعه على خارطته. وكان في صيف ١٩٥٠م، على ما أعتقد، أن بعضاً من آرائي قد تعرضت للنقد في المجلس الخاص، حيث تطوع الأمير فيصل بتقديم الإفادة بأن خمسة وسبعين "بالمئة" من جميع الأسماء في خريطتي كانت غير صحيحة.

ولم يكن أمامي إلا أن أقترح أن يساعدني، بمعرفته العظيمة للمنطقة، على تصحيح أخطائي. ومع ذلك، قد يستطيع العالم أن يمضي قُدماً للأمام بصورة جيدة وبدرجة كافية مع مثل هذه المنتجات التي تمكنت أنا ومن سبقوني على إنجازها وتصنيفها، وحتى المسؤولين السعوديين المهتمين مباشرة بمثل هذه الأمور لم يتخلفوا، كقاعدة أساسية، عن طلب نصيحتي وتوجيهاتي بشأن مشاكل الحدود والموضوعات الجغرافية الأخرى. وفي إحدى المناسبات كنت الشخص الوحيد في اجتماع كامل للبلاط في مكة الذي استطاع تهدئة روع ابن سعود وقلقه بشأن الموقع الدقيق لزوجته في الجو، عند سفرها للرياض بالطائرة؛ فقد جاءت إشارة لا سلكية من الطيار تفيد بأن الطائرة كانت بالقرب من غرور[1]، وتم طلب المشورة من الأدلاء المحترفين الذين اختلفوا فيما بينهم وقدموا تخمينات متناقضة عن موقع هذا الجبل الغامض، ولكني استطعت أن أقول للملك أن مكانه في أقصى نقطة للشمال من جبل دمخ أي على بعد ساعة واحدة بالضبط من الرياض بطائرة الملك الداكوتا، وظل في المجلس لتلقي الأخبار فوراً عن وصول الملكة إلى الرياض، التي وصلت فعلاً بعد ساعة بالضبط.

---

(١) يقع هذا الجبل على خط طول ٣٠َ ٤٤ْ وخط عرض ٨٣َ ٢٣ْ، وهو تابع إدارياً لمركز الخاصرة، وهذا الاسم ما يعرف به قديماً.
انظر: ابن جنيد، سعد بن عبدالله، المعجم الجغرافي للبلاد العربية السعودية، عالية نجد، ط٢، الرياض، دار اليمامة، ١٤١٧هـ/ ١٩٩٦م، ج٣، ص١٠٢١.

وبعد أن حدقت حتى الشبع في مشهد المنطقة الممتدة عند أقدامي، وما بها من جبال أكْباد -ينطقها المحليون أشباد وسماها غوارماني إنكا وسماها هوبر تزباد- وحَلْوَان على مسافة بعيدة إلى الجنوب - الشرقي على طريق تشرّف ذات يوم بجولات داوتي وهوبر عليه. ونزلنا من "المكان السامي" لنبدأ في رحلة عودتنا إلى تيماء، حيث وجدنا الأمير يستضيف أخاً آخر من إخوان السديري، وهو سليمان، الذي جاء مع طبيب سوري من مخيّم الجُريدا التابع لعبد العزيز، الذي وصل إليه عبد الله بن فيصل خلال النهار في رحلة قنص لأيام قليلة بالمنطقة.

وقد تحدثنا عن تيماء وتاريخها وآثارها، وأسهب الأمير عن إمكانيات إعادة إحياء المنطقة البائسة التي تم تكليفه بالمسؤولية عنها. وجاء العشاء الطيب والسرير الوثير في ختام يومٍ أستطيع أن أتذكره برضا تام. ففي رحلة الذهاب والعودة على مدى نحو عشرين ميلاً رأينا تقريباً كل شيء يمكن أن نراه في الجزء الرئيس من جبل غنيم وكان أدلاؤنا متعاونين ومساعدين وأكفاء، لا سميا ليليّ، الذي احتفظت به طول مدة إقامتي المؤقتة في تيماء.

وتم تخصيص اليوم التالي لنزهة أكثر طموحاً، والتي أوحت بها حقيقة أن رفاق هوبر قد أحضروا له نقشاً ثمودياً وحيداً من آبار الكتيب وهو لم يزر المكان بنفسه، كما أنه من المحتمل أن رفاقه لم

يذهبوا إلى هناك إلا لإحضار خروف أو حطب، مثلما يفعل خدم الأمير حتى هذا اليوم، على الرغم من أنهم يفعلون ذلك اليوم بالسيارات. إن رحلتنا كلها تقع تقريباً على طول مسارات سياراتهم الغادية والرائحة، وإجمالي المسافة التي قطعناها ذهاباً وعودة بلغت حوالي خمسين ميلاً. ولم أكن آمل فقط في رؤية النقش الذي سجله هوبر، بل لأكتشف الكثير من النقوش الأخرى في المنطقة حيث إنه يبدو من غير المرجح أن رجاله قد تحرّوا واكتشفوا المكان بالكامل.

وفي الحقيقة قد رجعت بخفي حنين في كلتا الحالتين بقدر ما يتصل الأمر بآبار الكتيب بيد أن البعثة أثمرت نتائج أخرى مرضية. وبعد أن عبرنا قنوات خويلد، والحسينية، والهنوف ويزعم البعض أن الأخيرة هذه يمكن أن تعد الوادي السابع من أودية تيماء، على الرغم من أنها قد تكون رافداً من وادي الحمل أو غران البنات فقد قطعنا مسطحي سبخة الأطرش والطليحات وسرنا مسافة قصيرة حتى دخلنا في قناة شعيب الضعة التي يصب فيها الاثنان الآخران قبل أن يلتقيا بشعيب الحمل.

والأخير يصرف مياه منطقة الربا الجبلية، بينما تنحدر الضعة وروافدها من منطقة فيها تلال مسننة منخفضة تُعرف باسم ضليعة غنيم، وتشكل مع الربا الجناح الشمالي لجبل غنيم الرئيس. وبيننا الآن وبين جبال الربا وتلالها المتناثرة يقع سهل مطنة الفريجة، وهو

منطقة شاسعة من الحجر الرملي الأحمر، والتي كان بها أنقاض ثلاث أو أربع قلاع صغيرة قديمة، والتي يحتمل أن تكون الدفاعات الخارجية لتيماء في عصور الاضطراب والفتن.

وبعد حوالي ثمانية أميال من بداية انطلاقنا دخلنا في منطقة الربا والتي من خلالها نزلنا في ممر واسع إلى سبخة هائلة يمر خلالها تصريف مياه المنطقة المحيطة بها عن طريق شعبتي الدوير والدغيمة ويبدو أنه ليس بها منفذ وتشكل بحراً صغيراً داخلياً، الذي تضيع مياهه بالتسرب أو التبخر.

فعلى الرغم من الأمطار الأخيرة التي بدأت مرة أخرى بقوة وكثافة شديدة في بعض الأحيان، خلال الجزء الأول من مارس إلا أن سطح السبخة كان ثابتاً وسهلاً، وسرعان ما كنا على الجانب البعيد بعد سير ملتوٍ غير مباشر، وزرنا أثناءه اثنتين من الصخور التي كانت تبدو مبشّرة وهما المشطبة وغار النودة ونحن في طريقنا إلى نتوء واضح من الحجر الرملي على شكل عش الغراب على المنحدر البعيد، وفي المشطبة وجدنا صوراً ونقوشاً من الثمودية القديمة، ولكن في غار النوده -وهي برج لا يمكن الوصول إليه من صخرة واحدة- لم نعثر سوى على قليلٍ من الخربشات العربية، وكانت السبخة المعروفة باسم "جُفرة الرٍّبا" بعرض ميلين تقريباً وبطول ثلاثة أميال على الأقل، وكانت صخرة عش الغراب خالية من

النقوش، ووراءها سرنا بسهولة ويسر لأربعة أو خمسة أميال على طول جرف بارتفاع أربعين قدماً في سبخة أخرى تعرف باسم خبرا الفاطر، وبعدها مررنا في منطقة شديدة الوعورة من ألواح الحجر الرملي، تهبط في رفين منحدرين في قناة شعيب المختبى، التي سرنا فيها مسافة حتى سبخة نقدا ومنها مررنا مباشرة إلى قناة شعيب الكتيب حتى وصلنا حُفر المياه الضحلة في حوضها النهائي. ولا يبدو أن لأي من قنوات التصريف في هذه المنطقة بدءاً من الشواربة فصاعداً أي منفذ حيث تتلاشى في أحواض ضحلة مقابل حافة منطقة النفود الشاسعة حقاً، والتي كانت بها تلال دفافات الشاهقة كمعلم بارز. وكما يوحي اسمها فإنها تلال رملية "مغنّية"، بيد أنه لم يكن لدينا وقت كاف لمحاولة فحص هذا الأمر عن كثب، كما أن المطر والريح الباردة الشديدة التي صاحبتنا طول النهار قد حرمتنا من أي فرصة لسماع موسيقاها. إن هذه الرمال " تُغنّي " فقط عندما تكون جافة.

وتقع حفر مياه الكتيب على مسافة حوالي خمسة وعشرين ميلاً من تيماء، أي تقريباً إلى الشرق تماماً من جبل غنيم، وقريبة جداً من حافة رمال بتراء النفود، التي تكون تلال دفافات جزءاً منها، وخلفها تقع سلسلة جبال حَلْوَان وأكباد وغيرها، على جانبي الطريق إلى حائل. ولم تكن حفر المياه إلا نقر وعرة كُشطت من

الأرض حتى مستوى المياه على بُعد ثمانية إلى عشرة أقدام تحت السطح تقريباً، وقد جف معظمها بفعل الرمل المتطاير مع الرياح. ولم يظهر إلا اثنان منها فقط في حالة صالحة للاستخدام بصورة منتظمة في الوقت الحاضر، وقد بُنيت أفواهها بألواح الحجر الرملي بصورة مستديرة، على الرغم من عدم تبطينها داخلياً، ولم يكن هناك أثر للحياة حولهما، وفشلنا في العثور على أي نقوش في أي مكان بين الصخور والجبال القريبة منها، ولكي نغيّر طريقنا قررت أن نلتزم الشريط الرملي إلى أن استدار بعد حوالي أربعة أميال مبتعداً فجأة إلى الشمال - الشرقي، وأصبح السير صعباً شيئاً ما على طول ذيول قنوات التصريف المختلفة التي تسدها النفود.

بيد أننا الآن كنا في حالةٍ أيسر على سهل من الحجر الرملي، الذي زرنا فيه صخرة شديدة التآكل من أثر العوامل الطبيعية في مرتفعات السراية، ولم نجد نقوشاً إلا بعض الصور شديدة السحر والروعة لبنات يتراقصن، ومن هنا ضربنا في شريط الربا حتى زرنا تلالاً صغيرة مختلفة ولم تكن أحسن مما سبق ما عدا قليلاً من الصور، في حين بدت الريح القارسة أشد عنفاً وقسوة، ثم عدنا إلى مقرّنا بطريق قناة النفازي، وهي على الأوضح رافد من وادي الأطرش، وكانت الأميال الخمسة الأخيرة تقريباً على نفس خطوط مسار خروجنا. ومع الريح والمطر لم تكن الظروف مثالية لخروجنا،

بيد أنهما قد يزيدان سوءاً حيث بدا أن الريح المفزعة تعصف حولنا من جميع الاتجاهات على البعد، والتي لم نر منها أكثر من وميض البرق المتقطع، وقد وجدت في مقرنا أن أقصى درجة حرارة في هذا اليوم كانت ٧٠ درجة فهرنهايت، على الرغم من أننا كنا نشعر ببرودة أشد من ذلك في الصحراء.

وقد راودني شعور، بسبب سوء الأحوال الجوية، أنني ربما لم أعط منطقة واحدة ما تستحقه، كما كنت أستشيط غيظاً من عدم العثور على النقوش التي سجلها هوبر في تلال برق الربا، ولذلك قررت أن أقضي النهار التالي في بحث مكثف لهذه المنطقة المحدودة، وأثناء عودتنا من الطريق نفسه الذي جئنا منه تقريباً في المساء، وصلت وتسلقت تل قرن البدن البارز في منطقة الربا، على بُعد اثني عشر ميلاً للشرق تماماً من نخيل تيماء.

ومن هنا ألقينا نظرة رائعة على كل ما حولنا، ولكنه لا يوجد أثر لأي أنشطة أدبية أو فنية للقدامى. وعلى كل حال فقد لاحظت، على بعد ميل، عموداً من الحجر الرملي يثير منظره الاهتمام والفضول، يدعى الحصين (أي القلعة الصغيرة) التي بدت تستحق الزيارة، وهنا كُوفئت جيداً بمحصول وافر من النصوص والصور الثمودية في حالة جيدة جداً من الحفظ والوضوح. وكانت هذه الصخرة تقف عند الطرف الشرقي لبحيرة عظيمة، تسمى الخبر،

التي تُصّرف فيها المنطقة المحيطة بها كلها، ومما لا شك فيه خلال موسم الأمطار، عندما تكون الأرض المسطحة بحيرة، أن يكون الأقدمون قد اعتادوا على التخييم حولها.

وهناك أيضاً صخرة أخرى مهملة ليست ببعيدة قدمت لنا عدداً أكبر من النقوش، ومن هنا استدرت نحو منطقة تل برق الربا التي وجد فيها هوبر بعض النصوص، وقد وصلنا إلى ما بدا أنه مرتفعها الرئيس بعدما سرنا حوالي خمسة أميال. لقد كانت جبلاً ذا حجم معقول وقمة عريضة، وقد كانت صخوره وزوائده مغطاة بالنقوش الثمودية. حتى هذه اللحظة كان اليوم جميلاً ورائعاً ودافئاً، إلا أننا في هذا المكان هوجمنا بريح باردة شديدة من الشمال - الشرقي، وكل ما كان بوسعي أن أحصد محصولي من النصوص بيدين متجمدتين، إذ كنت أرتعد وأرتجف في هذه الرياح الثلجية.

وفور أن انتهيت وليت وجهي في خط مستقيم للعودة إلى سكننا، على بعد حوالي عشرة أميال، وأنا راض عن العمل الطيب في هذا اليوم، ولكني فوجئت باكتشاف أن النقوش الثمانية التي سجلها هوبر لم تكن من بين مجموعتي على كثرتها.

ومن الواضح أن هناك الكثير من الأعمال التي تُركت لزائري هذه التلال حول تيماء في المستقبل، والتي أعتقد أنها مليئة

بالكتابات القديمة، ولو استطعنا فقط أن نحفر في أنقاض المدينة القديمة فلا تسل عندئذ عن اتساع معرفتنا بالشرق الأوسط القديم.

في ٨ يناير ١٩٥١م، العيد الفضي لإعلان ابن سعود ملكاً على الحجاز، أرضيت نفسي ببعثة قصيرة جداً إلى منطقة أخرى كان هوبر قد زارها من قبل بانطباع خاطئ وهي أن اسمها غار الحمام، والتي ذكرت من قبل أني زرتها.

وكانت سبخة أخرى مألوفة في المنطقة، التي يمر من خلالها تصريف مياه المنطقة المجاورة إلى قاع تيماء. وضفتها اليسرى مرصعة بمتوالية من الأجراف الرائعة، التي تآكلت في العمق عند مستوياتها السفلى بسبب مرور السيول عليها لقرون، والتي تركت الهيكل العلوي من الحجر الرملي بارزاً لمسافة كافية لتوفير ملاذ أو مخبأ ضخم من الشمس والمطر، ومن المؤكد أن القدماء قد استفادوا استفادة كاملة من مثل هذه المزايا حسبما بدا واضحاً من النقوش الكثيرة التي حفروها على الأجراف، والصخور المتكسرة الواقعة، وأسقف الأسطح الناتئة، وكان من الواضح أيضاً أن هذه هي البقعة التي كان هوبر يعتقد أنها غار الحمام، حيث إنني عثرت فيها على كل شيء ما عدا نقشاً واحداً من الواحد والعشرين نقشاً التي نسبها لهذه المنطقة، وقد وجدت الكثير من عشرات النقوش الأخرى التي فاتت عليه حيث كان من الواضح أنه لم يلق بالاً لفحص الجزء

العلوي من الجُرُف. وكان ليليّ، دليلي، يسمي هذا المكان "غيران البنات" (أو البنات) وقد تطوع بإفادتي بأن هذه المخابئ، التي تكونت بالأجراف المتدلية، كانت أحياناً توظف في الماضي، ولا زالت توظف في حالة الحاجة إليها، كمحاجر صحية لعزل مرضى الجدري، ومن هنا جاءت حقيقة تسمية المكان أيضاً باسم "غيران المجدّر"، ومن الواضح أن آخر مرة استخدم هذا المكان لهذا الغرض كانت منذ ثماني سنوات مضت قبل زيارتي، أي في ١٩٤٣م.

لقد كان ليليّ بن علي وأسلافه لعدة أجيال من مواطني تيماء، ولكنه يزعم أن أصل قبيلته يعود إلى فرع الفقراء (فقير) من عنزة، من قوم الحجاج، كما قال، الذي ينتمي إلى فخذ الخمايرة. ودليلي الآخر في هذه الرحلة كان يدعى خُليف بن مرشد، وهو رجل في حوالي السبعين من عمره، والذي استقرت عائلته في ضاحية الشرق بتيماء منذ أجيال عديدة، على الرغم من أنه هاجر أصلاً إلى هنا من قرية موقق قرب حائل. لقد كان شاباً، كما يقول، عندما زار محمد ابن رشيد الكبير تيماء ليؤسس إدارة مباشرة للمنطقة قبل بضع سنوات من وفاته في ١٨٩٧م. وعجوزاً آخر من سكان ضاحية الشرق، الذي قدر لي أن أقابله بعد ذلك في فترة العصر، كان يُقال له: آل عيدي، وكان عمره يتراوح بين السبعين والخامسة والسبعين.

وبعد انتهائنا من غيران البنات سرنا حوالي ميل حتى السور الدائري، ثم التزمناه حول الجناح الشرقي من السبخة الكبرى حتى سفح تل الشرج، الذي وجدت عليه بعض النقوش.

ومن هناك قطعنا مسافة معقولة على أرض السبخة الثابتة، باتساع ميلين تقريباً، إلى أن وصلنا إلى الفجوة بين الواحة الرئيسة وضاحية الشرق. وهنا قابلنا صبر آل عيدي، وقبلنا بسرور دعوته الملحة لتناول الشاي في منزله المتواضع في الطرف الغربي من ضاحية الشرق، الذي نجا مع بستان من النخيل المجاور من الإبادة الجماعية (الهولوكست) التي نفذها عبدالكريم. من خلال هذه الفجوة تتدفق قناة خويلد إلى أسفل في السبخة.

لقد كان لصبر في الأصل ممتلكات أكثر مما هو عليه الآن في هذه المنطقة، وتضم ثروته سبعة آبار وبساتين النخيل والحقول المعتمدة عليها، ولكنه ضحى بكل شيء إرضاء لنزوات الطاغية ما عدا البئر الوحيدة والبستان الذي لا يزال يعيش فيه مع زوجاته الأربعة، وقد أسعدنه بأن أنجبت كل واحدة منهن له ولداً، ومن أجلهم وعلى مدى عمره كان ولا يزال يأمل في رؤية أيام رخاء أفضل تحت ظل الحكم الجديد. لقد كان رجلاً ساحراً عجيباً مع أنه كان إنساناً بسيطاً نسبياً، والذي بدا أن لديه قليلاً من الذكريات عن فترات الاضطراب في عصره، ولم يكن لديه أي معرفة بزيارة كاروثرز أو جوسين

وسافيناك، ومن الواضح أنه لم يكن أبداً في تيار الأحداث الرئيسة التيماوية.

وفي الصباح التالي، بعد أن دخلت على الأمير في زيارة قصيرة لتبادل الأحاديث الودية مع الشاي والقهوة، انطلقت في ما سيكون آخر رحلة لي فيما جاور تيماء. ومررنا من خلال الآثار القديمة على طريق حائل ودخلنا في وادي السيفية، بعد النصب التذكاري وحفر المياه التي تُعرف باسم شمائل حُميان وسميت بذلك على اسم أحد الوكلاء السابقين لابن رشيد من المسؤولين الإداريين عن المنطقة. ووراء هذه النقطة التزمنا مجرى قناة السيفية صاعدين على ضفتها اليسرى حيناً وعلى اليمنى حيناً آخر، على حسب ما تملي علينا طبيعة الأرض، حتى وصلنا إلى نقطة قريبة من القمة الرئيسة لجبل غنيم، على بُعد أكثر من ميل تقريباً وللشمال الشرقي تجاه الفجوة بين جبلي بُرْد وأكباد، ومن خلالها ينحرف باتجاه الشرق إلى حفيرة الشملى وبيضا نثيل في طريقه إلى عاصمة شمّر.

بيد أن غرضي، على كل حال، كان زيارة منخفضات الخُبو حيث وجد جوسين وسافيناك نقوشاً كثيرة. و ضربنا الآن عبر المنطقة إلى الجنوب قليلاً من الغرب فوق أرض رملية ومكسوّة بألواح وعرة، والتي جعلت مسارنا شاذاً وغريباً إلى حد ما حتى وصلنا إلى قمة جبل تحيط بها الأرض الوعرة من جميع الجوانب وقال الأدلاء إن

اسمها المحجة. ولم يكن ليليّ وخُليف على دراية باسم الخُبو، بيد أن المنطقة بيننا وبين منطقة السمك - شمرخة كانت مليئة بأعمدة الحجر الرملي من كل شكل وحجم، وظننت أنه عن طريق فحصي لها جميعاً سوف أصل إلى الصخور التي أطلق عليها جوسين وسافيناك الخبو الشرقية والخبو الغربية. هكذا كان الموقف، ولكن قبل ذلك يجب علينا أن نستجمع كل ما لدينا من حماسة وهمة ضد كل أنواع الاهتزازات. ففي الحقيقة لم نكد ننزل من المنحدر البعيد من الجبل حتى انغرزت اللاند روفر بصورة سيئة في جرف رملي، عندها ذهبت كافة جهودنا لاستخراجها منه أدراج الرياح.

وفي النهاية استسلمنا وتركنا هذا الكفاح غير المتكافئ، وانطلق ليلي بسرور في رحلة على القدمين امتدت خمسة عشر ميلاً إلى استطلاع المنطقة بحثاً عن النقوش، واتجهنا لمجموعة كبيرة من أعمدة الحجر الرملي الضخمة على مسافة بعيدة في الغرب تماماً، التي سميتها مؤقتاً إحدى مناطق الخبو. وكنا سعداء الحظ حيث قضينا يوماً مثالياً من المشي تحت سماء صافية من الغيوم والشمس الساطعة والنسيم البارد. وبين سيارتنا الجانحة والجبل التالي إلى الأمام منا يقع منخفض المحجة الواسع، المليء بالأجراف الرملية، والنباتات الصحراوية، وألواح الصخور التي كان من الصعب فيها تمييز الألسنة العليا لخط هام من خطوط تصريف المياه ويوجد رأس المحجة

في جناح جبل غنيم فهو يشترك مع وادي السيفية في خط تقسيم المياه. وعلى مسافة بعيدة، جنوب - غرب، موقعنا تطور إلى قناة سيل عادية، تصل في النهاية إلى خط سكة حديد الحجاز في أحواض قلعة المعظّم الكبرى، وهي محطة رئيسية على طريق الحج القديم من دمشق. وقد عَبَرَ كل من جوسين وسافيناك وادي المحجة في منطقة أبعد من هناك وهما في طريقهما من مدائن صالح إلى تيماء، وقد أوضحا مجراه في خريطتهما، وقُدر لي أن أراه بعد عامين وهو مليء تماماً بالسيول في المعظّم، حيث أعطاها دليلي الجاهل في تلك الرحلة اسم غيران البنات، قائلاً: إنه يأتي من تيماء.

لقد كان من الواضح أنه في مواسم الأمطار الجيّدة والسيول القوية تمتلئ هذه المنطقة السبخة كلها بالمراعي المزدهرة، والتي تقوم القبائل المحيطة بها وسكان تيماء أنفسهم بالخروج إليها للتخييم بها في الربيع. وكان هناك الكثير من البراهين على ذلك في المنطقة التي نمشي فوقها الآن حتى إن ظروفاً مشابهة لا بد أنها قد سادت في العصور القديمة.

وتوجد نقوش ورسوم ثمودية في كل مكان على ألواح الحجر الرملي المسطحة التي تتناثر على هذه الجبال. وقضيت يوماً عامراً بالحركة والنشاط بأقصى ما كنت أتمناه، وأنا أدوّن وأنسخ محتوياتها. لقد كانت منطقة بكراً، حيث لم يأت أحدٌ قبلي هنا لمثل

هذا الهدف، وبذلت أقصى ما بوسعي لكي لا أترك شيئاً لمن سيأتي بعدي ليكتشفه، على الرغم من أنه يصعب أن أدعي أنني قد استنفدت جميع إمكانيات المنطقة.

ومن الجبل البعيد في المنخفض واصلنا سيرنا حتى مجموعة فذة واستثنائية من الأعمدة الهائلة، التي أطلقت عليها مؤقتاً اسم الخبو الشرقي، ومن عمود بارز قرب الحافة الشرقية للمجموعة قمت بعمل مسح تقريبي لمعين منحرف أجوف، أو شكل على هيئة طائرة ورقية، طوله حوالي ميل من الشرق للغرب وعرضه حوالي ٨٠٠ ياردة في أوسع أجزائه. وعلى مسافات بعيدة متباعدة كلها على طول الحافة الخارجية لهذا المكان تنتصب أعمدة ضخمة من الحجر الرملي ذات أحجام مختلفة أكلتها العوامل الطبيعية، بيد أنها كلها ترتفع بصورة مباشرة من الأرض ومن الواضح صعوبة تسلقها، بينما في أقصى الطرف الغربي من هذا الشكل توجد مجموعة الأعمدة المسننة. حوالي خمسين منها تنتشر على خط شمالي - جنوبي لا يزيد طوله عن ٣٠٠ ياردة.

وداخل المعين المنحرف الأجوف لم يكن هناك أعمدة على الإطلاق، وبدا أن المساحة في داخله كانت سهلاً منخفضاً قليلاً، من الرمل والنباتات. وكانت فترة العصر توشك على الانقضاء، ولا بد أن أعترف بأنه لم يكن لديّ وقت لفحص كل عمود من

الأعمدة، وهي حوالي مئة أو أكثر في مجموعها، على أنني فعلاً فحصت حوالي عشرين منها وخرجت بنتائج مخيبة للآمال نسبياً بالمقارنة مع المحصول الوفير الذي جمعته من جبال المحجة غير الهامة إلى حد ما. وكان القليل من الأسماء الثمودية يتناثر هنا وهناك، مع أنه لا يوجد منها على أي عمود ما يوحي بأن هذا المكان كان الملاذ المفضل للأشخاص المتعلمين أو المثقفين. وألغيت مجرد احتمال أن تكون رياح الصحراء الحارة قد مسحت ما سُجل في هذه الصفحات النموذجية المزيّنة. وعندما نزلت الشمس خلف الأفق عدنا أدراجنا لنقضي الليل بجوار السيارة، ولا بد أننا قد قطعنا على الأقل أربعة أميال من المشي على القدمين خلال النهار، حيث كانت الساعة السابعة والنصف مساءً عندما وصلنا إليها، بعد أن ضللنا طريقنا صرنا نذهب هنا وهناك لنجد ما يدلنا على موقعنا، وبحلول هذا الوقت كان خُليف قد بدأ يشعر بالتعب تماماً لأنه، كما قال، لم يشرب قهوته طول اليوم، منذ مغادرة تيماء، وقد هجرته مؤقتاً حاسته الطبيعية لتمييز الاتجاهات.

وبعد وصولنا فوراً، وليس أمامنا إلا قليل من البدائل لنستفيد بأقصى ما يمكن من هذا الموقف المنفر والمثير للاشمئزاز لقضاء الليل، وليس معنا إلا بقايا من طعام رديء كنا قد أخذناه معنا للغداء (شاي وشابوره وحلاوة سورية مصنوعة من السكر والدقيق، وبعض

البسكويت) سمعنا صوت سيارة تقترب منا . لقد كانت شاحنة الأمير مع مجموعة من خدمه وتابعيه وبعض من جماعتي من المدينة مع ليلي مرشدي ليرشدهم ، وكنت أنا وخُليف نتطلع إلى عشاءٍ طيب نقابل به التعب وانعدام الراحة التي لا يمكن تجنبها في الليل الذي أسدل علينا سدوله ، بيد أنه قد قدر علينا أن نُصاب بخيبة الأمل ؛ إنهم لم يفكروا حتى مجرد التفكير في إحضار أي طعام على الإطلاق ، ناهيك عن إحضار فراش لنا لقد فكروا فقط في مهمة سحب أو دفع اللاند روفر للخروج من حفرتها الرملية والعودة معنا منتصرين .

ولكن الأمور زادت سوءاً عن ذلك ، فقد تسببت جهودنا الأصلية لاستخراج السيارة من الرمل في إصابتها ببعض الضرر ، واحتاجت لرعاية ميكانيكي حتى يعيد الأشياء إلى وضعها الصحيح ، ولكن السيد فضّل أن يضيع وقته بين أماكن المتعة والترفيه في تيماء بدلاً من أن يأتي لإنقاذنا .

ولم أخف كلماتي في التصريح برأيي في كفاءة ترتيباتهم ، وقلت لهم من الأفضل أن يعودوا إلى تيماء ويتركونا في سلام ، وطلبوا مني أن أعود معهم في اللوري ، حيث إنهم على الأقل لم يكن لديهم أبداً أي نية في قضاء الليل وسط البريّة بدون فرشهم ، وقد رددت عليهم بأنني لن أترك السيارة بأي حال من الأحوال إلى أن

يتم إصلاحها وأقودها بنفسي عائداً إلى تيماء، وضاعت عمليات الإنقاذ إلى شجار صامت بين عنادي وهيجان الخدم الصاخب، عندما جلسنا حول نيران المخيم نتبادل كلمات قاسية إلى أن أدركوا أنني لا يمكن أن أتزحزح، وقلت لهم إنهم يستطيعون الذهاب إلى أي مكان، حتى إلى الجحيم إذا أرادوا، ولكنني لن أذهب معهم إلى أي مكان، وبقدر ما كان الأمر يتصل بالناس معي، فقد كان الوقت أكثر من ملائم لحسم نهائي للنزاع، وكنت سوف أسعد لو افترقت عنهم هنا في تيماء، حيث في إمكانهم أن يجدوا وسيلة نقل بسهولة ليعودوا بها إلى المدينة. لقد كان محمد العريفي ورفاقه مجموعة لا تستحق شيئاً.

وكان من الواضح أن أتباع الأمير قلقين من هذا الموقف، وفي النهاية تم الاتفاق بيننا على أن يقوم اثنان منهم، سويد وناصر، بقضاء الليلة حيثما كنت أنا وخُليف، وتعود بقية الجماعة إلى تيماء لترسل السيد وسيارته اللوري لإنقاذنا في الصباح. وهبط السلام أخيراً على الظلام وهدأ أربعتنا في تناغم معقول، نحتفل بمؤونتنا الضئيلة ونرشف الشاي لساعة أو ساعتين، قبل أن نلتف في الرمل حول الجمرات الخامدة لننام إن استطعنا بدون غطاء إلا من ملابس الصيف التي غادرنا بها تيماء في الصباح. ولم تكن ليلة دافئة بأي حال، وفي منتصف الليل استيقظت بنوبة تقلص حاد، وبعدها

ظللت أغفو بصورة غير منتظمة حتى الساعة الثالثة صباحاً، عندما أشعلنا النار مرة أخرى لنحتال على الساعات الباقية حتى الفجر بمساعدة الشاي والشابورة. وعلى العموم كانت ليلة بائسة نسبياً، ولم يطلع الفجر مبكراً، والنجوم العالية مثل صليب الجنوب والفارس وراكب الجمل في كوكبة الظلمان كانت تلمع فوقنا وهي في الأفق الجنوبي تماماً.

وعند غروب الشمس رأينا نجمة الزهراء بوضوح شديد، والهلال الجديد والمشتري يغوصان في خط أمامنا وراء الحدود الغربية لعالمنا، بينما الشعرى اليمانية ترتفع في الشرق لتحيي مرور الزهرة. وكان هناك ندى كثيفٌ حقاً خلال الليل، وكل منطقة المحجة هذه كانت تتناثر فيها برك المياه من الأمطار الأخيرة.

وفور بزوغ الضوء بما يكفي لرؤية الأشياء بوضوح، بدأت أنا وخُليف، بعد أن تركنا صاحبينا في الليل ليحرسا السيارة، في السير نحو منخفضات الخبو وعندما نظرنا للخلف من جبلٍ على طريقنا، شعرنا بالرضى من رؤية سيارة السيد اللوري تصل عند مخيّمنا. وكنا لا نزال هناك بشكل أو بآخر غرب قمة غنيم وجنوب طويل سعيدة وتيماء، بينما كانت أعمدة الخبو التي زرناها في اليوم السابق تغطي نصف ربع الدائرة (٩٠ درجة) بين الغرب والشمال - الغربي. وقد واصلنا المشي تجاه نصب تذكاري على جبل يطل على

منخفضات الخبو، والذي وجدنا عليه مجموعة هائلة حقاً من النقوش والرسوم، التي واصلت نسخها بغير انقطاع. لقد كان عملاً طويلاً على مقدار مذهل من المواد، وكنت مازلت منهمكاً ومنكباً عليه قُرب الظهر عندما وصلنا اللوري واللاند روفر، ومعهما إمدادات رحبنا بها لتناول وجبة مشبعة حقاً.

وكانت المسافة بين هذا الجبل و النقطة التي تعطلت عندها السيارة تبلغ ستة أميال فقط، وبعد أن سرنا ميلاً آخر أو أكثر قليلاً جئنا إلى عمود عملاق من الحجر الرملي في الخبو الشرقي، ينتصب في منخفض دائري عميق والماء حول قاعدته لنواجه بمشكلة إزاحة الرمل لأقدام قليلة، وكانت أجنحة العمود الملساء من جميع الجوانب مغطاة -بمعنى الكلمة- بالنقوش الثمودية، التي انهمكت فيها دونما تأخير، على الرغم من أنه لم يتوفر لديّ وقت إلا لنسخ حوالي خمسين منها فقط قبل اقتراب غروب الشمس الذي نبهنا بحلول ميعاد التفكير في العودة إلى تيماء. وربما أكون قد وفرت على نفسي عناء استنساخ أي من هذه النصوص، حيث إن جوسين وسافيناك قد نسخا ونشرا ما لديهما بالكامل، حسب ما اكتشفت ذلك عندما نظرت في كتاب فان دن براندن ذلك المساء، هذا الاكتشاف وفّر عليّ عناء العودة إلى المكان في اليوم التالي حسبما كنت أنوي أن أفعل. لقد حددت الخبو الشرقي بلا شك، وفي اليومين الاثنين اللذين

قضيتهما فيها أنتجت قدراً وفيراً من النصوص تبلغ ٣٠٠ نص ثمودي تقريباً، كلها جديدة ما عدا الخمسين التي دونتها في هذه البقعة، والمنطقة التي تشبه الطائرة الورقية التي كنت فيها أمس ربما تكون أيضاً الخبو الغربي الذي ذكره جوسين وسافيناك، ولكني لم أتمكن من حل هذه المشكلة بما يرضيني تمام الرضى، وكان النهار يتقدم بشدة نحو الغروب حتى إننا لا يمكن أن نتأخر أكثر من ذلك، كما كان الجو يزداد برداً، ولذلك انطلقنا نحو السيارات وسرنا في خط متعرج إلى طريق حائل، وسرنا صوب جبل أم السبع. وقد كان سيراً وعراً وصعباً، بيد أننا لم نواجه عوائق خطيرة، ووصلنا إلى الطريق بصورة صحيحة بعد أن قطعنا عشرة أميال. وفي ذلك الوقت كانت سيارة اللاند روفر في حالة سيئة للغاية، ولكن بفحص "أنفاس الحياة" فيها مراراً، تمكنت السيارة من أن تزحف إلى تيماء، حيث كان مقدراً لها أن تظل هناك لعدة أسابيع. إن رحلة الذهاب والعودة على مدى يومين قد قطعنا فيها أربعين ميلاً تقريباً، معظمها في مناطق شديدة الوعورة.

وعند عودتي للسكن اكتشفت، نتيجة للمشاجرة في الليلة الماضية، أن محمد العريفي واثنين من مساعديه الرئيسيين قد رحلوا عن المخيم ومعهم جميع أوانينا وقدورنا ومؤننا، واحتجوا بأنهم قد أصابهم الملل مني ولن يذهبوا معي بعد ذلك. لا شيء يمكن أن

يمنحني سعادة وسروراً أكثر من هذا، فقد كنت بكل تأكيد شبعت من رفقتهم غير المفيدة. وكنت أستطيع أن أحصل على بديل لهم، وعليهم أن يعيدوا إلينا الأواني والمعدات والمؤن التي صُرفت في المدينة لي وليس لهم. وكان أكثر ما يقلقني حالة اللاند روفر، وجاء تقرير السّيد في اليوم التالي ليؤكد انطباعي بأنها لا تستطيع أن تسير أبعد من ذلك دون إصلاح كامل، وهذا يتطلب إحضار مختلف قطع الغيار الهامة من جدة. وسوف يستغرق ذلك وقتاً طويلاً وعندئذ قررت بكل أسف أننا سنواصل رحلتنا باللوري فقط، ونترك السيارة وراءنا في عهدة الميكانيكي الذي لا يتمتع بأي خبرة، انتظارا لوصول قطع الغيار اللازمة.

وكرست الصباح التالي، بعد زيارة قصيرة للأمير لمناقشة خطط مغادرتي، لاكتشاف واحة تيماء بصورة مكثفة سيراً على الأقدام حتى آثار المدينة القديمة، التي كتبت عنها سابقاً بدرجة كافية. وقد دوّنت بصورة تقريبية -بأفضل ما أستطيع من قدرة- ثلاثة نقوش عربية هامة (واحد في صالة الأمير الخاصة والاثنان الآخران مثبتان في الجدران على طول الشارع الرئيس، الذي كان يُعد أحد أقذر الشوارع التي رأيتها على الإطلاق). فقد كان هو والحارات والأزقة المتفرعة منه على مسافات فاصلة كلها تستخدم بصورة واضحة تماماً كدورات مياه بانتظام. وقد زرت السوق أيضاً، ومثلما كان عليه،

يضم حوالي عشرين دكاناً، كلها بالكامل مملوكة لغير أهل تيماء، وكان معظمُها مغلقاً، وملاكها غائبون. وعلى كل حال، فقد وجدت أحدها مفتوحاً وعرجت عليه لقضاء بعض الوقت في حديث غير متكلف مع مالكه، عبد الصمد من المدينة، الذي لم أخرج من عنده بانطباع أنه قد جمع ثروة من مشروعه التجاري هذا. وفي جولاتي لاحظت أن جزءاً من عمود قديم من الحجر الجيري يتمدد على الأرض قرب البئر، يبلغ محيطه ٤٥ بوصة وعرضه ٥٣ بوصة في السطح العلوي، الذي يوجد به فتحة للوتد. وربما جاء هذا العمود من المسجد القديم المهجور الذي ذكرته من قبل.

ومن الواحة الرئيسة والآثار واصلت سيري حتى ضاحية الغرب لألقى نظرة أخرى على قلعة قصر الأبلق العتيقة، وكذلك لزيارة منزل الطليحان ذي العمود الأثري الشهير، الذي التقطت صوراً له وللبئر المبنية بجواره، وأثناء عودتي من هناك تجاوزت آثار المدينة إلى ضفة شعيب خويلد خارج السور الدائري مباشرة وعلى بُعد أقل من ميل من حفرة وجاج. وهنا وجدت بئراً على الضفة اليسرى للقناة، وسداً على القناة عمقه عشرة أقدام وقد تآكلت أحجار قاع حوض الشعيب الرملية في قطاع منه، وعلى هذا السد وحوله وجدت العديد من النقوش الثمودية على ألواح الحجر الرملي المسطحة التي كانت تتناثر على الأرض. وفيما يتصل ببعض الحديث الذي كنا

تبادلناه في ثنايا جولاتنا قام ليليّ هنا بإعداد خبز محلي من بذور نبات صحراوي يسمى (سمح). وكان لذيذاً عند أكله وهو ذو لون بني داكن، إن هذا النبات ينمو بكثرة في كافة هذه الصحارى الشمالية من الجزيرة العربية، ومن المألوف أن يسعى البدو وراءه كثيراً، وأكثر القوم فقراً في شرق الأردن عندما كنت هناك. وطبقاً لما قاله ليليّ فإنه ينضج ويُحصد بمنطقة تيماء عند ظهور الثريا، أو في منتصف الصيف تقريباً.

من الواضح أن المرء يستطيع أن يمكث شهوراً في تيماء دون أن يستنفد إمكانياتها الثقافية والترفيهية، ولكن عليّ أن أضع الوقت نصب عيني، وشعرت بأن الشيء الوحيد الباقي لإنجاز وإكمال تحرياتي هو زيارة القلعة القائمة على تل طويل سعيدة البارز، أو المنارة الشمالية -كما كان يسمى- لمنطقة تيماء. وهكذا في ذلك المساء، حملت مؤنتي الأولية على اللوري الذي قدر له أن يكون مطيتي لما تبقى من الرحلة، وكان أسوأ عيب فيه أن عداد السرعة لا يعمل، مثل معظم عدادات السرعة في السيارات العمومية في المملكة العربية السعودية لتفادي أي فحص لاستهلاك الوقود. وقد ضربنا "أكباد المطايا" عبر السبخة ومررنا على تلال جال الملح واخترقناها بطرق ملتوية حول قنوات التصريف في بريّة شاسعة أمامنا حتى وصلنا إلى سفح التل، الذي كان -تقريباً- على بعد

ثلاثة أميال من حافة السبخة. وعلى قمته، التي سطحت بصورة اصطناعية واضحة لهذا الغرض، تنتصب قلعة قديمة، مبنية من أحجار مشذبة تشذيباً جيّداً نسبياً وذات أحجام متوسطة، والتي لا يزال عشرة مداميك منها باقية في حالة تامة من جميع الجهات، وكان من الواضح أنها لا تتعدى برج مراقبة لتحذير وتنبيه تيماء من اقتراب الأعداء، حيث كانت مساحتها لا تزيد على عشرة أقدام مربعة، والزوايا تتجه تقريباً نحو الجهات الأصلية في البوصلة (في الحقيقة بدرجات ٣٦٠ - ٩٠، ١٧١ - ٢٦٢). بيد أنها كانت، على ما يبدو واضحاً، مستخدمة منذ عصور موغلة في القدم لأن جدرانها كانت تحمل كثيراً من النقوش الثمودية، وبعض الخربشة العربية والحروف الأولى المحفورة بشكل جيّد من اسمي الأمريكيين اللذين لم يسمح لهما بدخول تيماء.

والرصيف الذي تقف عليه يمتد منها مسافة خمسة عشر قدماً من جميع الجوانب، وفي الجهة الجنوبية منه قام بعض الزوار العرب بوضع علامة بالحجارة توضح القبلة، الموجهة على ١٩٢ درجة نحو ينبع وبورتسودان، بينما كان الاتجاه الحقيقي لمكة ١٦٨ درجة، لقد تساءلت بتعجب أحياناً إذا كان من الجدير إعداد خريطة للعالم الإسلامي بناءً على اتجاه القبلة من مساجده، بيد أن خبرتي أقنعتني أن النتيجة ستكون صورة زائفة ومضحكة من الحقائق الجغرافية.

ومن المعتقد -على سبيل المثال، كما اعتاد الملك أن يؤكد- أن محراب القبلة في المسجد الكبير في الرياض لا يتجه فقط لمكة، ولا للحرم المكي نفسه، ولكنه في الحقيقة يشير إلى باب الكعبة تحديداً. كما أنه في الواقع يشير فعلاً إلى المدينة، على بُعد ٢٥٠ ميلاً إلى الشمال.

والهدفُ من برج طويل سعيدة -الذي ربما يعود اسمه الحديث "سعيد" إلى وكيل ابن رشيد في حكم تيماء في زمن زيارة كاروثرز لها- كان إتاحةَ رؤية واسعة لكافة المنطقة المحيطة به، ومن المؤكد أنه قد منحنا ذلك. ويقع نخيلُ هداج السامق للغرب قليلا من الجنوب، ونظام جبال غنيم الممتد من قرن البدن حتى "المكان السامي"، يحتل معظم ربع الدائرة الممتدة من الشرق إلى الجنوب، وكانت تلال بترا دفافات رملية واضحة وظاهرة في الشرق تماماً، ومجموعة أخرى من التلال الرملية تسمى المُرَيْر تقع في الشمال - الشرقي تقريباً. وكان منظر بني عطية في الجنوب - الغربي، بينما جبال ضبع والغمرة في الغرب.

وعلى القمة المنخفضة للتل كانت توجد آثار قلعة أكبر حجماً، تلك التي لم أزرها وقد بدت حديثة نسبياً، وعند سطحها يقع أيضاً عدد من الآثار غير المتميّزة، ربما كانت أنقاضاً لخط دفاع ما. وفي أثناء عودتنا بالطريق الذي جئنا منه، توقفنا عند بيت صبر آل عيادة

عند غروب الشمس لتبادل الحديث الودي بصورة نهائية مع تناول القهوة والشاي معه قبل العودة إلى مقرنا لقضاء آخر ليلة. وكان رفاقنا العباقرة قد عادوا أدراجهم وبلا شك، بناءً على طلب الأمير، وكان كل شيء جاهزاً للمرحلة القادمة من رحلتنا، بدون السيارة اللاند روفر والميكانيكي الذي صحبني من الرياض.

ومنذ ذلك الحين كانت السيارة قد قطعت ٣٫٧٣٧ كيلومتراً (٢٣٣٥٠٥ ميلاً) على طرق من كافة درجات السوء والوعورة أو بدون طرق على الإطلاق أحياناً.



الفصل الخامس

من تيماء إلى تبوك

في ١٣ يناير ١٩٥١م قلنا وداعاً لتيماء واللاندروفر، وانحشرنا في اللوري لنشق الطريق إلى تبوك. وكان عداد السرعة معطلاً، وهذا عيبٌ أساسي في أي سيارة تستخدم في الترحال والاستكشاف وكان رفاقي لا يزالون مهتاجين وغاضبين تبدو عليهم نزعة التمرد، التي استطاعوا أن يطلقوا لها العنان بما يُرضي قلوبهم، وهم محشورون في مؤخرة السيارة مع متاعنا ومخزوننا من المؤن وأشيائنا الأخرى ليقعدوا أو يرقدوا كلما اهتزت السيارة أو ارتجت وهي في طريقها غير السهل على الأرض الوعرة.

وقد ركبت أنا في وضع مريح نسبياً في المقعد الأمامي العريض باللوري، مع السيد، السائق، وهو لا يزال هادئاً رابط الجأش، مُبرّءاً من العيوب والأخطاء، وجلس الدليل الجديد بيننا. وكان يُدعى سلامة بن علي من بني عطية، والذي سوف يَعْتَمد عليه - بقدر ما يهمني الأمر- نجاحُ هذا الجزء من رحلتنا وسعادتنا بها، وقد خيّم علينا شعور بالإحباط واليأس، الذي نادراً ما يُفضي إلى

التفاؤل، بيد أن المسافة التي سوف نقطعها، نحو ١٥٠ ميلاً أو أكثر قليلا في طريقنا، لن تستغرق أكثر من ثلاثة أيام، وكنت أنوي وأخطط لصرف كل الجماعة الذين معي من الخدمة، ما عدا السيد وشاحنته، عند وصولنا إلى تبوك، فمنها ستكون عودتهم إلى المدينة أكثر سهولة ويُسراً من تيماء. وعلى كل حال سوف أحتاج لفريقٍ جديد بالكامل لاستكشاف " المناطق الشمالية " الهامة، كما كانت المنطقة تسمى رسمياً. وفي الحقيقة، ولكي نهون من وقع الأمور، فقد قطعنا المسافة فيما يزيد فقط على عشر ساعات من القيادة الفعلية للسيارة، على مدى ثلاثة أيام، أي بمعدل خمسة عشر ميلاً لكل ساعة من ساعات سير الشاحنة، على الرغم من أن سرعتها لم تكن منتظمة، وذلك اعتماداً على طبيعة الأرض، التي كانت تتراوح بين جيّدة وسيئة إلى معتدلة.

وبعد أن سلكنا نفس الدروب التي أتينا منها عبر آثار فاو الطليحة، وبعد أن عبرنا الفروع العديدة لشعيب الرضّم فقد التزمنا الضفة اليسرى منه صاعدين إلى منطر بني عطية، حيث توجهنا إلى الجريدا، إن هذا الاسم يخص -في الحقيقة- الهضبة نفسها وليس خطوط تصريفها، التي يبدو أنه يوجد منها ثلاثة على الأقل تتدفق في اتجاهات مختلفة. وقد وصلنا إلى رأس القناة التي تصرف في حوض تيماء على بُعد نحو خمسة عشر ميلاً من خارج الواحة. ومن

هنا كانت تمتد منطقة منبسطة نسبياً، وتضم سبخة كبيرة سماها دليلي -دون تأكيد واضح- خبرا المحجة (على الرغم من أنه لا يوجد رابط بينها وبين وادي المحجّة المذكور آنفاً)، وبعدها بأميال قليلة جئنا إلى ما كان يبدو أنه اثنان من فروع التصريف الأخرى، يتدفقان في اتجاهات معاكسة تماماً بكل ما في الكلمة من معنى. والفرع الهابط عن يسارنا قد صعدناه من قبل عند اقترابنا من تيماء، بينما يسير الآخر باتجاه الشمال - الشرقي حتى سبخة جَريش الكبرى، الممتدة على طول سلسلة جبال بالاسم نفسه. هذه القناة تنضم إليها في نقاط مختلفة خطوط تصريف من سلاسل الجبال المختلفة، مرتبة في نسق مرتب على طول خط يمتد من الغرب تماماً مروراً بالشمال - الغربي والشمال حتى الشمال - الشرقي. وهي من اليسار لليمين جبال الرحل التي تقع خلف جبل المعيزيلة (وهو أعلاها جميعاً بهضبة بها قمة حادة منحدرة الجنبات وذورة بارزة) ثم البياضية وجبل ضبع والغمرة، والجريش. وتوجد في ضبع قمتان كبيرتان، وفي الغمرة قمة واحدة.

ومن هذه النقطة دخل مسارنا منطقة جديدة، تتجه نحو الغرب مسافة ما باتجاه الفجوة بين البياضية وضبع، حيث سيغير اتجاهه مستديراً نحو الشمال - الغربي. وقبل أن نصل إلى هذه الفجوة عبرنا قناة الجريدا الرئيسة في منطقة كانت الأرض فيها تزداد وعورة

كلما اقتربنا من الجبال. وكانت مغطاة بصورة طيبة بالأعشاب والنباتات، على الرغم من أن الكائن الحي الوحيد الذي أزعجناه خلال عبورنا كان صقراً صغيراً وفريداً. وربما كان الصيد الذي يزاوله عبد الله بن فيصل وآل السديري قد أخاف الغزلان التي كانت موجودة هناك من قبل ودفعها للنزوح، ونحن نعلم حقاً أن الصيادين قد سلكوا هذا الطريق في مسارٍ يعبر القناة ويتجه للشمال - الشرقي نحو سبخة كبيرة أخرى تسمى العسافية (أو ربما كان اسمها الصفية) وهم في طريقهم إلى رمال النفود من ورائها.

وواصلنا سيرنا نحو الأرض الصخرية المرتفعة التي تشكل القاعدة لمختلف سلاسل الجبال، وتوقفنا لتناول الغداء قرب بروز منخفض من الحجر الرملي معزول عن طرف جبل ضبع قبل دخوله في الممر الواسع بين التلال، وعندها سوف نفتقد جميع العلامات الأرضية المألوفة في المنطقة خلفنا. وتقع قمة غنيم على بعد درجات قليلة للجنوب من الشرق مباشرة، وفي هذا الاتجاه كانت تيماء نفسها قد اختفت عن الأنظار بسلاسل جبال الهضبة بيننا وبينها، والى البعيد جدا نحو الجنوب - الغربي كنا نستطيع أن نرى جبل المطلع والنقاط الشاهقة الأخرى من منطقة حرة العويرض وحرة الرحاء البركانية العظيمة، خلف خط السكة الحديدية بين قلعة المعظم وتبوك. وأمامنا، من خلال الفجوة، رأينا بعض المعالم الأرضية التي سوف

نمر بجوارها في الوقت الملائم وهي جبل السلاعو وراء الطرف الأيمن لجبل البياضية وجرف الضاحكية المنسّقة من الحجر الرملي، والتي يسير بينها الطريق. (التصريف الداخلي لمياه المنحدرات المحيطة بالقناة يتدفق للخارج من خلال فجوة ضبع - البياضية)، وينحني مستديرا على طول سفح ضبع حتى سبخة الجريش وأخيراً، في القناة نفسها بمحاذاة طريقنا، توجد مجموعة دائرية من الأعمدة والتلال الصغيرة المفككة من الحجر الرملي، تسمى ربيك ضبع وهي متاهة رائعة متشابكة من أشكال جميلة، تشكل نوعاً من النصب الطبيعية حيث توقفنا عندها برهة للتأمل والإعجاب بها وفحصها، على الرغم من أنني فشلت في العثور على أي نقوش أو حتى صور على الصخور.

وصعدنا الآن قناة السلاعو ورافدها الشعيب الذي يسمى قليب القنيص الذي تتدفق سيوله المجتمعة على طول الحافة الشمالية لضبع حتى سبخة الغمارية على الجانب البعيد من جبل بالاسم نفسه. وفي المنخفض كانت توجد غابة صغيرة من شجيرات الطلح عند حافة السبخة التي تحتفظ بالمياه لشهور عدة في مواسم الأمطار الغزيرة. وكان الممر لعبورنا بين هذه القنوات والجبل الحجري المنخفض على طول ضفافها اليسرى يضيق بالتدريج من ميلين إلى أقل من ميل واحد، وكان دربنا محصوراً بين جبل برقة في نهيا وجرف

الضاحكية أثناء صعوده وهبوطه في منطقة منخفضات جرداء تزداد اتساعاً باستمرار.

وفي أثناء الأصيل كنا نواجه بصورة متقطعة أحياناً بأسراب كبيرة حقاً من الجراد، في أودية مليئة بالنباتات، وأحياناً منتشرة في كتائب متناثرة بالمنخفضات الصخرية، كما لو كانت تستعد بتركيز قواتها لتجديد هجومها على إمدادات الطعام المحلي، وقابلنا بالصدفة أيضاً زوجين من الغزلان في المراحل المتأخرة من سيرنا. وبعد المنخفضات دخلنا ونزلنا في قناة تصريف المياه لشعيب الخوينات الذي يحده امتداد جبل الضاحكية وسرعان ما تتصل بقناة أكبر منها لشعيب العقلة وهو أحد خطوط التصريف التي تتصل مع بعضها لتكون آبار الفجر أحد روافد حوض الحاوي الصحراوي الكبير عند الطرف الجنوبي لوادي السرحان بيد أنه نظراً لتأخر الوقت فقد قررنا أن نخيّم حيثما كنا في رافدٍ صغيرٍ لشعيب العقلة إلى حد ما أسفل التقاء شعيب الخوينات معَ العقلة.

وكان الوادي الصغير الذي كنا فيه يشتهر باسم وديّ النعام (أي الوادي الصغير)، وسمي بهذا الاسم ربما لأنه كان مسرحاً لبعض النعام العربي المتناقص (Struthio) وانقرض الآن تماماً. إن نقطة تقسيم جميع خطوط التصريف هذه المؤدية إلى وادي الفجر يبدو أنها سلسلة جبال الغردل واللبدة (العبده؟). وعلى العموم كان مكاناً

موحشاً أجردَ نسبياً تميزه جبال منخفضة مسطحة ومنخفضات متموجة، جرداء وحجرية في معظم أجزائها. ويطوق جبل الضاحكية وجرفه الضفة اليمنى للعقلة، وتستمر نحو الشمال في هضبة الزبليات المنخفضة، بينما على الضفة اليسرى يستمر جبل اللبدة بالكامل حتى فجوة واسعة، حفرها وادي الكلبة بعد التقائه مباشرة بالعقلة، الذي أصبح من أسفل هذه النقطة يعرف باسم " وادي القَلَيبَة " وفي شمال الكلبة تمتد مرتفعات البيضا .

وكانت أسراب الجراد واضحة مرة أخرى للعيان عندما واصلنا رحلتنا في شعيب العقلة حتى ملتقى الكلبة، ووراء تل معزول مباشرة والذي كان يفصل الجدولين عن بعضهما. وتتراجع التلال الآن لتكوّن سهلاً يبلغ اتساعه نحو ميل أو أكثر، والذي تتدفق خلاله الأودية حتى آبار وقاعدة القليبة العسكرية في النقطة التي يضيق فيها مرة أخرى ليمر من بين جبال شاهقة. إن احتجاز مياه السيول في هذا المخرج الضيق قد وفر رطوبة دائمة في طبقات التربة التحتية، التي نما وازدهر فوقها عدد هائل من أشجار الطلح الطويلة الباسقة، في حين تتناثر هنا وهناك الحدود الخارجية للحقول التي كان يُزرع فيها محاصيل الحبوب. والمنطقة المتسعة من الوادي بعد المناطق الضيقة مباشرة تبلغ حوالي ميلين من الاتساع، ومن الواضح أن هذه المنطقة قد سكنها البشر منذ قديم الزمان، على الرغم من أن

استعمالها الحالي والإقامة فيها كمركز حدودي فرعي يعد حديثاً نسبياً. والبئران المستخدمان لهما فوهات دائرية ذات أربعة وخمسة أقدام على التوالي، وكانتا مبنيتين بناء حسناً من طوب بحجم صغير من فتحتيهما حتى مستوى الماء فيهما، الذي يوجد على عمق خمس قامات. وهناك العديد من الآبار الأخرى في المنطقة، وهي الآن ميتة ومهجورة، أو لم يُستأنف تشغيلها حتى الآن. وبالقرب من البئر الرئيسة كان يبرز ما كان يبدو أنه شاهد كبير على ضريح، فيه اسم ثمودي كتب في وسط شبه دائرة صغيرة من أحجار صغيرة، ومما لا شك فيه أنه قبر قديم، حيث كان من الواضح أن الشاهد في وضعه الأصلي أو الطبيعي. وقريباً منها، كان يوجد على ما يبدو قبر آخر، تشير إليه أحجار على مسافات متباعدة على طول ثلاثة أضلاع من مربع، مع إشارات غامضة لكتابة قديمة على بعض الحجارة.

وعلى مقربة من الآبار -ولكن على المنحدر السفلي للجبل- تقف قلعة من الطين لحامية صغيرة تضم ثلاثة عشر رجلاً وقائدهم، بينما يتناثر قليل من البيوت حولها. وقد كانت بمثابة مأوى لعوائل هؤلاء الرجال الذين كانوا يسعون جاهدين لجعل منفاهم هنا أخف وطأة عن طريق عقد قرانهم على بنات قبيلة بني عطية، التي تقطن الصحراء المجاورة لهم وكان عبد العزيز التويجري، القائد، غائباً في الحقيقة عند وقت وصولنا لزيارة بعض الخيام القبلية، ولكن رسولاً

قد أرسل لإشعاره بوصولنا، وقد عاد في الوقت المناسب ليستضيفنا على الشاي والقهوة قبل أن نواصل سيرنا. وفي غضون ذلك، تسلقت على الأجراف المطلة على فوهة المنخفضات لإلقاء نظرة بصورة أفضل على المنطقة، ولمحاولة أن أفك رموز متاهة القنوات التي تنقل مياه هذه المنطقة كلها، ومنها المنحدرات الشرقية للجبال النائية التي تحد حوض تبوك العظيم، في الشمال.

ومن هنا فصاعداً بدأنا نسير باتجاه الشمال - الغربي، وكنا على بُعد حوالي ٧٥ ميلاً من تيماء، أو في منتصف الطريق تقريباً إلى تبوك، بيد أننا من هنا سوف نضطر للالتفاف جنوباً من الغرب حتى نمر من خلال سلسلة جبل الظفير، التي كان باستطاعتنا أن نراها من النقطة المرتفعة التي نقف عليها. وكان جبلُ خنصر الطويل، ذو النتوءين اللذين يشبهان الإصبعين في طرفه الأيمن، يغطي عدة درجات في الشمال - الغربي على طول حدود الأردن. كذلك كنا نستطيع أن نرى فقط قمم الجبال البركانية على مسافة بعيدة في الشمال، مع موقع بئر وادي الفجر ومركز المغيرة الحدودي السعودي الفعلي من ورائه على اليمين، وعلى مسافة بعيدة أيضاً عندما استدرنا نحو الشمال - الشرقي يقع جبل الزبيليات وهو خط طويل ومتقطع من صخور الحجر الرملي المتكسر، مع خمس أو ست نقاط ذات بروز صارخ. والتلال المنخفضة المبعثرة على طول الضفة

اليسرى لنظام الوادي الذي يشكل رأس وادي الفجر تُعرف باسم قوار القليبة مع رافد آخر قديم لوادي الفجر هو شعيب العرادة، يتدفق على طول جانبها الآخر.

وعلى طول حافة هذه التلال استأنفنا سيرنا بعد أن غادرنا مضيفينا، الذين كانوا يبدون سعداء تماماً في منفاهم النائي، ويزيدهم سعادة أكثر رؤية وجه -بصورة عرضية- من العالم العظيم البعيد عنهم. وفور أن اختفى جبل القليبة تقريباً عن أنظارنا، أتينا على مجموعة من الآثار على الهضبة المنخفضة بالضفة اليسرى للوادي، حيث عزمنا على أن نضرب عصفورين بحجر حيث قررنا فحصها مع توقفنا لتناول الغداء.

وكان هناك حوالي عشرين من مجموعة هذه الآثار المتناثرة حول القمة المسطحة لجبل حجري وعر، وهي ربما كانت قلاعاً قديمةً أو متاريس مهدومة أو -على الأرجح- قبوراً فردية أو جماعية. وقد التقطت صوراً لعدد من وحدات منتقياتٍ منها، وأخذت قياساتها، بيد أنه كان من الواضح أن سلامة لم يرها أبداً من قبل، ولا يدري شيئاً عن تاريخها، مع أنه كان يعتقد أنه لا بد أن تكون من عمل بني هلال، الذين تنسب إليهم بصورة شائعة مثل هذه الإنشاءات كلها، في أثناء هجرتهم التقليدية من جنوب الجزيرة العربية إلى مراكش البعيدة. وكان مقاس أحد المجموعات، البيضوية الشكل، يبلغ

٢٧ × ٢٠ قدماً، في حين كان يبلغ قياس مجموعة مستطيلة الشكل ٥٠ × ١٥ قدماً، وأخرى كانت كتلة صلبة من بناء مهدّم غير مملطة أبعادها ١٥ × ١٠ أقدام، ربما كانت قبر الشيخ، مع دائرة من الحجارة تمثل نوعاً من الفناء أمامه قطرها ١٥ قدماً. وفي جميع تلك الحالات كانت دوائر ألواح الحجر الرملي موضوعة على أطرافها بدون أي محاولة للتشذيب. وكانت مجموعة أخرى منها توحي بشبه كبير مع قبور سبأ في جنوب الجزيرة العربية (مثل محياش على سبيل المثال). ومعنى ذلك أن الواحدَ منها بناءٌ من ألواح مشذبة قليلاً، ودائري تقريباً. يبلغ محيطه ٥٠ قدماً، وارتفاعه ٤ أقدام تقريباً.

وكان داخلُ هذا القبر -ومع أنه كان مليئاً بالرمل- يبدو أنه كان مجوفاً باتساع يكفي لدفن الجثة. وأمامه كان يوجد طوق مستطيل غير كامل من الألواح موضوعة على حوافها، طولها ٥٠ قدماً على أحد الجوانب، وعرضها ٣٢ قدماً وطولها حوالي ٤٠ قدماً على الجانب الثالث الذي ينتهي بدائرة محاطة بحجارة. لقد كان من الصعب تفسير مغزى هذه الآثار، إنها ربما كانت على الأرجح ذكرى لمعركة من قديم الأزل، على الرغم من أننا لم نجد نقوشاً أو مؤشرات أخرى عن مصدرها أو منشئها. وكانت على بُعد أقل من ميلين شمالاً - شمال - غرب من القليبة. وقد التزمنا الوادي في الاتجاه

نفسه مسافة ميلين آخرين من قبل أن نأتي إلى النقطة التي يلتقي عندها شعيب العرادة بكوكبة من خطوط التصريف التي تشكل وادي الفجر هنا أو أبعد قليلاً، وهنا استدرنا مبتعدين وصعدنا لنسير على طول العرادة باتجاه الجنوب - الغربي، في زاوية مستقيمة تقريباً مع مسارنا السابق، بعد أن قطعنا ربما نحو ثمانين ميلاً من تيماء. ومن الطريف أنه من المرجح كثيراً أن يكون الطريق الذي سلكه غوارماني الذي يصعد بالتأكيد على وادي الفجر، لا بد أنه كان يمر على القليبة، ومن هناك على طول مسارنا تماماً حتى تيماء.

وحيث إنه كان آتياً من المنطقة المجاورة لمعان وليس من وادي السرحان، فلا بد أنه قد دخل وادي الفجر على مسافةٍ ما أسفل النقطة التي وصلنا إليها الآن. ومنطقة التلال على الضفة اليمنى للعرادة كانت لا تزال تعرف باسم قوار القليبة وبعد هنيهة انحرفنا عن الوادي إلى رافد لا اسم له، ربما كان هو شعيب ظفير الذي يرتفع في انحدار واضح إلى جبل الظفير الشاهق أمامه، وهنا واجهنا مرة أخرى مجموعة ثانية من الآثار المبنية بصورة غير مستوية من الحجر الرملي مثل المجموعات التي سبق وصفها آنفاً، على الرغم من أن حالتها كانت أقل جودة من الأولى من ناحية تماسكها وبقائها، وكنا نصعد دائماً بصورة مستمرة منذ دخولنا شعيب العرادة، ولم يمض وقت طويل حتى مررنا بجيب عميق بين أكتاف

الجبل الناتئة، التي كانت تضيق بالتدريج حتى أصبحت مثل النفق عندما اقتربنا من سفح الممر، ومن هناك كان صعودنا اليسير نسبياً على دربٍ يبدو من الواضح أنه قد نال قدراً من العناية والاهتمام قد أدى بنا إلى مضيق بين قمتين، حيث عزمت على قضاء الليل هنا، حتى نتسلق إلى قمة الجبل لإجراء مسح عام. وربما كانت هذه القمة ترتفع حوالي ٥٠٠ قدم، بينما كان المضيق مرتفعاً نحو ١٠٠٠ قدم فوق السهل على الأقل من كلا الجانبين.

وهنا ألقينا نظرة رائعة على مجموعة الأجراف المثيرة التي كانت تتراص على الضفة اليمنى لشعيب العرادة، ويمتد جبل الظفير الشاسع من ضفته اليسرى في زمرة عريضةٍ من المرتفعات الرائعة حتى المضيق مسافة تبلغ خمسة أو ستة أميال بعد ذلك. ومن المضيق -حسبما كنا نستطيع أن نرى من أعلى- كان الطريق يهبط بسهولة ويسر نسبياً نحو أربعة أميال على المنحدر الغربي قبل أن يلتف بصورة حادة لليسار نحو منطقة طعوس العرقانة الواسعة ذات التلال الرملية الصغيرة، والتي تسد الطرف الجنوبي لحوض تبوك، ولم يكن هناك أي معلم مميّز من المعالم الأرضية التي يمكن مشاهدتها في هذه المرتفعات القاحلة الكئيبة، والتي كان في أوديتها الكثير من النباتات، معظمها من نوع الرغل والبعيثران على الرغم من أنه لم يقدر لنا أن نرى أيَّ شيء حي أبداً على المنحدرات والقمم الجرداء.

ومع هذا فإن القليل من المطر سوف يحيلها على الأرجح إلى حدائق برّيّة مزدهرة، وكان أمامنا دليل واضح من أثر دروب الإبل الصاعدة حتى أعلى المستويات ليثبت لنا أن الذين تركوا الروث قد اعتادوا اللجوء إلى هذه المراعي المرتفعة ليدخروا مخزوناً من العلف للصيف. ومن الطريف أن وادي العرادة كان القناة الوحيدة في هذه الأصقاع التي كانت تزخر بمياه السيول خلال هذا الموسم، وقد رأينا علامات مرورهم في كثير من البرك ذات المياه الراكدة، إلا أن شعيب ظفير كان جافاً تماماً على طول مجراه بالكامل.

وقد دهشت عندما اكتشفت أن سلامة يبذل جهداً مضنياً في تسلقنا بصعوبة بالغة على المنحدر المغطى بالحصى والحجارة حتى القمة، وروى لي قصة إصابته بجرح في فخذه أثناء الثورة العربية في مناوشة مع الأتراك قرب محطة السكة الحديدية بقلعة الأخضر التي كانت تلالها واضحة للعيان من حيث كنا نجلس. لقد كان يمشي بعرج، ولكنه لم يكن يعاني من أي صعوبة في المشي على الأرض المنبسطة، على الرغم من أن المناطق الجبلية والتلال كانت تسبب له قدراً عظيماً من الألم. أمّا الجزءُ الأشد إثارة في قصته فهو أنه أثناء فترة شفائه ونقاهته من جرحه، قد جاء إلى هذا المضيق نفسه ليتمتع بالمراعي الغنية في ذلك الوقت، والتي نتجت من أمطار عام ١٩١٦م. وخلال وجوده هناك رأى زوجاً من البقر الوحشي في

الشـعيب الصغير الذي كنا نخيم فيه الآن. لا بد أن ذلك قد حدث قبل زيارتنا بخمسة وثلاثين عاماً، ومنذ ذلك الحين انقرضت الأبقار الوحشية من كل شمال الجزيرة العربية منذ عقد من الزمان على الأقل. لقد كان سلامة رفيقاً دمثاً ولطيفاً، ولكنه كان دليلاً مخيباً للآمال ومحبطاً، ليس لديه إلا النزر اليسير من المعرفة عن الجغرافيا المحلية لمنطقة عاش فيها طول حياته تقريباً. وكان ينقصه فقط الفضول وحب الاطلاع اللذان يصنعان دليلاً ماهراً أو مكتشفاً حقيقياً.

وغربت الشمس في وهج بهيج من التألق والبهاء خلف سحابة سمراء نحيلة، وأشعتها الساحرة تندفع كالسهم إلى العلياء من كرةٍ غير مرئية. وعلى الرغم من ارتفاعنا إلا أن الليل كان معتدلاً بصورة مدهشة، ولم يكن فيه ندى. بيد أن محمد العريفي سقط فجأة بنوبة عنيفة من الحمى وبسببها ناولته حبات من الأسبرين كان مفعولها مرضياً. ومن الممر فصاعداً كان الطريق يسير في وادٍ يتراوح بين ٢٠٠ و ٤٠٠ ياردة، والذي يحجز مياه تصريفه في القاع سد من تلال العَرْقَانَة الرملية ليشكل بحيرة ذات اتساع كبير، على الرغم من أنها جافة الآن تماماً. وهنا وهناك كان الرمل المنجرف مع التيار يغطي الجبال على جانبي مسارنا، وفي القاع تسلقت أنا وسلامة انهياراً رملياً لنلقي نظرة على المنطقة التي سوف نسير فيها الآن، ولم يكن هناك شيءٌ ذو بال ما عدا المنظر العمومي الرائع للبراكين الخامدة في

الحرّة خلف السهل الغائر الممتد من سفح الظفير حتى خط السكة الحديدية. وقد لا قينا بعض الصعوبة في بقع من الرمل الكثيف، الذي انجرف عبر مسارنا، إلى أن خرجنا في ممر بين النفود وجبل غَوَانم الذي يستمر باسم الظفير نحو الشمال بعد انقطاع قصير، وهذا أدى بنا إلى سهلٍ مفتوح، وبعد المسير مسافة تقرب من سبعة أميال جئنا إلى قناة شعيب الأخضر العامر بشجيرات الغضا والنباتات الأخرى، الذي ينزل من الحرّة المرتفعة على مقربة من محطة قلعة الأخضر إلى البحر الداخلي لحوض تبوك

وقد واصلنا مسيرنا على سهل أجرد من الحصباء والصخور الرملية، بينما بدأت تهب عاصفة من الجنوب، بريح عاتية ورمال متطايرة، غطت الأرض بضباب كثيف يسبب الضيق والأذى، حتى وصلنا إلى وادي غضي، وهو أحد روافد وادي الأخضر الذي ينحدر من جبل برْك البركاني خلف السكة الحديدية، ومن هنا تمكنا من إلقاء نظرات خاطفة خلال الضباب على جبال عَاجَات ذات الصخور الرملية المتناثرة والقمة المشهورة التي تشبه المنارة والمعروفة باسم "منبر النبي" في جبل شرورة إلى الجنوب. بيد أن العاصفة الرملية قد أصبحت أشد قسوة وعنفاً عندما وصلنا وعبرنا القناة التالية لوادي الأثل الذي يرتفع أيضاً في جبال الحَرَّة، والوتر، وشيبان ليلتقي بالأخيرين في بحيرة خبرا القصيم الطينية، ومن هنا

رأينا في غير وضوح نخيل تبوك أمامنا، وخلال نصف ساعة عبرنا خط السكة الحديدية جنوب المحطة مباشرة لنصل إلى قصر الحكومة المحلية المشيّد حديثاً من الخرسانة والذي يستخدم حالياً بيتاً للضيافة. ولقد قطعنا خمسين ميلاً تقريباً عبر السهل من مخيمنا في الليلة السابقة.



واحة تبوك

" ماذا تبوكون ؟ (أي ما الذي تدخلون فيه السهم وتحركونه ليخرج ماؤه؟) " يُروى أن النبي (صلى الله عليه وسلم) قد سأل هذا السؤال لأصحابه عندما رآهم -أثناء مروره- منكبين بهمة ونشاط على حفر وإبعاد الرمل الذي تجمع فوق العين الكبيرة التي كانت وما تزال يعتمد عليها الجزء الرئيس من الواحة لبقائه في الوجود.

ومن هنا اشتق اسم "تبوك" حسب ما قالَ لنا السكانُ المحليون اليوم. وهذا إن لم يكن حقيقياً أو صادقاً إلا أنه قد يكون تفسيراً مقبولاً[1]. إن ألويس موسل المكتشف النمساوي الشهير لشمال الجزيرة العربية، وهو رجل ذو علم واطلاع عظيم، يأخذ اسم تبوك، وبقدر من المعقولية، من الاسم الذي ذكره بطليموس "تباوا" حيث يقول: "من تبك (تباوا)، عن طريق قريّة (أوستاما) وربما يمتد أقصر طرق النقل وأكثرها سهولة من جنوب الجزيرة

---

(١) الصحيح أن اسم تبوك ورد في حديث معاذ عن المصطفى ﷺ قبل غزوة تبوك في حديث طويل، قال معاذ: «قال ﷺ: **إِنَّكُمْ سَتَأْتُونَ غَدًا إِنْ شَاءَ اللَّهُ عَيْنَ تَبُوكَ وَإِنَّكُمْ لَنْ تَأْتُوهَا حَتَّى يُضْحِيَ النَّهَارُ فَمَنْ جَاءَهَا مِنْكُمْ فَلا يَمَسَّ مِنْ مَائِهَا شَيْئًا حَتَّى آتِيَ..**». الحديث، انظره في صحيح مسلم كتاب الفضائل، باب معجزات النبي ﷺ.

ومن هذا يستدل على أن التسمية قديمة وقد وردت في كثير من النقوش العربية قبل الإسلام.

العربية حتى البتراء عاصمة الأنباط. ومن المؤكد أن تبوك كانت من أقدم العصور محطة هامة على طريق الشمال - الجنوب الرئيس، الذي كانت تمر عبره التوابل القادمة من الجنوب إلى عالم البحر المتوسط، وينزل الحجاج من هناك إلى مدن الإسلام المقدسة. ولا بد أن الأنباط قد استفادوا منها واستخدموها في توسيع امبراطوريتهم حتى مدائن صالح وأبعد منها في الجنوب. كما أن الإبل التي كانت تسلك هذا الطريق منذ البداية حتى أول هذا القرن الحالي ولم يحل محلها ناقل إلا خط سكة حديد الحجاز منذ أكثر من عقد من الزمان بقليل، وهذه كانت أول حادثة تؤثر في الجزيرة العربية نتيجة للحرب العالمية الأولى.

وقد استأنفت الإبل مهمتها القديمة حتى، بعد ضم السعوديين للحجاز ولم تتحرر من ابتلاءاتها نهائياً مرة أخرى إلا بواسطة السيارات، التي احتكرت منذ وقت طويل نقل البضائع بين الشام والمدينة. وقد وجدت كل أنواع النقل أنه لا غنى لها عن تبوك حتى تحقق كفاءتها وسلامتها، ولم تكن تبوك لتظهر إلى حيّز الوجود لولا الينبوع العظيم الذي يتدفق بسخاء من باطن الأرض تحت ظلال نخلها الباسق الخلاّب.

وبالمناسبة ربما أن الحديث المتكرر مدة ثلاثين عاماً عن إعادة الحياة لخط سكة حديد الحجاز سوف يفسح المجال قريباً للعمل الحقيقي في إصلاح الخط وإعادة تجهيزه بالمعدات، على الرغم من أنه لا يزال من السابق لأوانه أن يتفاءل المرء حقيقة، لأن المرحلة الحالية من المشروع قد خضعت للمناقشة فعلاً مدة ثلاث سنوات تقريباً. وفي يوم من

الأيام بلا ريب سوف تتحقق المعجزة، مثلما يتمنى كل إنسان، وعندها سوف تبدأ تبوك في تجربة عهدٍ من الرخاء والازدهار لم تشهده أبداً من قبل على مر العصور.

وأحوال تبوك الاقتصادية والاجتماعية الحالية تشهد فعلاً تقدماً في كل شيء عرفته العهود الحديثة، بعدد سكانها البالغ (في ١٩٥١م) حوالي ٢٠٠٠ نسمة، نصفهم تقريباً يمثلون المسؤولين والتجار المهاجرين من نجد والحجاز. وقبل زيارتي لها بقرن من الزمان جاءها أوغسطس فالن الذي يحتمل أن يكون أول زائر أوروبي لهذه المنطقة، ووجدها قرية لا يتعدى عدد منازلها ستين منزلاً فقط، ولم يجد داوتي في ١٨٧٧م إلا أربعين أسرة "لا يحميها من طغيان البدو إلا قلعة صغيرة".

وبعد ذلك بسبع سنوات وجدها هوبر قفراً مهجوراً، والقلعة يحتلها خمسة من رجال الدرك فقط. وفي عام ١٩١٠م عندما كان خط السكة الحديدية ممتداً حتى هذه النقطة ولا يتعداها قدّر كاروثرز عدد السكان بحوالي مائتي نسمة، ولا ريب أن العدد قد زاد بصورة كبيرة عندما كان الخط يعمل بكامل طاقته حتى المدينة، ولم ينخفض العدد إلا خلال الحرب وما بعدها حتى حلول الإدارة السعودية ممثلة بشخص الأمير عبد الله السديري (أمير المدينة الآن)، الذي خلفه بعد حين، في ١٩٤٧م، ابن عمه خالد، الذي ظل في منصبه حتى ١٩٥٦م. وله، بصورة رئيسة، تدين تبوك بحالة الازدهار النسبي التي تشهدها حالياً.

إن خالد السديري، كما ذكرت من قبل، قد استُدعيَ للتعامل مع الأزمة التي نشأت في تيماء على أثر اغتيال عبد الكريم في أكتوبر الماضي، وقد تابعت في الآونة الأخيرة أثر مسار سياراته المتجهة للرياض للتشاور مع الملك. وقد حل محله أمين سره، علي ثروت، في تنفيذ الإدارة ويقوم بتشريفات الإمارة بشكل عام، وهو رجل ذو سحر عظيم وكفاءة واضحة، وعندي سبب وجيه للشعور بالامتنان لكريم تعاونه المثمر خلال إقامتي المؤقتة كلها وفي جولاتي بالمنطقة المجاورة. لقد كان أيضاً شخصاً دمث الأخلاق، لطيف المعشر، عذب الحديث، ولديه شيء من الاهتمامات الفكرية التي تتجاوز نطاق عمله الرسمي.

والمبنى الحكومي الجديد، المشيّد بطريقة قوية من الخرسانة المسلحة والجدران ذات السمك العظيم، لم يكتمل إلا حديثاً، وكنت في الحقيقة أول زائر تطأ قدماه المبنى ويقيم فيه؛ إنه في الواقع منزل ريفي من طابق واحد شديد الاتساع، لم يخصص فقط لاستقبال ضيوف الحكومة، بل أيضاً لتوفير مكاتب لموظفي الأمير، وقاعة اجتماعات رسمية للمناسبات الملائمة. وكانت هذه غرفة هائلة، طولها ثمانية عشر متراً وعرضها ستة أمتار، مفروشة بالسجاد الذي يبعث بالدفء والأثاث الرائع نسبياً من الكراسي ذوات الذراعين الثقيلة المغطاة بقماش مخملي والمرصوصة على طول ثلاثة من الجدران، وبعض الكراسي قاعها من الخيزران، وبعض الطاولات الصغيرة والأشياء الإضافية الأخرى. هنا كنا نتناول طعامنا، على الأرض حسب الطريقة العربية، ولقد كان طعاماً شهياً جداً حسبما اكتشفنا

ذلك في ليلة وصولنا، عندما دعا علي ثروت كلاً من رئيس موظفي عوائد المنطقة، ومدير الشرطة، مع عدد من المسؤولين الآخرين، لمقابلتنا.

وكانت غرفتي أيضاً ملكيّة فخمة في أبعادها، على الرغم من أن الأثاث الكثير والكراسي ذوات الذراعين وطاولة المكتب الأنيقة كانت تبدو أنها تملأ الغرفة بدرجة كافية. ولا أذكر إن كان هناك سرير أم لا، ولكنني نمت على الأرض في فراشي الذي أستخدمه في البر، وكانت كل نافذة وأقفالها مغلقة بإحكام، وكان الجو داخل الغرفة باردا مثل الثلجً شديد البرودة حتى إنني في الحقيقة فتحت عدة نوافذ في تلك الليلة ليدخل هواء الشتاء الدافئ من الخارج، حيث كانت درجات الحرارة تبدو تلك الأيام بمعدل حوالي ٥٠ درجة فهرنهايت.

وخلال فترة الأصيل (بعد الظهر) أخذني علي في جولة بالسيارة داخل الواحة وحولها لكي أحصل على فكرة عامة عن معالمها الرئيسة، وكان أكثر هذه المعالم إثارة للدهشة هذا العدد الكبير من أشجار الكافور النامية في كثير من مجمعات القرية. وقد تم استيرادها للاستزراع في عصور حديثة نسبياً كجزءٍ من حملة رسمية لمكافحة الملاريا التي كانت متفشية ذات يوم في الواحة، وكنت أميل إلى الاعتقاد بأنه في الحقيقة كان هناك انخفاض عظيم في حدوث المرض، إن لم نقل اختفاءه بالكامل.

وكانت عين السكر وقلعة الحاج تطلان عليها من أحد الجوانب، وهما الأثران الرئيسان في تبوك، وخلال مدة إقامتي أتيحت لي

الكثير من الفرص لفحصهما بالتفصيل. وتتدفق العين نفسها في بركة صغيرة نسبياً ومحاطة بسور من الحجر بارتفاع الكتف، ومحيطه حوالي ١٠٠ قدم وسمكه ياردة واحدة. وهذا السور الدائري ينقطع في الجهة الغربية بفتحةٍ تبلغ ثلاثين قدماً تسمح للماء الفائض بأن يتدفق إلى خزان تهريب، مساحته ثلاثون قدماً مربعاً ومسوّر من جميع الجوانب، ومنه يمر الماء إلى بساتين النخيل على طول قناةٍ مصنوعةٍ بطريقة مهملة من جهته الغربية.

وفي الناحية الشمالية من البركة الرئيسة يتلاصق معها خزان على هيئة مربع مساحتهُ ثلاثون قدماً تقريباً، والجهة الجنوبية منه هي السور المنحني للبركة نفسها. هذا الخزان مخصص لسحب مياه الشرب، ويبدو أيضاً أنه يستخدم لري النخيل. وكانت هذه المجموعة من المنشآت والترتيبات كلها لاستقبال المياه، وتوزيعها في القرية. والواحة تبدو إلى حد ما غير نظيفة ومهملة، ومبنية بطريقة غير منظمة، لم يكن هناك اهتمام خاص بنظافة المنطقة، وكان من الواضح أن تجديد العين على النسق العصري سيأتي بفائدة عظيمة للسكان. وبالإضافة إلى هذه العين تضم الواحة آباراً كثيرة ذات مياه بعمق ثلاث أو أربع قامات لري النخيل وحقول الذرة الواسعة نسبياً في خارجها.

وبالمقابل كانت البئر عند المحطة، على بعد أقل من ميل، لا تقل عن ثلاث عشرة قامة طبقاً لما قسته أنا بنفسي من السطح حتى مستوى الماء، وتوجد عيون أخرى في منطقة تبوك، سوف نذكرها في حينها، بيد أن الصفة المشتركة بينهما جميعاً، كما في العين الموجودة

بالواحة الرئيسة أيضاً، هي أنها تنبع من مرتفع مستدير من الأرض ومنها ينساب الماء بشكل طبيعي إلى المناطق الصالحة للزراعة. ويبدو أن الضغط القديم في باطن الأرض، الذي كان يقذف بالحمم البركانية في المنطقة البركانية المجاورة بعيداً من خلال العشرات من فوهاتها، لا يزال قوياً حتى الآن بدرجة كافية لدفع المياه الجوفية في الحوض إلى السطح من خلال التشققات في القشرة الأرضية المكوّنة من الحجر الرملي على الرغم من الطبقات الرملية والطينية العلوية الثقيلة التي صبتها أودية حسْمى عليها عبر القرون. إن الإهمال العادي علاوة على الاضطرابات القبلية المتقطعة، كانا من حين لآخر مسؤولين عن أفول نجم بعض هذه العيون، ولكن السياسة القوية التي التزمها خالد السديري كانت تؤتي ثمارها بسرعة في إعادة المنطقة إلى كامل طاقتها من الري. كما أنه هو نفسه قد اشترى في هذا الوقت نصف حصة في العين والحديقة المعروفين باسم بستان حرب أي من أملاك حرب وهو والد عيد الشيخ الحالي لبني عطية، وعندما زرت تبوك مرة أخرى بعد ذلك بعامين كانت الملكية كلها في يده، وكانت القطعة على وشك أن تصبح مزرعة نموذجية على الرغم من طوفان الجراد شديد الوطأة الذي يلم بها. وعلى عكس الكثير من معاصريه كان لديه اعتقاد راسخ بضرورة استخدام طعم مسموم لمواجهة هجمات الجراد على المحاصيل الزراعية النامية، كما كان مقتنعاً بأن معظم هذه الحشرات تفضل النخالة المسمومة لطعامها العادي.

وعلى مقربة من عين السِّكر من جهتها الشرقية، كانت تنتصب قلعة الحاج وهي حصن مشيّد بطريقة حسنة من البناء، ومصمم

لحماية إمداد المياه وقوافل الحج التي تنصب خيامها في المنطقة وهي في طريقها إلى ومن المدينة. وليس من شك في أنه كانت هناك قلعة من نوع ما في هذا الموقع النفيس منذ العصور الغابرة، ولكن المبنى الحالي، بخطوطه الرئيسة، يبدو أنه يعود إلى عام ١٠٦٤ هجرية (١٦٥٣ - ١٦٥٤ ميلادية) طبقاً لما هو مذكور في النقش باللغة العربية على لوحة من الخزف الأزرق المزخرف على المدخل الرئيس، والتي تقول: (أمرَ بتجديد وتعمير هذه القلعة المباركة حضرة مولانا السلطان ابن السلطان محمد خان ابن السلطان إبراهيم خان ابن السلطان أحمد خان بن عثمان خلد الله ملكه طول الزمان، وتشرف بمباشرة خدمتها العبد الفقير إلى الله تعالى محمد ابن الناشف التذكرجي بدمشق الشام غفر الله له في سنة أربع وستين وألف ١٠٦٤هـ)[١].

وكان السلطان محمد الرابع، ابن السلطان إبراهيم، الذي كان ابن السلطان أحمد الأول -وهذا الاسم الأخير كان مفقوداً من النقش نتيجة اختفاء بلاطة وضياعها-، قد جلس على العرش العثماني في عام ١٠٥٨ هجرية (١٦٤٧ - ١٦٤٨ ميلادية)، وهو طفل قاصر، عمره سبعة أعوام، وظل حاكماً حتى ١٠٩٩ هجرية (١٦٨٧ - ١٦٨٨ ميلادية)، عندما تنازل عن العرش، ولا نستطيع

(١) نقل نص هذه القلعة من كتاب: شمال غرب المملكة العربية السعودية، الكتاب الثاني، الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، مدخل عام، ط١، الرياض، مطابع سفير، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٣م، حتى ١٥١-١٥٤. كما ذكر النص أيضاً إبراهيم الخياري المدني الذي زار تبوك عام ١٠٨٠هـ وقرأ النص، ونقله عنه حمد الجاسر في شمال غرب الجزيرة، ص٤٤٢.

أن نحدد على وجه الدقة اسم المهندس المعماري الذي بناه، حيث إن اسم والده مفقود بسبب عيب في اللوحة. ومن الواضح أن محمد الرابع كان مشهوراً بأنه صياد شجاع وماهر. وهكذا يبلغ عمر المبنى ٣٠٠ عام فقط بشكله الحالي، وقد فشلت بكل تأكيد في اكتشاف أي دليل مؤكد أن جزءاً من أجزائه، -حتى ولو أساساته- كان أكثر قدماً من ذلك.

إن البناء رائع شديد الروعة، وهذه اللوحة التذكارية يعلوها رأس وقرون تيس جبلي، لاشك أنهما وضعا هناك في العصور الحديثة. يبدو أن داخل الحصن أو القلعة كان أقل ترميماً من جدرانها الخارجية، وفي وقت زيارتي كان البنّاؤون المحليون يستولون عليها، لتنفيذ الترميمات والتحسينات لصالح قوة الشرطة، التي كانت مكاتبها في الطابق الأرضي بينما ثكنات إقامتها تحتل جانبين من المساحة رباعية الزوايا في الطابق العلوي، الذي تعلوه أيضاً شرفة وبرج مراقبة للحراسات المناوبة، وكان في الطابق الأرضي فناء بالوسط مفتوح للسماء، والمكاتب متراصة على جانبي صالة المدخل، وارتداد ذو أعمدة مقنطرة في الجدار المقابل، الذي كان بمثابة غرفة استقبال القائد.

وتم استقطاع جزء صغير من الفناء ليكون بمنزلة سجن محلي، ليس به في هذا الوقت إلا سجين واحد، دين بقتل ابن عمه، وكانت القلعة مشيّدة بالحجر الرملي المقطوع من كتل كبيرة ومشذبة جيدة والأبعاد الداخلية للمبنى كانت تقريباً ٦٠ × ٤٠ قدماً، والفناء المفتوح كان مربعاً مساحتُه ثلاثون ياردة. وكان المدخل في الجهة

الشمالية من المحاور الطويلة، المتاخمة في النهاية مع السوق وهو شارع واسع رائع يمتد منها في اتجاه شرق - شمال - شرق. والجزء القديم من القرية يمتد باتجاه الشمال حوالي ٣٠٠ ياردة من القلعة، في حين كان حي الجديدة الجديد، وما به من أشجار الكافور الكثيرة، يقع من جهة الشمال - الشرقي ويغطي مساحة أكبر بصورة هائلة.

وضاحية الخالدية الجديدة تعد في الواقع امتداداً باتجاه الشرق من حي الجديدة، بينما حصن الطين الأصلي، المعروف باسم قصر السديري الذي شيّده عبدالله السديري، يرتفع عند الطرف الشرقي للسوق. وتشغله الآن إدارتا العوائد والمالية الحكوميّتان في حين كانت المكاتب السياسية والتنفيذية توجد في المستشفى التركي القديم، وهو قلعة مربعة هائلة من الطين مجاورة لمحطة الحجر الصحي للحجاج من القصر وخط السكة الحديدية، وكانت مباني المحطة، على بعد حوالي ميل من القلعة وتقع إلى الشمال والشمال - الشرقي.

إن سوق تبوك نموذج للنظافة والراحة، يدين بوجوده للأتراك، الذين خططوه ليفي بالمتطلبات الحالية والمقبلة لمحطة السكة الحديدية. وامتداده الفسيح تحده مبان ساحرة، تستخدم لكل الأغراض التجارية والمنزلية، والأجزاء الداخلية في بعض البيوت الرائعة تنم عن الذوق الرفيع والتقدير العالي للراحة المعقولة، فقد زرت أحد التجار الكبار ذات يوم في قاعة استقباله الفسيحة والمؤثثة تأثيثاً رائعاً والتي تشغل الطابق الأرضي كله من سكن عائلته. وحيث إنه كان رجلاً ذا مال وثراء عريض، فإن عناد الغريض لم

ينقصه شيء من سحر الأمراء التجار في الجزيرة العربية، الذين وصفهم داوتي بعبارات لائقة جداً بأنهم أشراف أو نبلاء أرستقراطيون. وكان والده من قبل عمدةً محلياً، وكان هو نفسه مالك الجزء الأعظم من بساتين نخيل تبوك، التي يشتريها كلما سنحت له فرصة من أرباح تجارته المتنامية، وكان أيضاً يتمتع بمزية كونه رجلاً محلياً، فجدّه الثالثُ غريض كان من فخذ الحميدات من عشيرة الكعابنة (بني كعب) من قبيلة قريش.

وهذه العشيرة ممثلة بصورة قوية في معان بينما هاجرت بعض عائلاتها منذ حوالي سبعة أجيال إلى الزرقاء في الأردن، ويحتمل أنه لا يزال يوجد منها عناصر هناك في هذه الأيام الأكثر رخاءً. لقد كان عناد أكبر إخوانه الخمسة، الذين كان لا يزال اثنان منهم - محمد وإبراهيم - أطفالاً قصراً، أولاد محمود بن سالم بن قادر ابن غريض. ولعناد نفسه ثلاثة من الأبناء، هم محمود، وحمد، وحامد، في حين كان لأخيه سالم اثنان فقط، هما محمد وسليمان، ولم يكن لأخيهما الآخر سوى ولد واحد، هو عبد الله.

وكانت معظم الأعمال التجارية للعائلة قد انتهت في معان، وفي ذلك الوقت كان عناد مهتماً بمشروع مع شركتي، التي كانت وكيلة لشركة سكوني - فاكيوم (Secony - Vacuum) حينها، والتي كانت ستسر بتطويره إذا ثبتت جدواه. لقد كانت حركة السيارات القادمة إلى المملكة العربية السعودية من الشمال حاملة البضائع أو الحجاج تضطر في ظل الظروف القائمة إلى توفير احتياجاتها من الوقود والزيت لكامل الرحلة حتى المدينة قبل مغادرة معان، حيث يمكن

هناك شراء الوقود بما يعادل سبعة ريالات سعودية ونصف الريال للصفيحة. وعند دخول المملكة العربية السعودية كانت السيارات تضطر لدفع رسوم جمركية بالأسعار السعودية الباهظة على جميع كميات الوقود الداخلة إلى البلاد، وكانت المشكلة تزويد السيارات بالوقود داخل المملكة العربية السعودية بأسعار منخفضة ومعقولة. وقد ثبت أن المشكلة هذه ليس لها حل لأن تكلفة تخزين إمدادات الوقود في تبوك ونقلها بالإبل أو بالشاحنات، لن يكون ممكناً إلا إذا تعهدت الحكومة بإنشاء طريق مباشر صالح لحركة السيارات بين تبوك وميناء ضباء، وهي مسافة تصل تقريباً إلى ١٥٠ كيلومتراً بالمقارنة مع طريق السيارات الحالي غير المباشر عن طريق مدين والذي يبلغ ثلاثة أضعاف تلك المسافة.

وبعد ذلك بيوم أو يومين أتيحت لي فرصة مناقشة هذا الموضوع نفسه مع تاجر من العلا، الذي قابلته عند زيارتي لمسؤولي العوائد في قصر السديري، وكان في طريقه إلى معان لأداء بعض الأعمال التجارية ولإعادة عائلته التي كانت في زيارة للأقارب هناك. وكان يدعى عبد المحسن القبلي، وهو من كبار تجار ومُلاّك الأراضي في العلا. وكنت في مرة سابقة قد زرت شخصاً يدعى عطا الله من أتباع الأمير، الذي كان مسؤولاً عن رحلة قمت بها إلى روافة، التي سوف أورد تفاصيلها في الفصل القادم. وكان المسؤول عن إدارة العوائد في تبوك يدعى محمد صالح، الذي تناول معنا طعام العشاء في بيت الضيافة الليلة السابقة. وفي أثناء مجرى الحديث آنذاك ظهر أن مضيفنا، علي ثروت، منذ مجيئه إلى تبوك

من عدة سنوات سابقة قد أصيب بعدوى مرض البلهارسيا نتيجة استحمامه في العين الكبرى. ولم يتمكن من معالجة نفسه حتى تلك اللحظة، وكان يشتكي من آثار الضعف الناجمة عن مرضه، على الرغم من أنه كان يتمنى السفر للخارج للحصول على رعايةٍ صحيحةٍ من خبراء الطب في يوم ما إذا سمحت له واجباته الوظيفية. لقد انتقل هذا المرض من الحجاج المصريين القادمين للبقاع المقدسة في الجزيرة العربية وللمحطات المختلفة على الطريق إلى هناك، ومعظمها مجهزة بخزانات ضخمة لتخزين الماء. وقد وجدت قوقعة البلهارسيا في عدة خزانات بمكة المكرمة، وأيضاً في المدينة المنورة، بيد أن هذه كانت أول مرة أسمع فيها عن وجودها في أماكن بعيدة كهذه.

لقد كان السكان الأصليون بتبوك معظمهم من الكعابنة، من فخذ الحميدات، الذي كان عناد في ذلك الوقت شيخهم المعترف به، وحيث إن هذه القبيلة تزعم أنها فرع من قريش، فيبدو أن الاحتمال المرجح هو أن المقيمين الأصليين منهم قد أسسوا أنفسهم هنا عندما جاء الرسول (صلى الله عليه وسلم) غازياً في العام الثالث الهجري (٦٢٤ - ٦٢٥ ميلادية)، أو ربما خلال الفتوحات اللاحقة لخلفائه الراشدين في فلسطين وسوريا.

وكما أوضحنا من قبل، فقد جاءت فترات كانت الواحة خلالها مهجورة تماماً أو لا يقيم فيها إلا القليل، بينما شهدت في القرون الحديثة على الأقل هيمنة بني عطية القاسية، الذين كانوا أحياناً في صراع مع السكان المحليين والمسؤولين الأتراك على أمور تتعلق

بالحج أو إنشاء خط السكة الحديدية، وكان شيوخهم أيضاً يملكون بعضاً من الرقع الزراعية الصغيرة التي تروى من العيون المتناثرة بين تبوك وحافة التلال الغربية. ولقد أنهى استيلاء السعوديين على المنطقة طغيان القبيلة الذي دام مدة طويلة.

وكان شيخها يُدعى حرب بن محمد في وقت زيارة دوجلاس كاروثرز لها بالسكة الحديد عام ١٩١٠م، أي بعد وصول الخط إلى تبوك مباشرة. والشيخ الحالي هو حرب بن عيد، الذي ليس له غير الأثر الضئيل في السياسات المحلية خارج الاهتمامات الخاصة بقبيلته. وكان جده محمد هو شيخ القبيلة في زمن زيارة هوبر (١٨٨٤)، على الرغم من أن أخاه الأكبر، صقراً، كان لا يزال حياً، مع ولده علي، بينما كان الابن الأكبر لمحمد هو غُضيان. وعليه فيبدو من الممكن أن ننظر بعين الاعتبار لجيل آخر بين محمد وحرب، الذين ربما كانوا أبناء غُضيان أو حتى علي. ولكننا لا نملك سجلاً حقيقياً يختص بالموضوع ما عدا حقيقة واضحة هي أنه معروف بصورة عامة باسم حرب بن محمد.

إن أحد الشخصيات الأكثر إثارة، الذي قُدّر لي أن أعمل معه كثيراً خلال إقامتي المؤقتة وما تلاها من رحلة إلى مدين، كان شاباً في خدمة الأمير، يُسمى زعل بن مرزوق. لقد كان من أصل سوداني، توفي والده في عام ١٩٥٠م عن عمر يناهز ١٠٤ أعوام (كان قد قال ١٠٧ أعوام بحساب السنين الهجرية)، وقضى والده كل حياته منذ أن كان في العاشرة من عمره في وحول هذه المنطقة.

وقد جاء إلى هنا أصلاً من الخرطوم في ١٨٤٦م مع أبيه إدريس، ربما للحج، على الرغم من أن زعلاً لم يكن متأكداً من ذلك.

بيد أنهما لم يعودا أبداً للسودان، ويبدو أنهما قد وقعا في أسر شيخ بني عطية في ذلك الحين واستعبدهما، ربما كان هو والد أو جد محمد. ومن الواضح أنهما بعد فترة حصلا على حريتهما، ووجد الأب وابنه وظيفة في خدمة الأتراك الذين كانوا في ذلك الوقت يبذلون بعضاً من جهودهم المتقطعة لإعادة تنظيم طريق الحجاج، واشتركوا في ترميم وإصلاح القلعة التي طال إهمالها، وربما يكون ذلك على الأرجح قرب أو في وقت زيارة هوبر للمنطقة، حيث نراه يذكر إن قلعة تبوك وقلعة الأخضر على مسافة أبعد من تبوك على طريق الحجاج، وكانتا تحت حراسة محمد آغا وحسن آغا على التوالي.

وبعد وفاة إدريس، ظل مرزوق بلا ريب يواصل خدمة الأتراك فيما يتصل بحراسة وتنظيم الحج، ولكن زعلاً كان صغيراً جداً حتى إنه لا يذكر شيئاً عن الحرب الأولى والفترة التي تلتها مباشرة والتي خضعت تبوك خلالها لإدارة الأشراف. ومع استيلاء السعوديين على تبوك بدأت مرحلة جديدة في حياة مرزوق، الذي كان آنذاك قد بلغ الثمانين من عمره، على الرغم من أنه لم يكن شديد الضعف والوهن بدرجةٍ تمنعه عن العمل. وكان أهم ما يشغل باله، على كل حال، إعداد ولده للحياة المديدة أمامه، وهكذا كان زعل، الذي كان عمره حوالي الثلاثين عندما قابلته، قد اكتسب معرفة بسيطة بالقراءة والكتابة.

وحيث إنه كان ذكياً وطموحاً، فقد استطاع أن يكتب ويقرأ بسهولة، وسرعان ما أصبح عضواً ذا قيمةٍ بالغةٍ من موظفي الأمير. لقد كان خالد السديري، ومن قبله -دون ريب- عبد الله السديري يستفيدان من زعل على نطاق واسع في المراسلات والبعثات إلى مناطق القبائل. وخلال ثنايا تجاربه وخبراته اكتسب معرفة جيّدة جداً ليس فقط بالشؤون القبلية ولكن أيضاً بجغرافية الأقاليم الشمالية، والتي أفادتني للغاية عند الحاجة إليها. لقد كان بارعاً وكفئاً وبصورة عامة أفضل من أيٍّ من الأدلاء المحليين أو القبليين الذين توفروا لي من حين لآخر في هذه المنطقة. كما إنه كان أيضاً باحثاً متحمّساً يسعى وراء النقوش والأشياء الأخرى ذات الأهمية الأثرية، والتي ظل يفيدني بها أولاً بأول بخطابات متكررة في غضون السنين التي تلت ذلك. وعندما بدأت في بعثة أخرى إلى مدين في شتاء عام ١٩٥٢م- ١٩٥٣م، أبرقت إلى خالد السديري، طالباً منه أن يسمح لزعل أن يلحق بي في ضباء، ومن هذه النقطة فصاعداً وفي العودة إلى جدة كان هو الدليل، والفيلسوف، والصديق لي. وبالمناسبة فإنه قد تزوج من فتاة من تبوك، وأنجب منها ولدين، كان أكبرهما سليم ويدرس في مدرسة محلية وله أيضاً ابنة على ما أعتقد.

لقد قام الأتراك - خلال إنشاء السكة الحديد، بهدم وإزالة البيوت المتناثرة في المنطقة شرق القلعة حتى ينشئوا سوقاً واسعة ومخططة تخطيطاً جيداً، كما خططوا أيضاً قرية الجديّدة حسب المعايير الحديثة، وخصصوا مواقع البناء فيها للسكان النازحين

وغيرهم من الراغبين في الإقامة بتبوك، وفي مقدمة القرية الجديدة أقاموا مسجداً على البقعة التي -طبقاً للروايات المتواترة- صلى فيها الرسول نفسه (صلى الله عليه وسلم) أثناء غزوته، وكان مشيداً بصورة حسنة من الحجر الرملي المشذب تشذيباً جيداً ضمن مجمع فسيح مسوّر، وكان داخلُ المسجد يبعثُ على الراحة والطمأنينة بدرجة كافية، ونظيفاً، وفيه تهوية جيّدة. وكانت هناك لوحة تذكارية فوق باب المدخل، تحتوي على خمسة سطور من النثر التركي، توضح حقيقة أنه قد تم تشييده في عام ١٣٢٥هـ (١٩٠٧ - ١٩٠٨ ميلادية) حسب النص التالي:

"الغازي السلطان عبد الحميد الثاني، بن عبد المجيد. هذه الأرض المباركة مكان لعبادة المسلمين، ونور منارتها يرى مثل الثريا، لأن النبي عليه السلام قد صلى فعلاً في هذا المكان، الذي ظل مباركاً حتى هذا اليوم بسبب تشريفه له. وبصلاته في هذا المكان وبوجوده فيه ولو لأيام قلائل، وبأعماله، أصبح هذا المكان طاهراً. وبسبب زيارة النبي عليه السلام لهذا المكان وصلاته فيه قام كاظم باشا بتجديده وتوسيعه، وقد كتب عليه هذا عند الانتهاء من إنشائه، وأرخّ له طبقاً لتاريخ مكة: ١٣٢٥هـ".

وطبقاً للأصول الشائعة فيجب أن يكون الشطر الأخير من الإهداء أعلاه حساباً للتاريخ بالحروف ذات القيمة العددية وعلى النظام الأبجدي. ولكن الجملة التركية "جامع حضرت سلطان أولادي بنا" تبدو أنها تعني عام ١٣٨١هـ. وربما يكون قد أخطأ في الحساب، أو ربما أنا المخطئ.

إن محطة السكة الحديد، ذات المباني جيّدة التوزيع المساحي وتحتل حوالي نصف ميل يمتد طولاً وباستقامة كاملة على الخط في سهل صحراوي منبسط تماماً، وهي بطبيعة الحال، حديثة، وربما يكون قد صممها المهندس الألماني الشهير مسنير باشا، ويبلغ عرض الخط أكثر من متر واحد، وخطوط القضيب كلها من الحديد الصلب للتغلب على مكائد البدو، الذين قد يجدون العوارض الخشبية كلها عظيمة النفع لنيران خيامهم.

ومنذ التدمير الكامل للخط الذي فصله لورانس ورفاقه خلال الحرب الأولى، ما فتئ العرب يخلعون ويفكون الأشغال الخشبية من جميع مباني المحطة لاستخدامها في الأغراض المنزلية. وفي السنوات الأخيرة تم ترميمُ بعضٍ من هذه المباني واستئناف استعمالها.

وفي وقت زيارتي كان الكثير منها يُستغل لإيواء القوات العسكرية والشرطة المحلية، التي قام أفرادها المتزوجون ببناء قرية لأنفسهم من البيوت الطينية قرب المحطة ولكن على الجهة الشرقية من الخط، وكان أحد المباني يستغل كمحطة لاسلكي، مع السكن الضروري للموظفين، بينما برج المياه، الذي كان يستخدم ذات يوم في إمداد المياه إلى الماكينات من بئر المحطة، كان عاطلاً عن العمل، ولم يعد هناك أي ماكينات بعد تحتاج للعناية في كومة الماكينات المحطمة الآن في الطرف الجنوبي من المحطة. وبالقرب منها يوجد ربما أكبر معلم إثارة للفضول والاستغراب في منطقة المحطة، ألا وهي غرفة تحت الأرض، التي قد تكون صممت كمستودع

للذخيرة، على الرغم من أنهم أكدوا لي أن غرضها الرئيسي في عهد الأتراك كان لإيواء، غير مريح على الإطلاق، للنوع الأشد خطراً من المجرمين، المدانين، أو ربما مشتبه فقط، بإعاقتهم لتقدم سير العمل في خط سكة الحديد، وكانت تعرف أيضاً باسم "القبو" ، أو زنزانة السجن، على حسب نموذجها الابتدائي في مكة، التي اعتاد الملك حسين أن يحبس فيها من لا يحبهم.

كما أن وجود الثعابين والعقارب والقوارض يؤمن إقامة غير كريمة بصورة إضافية للنزلاء التعساء، الذين كانوا يرزحون في السلاسل والأغلال كإجراء احتياطي إضافي ضد هروبهم ولو بأعجوبة أو معجزة. بيد أني لم أجد أحداً في سجن تبوك ذاك إلا الرمال التي كانت تملؤه في الواقع.

وفي الطرف الجنوبي من المحطة خط جانبي يؤدي بقطارات الحجاج إلى مخيم الحجر الصحي، الذي كان ذات يوم محاطاً بأسلاك شائكة ومجهزاً بخيام في صفوف مكتظة بشوارع رئيسة وجانبية، ولكنه الآن صحراء جدباء لا ترى فيها غير أثر ضئيل من المخطط الأصلي، وتتناثر فيها البقايا الحزينة لهؤلاء القوم التعساء الذين قضى عليهم القدر، بسبب الروتين المحض، أن يمضوا عدداً من الأيام في بؤس وشقاء منظم قبل أن يُسمح لهم بالعودة إلى العالم الفسيح الذي جاؤوا منه. ولهؤلاء الذين كانوا مرضى أو يحتاجون إلى رعاية طبية كانت توجد قلعةٌ عظيمة على الطرف الغربي من المخيم، التي كانت تُسمى مستشفى وهي بيت لسكن فريق الموظفين الطبي وإذا استلزم الأمر أحياناً، تزويد الحجاج بتلك

الأدوية التي قد يحتاجونها، أو تسهيلات حفظ الجثث في حالة وفاتهم، وقد تحول هذا المبنى الآن لاستخدامات مدنية، وفي هذا الوقت صار مركزاً للإدارة حتى تشييد مبنى جديد.

لقد كان من الطراز القديم وغير مريح، ولكنه كان يخدم الغرض بصورة كافية وأكثر. وإلى الجنوب - الشرقي من المستشفى، على مسافة غير بعيدة، تقع مجموعة صغيرة من نتوءات الصخور الرملية، تسمى الهضيبة، والهضيبة الصغيرة التي كانت محجراً لقطع حجارة إنشاء المحطة ومباني الأتراك الأخرى.

إن العدد العظيم للنقوش والخربشات باللغة العربية على سطوح صخورها يبين أن الحجاج الذين كانوا محتجزين في محطة الحجر الصحي يُسمح لهم بزيارتهما، على الرغم من أنني لم أعثر على شيء ذي صلة بالنقوش القديمة. وهما، على كل حال، وفَّرا لنا رؤية جيدة للمنطقة المحيطة بهما، وليس ببعيد من النتوء الأكبر كانت هناك بئر أقام عليها الأتراك خلال الحرب الأولى مضخة تدور بمحرك لتوريد الماء للقوات المتمركزة على هذه المرتفعات، وهذه المضخة يديرها الآن صديقي عطا الله لريّ رقعة أرض صغيرة مزروعة بالذرة قريباً من هنا، وفي الوقت نفسه قام اثنان من حرس الأمير، اللذان كانا يفضلان هواء الصحراء النقي على جو القرية الخانق، بنصب خيامهما على مقربة من البئر. لقد كانا رجلين من قبيلة بني مُرّة في الربع الخالي، اللذين أصبحا بطريقة ما مرتبطين بآل السديري، ولزما خالداً حتى في الشمال القاصي.

وكان طول نتوء الهضيبة الرئيس، ٥٠٠ ياردة تقريباً من الشمال - الغربي إلى الجنوب - الشرقي، يمثل نقطة رائعة لإلقاء نظرة عامة منها على تبوك ودراسة مخططها وما يحيط بها، وإلى البعيد للشمال تماماً يقف منبر النبي (صلى الله عليه وسلم) واضحاً جلياً فوق جبل شرورى المنبسط، بينما كانت قمم العاجات المتناثرة تشكل خطاً طويلاً على طول الحافة الغربية لجبل شرورى وعلى مسافة أقرب، وفي نفس الاتجاه تقريباً (الشمال - الغربي) يمتد الجزء الرئيس من تبوك والمحطة، على الرغم من أن نخيل الواحة كان قد اعترض رؤيتي للقلعة والمسجد، وعلى اليسار من الواحة تنتشر سلسلة كاملة من الرقع الزراعية، كل واحدة منها تعتمد على عين خاصة بها. وكان الحي السكني الجديد، الخالدية، أنشئ تخليداً لذكرى مؤسسه، الأمير الحالي، يقع في الغرب إلى - الشمال - الغربي تقريباً، ويقع بستان حرب على يساره. من جهة اليمين لليسار، نجد عين ومزرعة «أبو سبعة»، وعين رُحيّل خلفها على مسافة بعيدة إلى اليمين، ويليها عين كُريّم مع مركز الشرطة المحلي، وواحة عين رايس، والخثما عن يمينها، وأخيراً وإلى الجنوب تقريباً من الهضيبة، رقع الجرثومة المتناثرة. وعلى طول الحافة الشرقية لحوض تبوك الواسع كانت سلاسل جبال غوانم وظفير تستمر في خط شرورى باتجاه الجنوب. وباتجاه الغرب كنا نستطيع رؤية خط التلال يغطي الطريق المؤدي إلى تبوك من هذه الجهة، وفجوة الفوهة الضيقة التي يمر من خلالها طريق السيارات الوحيد إلى حسمى متجهاً إلى ممر الخُرَيْطة والبحر في ضباء.

وقد أمضيت أصيل أحد الأيام في جولة على العيون الخارجية والرقع الزراعية، حيث قدت سيارتي أولاً إلى أبعدها جميعاً، الجرثومة. لقد كان من الواضح أنها شهدت عهوداً زاهرة على الرغم من المشهد الحزين الماثل فيها الآن للعيان، فهي تضم نخلة وحيدة بائسة على ما يبدو وبقعة صغيرة من نبات القمح محاطة بسور منخفض، وتروى من عين ضعيفة تنبع من قمة تل صغير في قنوات ضيقة تؤدي للجنوب، والشمال، والشرق من الأرض الزراعية المنخفضة.

وعلى مقربة أيضاً كانت هناك بئر ذات ماء على عمق قامتين فقط، ومن الواضح أنها تتصل بالعين نفسها. وتقول الروايات المأثورة محلياً إن هذه البقعةَ ووادي قناة في التلال البعيدة للغرب، والمشهورين بالتين اللذيذ ومنتجات البساتين الأخرى، هما مواقع الموطن الأول للكعابنة قبل أن يستقر المهاجرون وينشئوا تبوك نفسها. ومن المؤكد أن الجرثومة لم تكن مزدهرة مؤخراً، وكان كل سكانها في وقت زيارتي أسرة واحدة تعيش في بيت صغير، بيد أنها فخورة بممتلكاتها واستقلالها. وكان فلاح الجرثومة، الذي يعمل في الفدان أو الفدانين اللذين ورثهما عن أبيه بكلتا يديه، يُدعى بنيا أبو طربوش من قبيلة بني عطية. وقد اعتذر اعتذاراً مؤثراً عن عدم قدرته على دعوتنا في بيته لقدح من القهوة، لأنه ليس لديه قهوة يقدمها لنا، وقد قبل المبلغ الزهيد الذي أعطيته إياه بتواضع أبيّ لرجل شديد الفقر لديه أسرة عليه أن يفكر فيها، ولم أطلب منه تفسيراً لاسمه الغريب تماماً، والذي يعني " صبياً صغيراً يرتدي

قبعة " . ولم يكن يملك إلا جزءاً فقط من مزرعة الجرثومة الأصلية، وما تبقى منها كان مهجوراً تماماً.

وهناك عين أخرى تتدفق من قمة جبل رملي شاهق بجوار خمس من أشجار الأثل العتيقة كاملة النمو، التي تضرب جذورها بلا شك في الأرض الرطبة حولها. ومع ذلك كانت هناك عين ثالثة قريبة ومن الواضح أنها ميتة بعد أن دفنتها أعواد القصب، بينما توجد عين رابعة على بُعد عدة مئات قليلة من الياردات، حية ولكنها خاملة. وبين الاثنتين الأوليين رأيت تلالاً من آثار بيوت حجرية قليلة، قيل: إنها آثار قرية الكعابنة الأصلية، وعلى مسافة بعيدة في السهل إلى الشرق والجنوب الشرقي يبرز تلاّن صغيران ولكنهما واضحان هما طويّل التركمان وطويّل النبيه، ويحتمل أن يكون الأخير موقع معسكر النبي (صلى الله عليه وسلم) خلال غزوة تبوك، بينما لم أستطع أن أحصل على تفسير لاسم الأول. وبالقرب منا على طول حافة منطقة التلال كانت تمتد آثار رجوم شوهر الواسعة، التي سوف نذكر مزيداً من التفاصيل عنها لاحقاً.

وعندما عدنا لاتجاه الشمال - الغربي، توقفنا لفحص أول عين من ثلاث عيون تُسمى عين كريم وتقع على قمة تل يرتفع خمسينَ قدماً، بفوهة محفورة في الصخر الرملي حتى العين الحقيقية التي يبلغ عمقها أربع أو خمس قامات. وقد ماتت العين نفسها، والمساحة الصغيرة التي كانت ذات يوم تسقيها عند سفح التل أصبحت مهجورة وليس فيها غير قليل من النخيل المريض ليذكّر المرء بالأيام الجميلة الخالية. وكانت فوهة البِئر مغطاة لتفادي خطر طمرها

بالرمل المتطاير، في حين كان النفق المؤدي إليه مسقوفاً بعوارض حديدية من خط السكة الحديدية.

وكان من الواضح أن البئر قد تم تأهيلها في عصور متأخرة إلا أن ذلك لم يؤدِ إلى النتائج المرغوبة للذين فعلوا ذلك.

واصلنا السير في نفس الاتجاه وأتينا على بساتين نخيل في عين رايس المزدهرة، وهي الواحة الرئيسة في المنطقة جنوب تبوك. وتتدفق مياه هذه العين في حوض، يبلغ نحو عشرين قدماً مربعاً وهذا الحوض مسور بجدار دائري حوالي اثني عشر قدماً من الصخور الرملية المشذّبة بصورة خشنة. من هذه العين يسيل الماء باتجاه الشمال - الشرقي حتى يدخل في خزان عند حافة حزام النخيل المزدهر تماماً. وكان هناك خزان ثان يتلقى المياه الفائضة من العين نفسها ولكنه كان فيما يبدو متوقفاً عن العمل، وكان مغطى بصورة كثيفة بالطين والقصب.

وعلى العموم يبدو لي أن تدفق الماء كان بطيئاً بسبب ضعف الصيانة، بينما كانت أجزاء من الجدار الدائري وضفاف القناة في حالة من التدهور والانهيار. وهذه المنطقة تخص ملاكاً غائبين من بني عًطية، ويبدو أنها مهملة بصورة مؤسفة. وكان مركز الشرطة المعنيّ بالأمن العام للمنطقة يقع على مسافة غير بعيدة من عين رايس نحو الشمال - الشرقي على الطريق إلى تبوك. وقد قمنا بزيارة هذا المركز لتبادل الأحاديث الودية مع أفراد الشرطة المناوبين قبل أن نرجع إلى مأوانا.

إن حياة رجل الشرطة من النادر أن تكون سعيدة في مثل هذه المراكز الخارجية الصغيرة، مع إن مضيفينا البسطاء الودودين قد

استهانوا بمتاعبهم. وكان المركز وعدد من البيوت المصنوعة من أغصان الشجر والخيام البدوية التي تسكن فيها عائلات رجال الشرطة المتزوجين تشغل واجهة بستان صغير من النخيل يقوم على عين ثانية من عيون كريّم، بينما على الجانب البعيد منها تقع ثاني أكبر واحة من المجموعة، التي تعرف باسم خشما. وبين مركز الشرطة وتبوك تقع عين ثالثة من عيون كريّم، المهجورة نسبياً على قمة جبل منخفض، علاوة على عين رُحيّل وعين أبو سبعة وبستان حرب. وكانت الاثنتان الأخيرتان -وهما من العيون الخارجية الأقرب إلى تبوك وتقابل تقريباً ضاحية الخالدية الجديدة- مملوكتين في هذا الوقت بصورة جزئية لخالد السديري، الذي حصل في النهاية على حقوق الملكية كلها من عيد، شيخ بني عطية.

وقد أتيحت لي مناسبات كثيرة لزيارة هذه الأصقاع الأقرب في جولات قصيرة خلال فترات الأصيل مع علي ثروت، مع أن نقطة الاختلاف الوحيدة بينها وبين الأخريات التي أوردنا وصفها هنا تعود لقربها من مقر القيادة حيث استحوذت على قدر كبير من اهتمام السلطان ورعايته.

ومن الصعب أن نشكك في أن منطقة تبوك هذه كلها، بالمعالجة الصحيحة وبعض المعونة من الحكومة، يمكن أن تستعيد شيئاً من الرخاء والازدهار اللذين تمتعت بهما تحت حكم الأنباط منذ ألفي عام مضت.

وفي الحقيقة يمكن أن تتسع منطقة الرخاء إلى مسافة أكبر جنوباً لتضم منطقة رجوم شوهر التي زرتها في آخر يوم من إقامتي المؤقتة

بتبوك قبل استئناف رحلتي نحو الشمال. وتمتد حوالي اثني عشر ميلاً جنوب - جنوب - شرق من تبوك، وحتى نصلها، قطعنا منطقة وعرة إلى نقطة قرب الجرثومة، حيث عبرنا قناة شعيب المشاش لكي نصل إلى الحوض الواسع لشعيب عاجات عند حافة منطقة المرتفعات في الغرب.

وهنا توجد آثار وعلامات واضحة لا لبس فيها على التنمية والتطور في العهود الغابرة. وتتمثل في الحقول الزراعية المهجورة منذ أمد طويل تلك التي كانت تروى من العيون الخامدة الآن والسيول من الأرض المرتفعة على يميننا. وهنا وهناك كانت تنهض نخلة مكافحة من أجل البقاء لتبين لنا أن مستوى المياه الجوفية ليس ببعيد تحت السطح، ولكننا لم نعثر على أي أثر للبشر الذين كانوا ذاتً يوم يزرعون هذه المنطقة، حتى وصلنا إلى الأرض الأكثر وعورة وجبال رجوم شوهر المنخفضة، وهنا على الأقل كانت توجد قبور لعدد لا بأس به من السكان، محفوظة على مر الدهور من السيول الموسمية التي كانوا يعتمدون عليها في رزقهم أثناء حياتهم. والمناطق المنخفضة بين الجبال التي شيدت عليها القبور كانت تبين علامات من الزراعة القديمة، بيد أن القبور نفسها هي التي برهنت على وجود البشر الذين أقاموا ذات يوم في هذه المساحات الخاوية الآن.

وكان أول جبل أتينا عليه فيه الكثير من المباني الصغيرة المشيّدة بالصخور الرملية المشذّبة بصورة فجة، والتي ذكرتّني بقوة بقبور سبأ في منطقة رواق محياش قرب الحدود اليمنية. وكانت مساحة أول مبنى فحصته تبلغ سبعة أقدام ونصف القدم وهو مبنى مربع وارتفاعه

٦ أقدام، وله سقف مشيّد بطريقة جيدة وقد سقط بعض أجزائه في الداخل، وكان مقسماً في الوسط بجدار إلى غرفتين، ومن الواضح أنه مصمم ليضم جثتين، ربما لرجل وزوجته. وكان هناك جزء من الجدار الجنوبي قد دمره الباحثون عن الكنوز في العصر الحديث.

وهناك مبنى ثان من نفس الحجم والشكل تقريباً وهو أنقاض مهدمة ما عدا جزءاً من جدرانه في أحد الأركان. وبني ثالث على مدرج منخفض في تل صغير تبلغ مساحته تسعة أقدام مربعة وارتفاعه ستة أقدام على الرغم من انهياره نسبياً في جانبين منه. وعلى قمة التل الصغير نفسه، الذي يشرف على المنطقة كلها، كان هناك مبنى متهدم إلى حد ما ولكنه تظهر فيه بوضوح غرفة الدفن في الداخل، وعرضها ٢٫٥ قدمان ونصف القدم وطولها ١٠ أقدام وارتفاعها ٤ أقدام. ومن الواضح أنها قد فتحت من الجهة الغربية، ومن المحتمل أن تكون قد استعملت في العصور المتأخرة كثيراً كمركز مراقبة أو حاجز دفاعي أو حصن.

وعلى العموم كان هناك حوالي عشرة قبور أو اثني عشر قبراً على هذا التل الصغير أو حوله. وعلى الجبل في الشرق يوجد الكثير من المباني المشابهة، من بينها قبرٌ تبلغ أبعاده ٧٫٥ × ٥ × ٨ أقدام فيه جهتان سالمتان وكذا نصف الجهة الثالثة، بينما كان الباقي متهدماً، وغرفة الدفن طولها ستة أقدام واتساعها قدمان ونصف. وتبلغ أبعاد مبنى آخر ١٠ × ٧ × ٨ أقدام، وهو ينقسم إلى غرفتين للدفن. وثالث كان يحتوي على ثلاث غرف للدفن، مفصولة عن بعضها بجدران داخلية، وكانت الأبعاد العمومية ١٢٫٥ × ٦ × ٦ أقدام. والاتجاه

الطولي لهذا البناء كان تقريباً شـــرق - غرب، ولكن لا يـبدو أن هناك أي نوع من التوحد في هذا الشأن بين كافة القبور في المنطقة، التي يبدو أن طبيعتها كانت تملي شكل وإطار القبور التي يتم بناؤها عليها.

كذلك هناك مبنى آخر غير عـادي من ناحيـة شكله البيضـوي، وأبعـاده ١٠ × ٥ أقدام، وبه غـرفة دفن واحدة ارتفـاعهـا ثمـانية أقدام وهو متهدم نسبياً في الطرف الشرقي. وكان اتجاهه بكل تأكيد شمال غرب وجنوب - شرق. ومـبنى آخـر كـان يتـجه غـرب - جنوب - غـرب وشـرق - شـمـال - شـرق وتبلغ مـسـاحـتـه ١٠ × ٥ر٧ أقـدام ونصف القدم ومقسم إلى غرفتين، ولكنه كان في حالة سيئة. وآخر مبنى فحصته بالتفصيل كان يتجه شمال - شرق وجنوب - غرب، ويحتوي على غرفة واحدة أبعادها ١٠ × ٥ × ٧ أقدام. ولم أعثر في المنطقة كلها على أي شيء ذي قيمة أثرية، لا عظام، ولا خرز، ولا نقوش ولا أي أثر للقوم الذين دفنوا في هذه القبور.

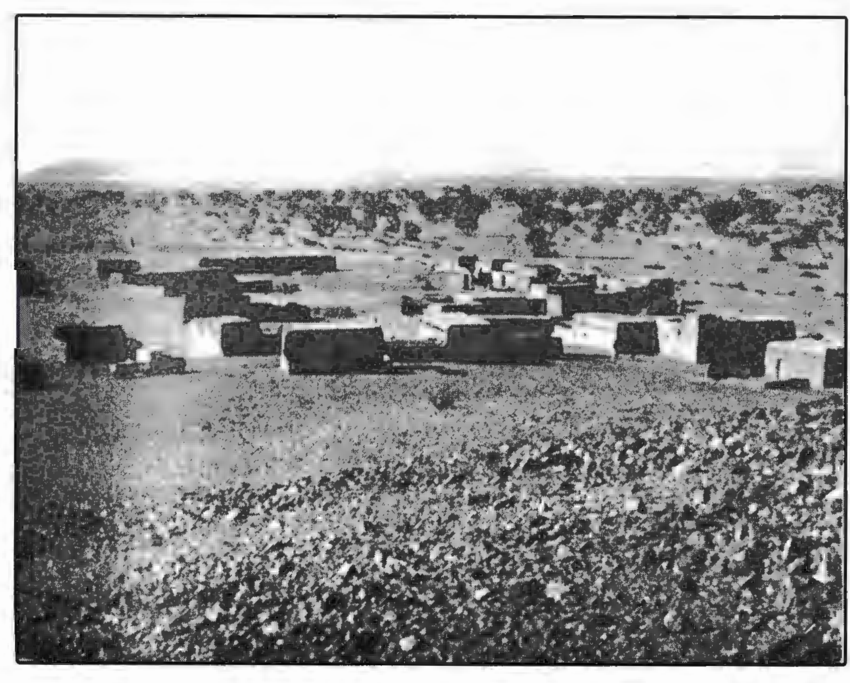
وقد زار تشـارلز هوبر هذه الأنقـاض قـبل عـام فقط من مـولدي، ولـم يجد غـير القليل من بقايا عظام وسط الكثير من روث الضباع المفترسة، التي نسب إليها سبب اختفاء الجثث التي شيدت القبور من أجلهـا. ولكن ذلك لا بد أنه قد حـدث منذ عـهـد طويل مـضى. إنه عندما نسب القبور للأنباط كان محقاً بكل تأكيد تقريباً، وهذه مسألة تعود لألفي سنة ماضية، عندما كـانت أوضاع تبوك قصة من التدهور والبؤس. وقد بذل خـالد السديري شيئاً نحو استعادة المدينة لرخائها القديم، كما إن تعيينه مؤخراً وزيراً للزراعة في الحكومة السعودية قد يؤدي أيضاً إلى تطوير المنطقة التي ظل أميراً عليها مدة طويلة.



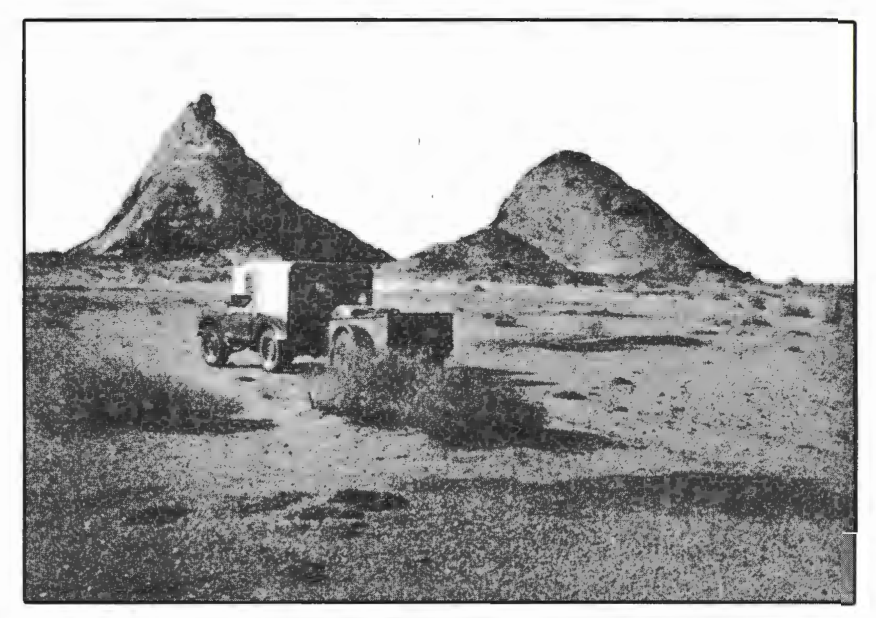
الواجهة الأمامية: قلعة تبوك



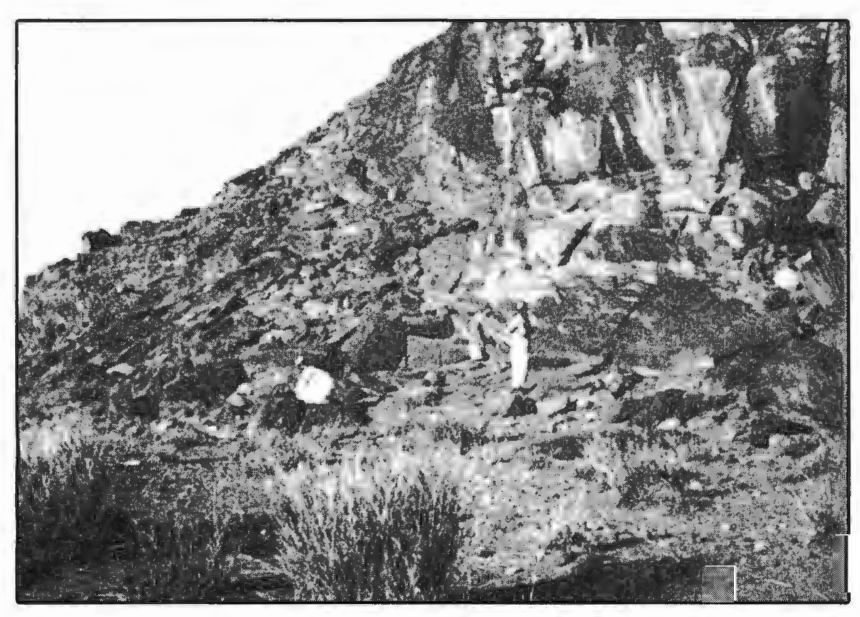
ممر ذو خشب كما يبدو من موضع ممناه



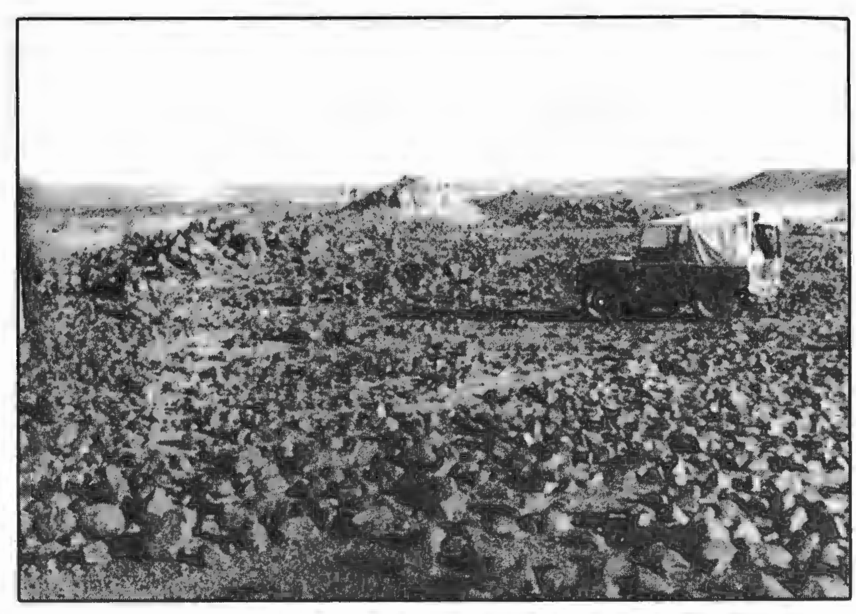
قرية الحناكية



قمم جثوم الجرانيتية



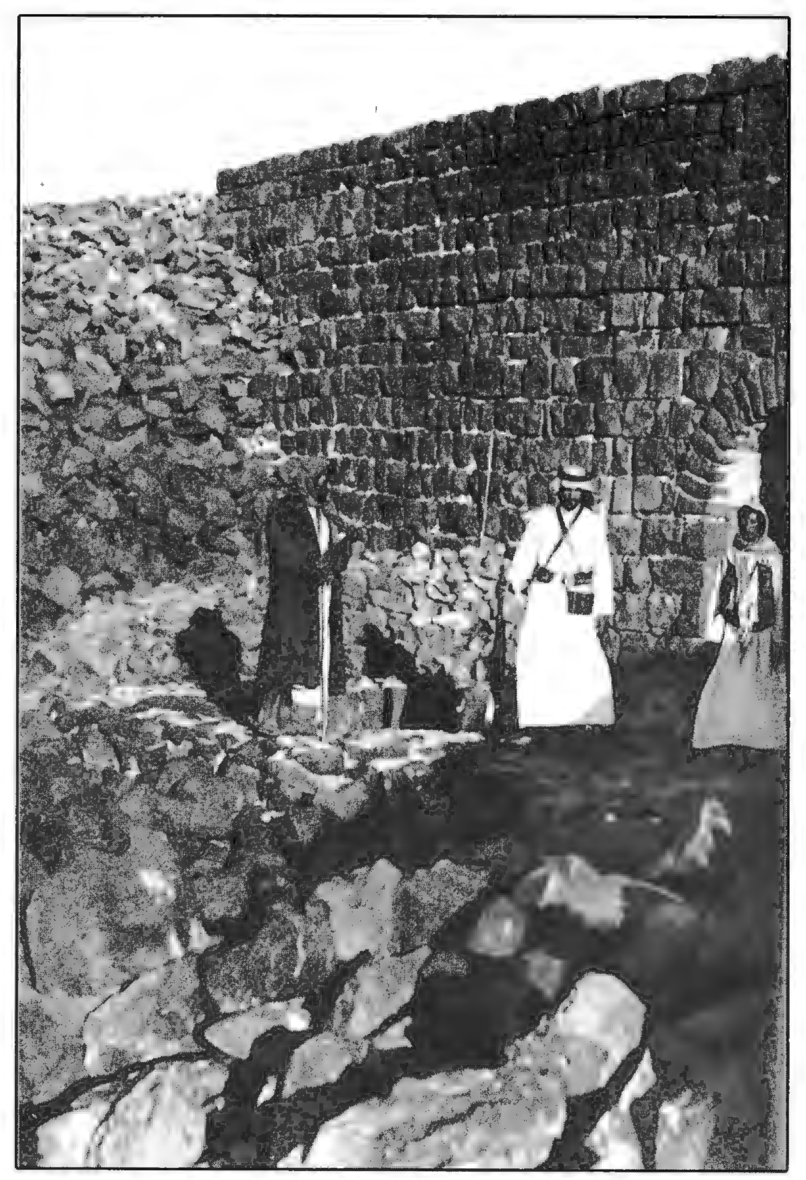
وادي المسيل وعليه نقوش ملوك سبأ



سيارة لاندروفر في حقل اللافه بالقرب من شعيب السمينان



حي هجرة الثمد



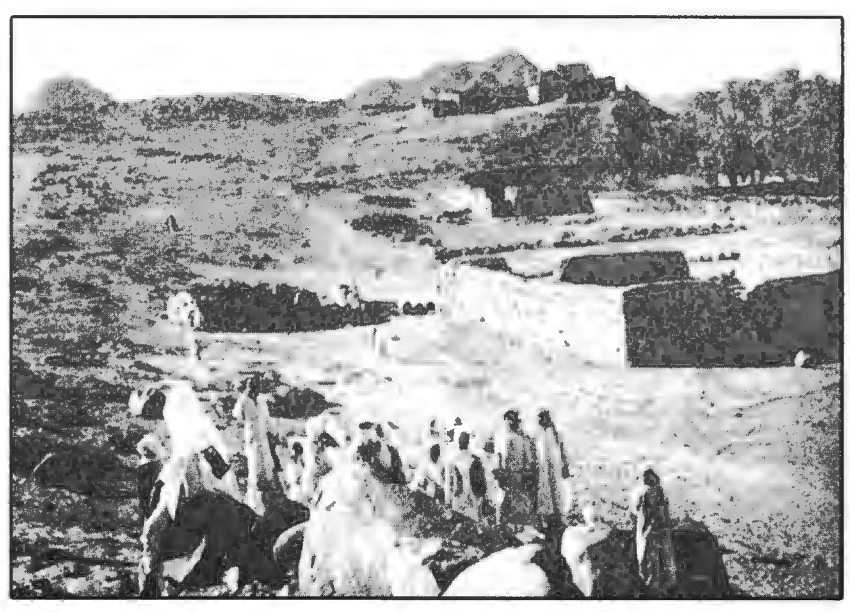
خزان الحصيد جانب أسفل التيار



مسيل غدير المُكتّب



الطريق الجبلي إلى حصن مرحب



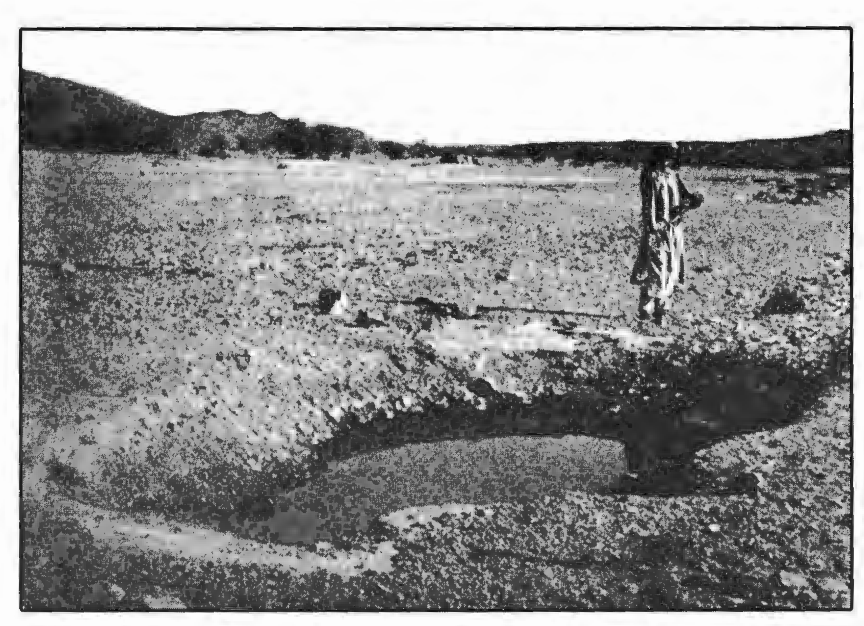
حصن الربيع التركي في عين الصفصافة في خيبر



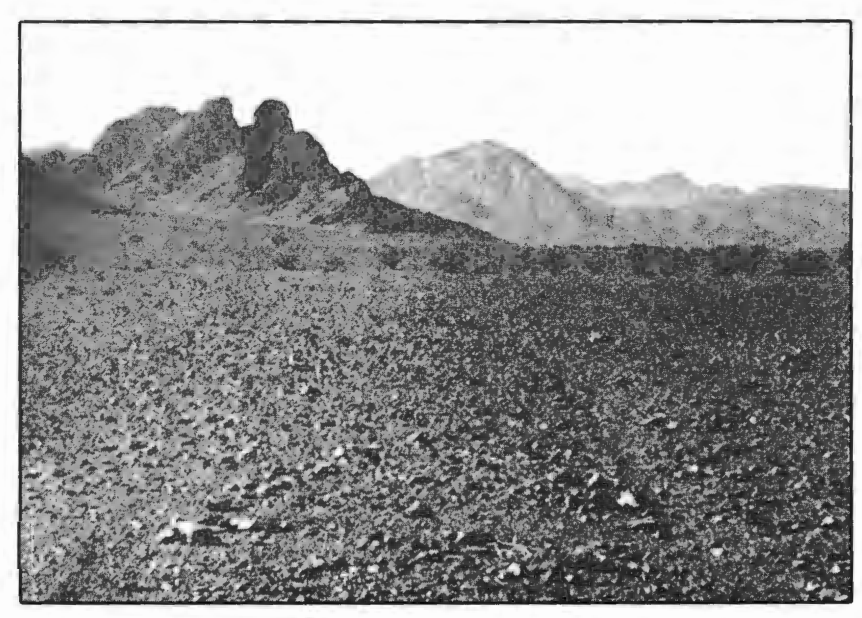
شارع في خيبر ومدرسة مقابلة لمنزل النجمي حيث عاش دواتي في عام ١٨٧٧م



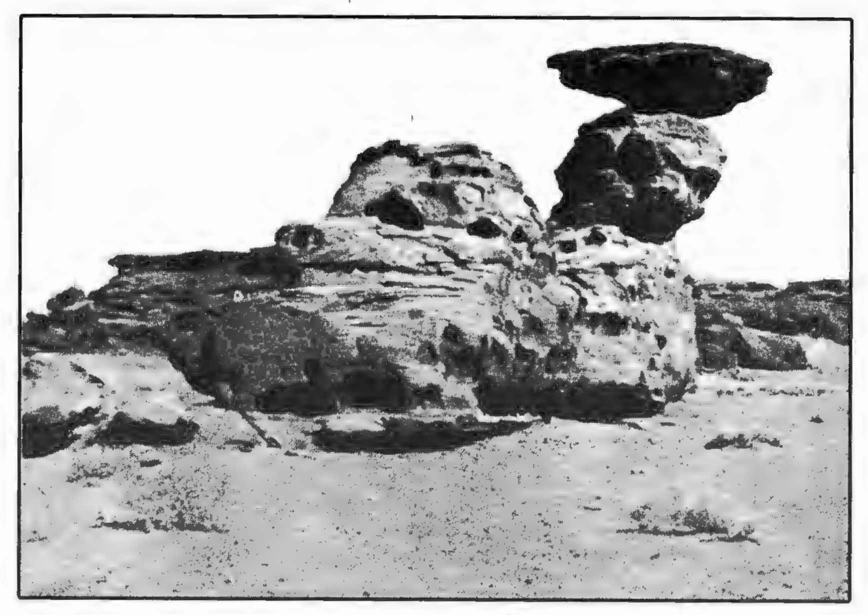
مدخل باب خوخة في خيبر



بركة في وادي غمرة في اتجاه أعلى التيار إلى رابية غمرة



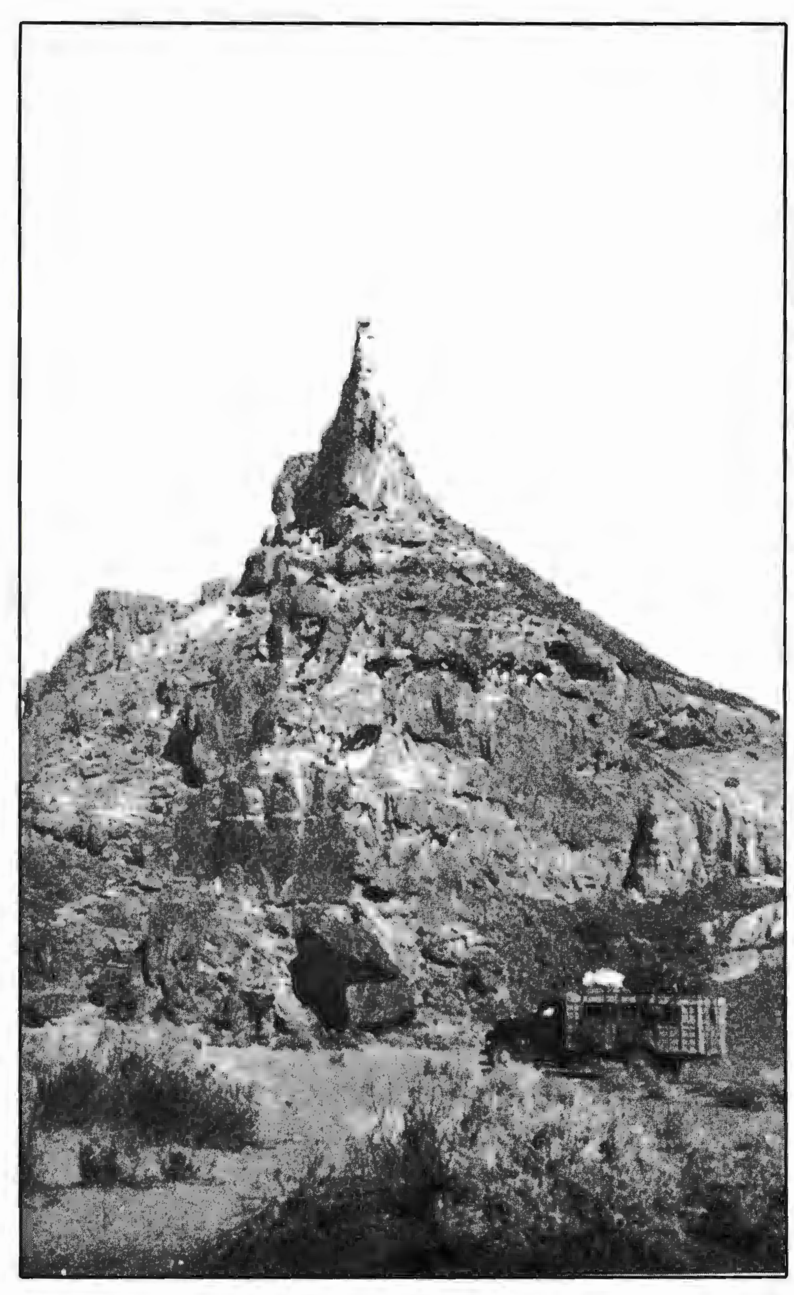
تلال المسيلخة وشقرة والطريق بينهما



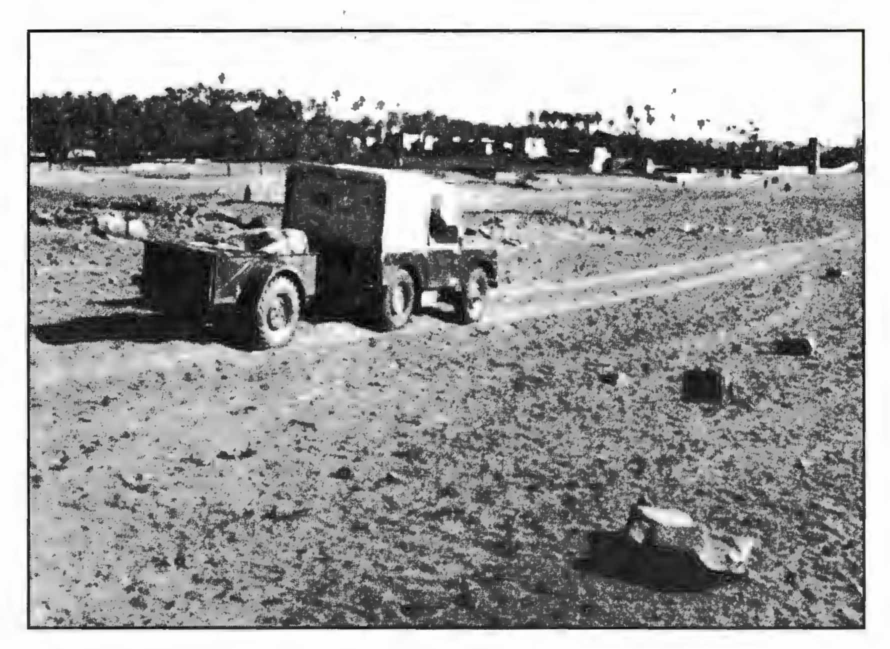
صخرة أبو الهول في المذبح



كتل من الحجر الرملي في المذبح



قمة الحجر الرملي في المذبح



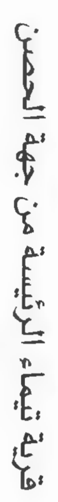
الوصول إلى تيماء



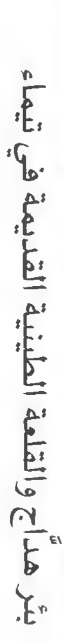
سور تيماء



قصر (حصن) ابن رمَّان في تيماء



قرية تيماء الرئيسية من جهة الحصن



بئر هدّاج والقلعة الطينية القديمة في تيماء

الفصل السابع

روافة والحرّة

إن الهضبة العظيمة التي تحد حوض تبوك من الغرب وتمتد من منطقة تبوك حتى العقبة والرّم تعرف باسم حسمى وهي قفر واسع من الصخور الرملية وصحارى الرمل التي تفصل جبال مدين الجرانيتية في الشمال عن صحارى حرّة الرحى وحرّة العويرض البركانية السوداء، التي تقع بين حافتها الجنوبية ومنطقة العلا. والحافة الشرقية لهذه المنطقة، عندما تنخفض تجاه بحر تبوك الداخلي الجاف، تسمى اللحى أي الحزام "الضيق" من المنطقة الصالحة للزراعة بين الهضبة والمنخفض. كما أن بقعة رجوم شوهر، والجرثومة، وتبوك بعيونها الخارجية تشكل جزءاً من هذه المنطقة، والتي سنذكر منها عناصر أخرى على مسافة بعيدة إلى الشمال فيما سيأتي ذكره.

في هذه اللحظة كان هدفي الرئيس استكشاف القسم الجنوبي من حسمى على طول حافة الحمم البركانية، على أن تكون روافة نفسها جائزتي الأخيرة. ومن بين جميع من سبقوني من الرحالة لم يزر هذه المنطقة إلا ألويس موسل الذي اكتشف معبدها النبطي -

الروماني بنقوشه الشهيرة. وقد سمع داوتي عنها خلال رحلته الشاقة، والطويلة، والموحشة نزولاً حتى حوض تبوك مع الحجاج، وكان بيرتون على مسافة عشرة أو خمسة عشر ميلاً منها في زيارته لمر الخريطة حيث عرض عليه بدو بني عطية قطعاً من حجر منقوش نشروه بمنشار إلى أجزاء صغيرة يمكن نقلها بالإبل، ولكن ضراوة العرب ونزعتهم للسلب منعته من أي محاولة لزيارة الموقع.

ومن الطريف أن داوتي وبيرتون كانا على ناحيتين مختلفتين من صحراء حسمى في الوقت نفسه، عام ١٨٧٧م، دون أن يدركا أنهما كانا تقريباً على مسمع من بعضهما البعض. ولم يجمع هوبر نقوشاً من المنطقة القريبة لتبوك إلا قبل اغتياله على يد رفاقه العرب بشهور قليلة، بالرغم من أنه لحسن الحظ تمكّن من إيداع جميع سجلاته وكتبه في جدة مباشرة قبل أن ينطلق في رحلته الأخيرة لاسترداد حجر تيماء المشهور. وبعد ذلك بربع قرن من الزمان استطاع كل من جوسين وسافيناك إلى حد ما أن يوسعا المنطقة التي قطعها هوبر، بينما كان كاروثرز يبحث عن البقر الوحشي، أما موسل فقد اكتفى باستكشاف المنطقة.

ومن المدهش حقاً أن أياً منهم لم يكن يعلم بوجود الآخرين في الوقت نفسه، في عام ١٩١٠م، على الرغم من أنهم جميعاً استخدموا السكة الحديد. إن موسل فقط، الذي يعد حتى الآن

أشهر مكتشف لشمال الجزيرة العربية، قد تمكّن من رؤية جزءٍ عظيمٍ من القسم الجنوبي لحسمى، بيد أنه تعرّض لمحن ومصائب عندما دنا تقريباً من نهاية رحلته العظيمة، وكضيف في معسكر عربي، فقد خاض تجربة مروعةٍ تعرّض خلالها للضرب والمعاملة الخشنة على يد مضيفيه من بني عطية، الذين أدت نساؤهم الدور الرئيس في الهجوم على شخصه، والاستيلاء على ممتلكاته القليلة وإتلاف أوراقه. إن أعظم خطر في استكشاف الجزيرة العربية هو خطر فقدان السجلات الثمينة لجولات ورحلات المرء، ولذلك التزمت دائماً عادة اعتدتها، في رحلاتي الأكثر أهمية، وفي إفادة رفاقي بأنه، في حالة حدوث أي شيء مؤسف لي، فإنني سوف أتقبل بسرور استيلاءهم على جميع ما لدي من أصول سائلة، وبإمكانهم مضاعفة قيمتها عن طريق إعادة كتبي وأوراقي عديمة القيمة إلى أقرب قنصلية بريطانية أو أي جهة مسؤولة أخرى. ربما أكون قد بالغت في أهمية سجلاتي، ولكن، إذا قدر لي أن أموت، فسيكون بعض ما يبعث على رضاي هو التأكد من أن السجلات الكاملة لأنشطتي ستكون متاحة للأجيال القادمة.

في ١٦ يناير ١٩٥١م، بعد وصولي تبوك بيوم واحد، انطلقت في أولى جولاتي بجنوب حسمى ومن مركز الشرطة في عين كريّم دخلنا وادي الخور (خور الرايّس)، ومن رأسه مررنا في سهل وادي

البَقّار الواسع، الذي يجمع المياه المنصرفة من ستة شعاب محلية وهو في طريقه باتجاه حوض تبوك. وعندما سرنا مع ضفته اليمنى، أتينا على قلعة قصير التمرة الحجرية الصغيرة التي زارها من قبل هوبر وجوسين وسافيناك. ومثلما فعلوا، فقد نسخت النقش الثمودي على لوحة الحجر الرملي الطويلة فوق المدخل من الجانب الشرقي، على مسافة ثلاثة أقدام فوق مستوى الأرض، وبارتفاع قدمين ونصف القدم وعرض ٢ قدمين.

إنه يبين فقط اسم اثنين من الرجال، اللذين قد يكونان من بناة القلعة. وتبلغ مساحة المبنى ١٥ قدماً مربعاً، وهو مشيّد من اثني عشر مدماكاً غير متساوية من ألواح الحجر الرملي المشذب الذي بُني بناءً حسناً ومتماسكاً بدون ملاط. ويبلغ سُمك الجدران قدمين ونصف، بينما يستند السقف على عمود في الوسط من ألواح الحجر الرملي الصغير مساحة قدمان ونصف القدم وشكله مربع تقريباً. يوجد أمام هذا البناء رصيف منبسط طوله حوالي ٢٠٠ ياردة وعرضه ٢٠ ياردة، وفيه مساحة مستطيلة مسطحة محددة بعلامات من ألواح الحجر الرملي المحيطة بها. وعلى المنحدرات المجاورة كان هناك الكثير من الدوائر الحجرية، ربما كانت تحيط بخيام البدو، وكانت قلعة قصير التمرة بلا ريب مركز مراقبة قديم في خطة الدفاع عن تبوك، والنقش، الذي من الواضح أنه لا يزال في موقعه

الأصلي، يبدو أنه يعود تاريخ بنائه إلى ما لا يقل عن ألفي سنة. ومن المحتمل أنها كانت مصممة للإشراف على النقاط شبه الدائرية التي تلتقي عندها الشعاب المختلفة القادمة من المرتفعات الغربية مع وادي البقّار الواسع وهي من اليسار لليمين شعيب صليتية وشعيب عيرين الذي ينضم على الجانب البعيد من جبل عيرين الأسود قبل أن يصل إلى ملتقى الأودية الثلاثة من الغرب، والحدارة والثميم وقنا. والجهة البعيدة من وادي البقار يحدها جبل الخليل الذي يمتد من ورائه وادٍ آخر بالاسم نفسه وهو رافد أيضاً من البقار يصب للأسفل. وهكذا فإن قلعة قصير التمرة تحتل موقعاً استراتيجياً هاماً، على الرغم من أن الحامية فيها لا يمكن أن تكون كبيرة جداً.

من هنا اتجهنا نحو الجنوب - الشرقي في وادي صليطيات حتى تل أم جهايب المدهش إلى حد ما، المواجه للطرف الشرقي من جبل عيرين. وبعد أن صعدنا منحدراً وعراً، ولكنه ليس صعباً، أتينا إلى سفح قمة مستدقة رائعة، كان بجوارها درب للإبل يأتي من الجرثومة والتلال المنخفضة في الشرق نزولاً إلى فتحة عيرين. ولم نعثر على نقوش، وكانت رؤية المنطقة المجاورة ضعيفة وتمتد أمامنا جبال عيرين البازلتية مع قناة صليطيات على طول جانبها البعيد، وقد شهدت سيلاً في الآونة الأخيرة، وقد طاف على المنطقة سرب من الجراد بين الفترتين الأولى والثانية للسيول. وبعد أن عدنا

للسيارة لتناول الغداء سرنا نحو وادي صليطيات مروراً بمرتفع عيرين حتى كتلة مقيال عيرين الصخرية المعزولة، وهنا وعلى المرتفع وصخوره المتساقطة وجدنا عدداً وافراً من النقوش النبطية والثمودية، وأيضاً على جبل مبنى أبي زيد من الحجر الرملي المجاور، والمعروف أيضاً باسم مبنى البيت الذي يبلغ طوله ميلاً وعرضه نصف ميل. وكنا الآن على الجانب الشرقي من جبل عيرين الذي كان قسماه الاثنان اللذان يفصلهما شعيب بنفس الاسم، يمتدان من الجنوب - الغربي إلى الشمال - الغربي أمامنا، وللجنوب وليس ببعيد عنا تقع حافة منطقة بركانية. وواصلنا السير في قناة صليطيات عبر شريط من الحجر الرملي تغطيها ألسنة من الحمم البركانية حتى أتينا إلى منطقة تعرف باسم مقيال أبي زيد تحت الجبل الأول للحرّة الحقيقية، وكانت محاطة بألواح من الحجر الرملي المتساقطة من جبل شريف المضرع، بينما أمامنا يمتد جبلا أتانه والدبيساء من جبال الحرّة.

وقد وصلنا إلى نقطة ترتبط بالأسطورة المحلية بالهجرة التاريخية لقبيلة بني هلال، بقيادة زعيمها الشهير أبي زيد الهلالي، من موطنها الأصلي في جنوب الجزيرة العربية إلى تونس والمغرب. متى حدث ذلك ؟ لا ندري، والنقوش الثمودية التي خلّفها أفرادها وراءهم لا تحوي شيئاً ينير لنا الطريق لمعرفة أعمالهم. والأسماء

الباقية لهذه القرى توحي بأن القبيلة قد قضت ساعات الحر في الظهر عند هذه النقطة وخيّمت أثناء الليل في مبنى البيت الذي مررنا بجواره في رحلة عودتنا إلى تبوك بنفس الطريق الذي سلكناه في الصباح .

وقد قضينا اليوم التالي في رحلة إلى الجزء الشمالي من المنطقة نفسها لاستكشاف وادي الخليل وبعد أن تجاوزنا مركز الشرطة ونخيل الرايّس توقفنا عند نتوء قضمة الرايس لمسح المناطق المحيطة بنا مسحاً عاماً من نقطة تقع جنوب تبوك تماماً تقريباً . ومن هنا صعدنا قناة خور مثلما فعلنا من قبل لنصل إلى الضفة اليمنى لقناة المعايزي على الجانب البعيد من وادي البقار الذي عبرناه إلى النقطة التي يدخل عندها شعيب الهدارة فيه .

وفي طريقنا عثرنا على صخور متناثرة عليها نقوش وصور لحيوانات متنوعة ، وعند دخولنا في وادي الخليل وجدنا الأرض شديدة الوعورة حتى إنه من المستحيل تماماً للشاحنة أن تسير فيها ، وكانت المنطقة كلها مفروشة بالحمم البركانية والبازلت التي حملها الماء ، وعزمت على أن أسير مشياً على القدمين إلى النقطة التي يتكوّن عندها الوادي من التقاء عدة فروع وجداول نازلة من الأرض المرتفعة المجاورة ، وأحد هذه الفروع هو وادي قناة ، الذي تقع فيه بعد مسافة بعيدة قرية وبساتين بالاسم نفسه ، والتي ذكرناها من قبل

كأحد المواطن المبكرة التي قطن فيها المهاجرون الأولون من الكعابنة. إنني لم أزر هذا المكان لأنه قد سبق رؤيته ووصفه بواسطة موسل وجوسين وسافيناك وقام الاثنان الأخيران بتسجيل جميع نقوشه. وبدلاً من ذلك طرقت طريقاً صغيراً في قناة أبي طبق التي تهبط باتجاه الشمال - الغربي من الحرّة، وترتفع بالقرب من قمة وطر الشاهقة. ودخولها في حوض الخليل يتميز بمجموعة رائعة من صخور الحجر الرملي العالية، التي وَجَدْتُ عليها قليلاً من النقوش الثمودية. ووادي قناة، الذي يرتفع أيضاً في منطقة بركانية، ينزل من الجنوب - الشرقي ليدخل وادي الخليل حول أرض مرتفعة ناتئة، بينما يهبط وادي الخليل نفسه من خلال وادٍ ضيق من التلال البركانية إلى الغرب، الذي يأتي منه أيضاً شعيب النتيش الذي يسير موازياً لوادي الخليل، وخلف الحافة الطويلة للضفة اليسرى منه، إلى أن يلتقي به قرب النقطة التي تركنا عندها السيارة. والفروع المتجمعة من هذه الشعاب تتدفق للشمال - الشرقي لتلتقي بوادي البقار قبل أن يخرج هذا الأخير من التلال ويدخل في حوض تبوك، ليصب سيوله الغزيرة أحياناً عبر أو تحت خط سكة الحديد في السبخات الشمالية، التي قدّر لي أن أراها بعد ذلك بفترة وجيزة.

وفي هذه الأثناء، وبعد أن قضيت الأيام القليلة الأولى من إقامتي المؤقتة في المناطق الأقرب لتبوك أو حولها، فقد عزمت أن أقوم

برحلة أكثر طموحاً إلى الأطراف الجنوبية - الغربية من حسمى ومعبد روافة. بيد أنني، قبل أن أشرع فيها، كنت مضطراً لاتخاذ الترتيبات اللازمة لكي أتخلص من الفريق الذي صاحبني حتى الآن، وكان علي ثروت أكثر من مساعد ومفيد عندما وافق على تزويدي بأدلاء ورفاق جدد، وكان محمد العريفي وزملاؤه، الذين تخلف واحدٌ منهم في تيماء مع الميكانيكي واللاندروفر، لم يكونوا مستسلمين فقط لاحتمال مفارقتي، ولكنهم لأسبابٍ اكتشفتها فيما بعد، كانوا شغوفين بالعودة لأسرهم في المدينة؛ فقد كان سلوكهم يبسط الأمور، وكان معنا مخزون وفير من المؤن، بعد أن سحبنا تمويناً سخياً لأربعة شهور، بناءً على حسابات العريفي نفسه قبل الانطلاق من مدينة النبي صلى الله عليه وسلم.

وتم الاتفاق على أن يتولى زعل بن مرزوق المسؤولية عن جماعتي فيما تبقى من رحلتنا، وأوكلت الأمر إليه في اختيار -من بين أتباع الأمير وخدمه- الرجال القليلين الذين سوف نحتاجهم في الرحلة، علاوة على الأدلاء الضروريين، وكان على العريفي ورجاله أن يغادروا تبوك خلال غيابنا في رحلة روافة، وحيث إنهم أيضاً سوف يحتاجون لمؤن فقد طلبت من زعل أن يتشاور مع العريفي، وأن ينقل نصيبنا من المؤن إلى تبوك لتخزينه هناك خلال غيابنا. عند ذلك بدأت المهزلة.

لقد بدأنا رحلتنا في ٢٠ ديسمبر، وفي ١٩ يناير، عندما كان لنا أن نغادر تبوك لروافة، كنا قد قضينا بالضبط شهراً على الدرب، بينما خلال إقامتنا المؤقتة في خيبر، وتيماء، وتبوك نفسها، كنا ننزل، طبقاً للعادة التي جرينا عليها، ضيوفاً على الأمراء المحليين، ولم نكن نضطر للسحب من مؤنتنا إلا قدراً يسيراً.

ولقد قضينا تقريباً ثمانية عشر يوماً من الشهر في غمرة من كرم وسخاء مضيفينا، وقدّرت الآن أننا سوف نستغرق حوالي شهر لنصل إلى جدة، وخلاله سنكون أيضاً ضيوفاً على الأمراء في مختلف النقاط على الطريق. والمؤن التي جمعناها لأربعة أشهر ستكون أكثر من كافية لطلباتنا، وقلت لزعل أن يزود العريفي ورجاله بقدرٍ سخي من المؤن للأيام القليلة التي سوف يقضونها في سفرهم عائدين لديارهم، وعاد زعل إليّ في الليلة نفسها بالأخبار المدهشة التي مفادها أنه لا يوجد حقيقة أي شيء من مؤنتنا؛ ففي شهر واحد، بل في الحقيقة أكثر قليلاً من نصف شهر من الترحال والسفر الفعلي، كنا قد بددنا المؤن التي كانت مخصصة لتكفينا أربعة شهور.

لقد باع العريفي وعصابته مخزوننا كله في أسواق خيبر، وتيماء، وتبوك، والبقية الشحيحة منه سُلّمت لزعل لرحلتنا إلى روافة مع الإيحاء بأننا كنا محظوظين للعثور على أي شيء على الإطلاق

لنأخذه. ولكن، حيث إنني كنت سأرى رفاقي الأشرار لآخر مرة غداً، فقد قررت ألا أفعل شيئاً إلا إفادة علي ثروت بالموقف، والذي لم يدهشه إلى حد ما، وكان قد تلقى برقية من خالد السديري، الذي كان الآن على الحدود الشمالية في وادي السرحان مع أخيه عبد العزيز وكان يأمل في العودة إلى تبوك قبل مغادرتي لها، يأمره فيها بتزويدي بجميع ما أطلب من مستودعات مؤن الحكومة.

وفي صباح التاسع عشر استيقظت مبكراً لإعداد كافة متعلقاتي وتجهيزها للانطلاق، ولم أخرج من غرفتي إلا بعد أن أصبح كل شيء جاهزاً، عازماً على أن أبدي وداعاً ودوداً لقوم لا أريد أن أراهم أبداً مرة أخرى، مع تقديم الهدايا النقدية الاعتيادية السخية، بينما كان يتم تحميل اللوري، ولكنه لم يكن ممكناً رؤية اللوري في أي مكان، وكان رفاقي الراحلون يجلسون مطمئنين مرتاحين حول نار القهوة، غير عابئين تماماً باحتجاجي وشكواي من عدم وجود الشاحنة، فهذا لم يعد شغلهم الشاغل الآن لأنه كان هناك آخرون عليهم أن يهتموا بمشاكلي ويجدوا حلاً لها، وقد تركتهم يتذمرون، وغادرتهم دون أي مكافأة أو وداع ودود، ومشيت حتى القرية بحثاً عن السيد وسيارته، التي لمحتها على عجل تتهادي في الشارع الرئيس، وألفيتها أمام أحد الدكاكين الذي كان بداخله السيد يرد بعصبية على مالكه طلباً لبعض المال على حساب المؤن التي اشتراها

من العصابة. وقلت لصاحب الدكان إنه يستطيع أن يعد أي شيء اشتراه من مؤنتي هدية مجانية له، وعندها اضطر السيد البائس أن يأتي معي منكس الرأس يجر ذيول الخيبة والخجل، وينطلق بي عائداً لبيت الضيافة، حيث لم أهدر الوقت سدىً لأشحن متاعي على السيارة. وفي غضون ذلك قمت بمسح نهائي للمنطقة من منبر المصلى المحلي، أي مصلى العيد، لأصحح الاتجاهات التي أخذتها سابقاً من فوق سقف بيت الضيافة الذي كانت خرسانته المسلحة مليئة بالحديد حتى إن بوصلتي المنشورية أظهرت قراءات مختلفة للعلامة الأرضية نفسها تعبر عن أخطاء محيّرة. وكنت على نحو خاص مهتماً بتحديد الاتجاه الصحيح لجبل دِبَّاغ العظيم حاد القمة متحدر الجنبات، الذي يرتفع من سهل تهامة وراء هضبة الخريطة، ويمتد هذا الجبل تقريباً في اتجاه جنوب - جنوب - غرب تماماً.

وانطلقت مع زعل واثنين من رجال الشرطة المحلية البسطاء اللذين كان أحدهما يعطي انطباعاً بأنه يمكن اعتباره دليلاً، في اتجاهنا نحو الغرب - جنوب - غرب مروراً بنخيل تبوك وعبر السهل الكبير، الذي قطعنا فيه خطوط التصريف المتعددة لشعيب المعيصي ووادي البقار، لنصل إلى حافة التلال في المجموعة الشاهقة لصخور المعيقلية الرملية، من هنا صعدنا برفق على المنحدر الشرقي للجبل بخط تصريف ضحل حتى قمة الجبل الأول، ومنه نزلنا في وادي

الغُوَيْل الفسيح. هذا الوادي استمرار لوادي العويند بعد خروجه من منطقة التلال، التي يتدفق من خلالها ويلتقي بشعيب الفُوهَة القصير. وهذا الشعيب يُصرِّف مياه المنطقة الواقعة مباشرة غرب جبل الفوهة الأسود الطويل من خلال الممر الذي كنا نتجه إليه. وعلى الرغم من وجود ما لا يقل عن ستة خطوط تصريف تقطع مسارنا في قناة الغويل، إلا أن مسيرنا كان طيباً بدرجة كافية، وسرعان ما وصلنا إلى مدخل ممر الفوهة، الذي يبلغ طوله نصف ميل وعرضه ٢٠٠ ياردة، وبه الكثير من الأعشاب والنباتات النامية في الأرض الرملية العميقة.

كنا قد قطعنا من تبوك إلى الجبل الأول المطل على وادي الغويل حوالي اثني عشر ميلاً بدون حوادث، وبعد أن سرنا تسعة أميال جئنا إلى الممر، حيث غرزنا في الحال في الرمل الكثيف، وانتابني شعور بأن السيد، الذي لا يزال يفكر في الثروة التي ضاعت من يده على غير رضاه، قد أوقف الشاحنة عن عمد على مقربة من تبوك، بيد أن الحالة كانت مناسبة لمتطلباتي تماماً، فبعد أن تركت أصحابي يخرجون الشاحنة من الرمل، سرت مع الدليل لتسلق أعلى نقطة في جبل الفوهة عن يسارنا لمسح المنطقة بشكل عام. لقد كان تسلقاً صعباً وقاسياً نسبياً من حوالي ألف قدم فوق الصخور والحجارة المتكسرة من كتل البازلت، ولكن القمة منحتني نظرة رائعة في جميع

الاتجاهات، على الرغم من أننا لم نتمكن من رؤية نخيل تبوك. وكان ستٌ من قمم عَاجَات تبرز في الأفق من الشمال إلى الشمال - الشرقي، وينتصب منبر النبي صلى الله عليه وسلم بروعةٍ فوق مرتفعات شاحورة ذات اللون الأسمر الفاتح مثل منضدة مهولة تقع خلفها وعلى اليمين منها. وعلى مسافة بعيدة إلى الشمال - الغربي ارتفعت تلال أبي البارد والشقيق والفرعون الصغيرة ولكنها بارزة واضحة تبين معالم مسار دربٍ بديلٍ للسيارات من تبوك لضباء عن طريق وادي مدين.

وعلى الرغم من أن الطريق الأكثر استعمالاً يسير بجوار خط السكة الحديدية نحو الشمال ليبتعد عنه ملتفاً حول آثار قريّة، حيث يتجه نحو الممر عند الطرف الشمالي لجبل مدين على طول مسار وادي الأبيض إلا أن هذا الطريق الثاني، الذي يفضله بعض السائقين، يصل إلى ممر الفوهة وينحرف قليلاً بعدها عن دربنا نحن إلى روافة والخريطة ليدخل الحوض الكبير عند نقع بني مُر حيث يتجه شمالاً ليلتقي بالطريق الآخر في وادي الأبيض. وقدّر لنا أن نرى جزءاً عظيماً من هذه المنطقة بعد فترة وجيزة، مع كثير من العمل المثمر في نقوشها العديدة، وكانت صحراء الحرّة تمتد بعيداً عنا نحو الجنوب مع وضوح رؤية بعضٍ من براكينها العالية في الجنوب - الشرقي، ومنها وتر ونُوف ونويفان وغيرها. وقد تجوّل داوتي على

نطاق واسع في هذه الصحاري المقفرة، وقام موسل برحلة عبر وسطها، ولكنني لم أتمكن أبداً من اجتياز حوافها، على الرغم من أنني قمت فعلاً بدورة كاملة على المنطقة كلها، ملامساً حوافها في نقاط كثيرة لم يرها من سبقوني.

وبتناول الشاي والتبغ لإدخال السرور على أنفسنا، قضيت أنا وزعل ساعة سعيدة على القمة قبل أن ننزل إلى الممر لنجد بقية الجماعة ما زالوا مشغولين في الشاحنة. لقد كانت التربة الرملية مغطاة بكثرة بشجيرات الغضا والرمث في حين كانت أزهار الربيع بادية في الظهور نتيجة السيول الأخيرة، ومنها أزهار بنفسجية صغيرة لنبات يسمى تربة والحمبسيس، وهو نبات متسلق صالح للأكل ويشيع وجوده في كافة المناطق الرملية، وقد انقضت ساعة تقريباً قبل أن تكون الشاحنة مستعدة للتحرك عبر الممر، وفور وصولنا إلى الوادي المفتوح بعده توقفنا بسبب عطل ميكانيكي. وهذه المرة كنت مقتنعاً بأن السيد كان يتمارض أملاً في إجبارنا على العودة إلى تبوك، ولم يكن عندي أي نية في إقرار هذا الرأي وتأييده على الرغم من تنامي إجماع الآراء على أننا سوف نجابه مشاكل ومتاعب بمحاولتنا التقدم للأمام، وقلت لهم إنني مستعد لقضاء الليلة حيثما كنا، وفي تلك الحالة سوف يضطر أحد رفاقنا إلى أن يمشي حتى تبوك لإحضار ميكانيكي كفء ليعالج مشاكلنا، وأردفت

قائلاً (بغير صدق تماماً): إنني لاحظت وجود خيام أعراب أمامنا على بُعد مسافة ما، ومنها، كما قلت لهم: إذا استطعنا أن نصلها قبل حلول الظلام، يمكن أن نرسل رسولاً إلى تبوك على ظهر جمل لطلب المساعدة، وعلى أي حال، كما أوضحت لهم، إذا لم تتمكن الشاحنة من الوصول إلى مخيم الأعراب، فمن باب أولى أنها لن تستطيع أن تصل إلى تبوك، وبالتالي ربما يضطرون لإعداد العشاء أيضاً. وفي غضون ذلك كنت أتجول بين الصخور المجاورة بحثاً عن النقوش، ولكن لم أحقق سوى نجاحٍ متوسطٍ، وسجلت الاتجاهات والتقطت الصور الشمسية، حتى أظهر لأصحابي أنني لست في عجلةٍ من أمري.

وفي النهاية اضطرّ الجبل أن يأتي لمحمد صلى الله عليه وسلم، وبعد فترة راحة حوالي ساعتين ونصف، تم علاج العطل الميكانيكي في الشاحنة بمعجزة، واستأنفنا سيرنا في الوادي بلا انقطاع حوالي عشرين ميلاً حتى مجمع للأمطار، الذي وصلناه قبل الغروب بقليل، لنضرب خيامنا قرب جبل الرضى الذي وجدت على صخوره المتناثرة في الخارج عدداً من النقوش، بينما كانت قمته تبشر ببداية طيبة في الغد بما توفره من نظرة رائعة على المنطقة كلها أمامنا وخلفنا. وفي غضون ذلك، وبعد أن سلكنا طريقاً صغيراً غرب ممر الفوهة كنا قد ابتعدنا عن الطريق الثاني إلى مدين لنصعد إلى أرض

فضاء رملية واسعة، مغطاة بكثافة بالنباتات الصحراوية عقب أمطار الخريف (الوسمي)، ويحدها على كلا الجانبين سلسلة متقطعة، مسننة وغير منتظمة لجبال الزور. وكان هذا الممر لا يزال جزءاً من شبكة تصريف الفوهة التي تمر من خلال وادي الغويل وينحرف مبتعداً عن مسارنا للخارج حتى يصل إلى السكة الحديد بجوار محطة الحزم. وفي مساره كان يلتقي على أحد الجوانب بوادي العويند، الذي ذكرناه من قبل، وعلى الجانب الآخر بشعيب صقاعة الذي يفصل جبلاً شاهقاً يحمل الاسم نفسه عن جبل الفوهة من جنوبه. وكان وادي الزور، كلما ارتفع برفقٍ أمامنا، يتسع بين جبال الجداوية وبرقة عيد عن يميننا ويسارنا على التوالي، إلى أن أصبح مرجاً هائلاً من المراعي المزدهرة الممتدة باتجاه الغرب حتى الحافة البعيدة لهضبة الخريطة وكان جبل الرضى يشكل خطاً فاصلاً بين هذا السهل العظيم والقاع الواسع لأرض مراعٍ طيبة تعرف باسم الزاوية (أي المثلث) بينه وبين حافة منطقة بركانية، ويصل أيضاً إلى الهضبة المجاورة لمر الخريطة.

ولم نجد أي صعوبة في العثور على مأوى مريح لقضاء الليل في رقعة غنية بالنباتات والأعشاب منحرفة عن وادٍ رملي منحدر من الجبل، يسمى شعيب أم صورة. ومرة أخرى رضيت بالعثور على بعض النقوش على نتوءات من الحجر الرملي المتناثرة حولنا، بينما،

في بقعة من الطِّفَال الرملي الناعم قرب مخيمنا، وجدت علامة مثيرة للفضول على الأرض لم أستطع أن أخمن أهميتها. فمن قاعدة غير منتظمة، طولها ٢٤ قدماً، يخرج ثلاثة خطوط من كلا الجانبين ومن الوسط وتلتقي عند رأس مستديرة حيث تنضم إليها دائرة أخرى لتشكل رقم ثمانية باللغة الإنجليزية. وكان الطول من القاعدة للرأس يبلغ ٣٥ قدماً.

ربما يكون هذا الشكل ذا مغزى صوفي غامض، أو قد يكون محاولة من أحد البدو لرسم خريطة تبين القاع المثلث أمامنا، مع روافده المكونة له أو حدوده. ومن الطريف بدرجة كافية أن أحداً لم يعرب عن أي دهشة أو استغراب من عدم مصادفتنا لخيام الأعراب التي رأيتها (كما قلت لهم فعلاً) من قمة الفوهة، ومن عشاء دسم طيب (حيث كنا قد أحضرنا لحماً معنا)، جاءنا السيد سيء الحظ الذي كان حقيقة نادماً بشدة على فشله في تحصيل نصيبه من المسروقات التي اشترك فيها مع رفاقنا السابقين، جاء لتبادل بعض المزاح الودي ليخفف عن خيبة أمله، وحيث إنه أدرك الآن أن الغنيمة من البضائع المسروقة قد ولت إلى غير رجعة، وأن رفاقه المتآمرين من المستبعد أن يعترفوا بحقوق صاحبهم الغائب، فقد بدأ يحوّل جام غضبه مني إليهم، ولم أهدر هذه الفرصة الثمينة في الإعراب عن رأيي في الاستغلال الفاضح للثقة التي كان يوليها لهم

كلهم أمير المدينة. وفي ذات الوقت حذرت مجموعتي الجديدة من تكرار مثل هذه الحوادث خلال ما تبقى من رحلتي، والتي إن حدثت سوف أحمّل زعلاً مسؤولية التأكد من أن المؤن التي سوف نستلمها في تبوك تستخدم بصورة حصرية لاحتياجات البعثة، وعلى الخدمة بأمانة وإخلاص سوف يتوقف منح الهبة أو الجائزة التي سوف أوزعها في النهاية على من يستحق.

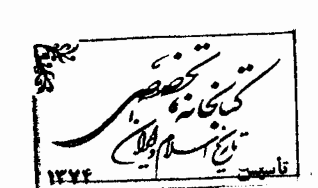
وأدرك السيد، على وجه الخصوص، أنه قد ينقذ بعد كل ما جرى شيئاً من آماله القديمة المهدرة، وشيئاً فشيئاً خلال الأيام القليلة التالية باح لي بالقصة الكاملة في محاولة حثيثة لإعادة اكتساب ثقتي وتحسين رأيي فيه. ومن البديهي أن يلقي باللوم على محمد العريفي وإبراهيم ابن عمه، وعلى عبد الله، الذي تخلف عنا في تيماء، متظاهراً بمرافقة الميكانيكي، ولكن في الحقيقة ليجمع المبالغ غير المدفوعة والتي ما زالت مستحقة عن البضائع المسروقة التي تم بيعها، وقد اعترف السيد عن طيب خاطر بتآمره، ولولاه ما كان لهذه المؤامرة أن تنجح، وقال إنه في خيبر، وتيماء، وتبوك قد باعت العصابةُ للتجار المحليين خمسةَ أكياس من الرز، كل كيس منها يساوي ١٤٠ ريالاً، وكيساً واحداً من الدقيق بمبلغ ١٠٠ ريال، وصفيحة واحدة سعة أربعة جالونات من السمن (غي)، وكيساً واحداً من السكر، و ١٥٠ علبة من المربى والفواكه، وعدداً غير

محدد من جوالي الوقود والكيروسين، وبالنسبة لهذا البند الأخير اكتشفوا أن السعر المعروض عليهم في تبوك لم يكن مجزياً بسبب الاختلاس بكثرة من مخزون الحكومة، وقرروا أن يأخذوا ما لدينا معهم للحصول على سعر أفضل في العلا أو تيماء في أثناء رحلة عودتهم. وقد قدرت أن إجمالي عوائد سرقتهم هذه يصل إلى ما بين ٢٠٠ و ٣٠٠ جنيه استرليني. وفي الوقت المناسب بلّغت هذه التفاصيل لعبد الله السديري، الذي لم يصدم كثيراً من تصرف خدمه وأتباعه مثلما كنت أتوقع منه، وكان من الواضح أن هذا سلوك طبيعي لمثل هؤلاء البشر في مثل هذه الظروف، الجميع يعرف ذلك كله.

وكنا هنا على نفس ارتفاع قمة الفوهة تقريباً، ربما ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، والمتراس (الجدار) القصير الموضوع على قمة جبل الرضى، الذي زرته في الصباح، كان فوق مخيمنا بحوالي ٣٠٠ قدم. ومنه ألقينا نظرة فاحصة رائعة، ورأينا لأول مرة السلسلة الكاملة لجبال تهامة من قباب وأوتاد شار قرب ضباء باتجاه جنوب - غرب، حتى اللوز والعماليق الشاهقة الأخرى في مدين نفسها نحو الشمال - الغربي. وكانت القمم الأكثر ظهوراً بين القمم القريبة تشمل كلاً من دِبَّاغ (التي رأيناها من قبل في تبوك) وحرب، والتي تقف كحارس على جانبي وادي الصدر الواسع، الذي يتجه إلى

الجانب البعيد من ممر الخريطة ويتسع لدرب سيارات جيد نسبياً حتى البحر وبالتالي حتى ضباء، وصرنا الآن على درب تبوك - الخريطة للسيارات، بيد أن الممر نفسه غير صالح للعربات، وهذا يمثل بالتالي ثغرة قدرها حوالي ميل واحد أو أكثر في الخط المرغوب للاتصالات بين تبوك والساحل، والذي سوف يلغي طريق مدين الفرعي الطويل الملتوي، كما يقلل المسافة من تبوك إلى ضباء بحوالي الثلثين، وقد قام خبراء أمريكان من منظمة النقطة الرابعة (Point Four) ومن منظمات أخرى في مناسبات عديدة بزيارة الممر من كلا الجانبين، بتأييد وتشجيع كامل من خالد السديري لحل مشكلة الثغرة، وهي مسألة بسيطة نسبياً، على أنه حتى الآن حفظت تقاريرهم في وزارة المالية لتوفير الأموال اللازمة لاستخدامات أقل أهمية.

ويقع الممر على بعد حوالي خمسة وعشرين ميلاً جنوب - جنوب - الشرق منا على طول قاعدة حوض حفرة الزاوية الذي تتناثر فيه أقماع بركانية ونتوءات من الحجر الرملي. ومن أكثر العلامات ظهوراً في الحوض وبعيداً عن خط الحرة هي البتراء، وبالقرب منها النقطتان الصغيرتان للرخيمتين بينما كان جبل المكيمن في منتصف المسافة إلى المنخفض، يشكل كتلة هائلة من الحجر الرملي، وقد اشتهر في العصور الماضية بالفوضى القبلية بسبب أنشطة قطّاع الطرق الذين كانوا ينصبون الكمائن في الكهوف



وطيات الجبل لينقضوا على قوافل التجارة المسافرة بين تبوك والساحل. وهناك كتل وجبال أخرى من الحجر الرملي تتناثر في الأفق في كل اتجاه في أشكال رائعة، وسوف نقوم بزيارة بعضاً منها بحثاً عن النقوش في رحلة عودتنا. ويجدر أن نذكر أن ممر الفوهة، الذي كنا لا نزال نراه وراءنا، كان في العهود الغابرة مسرحاً لمعركة شهيرة بين قبيلة بني عطية الشهيرة في موطنها وقبيلة الشرارات المتمردة من الشمال، وقد أوضحَ لي زعل القبورَ التي دفن فيها الموتى في هذه المعركة وتلاً صغيراً آخر يبين الموقع الذي قتل فيه جمل مشهور لإحدى القبيلتين.

وأمامنا كان ممر الخريطة يتصل بمنطقة الحرّة الرئيسة بلسان طويل رفيع من الحمم البركانية يسمى القارة في حين كانت تمتد من الممر باتجاه الشمال سلسلة الجبال الحقيقية من البازلت والجرانيت، وتخترقها على مسافات متقطعة ممرات ضيقة صالحة لسير الإبل وتؤدي إلى سهل تهامة وأوديته.

وقد جاء موسل حتى الهضبة من خلال ممر السِّيق الضيق الصعب، إلى الغرب تماماً تقريباً من الرضى، بينما نجد جبلي الشقرى والشاطي على جانبي فتحته التي يستحيل تقريباً اجتيازها، وقد جاء بيرتون أيضاً من البحر، ووصل إلى ممر الخريطة، على الرغم من أنه لم يستطع أن يتقدم أكثر من ذلك في منطقة بني عطية.

وقد ذكرت من قبل من سبقوني من الأمريكان، ولكن بدون أسماء للأسف بسبب صمتهم عن اكتشافاتهم.

ولم نكد نتقدم ميلين حتى انغرزت الشاحنة بصورة عميقة وحقيقية في الرمال الغائرة للكثبان المنخفضة المتحركة عند رأس منخفض الزاوية، وقد تجولت في المراعي الغنية، التي تنتشر فيها بصورة كثيفة أشجار العرفج في هذه المنطقة المرتفعة، بينما كان رفاقي يعانون في إخراج الشاحنة من الرمال.

وبعد حوالي أربعين دقيقة كنا قد استأنفنا سيرنا مرة أخرى، وقطعنا شوطاً طيباً في المسير نحو جبل المكيمن الذي كان ينتشر في المنطقة المجاورة له عدد ضخم من الأحواض الصخرية ذات الأحجام المختلفة، التي كسحت الرياح الرمل من على سطحها.

وبعد حوالي عشرة أميال وصلنا إلى قمة جبل منخفض ووعر من الحجر الرملي يمثل امتداداً لقاعدة المكيمن باتجاه الشرق، ويشرف على قناتي وادي الأبيضات ووادي رَتَمَة حيث ينحدران من الحرّة ليقطعا سهل المراعي باتجاه الشمال - الغربي نحو ثغرة الشقرى التي يتدفق من خلالها تصريف مياه هذه المنطقة كلها من حدود الحرّة عبر سلسلة الهضاب حتى تهامة، ويتقابل الفرعان قرب جبل العصيا الجرفي، حيث يلتقيان أيضاً بقنوات هامة أخرى من المنطقة

البركانية، حاملة معها المياه المتدفقة من ستة جداول أصغر منها قادمة من منطقة روافة والمنحدر الشرقي لسلسلة الهضاب، وهي ديثان والخور والعلاليق والرويان.

وبعد أن عبرنا فرع أو جداول رَتَمَة بدأنا ننحرف باتجاه الشرق من منطقة الخريطة وتركنا الممر بمسافة ليست ببعيدة إلى الغرب قليلاً من الجنوب.

وصرنا الآن نطأ أرضاً لم تمر بها عجلات سيارات أبداً من قبل، وعند مسافة ما في قناة رَتَمَة في النقطة التي تخرج عندها من الحرّة أشار زعل إلى مكان بئر الخمبارة وهي بئر غير جديرة بالذكر بدرجة كافية ولكن قدر لها أن تكون مسرحاً لكارثة غريبة ومثيرة، حكيت لي في زيارتي الثانية لهذه الأصقاع بعد ذلك بسنتين. فلسببٍ ما كانت مياه هذه البئر قد شحت وضعفت وتطوع رجل من بني عطية ونزل من فوهة البئر ليرى سبب المشكلة، بيد أنه لم يرجع أبداً، وجاء أخوه، عند سماعه النبأ، بسرعة بالغة لإنقاذه، ونزل أيضاً من فوهة البئر ولم يرجع أبداً، وتم استدعاء القبيلة إلى مكان هذه المأساة المزدوجة التي ليس لها من تفسير لتنظر في الأمر، وأصر والد الشابين على النزول ليتأكد من مصير ولديه، وبصعوبة بالغة منعه من النزول رجال قبيلته الذين يؤمنون بالخرافات والخزعبلات، والذين كانوا الآن مقتنعين تماماً بأن نضوب البئر واختفاء الرجلين إنما يعود

ذلك إلى سببٍ ما فوق الطبيعة وقد يكون من التهور بل وحتى من عدم التقوى أن يبحثوا عن ذلك السبب. وقد تم رفع الأمر فوراً إلى خالد السديري، الذي زار الموقع وأمر بردم البئر بالصخور والحصى، وعدم إعادة فتحها أبداً بعد ذلك، وظل اللغز بلا حل، والتفسير الوحيد الذي يحضرني هو أنه ربما أدى بعض النشاط في طبقات الأرض التحتية بهذه المنطقة البركانية التي طال خمودها إلى هبوط الطبقة الحاملة للمياه وامتلاء قاع البئر بغازات سامة من الأسفل. ومن المثير للشفقة أن فرصة البحث العلمي للكارثة قد ضاعت بسبب الخوف أو الرعب، أو ربما من غياب الميل للمعرفة والاطلاع أصلاً.

وفي أثناء سيرنا باتجاه الشرق بين غزارة المراعي الغنية في واد واسع بين الحرّة بحوالي ميل عن يسارنا واللسان الخارجي للحمم البركانية على طول حافة الهضبة، وعلى بعد المسافة نفسها تقريباً، اضطربت الشاحنة وأصدرت صوتا كالسعال وتوقفت مرة أخرى، بيد أننا سرعان ما استأنفا سيرنا متقدمين نحو الأمام مرة أخرى باتجاه المدخلين الرائعين لمنطقة روافة، وهما جبلان شاهقان من الصخور الرملية الحمراء الداكنة، ذات أجراف عمودية شديدة الانحدار تواجه بعضها البعض عبر مضيق اتساعه ١٠٠ ياردة، والذي تمر من خلاله قناة ديثان لتلتقي بشبكة الأبيض المذكورة آنفاً. ولم يكن ذاك

إلا أحد المداخل لروافة، حسبما اكتشفت فيما بعد، ولكنه كان بالتأكيد أكثرها إثارة للإعجاب بألوان صخوره التي لا تقل عن أي شيء في البتراء، على الرغم من أنه من المحتمل أن يكون غياب أي مصدر من مصادر المياه الدائمة هو الذي منع الأنباط من ممارسة عبقريتهم المعمارية على هذه الأجراف والكتل الرائعة.

وقد مررنا عبر مضيق ضُيَيْقات الفَهْديَة الذي يبلغ طوله مئات قليلة فقط من الياردات، إلى واد واسع وفير النباتات يسمى شعيب ديثان الذي ينحدر من بين جبال الحمم البركانية التي تكسو قواعد الصخور الرملية متعددة الألوان، وقد انغرزت الشاحنة مرة أخرى في الرمل الغائر، وفي لحظات تزداد فيها لهفتي كلما اقتربنا من هدفنا، ومشيت أعلى الوادي مع زعل، الذي بدا الآن غامضاً بعض الشيء في تحديد الموقع الدقيق للمعبد.

لقد مشينا معاً لساعة ونصف الساعة، قطعنا خلالها ما يقرب من ثلاثة أميال في أرض وعرة من الرمل والشجيرات (الروثة والرتم التي أعرفها جيداً في البتراء)، عندما أدركتنا الشاحنة. وبحلول هذا الوقت استدرنا لليمين في أرض فسيحة وسط الجبل على تلك الناحية، وسرعان ما كنا في وادي شعيب الهواتف الموازي له، والذي سرنا فيه حتى اعترف زعل بأنه لم يعد يعرف الاتجاهات. والآن استدرنا لننزل في الوادي مرة أخرى، ولم يمض وقت طويل

حتى رأينا المبنى الذي جئنا لزيارته، وكان ظله يمتد على كتلة كبيرة من الحجر الرملي الأصفر قائمة على قاعدة محمرّة اللون قليلاً. لقد وصلنا إلى روافة ليس بدون متاعب تماماً، ويمتد أمامنا احتمال الإقامة المؤقتة لأجل غير مسمى تقريباً.

لقد كان من الواضح الآن أن الشاحنة في حالة سيئة، وكان أسفي الوحيد ينبع من أنني مجبر على التضحية ببطارية المذياع حتى نصل إلى هدفنا، لأن جهود السيد لتعطيل السيارة وإيقافها عن عمدٍ وأعماله الشاقة بعد ذلك لإخراجها من الحفر التي حفرها لي قد أدت في النهاية إلى احتراق المولّد الكهربائي تماماً مثلما حدث لنا في مضيق ضييقات الفهدية، وإلى هذه النقطة كنا قد قطعنا حوالي ثمانية وثلاثين ميلاً منذ انطلاقنا من مخيمنا بجوار جبل الرضى ومن هناك حتى المعبد لابد أننا قد مشينا وسرنا بالسيارة ستة أو سبعة أميال على الأقل، على الرغم من أن المسافة الحقيقية قد لا تكون أكثر من أربعة أميال. وهكذا، فالمسافة بين تبوك وروافة على خط سيرنا تبلغ ثلاثة وثمانين ميلاً تقريباً.

ولم نصل إلا في وقت متأخر من الأصيل حتى إننا لم نستطع القيام بأكثر من فحص سريع ومتعجل للآثار، قبل أن نستقر في المخيم لننظر في مختلف المشاكل العملية التي تواجهنا. لقد كان زعل ورفيقاه الاثنان -بصورة عامة- متعاونين ومقنعين كأدلاء، بيد

أنه كـان مـن الـواضح أنـهـمـا لا يـرتقـيـان إلى المســتــوى المطلوب لاستكشاف هذه البقعة المثيرة كثيراً للاهتمام، من الحجر الرملي والحمم البركانية المتشابكة، والتي تشكل انتقالاً من المنطقة البركانية في الجنوب حرّة الرحى إلى حسمى الصافية في الشمال.

هذه المشكلة حلت نفسها ببساطة كافية عند وصول بعض الرعاة المحليين، يحدوهم نحونا مشهد ورائحة عشائنا عن قريب، وسرعان ما اتفقت معهم على خدمات أحدهم وهو سعيد بن سلامة من بني عطية، والذي كان معسكره في المنطقة المجاورة لنا. وقد ثبت أن معرفته بالبقعة من الحرة باتجاه الغرب حتى الهضبة كانت مرضية بدرجة كافية، على الرغم من أنه فيما وراء الأخيرة كانت معرفته بتهامة منعدمة تقريباً، وقد برر ذلك -حسب ما قال لي- بأنها ليست منطقة بني عطية، وبالتالي ليست ذات بال أو أهمية !! ولقد قدر لي أن أكتشف كثيراً من الأهمية لها بعد ذلك في المنطقة التي يتقاسمها بلي (أو بالي) والحويطات.

كما كان سعيد أيضاً يعيبه نسبياً عدم قدرته على تمييز قمم الحرّة الأشد بعداً. لقد رأى البقر الوحشي في وادي الأبيض قبل عامين (١٩٤٩) ولكنه فشل في اقتناص ولو واحدة فقط منها، ويبدو أن هذه كانت آخر رؤية معروفة لهذا الحيوان في شمال الجزيرة العربية. وكان همنا الثاني أن نبلّغ موقفنا للسلطات في تبوك، وبحلول وقت العشاء

في يومنا الثاني كان سعيد قد قدّم لنا أحد أفراد قبيلته ومعه ذلول، لينطلق مبكراً في الصباح التالي ومعه خطاب إلى علي ثروت، طلبت منه فيه أن يرسل لنا شاحنة أخرى وبطارية، وحيث إنه سيمضي وقت حتى أتوقع وصول إغاثة، فقد عزمنا على الاستقرار خلال هذه المدة ونصب خيامنا للوقاية من الطقس؛ لقد كان من الواضح أن الجو هنا أبرد مما هو في منطقة تبوك، حيث كانت درجات الحرارة الدنيا وفي الصباح تبلغ نقطة التجمد وأحياناً تنخفض عنها كثيراً، وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في ليلتنا الأولى قد وصل إلى ٢٥٫٥ درجة فهرنهايت، والماء في قربنا وصفائحنا قد تجمد بقسوة، بينما كانت الأرض مغطاة بطبقة كثيفة من الصقيع الأشهب حتى طلعت الشمس وبددّتها، وحدث الشيء نفسه في الليلة التالية، وبعد فترة وجيزة من الليل الأدفأ قليلاً (درجة أو درجتين فوق نقطة التجمد) لم يسجل مقياس الحرارة معي (ثرمومتر) إلا ٢٠٫٥ درجة فهرنهايت في آخر ليلة لنا في روافة (٢٥ يناير).

إن سبب وجود المعبد في هذه البقعة من الواضح أنه يعود لوجود -على بعد مئات قليلة من الياردات- ينبوع مياه (مشاش) في كهف صغير يتدلى فوقه نتوء ضخم من الجناح الصخري في الجهة اليمنى لوادي هواتف الذي يصبح اسمه الخور بعد مسافة للأسفل ويلتقي بوادي الديثان بعد خروج هذا الأخير من مضيق ضييقات، وهو في

طريقه للالتحاق بشبكة أودية الأبيض ويمتد هذا النتوء كثيراً جداً للخارج حتى إن داخل الكهف لا يرى الشمس إلا مدة وجيزة في حوالي منتصف الصيف، وعند ذلك تجف البرك الخارجة من النبع على الأرض الرملية في الكهف، وفي جميع الأوقات الأخرى يقال إن إمداد المياه دائم لا ينقطع، وكان هناك الكثير من البراهين على أهميتها وقيمتها للرعاة العرب الذين لا يتجشمون أي عناء في المحافظة على المكان نظيفاً.

إن البرك نفسها قذرة ويطفو على سطحها الروث ومادة رغوية ضمن مواد أخرى، بيد أن الماء عذب وصالح للشرب، وعلى وجه الشرفة الخارجية الفارغة العالية قرب قبة الصخر كان يوجد نقش ثمودي طويل نسبياً والذي نجحت في استنساخه بالاستعانة بمنظاري حيث إن الشرفة نفسها كان الوصولُ إليها غير ممكنٍ على ما يبدو. وهذه البرك كانت مغطاة بطبقة رقيقة من الثلج خلال الليالي الباردة. إن البدو بالتأكيد يعلمون الكثير عن مصادر المياه الأخرى في تجاويف الحرة النائية (مثل بئر الخمبارة على سبيل المثال)، بيد أن ينبوع المشاش كان الوحيد الذي يسهل الوصول إليه للرحلات والنزهة الخلوية أو لجماعات الصيد والقنص من عليّة القوم قديماً في تبوك، الذين كانوا -بلا ريب- يعيشون في الخيام خلال نزهاتهم الخلوية في الربيع.

لقد تأثر هؤلاء القوم، على كل حال، بدرجة كافية بسحر المكان حتى إنهم أقاموا علامات تذكارية دائمة لزياراتهم في مبنى لا يزال اسمه وغرضه باقيين، وذلك بالصدفة الحسنة بوجود بعض النقوش الإغريقية والنبطية التي اكتشفت حتى الآن بين الأنقاض. ولم يكن هناك من شك في أن هذا المبنى كان معبداً حيث يوجد نقش يوناني قصير يشير إلى بناء هذا المعبد في أرض "روباثوي" Robathoi وهي ترجمة حرفية تقريباً لكلمة روافة؛ فالحرف اليوناني باء (b) يقابله الفاء الثقيلة (V واو، W، بالعربية)، ولذلك قيمة صوتية بينما التقابل بين الفا (f) والثاء (th) والذي قد طعن فيه البعض يبدو مؤكداً من الحقيقة المجردة أن اسمي يكتب وينطق بالثاء بين أصدقائي شبه الأميين في الجزيرة العربية.

وتوحي حالة المبنى المتهدم جزئياً بأنه ربما كان ضحية لزلزال، لا يذكره أحد في التراث المحلي، بينما يظل معظم المبنى في حالة طيبة من المحافظة والصيانة، وتاريخ إنشائه مؤكد تقريباً بنقشٍ رائع بلغتين (يونانية ونبطية)، وهو يشكل على ما يبدو جزءاً من إفريز واجهة المعبد، وقد اكتشفه ألويس موسل عام ١٩١٠م. ولم أجابه أي صعوبة في العثور عليه بين الأنقاض المتراكمة، وقمت -طبعاً- باستنساخه بحرصٍ شديد، علاوة على أنني أخذت نسخاً له، لأن النسخة التي كتبها موسل يبدو أنها اختفت في أثناء ما تعرض له من

معاملة فظة في معسكر بني عطية، التي أشرنا إليها آنفاً. ويذكر النص أسماء ماركوس آورليوس أنطونيوس ولوكيوس فيروس على أنهما هما الأميران اللذان بُني المعبد على شرفهما وأهدي لهما. وكان الأول قد خلف أنطونيوس بيوس على عرش الإمبراطورية الرومانية في عام ١٦١م، في حين تقاسم الأخير المقام السامي مع كل من أغسطس وبرنسبس من السنة نفسها.

وقد مات لوكيوس فيروس بعد ذلك بثمانية أعوام وهو في طريق عودته إلى روما من حملة إلى بلدان الدانوب، حيث كان هو القائد الروماني في سوريا عام ١٦٢م لصد الغزو البارثي (Pharthian) في ذلك العهد. وكان انتصار الفيالق الرومانية قد أكسبه لقب "بارثيكوس ماكسيموس"، ولا بد من أنه في هذا الوقت قد بلغت شهرته أوجها في الشرق الأوسط، وفي ذلك الوقت كانت مملكة الأنباط القديمة من مقاطعات الإمبراطورية الرومانية لما يزيد عن خمسين عاماً، ويبدو أن رعايا الإمبراطور من الأنباط وحاشيته قد احتفلوا بالانتصار على البارثيين (Parthian)، هذا النصر الذي يهم شعب سوريا مثلما يهم حكامه الرومانيين، بإنشاء هذا المعبد للديانة الإمبراطورية في عام ١٦٥ ميلادي أو قريباً من ذلك. وقد ناقشنا من قبل نقشاً ثانياً باللغة اليونانية، كما أن هناك نقشاً ثالثاً باللغة النبطية ولكنه أقل أهمية وإفادة، ونقشاً رابعاً باللغة اليونانية يذكر كلاديوس

مودستوس الذي عرّفه السيد / هنري سيرج من المعهد الفرنسي في بيروت بأنه الجنرال الروماني الذي حكم مقاطعة الجزيرة العربية من مقر قيادته في بصرى بجبل الدروز. ولا بد أن هناك الكثير من النصوص يمكن اكتشافها بين الأنقاض المتناثرة للمعبد، ولكننا لا نملك الوقت ولا العمال المختصين لتحريك وقلب ما ليس بالقليل من قطع الصخور الثقيلة المترامية بالموقع.

ويتكون المعبد من مربع ضلعه ثلاثون قدماً، وجداره الغربي يبدو سليماً وبه خمسة عشر مدماكاً من البناء المشذب تشذيباً حسناً، والمشيّد بدون أي نوعٍ من الملاط أو الإسمنت، ونصف الجدار الشمالي المرتبط بالجدار السابق سليم أيضاً بنفس الارتفاع، بيد أن باقي الجدار الخارجي في جهتين ونصف جهة في أوضاع متفاوتة من الانهيار والدمار، ولا يبدو منه إلا مداميك قليلة تظهر هنا وهناك، حيث قام البدو بانتزاع أحجار البناء لتزيين وزخرفة القبور الحديثة نسبياً في المقبرة المجاورة.

وعلى مسافة ليست ببعيدة إلى الشمال تظهر بوضوح قواعد مبنى أصغر منه، ربما أكثر حداثة من المعبد نفسه وربما شيد بمواد مأخوذة منه أيضاً، ولكن لم يبقَ أي شيء من جدرانه إن كانت له أيٍ جدران، وأعتقد أن هذا السور الحجري ربما كان ذات يوم خزاناً لحفظ مياه السيول، وقد كان مملوءاً بالرمل والطين. وكانت مقاساته

حوالي ١٥ × ١٢ قدماً. وكل هذه الأحجار في البناء قد جلبت من محجر للصخور الرملية خلف الأجراف التي تطوق كهف مشاش في حين وجدت هنا وهناك في وادي الهواتف الواسع آثار للزراعة، حيث توجد رقع واسعة نسبياً معدة لزراعة محاصيل القمح والشعير اعتماداً على السيول الناتجة من أمطار الخريف أو ما بعده. وكانت الأسوار الضئيلة من الشجيرات تحيط بهذه الأحواض الزراعية بل كانت أيضاً بمثابة حواجز مؤقتة لتأخير مرور مياه السيول.

وكان اتجاه المعبد تقريباً شرق - غرب وله مدخل واحد يتجه قليلاً للجنوب من الشرق (١٠٤ درجات)، بينما كان الجداران الشرقي والغربي يتجهان ١٧ درجة للشرق من الشمال حتى ١٧ درجة غرباً من الجنوب، ويبلغ سمك الجدران الباقية ٧٨ سنتمتراً، وتشكل خطاً خارجياً من الطوب المشذب تشذيباً تاماً في الخارج وغير مشذب على الإطلاق في الداخل، ويلتقي في أحد جانبيه بجدار داخلي من أحجار غير مشذبة من أحجام مختلفة. وهناك شق على طول الجدار الغربي كله وهو سليم فيما عدا ذلك مما يؤيد بالتأكيد فكرة الدمار الذي سببه الزلزال، على الرغم من أنه يحتمل أيضاً أن يكون هذا الانهيار قد نشأ من جراء فيضان كامل غير عادي خاصة وأن المبنى يقع عند حافة وادٍ منبسط بشكلٍ أو بآخر. وفي الركن الشمالي - الغربي من المبنى تقع غرفة ذات شكلٍ غير منسق تبلغ

أبعادها ١٤ × ١٢٫٥ قدماً ونصف القدم تقريباً ويحيط بها من الخارج الجزء المتبقي من الجدار الشمالي والقسم المجاور له من الجدار الغربي. والجدران الأخرى مهدمة تماماً وكل ما بدا مؤكداً هو أن أرضية الغرفة كانت ترتفع بحوالي أربعة أقدام عن مستوى الأرض في فناء المعبد. وكانت حجارة البناء المتهدمة قد حولت الغرفة إلى كتلة صلدة من الركام والأنقاض، وكان من المستحيل معرفة أو جس ما بداخلها.

وقد اعتقد أنه من الممكن، في الحقيقة، أن تكون قد استخدمت في العصور الحديثة كقبر، مع وضع الأحجار الثقيلة فوقه لمنع الضباع أو البشر من انتهاك حرمته. ويبلغ طول الجزء السليم من الجدار الشمالي ١٢٫٥ قدماً ونصف القدم، وبعد ذلك يمتد خمسة أقدام أخرى في حالة متهدمة. وعلى الجانب المقابل كان الجدار الجنوبي مهدماً حوالي عشرة أقدام من عند التقائه بالجدار الغربي، وبعد ذلك لا يمكن تمييزه في وسط امتداد الأنقاض. ويوجد مدخل المعبد، على الجهة الشرقية، ويحفه على الجانبين الشمالي والجنوبي ثلاثة أو أربعة مداميك على التوالي من الأحجار الضخمة، والمشذبة تشذيباً جيد جداً.

أما الركن الجنوبي - الغربي من الداخل فيبدو أيضاً أنه كان به غرفة في المستوى نفسه لتلك التي وُجدت في الزاوية الشمالية -

الغربية، على الرغم من أنه لا يوجد منها إلا الأساسات كدليل على وجودها.

كذلك لم يبق أي دليل على وجود سقف فوق هاتين الغرفتين، ولكن يبدو أنه عند دخول المحراب من مدخله الشرقي، فإن المصلين المحتملين الذين يعبدون قيصر سوف يجدون أنفسهم في ساحة فناء مفتوح، أمام منصة تشغل النصف الغربي من المعبد، وتنقسم إلى قسمين اثنين، تفصل بينهما مساحة ضيقة، وربما كان كل قسم منهما مخصصاً لأحد الزوجين الإمبراطوريين المقدسين، وكان ارتفاع الجدار الغربي السليم يبلغ ٣٨٢ سنتيمتراً، ويقوم على قاعدة مربعة طبيعية من الحجر الرملي سمكها ١٢ سنتيمتراً، والتي تبرز بخطوات قليلة من البناء في الجهة الشمالية.

وربما تكون محاور الشرق والغرب من المبنى أطول بأقدام قليلة عن جهتيه الشمالية والجنوبية، وهذا ما يعطي شكلاً مستطيلاً بدلاً من مربع حقيقي كامل التربيع. وبين الأنقاض المتهدمة رأيت قاعدة عمود مربعة (ربما كان الهدف منها أن تكون تاجاً للعمود) وبها ثقب في وسطها قطره ٣٢٫٥ سنتيمتراً ونصف السنتيمتر يخترقها من أعلاها إلى أسفلها في مربع داخلي غائر نحو ٤٧٫٥ سنتيمتراً ونصف السنتيمتر. وكانت أبعاد الكتلة الحجرية كلها ٧٨ سنتيمتراً مربعاً وعمقها ٢٠ سنتيمتراً. ولم أر أي دليل على وجود أي أعمدة

مستديرة في كتلة الأنقاض. والمبنى الثاني المذكور سابقاً يقع على بعد حوالي خمسين ياردة للشمال - الشمال - الشرقي من المعبد، ويتجه نحو الشرق بقدر كبير على الخطوط نفسها، وربما كان مسكناً للقيّم أو الكاهن، وقد وقع سقفه في الداخل وكان مغطى بالرمل.

إن حافة الحجر الرملي للضفة اليمنى من وادي الهواتف في المنطقة المجاورة مباشرة للمعبد تغطيها طبقة رقيقة نسبياً من تدفق الحمم البركانية، ومنها تعرف باسم سود روافة. ولقد وفرت لي بكل تأكيد نقطة طيبة لإلقاء نظرة عامة عندما صعدت عليها بعد يوم أو يومين من وصولنا، وتتوج قمتها أنقاض حصن عربي من العصور الوسطى أو الحديثة، مشيد من صخور الحمم البركانية المتوافرة محلياً وغير المشذبة.

ويقع المعبد إلى الأسفل منها نحو الجنوب قليلاً من الشرق، والمشاش عن يمينه قليلاً، وتمتعنا بإلقاء نظرة طيبة على وادي الهواتف ينحدر بين ضفتيه المغطاتين بطبقة الحمم البركانية من مستجمع الأمطار في أحد أجمل الصخور الوردية التي رأيتها على الإطلاق، والأخيرة هذه تعرف باسم الخرينات وتقع إلى الشرق تماماً تقريباً على الجانب القريب من كتلة الجبال والقمم البركانية، والتي تشق خلالها المياه المنصرفة من الجانب البعيد طريقها بقنوات ضيقة متجعدة تشكل رأس وادي دَامَة الذي يشق طريقه إلى البحر عند

مسافة معينة إلى الجنوب من ضباء. وتضم الضفة البعيدة لهذه القنوات الضيقة جبلي الخرارة والحجالة البركانية وبينهما يسير درب وعر للإبل وسط منطقة بركانية حتى رأس وادي قنا إلى أن يصل في النهاية إلى تبوك. وكانت الصخور الرملية في جبل الخريطة محاطة من جميع الجوانب بالكثير من الحمم البركانية المنتشرة، والتي تمتد تماماً على طول الجانب البعيد من وادي الهواتف حتى تلتحم بجبل اللوى الكبير، وهو جبل من الحمم البركانية التي تجثم على قواعد من الصخور الرملية الحمراء لكلٍ من أبو عتبة والعلاليق والعشارية وأبو طفيف، وبين كل زوج منها ينزل وادٍ صغير شديد الانحدار إلى قناة الخور وهي امتداد لوادي الهواتف.

وتدخل عدة شعاب صغيرة هذا الوادي بعد النقطة التي يعرف عندها باسم الخور في حين يمتلئ القوس كله الممتد من الشمال - الشرقي ودائرياً من الجنوب إلى الجنوب - الغربي بجبل اللوى الأسود الشاهق، ويوجد فيه ممر للإبل متجه إلى تهامة للغرب قليلاً من الجنوب، وكانت صخوره الرملية ذات اللون الوردي في قاعدته العالية تلمع في تضارب صارخ مع الحمم البركانية السوداء الكئيبة في منحدراته العليا وقمته المستوية. كما إن حافته الشمالية والأطراف الجنوبية لمرتفعات السلاعو البازلتية تشكل قمماً عريضة تؤدي إلى رأس وادي سليسية الذي يهبط بانحدار فوق حافة الهضبة

إلى تهامة، حيث يلتقي بقناة وادي خريطة الرويان وهو في طريقه إلى البحر كرافد من وادي دامة. إن جبل السلاعو هو أبعد وحدة في أقصى الجنوب من سلسلة هضاب طويلة تمتد حتى تلتقي بجبال مدين. وتقع ضيقات الفهدية تقريباً إلى الشمال - الغربي منا وعلى مسافة غير بعيدة، ووراءها بمسافة طويلة تمتد قمم حرب ودباغ وشار الشاهقة على حسب هذا الترتيب من اليمين لليسار، وكانت قناة ديثان التي جئنا منها عند وصولنا لأول مرة والتي تمتد الآن تحتنا على الجهة البعيدة من جبل سود روافة، تعرف باسم الحنة في أطرافها العليا، التي تهبط من جبلي الحمم البركانية الشاهقين "أم عوال والقبل".

وفي اليوم التالي (٢٣ يناير) عزمت على أن أستكشف المنطقة من قمة جبل اللوى حيث تم إحضار الحمير من مخيم سعيد، وتقدمنا، أنا وهو مع زعل ورجل آخر من بني عطية يدعى عودة، ونزلنا في وادي الهواتف، وبعد نصف ساعة وصلنا إلى مرتفع من الصخر الرملي يسمى هضيبة البيضة وكان على مقربة منها بعض القبور الحديثة وآثار واضحة للزراعة الموسمية، بينما في وسط القناة عثرنا على حافة مبطّنة بالحجارة لسياج بحوالي ٢٥ ياردة مربعة، ربما إنه يحيط بخزان مياه مدفون، ولم يكن رفاقي قادرين على تنويري بشأن هذا الموضوع. لقد كان نوعاً من العمل الذي لم يعهده البدو

المعاصرون، وبالتالي من المؤكد أنه يعود إلى بني هلال. وربما كان أثراً باقياً من استيطان الأنباط في المنطقة. واستغرق الأمر منا أكثر من نصف ساعة أخرى حتى وصلنا إلى سفح جبل اللوى، أي تقريباً مسافة حوالي أربعة أميال من مخيمنا لأن مطايانا لم تكن من سلالة السباق تماماً، وكانت تتصرف كما لو كانت تود أن تذهب إلى أي مكان آخر غير النقطة التي نود رؤيتها، وهنا كانت قاعدة الجبل من الصخر الرملي الرمادي الأبيض قليلاً، وكنا في الصعود، على الرغم من أنه كان وعراً في بعض الأجزاء، لم نجابه أي صعوبة تذكر. وقد استغرقنا قرابة أربعين دقيقة للوصول إلى نصب تذكاري على قمة الجبل، ربما بارتفاع ٧٠٠ أو ٨٠٠ قدم فوق الوادي. وقد سرنا على أقدامنا بالطبع، وتركنا الحمير مربوطة في حبال طويلة لترعى وحدها بدون رعاية في القاع.

لقد كانت القمة كلها، حتى عمق مئتي قدم، من الحمم البركانية الصلبة، والمتناثرة في أكوام من الحجارة على كلا الجانبين، والضباب الخفيف فوق منخفضات تهامة تحتنا لم يحرمنا كثيراً من التمتع بالمنظر العام الممتد من قمم ريْدان وراء وادي دامة في الجنوب تماماً حتى قمة الشواطئ التي تشبه منقار الببغاء في الشمال - الغربي. ولم نتمكن من رؤية البحر، بيد أن السهل الساحلي خلف الجبال كان واضحاً بقليل من الضباب. ويقع معبد روافة في اتجاه

شمال - شمال - شرق منا على بعد حوالي أربعة أو خمسة أميال، في حين كانت قمة "الخرينات "Al Khurainat" ذات الصخور الرملية الوردية في الشرق تماماً تقريباً، وممر الحجلة من خلفهما، وكان مضيق ضييقات في الشمال - الغربي، بينما على مسافة غير بعيدة منا إلى الجنوب - الجنوب - الغربي كان يقع الممر، المذكور آنفاً، عند رأس وادي سليسية، الذي يمكن أن نرى الآن قناته ذات اللون الداكن الكئيب وهي تغوص في الأعماق السفلى.

ولدى العرب رعب من هذا الأخدود عندما يحضرون إبلهم إلى المراعي الصيفية في الهضبة أو عندما يأخذونها إلى المنخفضات في تهامة خلال الشتاء، ولكنه لا يمثل أي صعوبة، كما يقولون، للمشاة العابرين، إنه معروف لديهم باللقب اللطيف الممر طيب الاسم " طلعة طيب الاسم "، وهذا مما جرت عليه عادة العرب في إطلاق أسماء لطيفة على الأماكن البغيضة. وفي كافة تلك الحالات يقال إن هذا اللقب اللطيف يعمل على إخفاء اسم حقيقي ولكنه لا يصح ذكره، بيد أنني لم أستطع في أي من تلك الحالات أبداً، على قدر ما أتذكر، أن أكتشف الاسم الحقيقي.

وفي الواقع ربما نسبه العرب المعاصرون أو إنهم لم يعرفوه أصلاً. وقد لاحظت أيضاً أن هؤلاء القوم من بني عطية ينطقون حرف السين بلثغة مثل ما في "ثليثل" بدلاً من "السليسل"

و "الثلوعة" بدلاً من "السلوعة" . . . إلخ. وأمام جبل اللوى مباشرة، إلى الجنوب والجنوب - الغربي، تمتد كتلة كبيرة من الأرض المرتفعة ذات الصخور الرملية المتهدمة، تسمى الوهيثة وتقع بئر اللوى (على بعد ستة أميال تقريباً) في المضيق الذي يصل بين القمتين. وكان جبل اللوى نفسه يمثل قوساً مجوفاً أحد قرنيه يتجه قليلاً للشرق من الجنوب والتالي للغرب - جنوب - غرب، وكان باتساع حوالي ٥٠٠ ياردة في وسطه على خط منشآتنا الحجرية، ولكنه ينبعج على كلا جانبيها. وهناك أخيراً معلم آخر جدير بالذكر هنا، لأنه قد قدّر لي أن أصبح على دراية أكثر به بعد ذلك بعامين، وهو جبل سُويون " بشدييه " المستديرين الكبيرين المتاخمين للضفة اليمنى لوادي سَدْر، وعند نزولنا من القمة، ركبنا إلى كتلة عظيمة من الحجر الرملي بجانب قناة أم العلالق الفيضية، التي قدمت لنا ما كنا نرجوه من محصول وفير من النقوش الثمودية، مثلما فعلت أيضاً بروزات أم القويرف ذات الصخور الرملية التي تحاذي نفس المجرى المائي.

وبحلول هذا الوقت كنت قد جمعت ما يكفي في هذا اليوم حتى السأم، وسرنا ببطء وتثاقل عائدين -ونحن مرهقون- على حميرنا ذات الخطو غير المتوازن. لقد كان من الأكثر راحة لنا أن نمشي على الأقدام، ولكنَّ زوجاً جديداً من الأحذية غير المناسبة اشتريته من

تبوك قد كشط قدمي بصورة سيئة نسبياً، وظننت أنه من الأفضل أن أدع الحمار يحملني. والسحب الكثيفة التي كانت تجعل السماء معتمة في الصباح، بعد ليلة من الرياح الرعدية الخفيفة، قد انقشعت خلال الصباح وتمتعنا بشمس مشرقة ساطعة ونسيم خفيف طوال مدة خروجنا كلها.

وبعد ليلة أخرى من الريح العاصفة الخفيفة، ومع هبوط درجة الحرارة إلى نقطة التجمد أو أقل منها بقليل، كنا قد وصلنا إلى آخر يوم كامل لنا في منطقة روافة. وقد جاء لوري من طراز شيفروليه في الصباح الباكر من تبوك محملاً بقطع الغيار الضرورية للشاحنة من طراز فورد، وعدد من رجال الأمير لمساعدتنا في الخروج من أي مشكلة قد تعترض طريقنا. وهكذا، بعد أن تركت الجماعة وهم يصلحون الشاحنة الفورد، استخدمت اللوري لزيارة أخيرة إلى نقطة في وادي ديشان، قيل إن بها آثاراً، وكان يرافقني زعل، وسعيد، وعودة، وفي خلال عشر دقائق وصلنا إلى صخور هضيبة المبرة الرملية عند الطرف الجنوبي من الأرض الفضاء المنبسطة التي دخلنا منها أول مرة في وادي الهواتف، وعند خروجنا من تلك الأرض الفضاء في الطرف الآخر والتفافنا إلى اليمين، عبرنا شعيب الحنو وشعيب مشاش بالتالي وكلاهما رافد من روافد قناة ديشان المنحدرة من بعض المرتفعات التي تدعى أم بطمة لنصل إلى سفح

جبل أم القرون الذي يأخذ شكل أقماع من الصخور البركانية. وعلى منحدر هذه الأقماع وجدنا آثاراً باقية من مستوطنة عربية مهجورة، ربما تكون من العصور الوسطى، أو هي بالأحرى خط من التحصينات، مشيدة من ألواح البازلت المسطحة المكدسة فوق بعضها البعض بلا ملاط. وقد فعل الزمن والطقس فعلتهما في تدميرها، ولم نجد أي شيء قائم أكثر من ارتفاع ثلاثة أقدام. وكانت بعض المباني دائرية وكان يبدو من المرجح، أنها قد شيدت لتكون سلسلة من المتاريس لمنع دخول أي عدو إلى منطقة روافة خاصة وأن الموقع يشرف على ممر يؤدي إلى رأس وادي ديثان. من هنا صعدنا إلى قمة اثنين من الأقماع الأدنى ارتفاعاً لرؤية المنطقة، وأشار أدلائي إلى سلسلة جبال من الصخور الرملية بارزة مسننة القمم تسمى العمدان عند حافة الهضبة، وهي لم نرها من قبل.

ولم يخطر ببالي إلا قليلاً أنني بعد ذلك بسنتين سيقدر لي أن أخيم تقريباً عند سفحها في المنطقة المجاورة لمستوطنة نبطية ظلت مجهولة حتى اليوم، وكانت صخور الخرينات الوردية الآن باتجاه الجنوب منا، في حين كان جبل دباغ في الغرب تماماً، وجبل حرب عن يمينها وأوتاد جبل شار عن يسارها، وباتجاه الشرق كنا نستطيع رؤيةَ رأسي كتلة جبال الهويدي الذي يقعُ عند سفحه بئرُ المياه وحدائقُ نخيل بالاسم نفسه، وعبرنا مدخل وادي تمر الذي يتدفق

من اليسار إلى اليمين، ليصبح القناة الرئيسة لوادي دامة. أما باقي المشهد فقد كان بقدر كبير هو ما شاهدته نفسه في نقاط أخرى، وأسرعنا عائدين بعد ذلك حتى أتمكن من قضاء آخر فترة لما بعد الظهر لي في المنطقة لإكمال استنساخ نقوش المعبد، ثم أستعد للرحيل في الصباح. والحدث الوحيد الذي وقع في ذلك الأصيل كان وصول جيش جرار من الجراد آتياً من تهامة وانتشر فوق المراعي الغنية في الهضبة.

وفي غضون ذلك، وخلال مرحلة باكرة جداً من بقائنا في منطقة روافة، كنت قد وضعت علامات على منطقة الصخور الوردية في الخرينات بصفتها بقعة جميلة يجب استكشافها، مع فرصة مواتية للعثور هناك على بعض السجلات لزائرين نبطيين وثموديين قدماء. وفي الأصيل نفسه الذي جئنا فيه قمت بجولة على الأقدام لفحص مجموعات قليلة من الصخور الرملية على كلا جانبي وادي الهواتف الذي يقع رأسه إلى الشرق في جبل أم عول وهو جبل بازلتي يشرف على الخرينات.

وكانت إحدى هذه المجموعات تدعى البخترية على الضفة اليسرى، وهي كتلة عظيمة من الصخور الرملية الحمراء تعلوها طبقة سميكة من الحجارة الرملية البيضاء، ومنها تمتعنا بإلقاء نظرة طيبة على فوهتي وتر وشيبان في المنطقة البركانية إلى الشرق. والنقطة

الثانية التي زرناها كانت نتوءاً معزولاً من الحجر الرملي في الوادي تسمى ديرة الهاتف، والتي وجدت عليها بعض النقوش التي تآكلت بصورة سيئة، والبئران الجافتان، هما من أبيار هاتف تقعان على بعد حوالي ٣٠٠ ياردة منها. وبين الاثنتين وجدنا ما بدا أنه كان أساسات لمبنى مشيّد من الحجر الرملي المشذب بصورة مهملة، على الرغم من أنها ربما كانت على الأرجح حافة خزان مياه ملئ الآن بالرمل والطمي. وعلى مقربة، كان لرأس جرف الهاتف صخرة معلقة رائعة تغطي كهفاً عند مستوى الأرض، والذي لابد من أنه قد وفر ملاذاً من الشمس لأجيال من الثموديين والرعاة المعاصرين لعهد قريب. وبارتفاع يبلغ عشرين قدماً عن مستوى الأرض، كان جدار الكهف يرتد ليشكل صالة عرض مزينة بكثير من صور حيوانات القدماء.

وفي الصباح التالي زرت منطقة الخريطة نفسها، لأتجول في متاهة مجاري أوديتها الضيقة الملتوية، التي تحدها جدران عمودية من الصخور الناعمة كثيرة الألوان، ولنتناول، في الوقت المناسب، غداءنا في ظل صخرة رملية حمراء عظيمة على هيئة فطر وتطل على مجرى عميق أتى من قمة جبل مجاور. وفي أحد الأماكن مررنا تحت قوس طبيعي من الحجر الرملي يمتد فوق وادٍ (أخدود) ضيق، وفي كل منطقة باتساع عدة أميال مربعة كان هناك الكثير مما يثير الإعجاب والدهشة من جمال الطبيعة. ولكن الأمر كان مخيباً

للآمال من جهة إذ أن الصخور الوردية الجميلة لم تبح لي بشيء عن الأجيال التي تجولت بينها قبلي. لقد سرنا سيراً طويلاً مجهداً ما يقرب من أربعة أميال أو يزيد لنراها، والآن لم يبق أمامنا إلا أن نعود أدراجنا بنفس السير الطويل المجهد في الطريق الذي أتينا به، لنصل إلى مخيمنا قبل الغروب بقليل.

وطلع علينا صباح ٢٥ يناير، وهو أشد أيامنا برداً حيث كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٢٠٫٥ درجة فهرنهايت وفي الساعة السابعة والنصف صباحاً كانت ٢٣ درجة فهرنهايت، وكنا على استعداد بشكل أو بآخر لاستئناف جولاتنا، على الرغم من أننا لم ننطلق في الحقيقة إلا عند التاسعة والنصف صباحاً.

وفي غضون ذلك، وضعت القوة البشرية المتوافرة لنا كلها، وهم الآن نحو اثني عشر رجلاً، لتنفيذ مهمة شاقة في رفع النقوش الأربعة العظيمة التي وجدناها مطمورة بين الأنقاض المتهدمة في هذا الحرم المقدس فوق الجدران الباقية من واجهة المعبد، لإنقاذها مما قد تتعرض له من مزيد من التدهور والتخريب. وبعد أن انتهينا من ذلك، التقطت صورة للعمال والعمل الذي نفذوه، وغادرنا المكان حيث تحركنا نزولاً في وادي الهواتف، وقد كانت شاحنتانا هما أول سيارتين تصلان إلى روافة، إلا أن الآخرين قد حذو حذونا بعد ذلك، فقد جاءني خطاب من زعل بعد ذلك بحوالي عام يفيدني أن

شخصاً يدعى خالد الفرج، وهو تاجر من القطيف له اهتمامات أثرية، قد زار روافة. وعندما رأيت المعبد مرة أخرى بعد عام واحد كان النقش العظيم ثنائي اللغة سليماً في مكانه حيث تركناه، واختفى النقش النبطي، وأصيب أحد النقوش اليونانية بضرر بالغ في محاولة لتكسيره إلى أجزاء يسهل نقلها، على الرغم من أن محتوياته الجوهرية قد نجت من هذا العمل التخريبي، وكنت ما أزال أستطيع أن أقرأ النقش:

"Phule Robathoi Kolo M ... Toeierontouto".

وقد اختفى أيضاً حجر كلوديوس مودستوس. ومن المؤكد أن خالد الفرج كان مسؤولاً عن إفساد ما قمت به احتراماً للقدماء، ولكن، ما دام قد توفي في العام التالي فلا لوم عليه. إن مجموعته التي لا يستهان بها من الآثار والنوادر القديمة، التي لم يتح لي أبداً فرصة رؤيتها، على الرغم من أن بعض خبراء أرامكو على دراية بها، قد تكون إضافة قيمة لمتحف جدة، ولكن ليس من المرجح أن السلطات السعودية في الوقت الحاضر سوف تنظر في أمر إهدار المال لشرائها من الورثة.

وقد شققنا طريقنا بوادي الهواتف في سير شاق بشدة على رمل لين بماء المطر وتكسوه بغزارة شجيرات الروثا ونزلنا في شعيب الخور ومنه استدرنا نحو اليمين تجاه الطرف الداخلي لضيقات

الفـهـدية، حـيث قـضـينا بعض الوقت هناك ونحن نجـمع قلة من النقوش الثمودية على جرفه ونلتقط الصور، ولم نستغرق سوى خمس وأربعين دقيقة حتى وصلنا إلى هذه النقطة، التي قـد تكون على بعد عشرة أميال من روافة بطريقنا الجديد. وأحسب أن المسافة الحقيقية بين تبوك وروافة لابد وأن تكون حوالي أربعة وتسعين ميلاً، أو أقل قليلاً. وكان الجراد لا يزال بأعداد كبيرة، وقضى عودةُ وقتاً ممتعاً في صيده ووضعه في سيخ لأكله في المستقبل. ومن الطرف الخارجي للمضيق اتجهنا نحو الشمال - الغربي وسرنا فوق سهل الفهم ذي الشجيرات الوفيرة والذي كنا قد أتينا منه، وبعد أن قطعنا شوطاً طيباً بحوالي نصف ساعة، أي سبعة أميال تقريباً، توقفنا لتناول الغداء وجمع النقوش على الصخور المتناثرة في الهبيرة.

ومن هناك واصلنا سيرنا في اتجاه شمال - غرب نحو جبل القواني وسط منطقة الزاوية التي وصلناها في ساعة بالضبط (أي ربما خمسة عشر ميلاً) لنجد محصولاً وفيراً من النقوش على قمة الجبل وعلى نتوءات متناثرة عديدة من الصخور الرملية فيما جاوره. وكانت الشمس قد مالت للغروب عندما انطلقنا مرة أخرى باتجاه الشمال - شمال - غرب نحو أجراف العصيّة البارزة، على بعد أربعة أميال تقريباً بعد قناة وادي الأبيض التي عبرناها بلا صعوبة. وهكذا أتينا لنأخذ قسطاً من الراحة في جزء ناتئ من الجبل في حمى

أجرافه الحمراء الضخمة، التي منحتنا حماية من الريح شديدة البرودة التي كانت تهب علينا بقوة متوسطة من اتجاه البحر طول اليوم، وكانت تهددنا بالاستمرار طول الليل.

وقد انغمست في رفاهية نصب خيمتي ومن ثم قضيت الليلة مرتاحاً بعد عشاء فخم ممتاز، حيث إن التعزيزات التي تلقيناها في روافة لم تنس أن تحضر معها زوجاً من الغنم من تبوك. إن العرب المحليين يسوقون قطعان ماشيتهم إلى منخفضات وأودية تهامة في الشتاء لتفادي البرد القارس في مرتفعات حسمى وعلى الرغم من أنه ليس برداً شديداً بصورة استثنائية حسب قراءة مقياس الحرارة إلا أن له خاصية غريبة في اختراق الجسم ويجب تجربتها حتى يصدقها المرء. ولقد كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في هذه الليلة ٣٦ درجة فهرنهايت.

وقد قضيت الصباح التالي في بحث مكثف في صخور الأجراف الملساء بارتفاع ١٠٠ قدم والأرض المنبسطة كالطاولة فوقها لاكتشاف النقوش والآثار الأخرى لثمود. إن مرتفع الزاوية الهائل هذا كله كان مغطى بعدد لا يحصى من الصخور الرملية المتناثرة، الصغيرة والكبيرة، التي نجدها مليئة بالنقوش والرسومات ما عدا قليلاً منها، ويبدو أن العصيّة كانت مركزاً محبوباً للتجمع على نحو خاص، مثلما هي في الحقيقة حتى يومنا هذا. إن الكهوف

والمغارات الكثيرة المختلفة عن الأسطح المنبسطة لأجرافها يستخدمها بنو عطية بانتظام كمستودعات لتخزين أمتعتهم ومؤونتهم من القمح، والدقيق، والتمر، والأرز، والأدوات البسيطة من تجارة الرعاة، بل وحتى الملابس.

هذه المخازن مملوكة على المشاع للعوائل أو لمجموعات أكبر منها، وأي فرد منها له الحق في ما يحتاجه منها عندما يكون قريباً أو في المنطقة المجاورة لها دون أي إجراءات رسمية إلا تسجيله اسمه، كما كان يحدث، حيث يقوم فقط بنقش وسم على الصخر ليبين أنه قد زار المستودع، وعلى فترات دورية يجتمع أصحاب الوسوم في مجلس القبيلة لحساب ودفع مقابل ما سحبوه من المخزون العام. ويقال، ربما بصدق تام، إنهم لم يغشوا بعضهم أبداً، ونظراً لسمعتهم الشريرة في المنطقة فإن ثقتهم ببعضهم البعض تبرهن على أنه يوجد "شرف بين اللصوص".

إن أسوأ جريمة يفعلونها ضد أنفسهم والمجتمع هي التدمير المتهور لأشجار الطلح والأنواع الأخرى من السنط، تلك الأنواع الوفيرة بكثرة في المنطقة، عن طريق قطع فروع كاملة منها لتغذية قطعانهم المجتمعة تحتها. ولقد رأيت مراراً فتاة صغيرة ومعها عصا غليظة في أعلى الشجر وهي تهوي بها على فروعها بلا هوادة، وليس في ذهنها

شيء غير الحاجة الحاضرة من توفير الغذاء لحيواناتها، وربما في يوم ما سوف يتعلمون أن تقليم الأشجار بعناية في المواسم الملائمة سوف يزودهم بنفس القدر من العلف بدون تدمير مصدره. وما يقوم به قاطعو الأشجار لاستعمالها خشباً أو فحماً يعد أكثر تخريباً بل جريمة أشد خطراً، على الرغم من عدم وجود أعداد كافية من الأشجار لتجذبهم في منطقة الزاوية. ولقد رأيت في أماكن أخرى الأشجار وهي تحرق حية لتحويلها إلى فحم يذهب إلى أسواق القرى والمدن.

في أحد الكهوف الكبرى بجبل العصيّة المواجهة للجنوب - الغربي، وجدنا منصة دائرية من الجبس (الجص) قطرها اثنا عشر قدماً، تحتل أرضية الكهف المنحدرة برفق ويبلغ ارتفاعها من مستوى الأرض الخارجي أربعة أقدام، وينخفض هذا العمق إلى ثماني عشرة بوصة في الطرف الداخلي للكهف، وكانت تبدو عتيقة، وقد أكد لي الأدلاء أنها لا تؤدي أي غرض في العصر الحديث، على الرغم من أنهم قد أصيبوا بالحيرة والارتباك عند تخمين ماذا قد تعنيه للأقدمين، ويحتمل أن تكون لها أهمية دينية عند قوم ثمود الذين لا تزال علاقتهم لما يسمى بالنقوش الثمودية موضوعاً للجدل بين الخبراء. إن هذه النقوش توجد بكثافة متفاوتة على طول غرب الجزيرة العربية كله من منطقة البتراء حتى اليمن، بينما تتوغل نحو الشرق حتى خط طول الرياض. هذه الحدود تتجاوز بكثير الموطن

التقليدي لقبيلة ثمود، مثلما هو معروف في الأدب العربي، ويبدو أن الاستنتاج النهائي يمكن أن يكون أن كلاً من الخط (الكتابة) واللغة، باختلافاتهما المحلية، قد انتشرا بين جميع قبائل العرب في المنطقة في ذلك الزمان، ويشمل ذلك البدو الرحل وساكني القرى على السواء.

من هم إذن المؤلفون الحقيقيون لثلاثة عشر أو أربعة عشر ألف نصٍ ثموديٍ معروفة لدينا الآن؟ مقابل ما قد يصل إلى ٢٠٠٠ أو نحوها من النصوص (في شمال الجزيرة العربية) التي توافرت لدى بيير فان دن براندين عندما نشر عمله الفذ عن النقوش الثمودية، وهو أول دراسة كاملة عن الموضوع؟ يقول البعض إنهم هم -بصورة حصرية- المسافرون بالقوافل، العابرون أو الناقلون للبضائع على طرق التجارة بالصحراء، ومن الواضح أن بعض النصوص كانت من عمل محترفين منهم.

ومن ناحية أخرى، فإن موقف المجموعات الكبرى التي تم جمعها من هذه النصوص والكتابات في مناطق أشد نأياً بالصحراء، وعلى قمم الجبال ومواقع أخرى تتطلب وقتاً أكبر للتجول مما يكون متاحاً للمسافرين بالقوافل، يوحي بقوة أنها من عمل الرعاة وهم يراقبون قطعانهم، أو يهدرون الوقت سدى مع عذارى الصحراء، أو حتى يحرسون خطاً دفاعياً ضد أعداء مغيرين، أو رصداً لإشارات ظهور

الأعـداء. وهؤلاء الناس ربما كـانوا بدواً من قـبـائل الـصـحـراء أو القـرويين المنتسبين لهـم. وهكذا فلا مندوحة من الاستنتاج القائل: إن كلاً من مسافري القوافل والبدو قد أدوا دوراً في إنتاج هذا الكم الهائل من الأدب.

إنّ وجهةَ نظري، التي أغامر وأقدمها وبقدر ما تستحقه، هي أنه، بينما كان ساكنو الصحراء، سواء البدو الرحل أو القرويين هم الذين تركـوا هذه الكتـابات، فـهم أيضـاً الذين قـدموا الرجـال لمهنة نقل البضائع مثلما فعلوا بحق منذ أقدم العصور حتى السنوات القليلة الماضيـة، عندمـا حل مـحلهم سـائقو الشـاحنات المحتـرفـون. وفي مناسبات متكررة كانت طرق القوافل تستخدم أيضاً من قبل الطبقات "المتعلمة" من مراكز الحضارة والحكم الكبرى، وهذا ما يشهد عليه وجود كتاباتهم الأكثر إتقاناً وتأنقاً في تلك المناطق نفسها، وهؤلاء هم السبئيون والمعينيون والقتبانيون وغيرهم، وهكذا فالجدل حول أحقية البدو أو عابري القوافل بهذه الكتابات قد يبدو غير ضروري في وجه الدليل الساطع المتوافر الآن بشأن انتشار معرفة القراءة والكتابة على نطاق واسع بين العرب في غرب الجزيرة العربية خلال عصور ما قبل الإسلام، ومن ذلك الحين لم يُعرف لسكان صحراء الجزيرة العربية بروز مثل هذا في مجال التعليم بالمعنى المعاصر للكلمة.

ومهما يكن من أمر، فإن هضبة حسمى كانت كلها مكتبة هائلة ومعرضاً للصور في أدب وفن العرب القدماء، تضارع المنطقة المجاورة لتيماء والمراكز الكبرى في الجنوب، مثل القهرة والقرة.

ومن قمة العصيّة، حيث كانت الريح الباردة تهب علينا بقسوة ونحن ندرس موقع الأرض وأوضاعها، استطعنا أن نرى أن وادي الهواتف لم يكن بعد كل شيء رافداً من روافد شبكة الأبيض، ولكنه يشكل رأس وادي سليسية، الذي كان تدفقه الخارجي من فوق حافة الهضبة الآن إلى الجنوب تماماً منا. ولا يبعد التقاء ديثان ورويان مع الأبيض إلا ميلاً واحداً منا إلى الجنوب - الغربي، في حين كان حوض الشقرى الذي كانت تصب فيه القناة المتحدة إلى الشمال قليلاً من الغرب، وإلى الشمال الغربي منا تقع التلال الصغيرة الرائعة في منطقة تسمى السد التي اتجهنا نحوها ونحن نواصل سيرنا.

وفي الطريق، بعد ما يزيد قليلاً عن ميل، أتينا على ثلاثة صخور رملية ضخمة عند حافة بحيرة عظيمة تماماً مملوءة بالماء، تعرف باسم العويصية التي تصرف مياهها إلى الأمام تجاه منطقة السد، في حين كانت شبكة الأبيض، قد غيّرت اتجاهها الآن مبتعدة عن طريقنا إلى اليسار وهي في طريقها إلى الشقرى.

ولقد صادفنا سرباً عظيماً من الجراد، مستقراً على الأرض حول شجيرات الروثة المنتشرة في السهل، ولقد دهست عجلات السيارات منه بالآلاف دهساً، وما كان لديه قوة على النهوض والطيران كان يلتصق بزجاج السيارات الأمامي والمبرد (الراديتر). وكان من الواضح أن برد الليل قد أصابه بالخدر، على الرغم من أننا كنا قرب الظهر عندما واجهناه.

وواصلنا السير على طول جبل الأخرم على يميننا لنصل إلى سبخة طينية واسعة وصخرة المقلوّية الضخمة المعزولة في وسط السبخة التي تصرف أيضاً مياهها تجاه السد. وبعد أن قطعنا حوالي عشرة أميال من العصيّة وصلنا إلى الطرف الشمالي للأخرم، حيث توقفنا لدقائق قليلة لفحص مجمع الصخور الرملية في منطقة السد، القريبة أمامنا، قبل أن نتحول لاتجاه الشمال - الشرقي على طول صخور الشعرة المتقطعة حتى جبل باير الضخم من الحجر الرملي الرمادي.

ويحتل هذا الجبل منطقة ضخمة في صدر المنحدر الذي صعدنا منه، ومن ثنية في وسطه ينحدر مجرى رملي فيه الكثير من ينابيع الماء، " مشاش " التي تكوّن عدداً من البرك الضحلة، القذرة، المغطاة بمادة لزجة أو رغوية. وكان الجبل يرتفع مئتي قدم وبه منحدرات سهلة وعدد من القباب، تمثل مشهداً موحشاً مع مغارات

منحوتة في جرفه. لقد زار موسل هذا المكان بحثاً عن النقوش ولم يعثر على شيء، على الرغم من أنه استطاع بشق الأنفس أن يفحص الموقع بهمته وقوته المعهودة. وقد وجدت قدراً وفيراً منها وكانت النقوش هنا تبدو أشد قدماً من تلك الموجودة -على سبيل المثال- في العصّية، وكان بعضها قد أتلفته عوامل الطبيعة بصورة سيئة، ومن المحتمل أن تكون عمليات التفتت سهلة نسبياً في الصخور الرمادية مما يعطي انطباعاً بعمر أقدم للنقوش.

وعلى كل حال، فإن أحدث هذه النصوص الثمودية لابد أن يكون عمره حوالي ٢٠٠٠ عام، على الرغم من أن بعضها كان يبدو جديداً بصورة مذهلة، وليس من شك في أن ذلك يعتمد كثيراً على نسيج الصخور ومدى التعرض للعوامل الجوية. ومن سوء الحظ أن قمة باير لم تمنحنا النظرة الواسعة التي كنت أرجوها من موقعها المرتفع، لأن الضبابَ الكثيف كان يلف المنطقة من جميع جوانبها على الرغم من الشمس الساطعة، مصحوباً ببرد قارس ولكن الرياح كانت معتدلة وكنت أنا وعودة سعيدين بدرجة كافية عند مغادرة القمة والانضمام إلى رفاقنا حول نيرانهم في الوادي، حيث تناولنا طعام الغداء قبل استئناف سيرنا.

وقد توجهنا نحو الفجوة بين برقة العيد على اليسار، وجبل العقير الذي تجاوزنا طرفه الشمالي خلال عشر دقائق وبعد ذلك سرعان ما

انغرزت الشاحنتان بصورة سيئة في رمل المرتفعات الكثيف، الذي كان يشتد فوقه الضباب بسرعة.

وقد توقفنا للحظات قليلة لجمع بعض النقوش من صخرة بارزة في جبل العقير، وبعد أن قطعنا حوالي اثني عشر ميلاً من السير المتواصل من جبل باير، وصلنا مرة أخرى إلى مساراتنا الخارجية، وتوقفنا انتظاراً للشاحنة الأخرى (اللوري) التي كانت قد انغرزت مرة أخرى، وكان موقع مخيمنا في جبل الرضى على بعد أميال قليلة إلى الجنوب - الشرقي، وكان جبلا الرضى والدفين وكلاهما منخفض ومتقطع، يحيطان عموماً بمنطقة واسعة من أرض المراعي الرملية.

وسرعان ما وصلنا واستدرنا نحو ممر الزور، وكان علينا أن نقطع حوالي اثني عشر ميلاً من هذه النقطة حتى نصل إلى الطرف الشرقي لممر الفوهة. والآن، بدلاً من أن أستمر في السير على طول الدرب المألوف حتى تبوك مثلما كان رفاقي يأملون بلا ريب، استدرت بصورة مفاجئة لليمين عبر وادي الغَليل المرتفع، وبشكل أو بآخر على طول سفح جبل الفوهة، إلى أن وصلنا منطقة شديدة الوعورة من ألواح وشظايا الصخر الرملي التي تشكل طريق الاقتراب والدخول إلى قناة وادي العُوَيْند، ولم ندخل إلا بعد غروب الشمس، وفيه حططنا رحالنا ونصبنا مخيمنا فوراً تقريباً بالقرب من

كمية هائلة من شجيرات الغضا، وفوهة الخاقوق البركانية ذو القمة المسطحة السوداء ترتفع فوقنا عن قرب وجبل المويعز والعناصر البركانية الأخرى في الخلفية. لابد أننا قد نزلنا حوالي ألف قدم من الجبل حول الرضى، وكان اعتدال الطقس في الليل أتاح لنا نقيضاً مفرحاً للبرد القارس الذي قاسينا منه مؤخراً على الهضبة، وكانت السماء صافية تماماً، بيد أن حجاباً قاتماً وكثيفاً من الضباب الأرضي كان قد انتشر فوق الوادي، وكانت سيارة اللوري التي جاءت لإنقاذنا ونجدتنا من تبوك قد عادت إلى هناك من ممر الفوهة، وعدنا الآن إلى أعدادنا الأصلية، مع زعل واثنين من رجال الشرطة، عطا الله وعبد الله بن قعم، وطبعاً السيد الذي لا يستغنى عنه، وقد سمح للأدلاء من بني عطية بالرحيل، مع مكافأة مجزية عن خدمتهم الأمنية، فور أن وصلنا مساراتنا الخارجية في منطقة الرضى.

وقد أدى وصولُنا المتأخر وعشاؤنا على النذر اليسير جداً، الذي تم إعداده على عجل، إلى نومنا جميعاً مدة أطول مما ينبغي، حتى إن الشمس الشاحبة، التي كانت تصارع للظهور من خلال الضباب الفريد، قد ارتفعت تماماً قبل أن أستيقظ للصلاة والشاي حوالي الساعة السابعة صباحاً، وكان سخط واستياء رفاقي، الذين كانوا يقصدون جذب نظري إلى حد ما -وهم كانوا يأملون بلا ريب في قضاء الليلة بين أحضان زوجاتهم في تبوك- قد ألهمني لإلقاء درس

عليهم عن موضوع الواجب والفضيلة. ولقد استطعت أن أذكّرهم بأن سببي الوحيد لزيارة وادي العوينـد هم أنفسهم -عندما كنا على مسافة بعيدة عن هذه البقعة- فقد حدثوني بحماس نسبي عن بعض الآثار الهامة في الوادي بجوار مكان سمّوه البيبان وهو مسمى شائع لقبور الأنباط الصخرية.

واقترحت الآن أن نزور هذه الأبواب وكلما أسرعوا لي في العثور عليها، نكون قد أسرعنا في العودة إلى تبوك، وكان الوادي الواسع المغطى بالأشجار الخفيفة يمتد أمامنا منذراً بصعوبة مرور الشاحنة، وبعد حوالي نصف ساعة من السير بدا من المؤكد أن احتمال تقدمنا أكثر من ذلك في الوادي ليس مشجعاً، إن لم يكن خطراً؛ ولذلك استدرنا إلى واد جانبي، لنخرج في مدرج طبيعي رائع من الصخور والجروف الجميلة، يسمى حدقَ الذيب (أي دائرة الذئب).

وكان إغراء تسلق هذا الحاجز ورؤية ما يمتد وراءه لا يقاوم، وحيث إننا قد تركنا تجهيزاتنا خلفنا مع عطا الله في مخيمنا الليلي على أمل أن نعود إليه في الوقت المناسب، فقد قلت للسيد أن يرجع إلى هناك بالشاحنة، في حين انطلقت أنا مع زعل وعبد الله على منحدر الحجارة، عازمين على أن نضرب في وادي العوينـد حتى أعلاه ونعود مع مجراه بعد رؤية الآثار التي قالوا عنها. وكان على

اللوري أن ينتظر ساعة في المدرج إذ لم نستطع أن نمضي قدماً في تنفيذ خططنا، ولم نكد نسير مسافة بعيدة حتى قررت أن يعودَ زعل -الذي كان من الواضح أنه لا يألف هذه الأرض- إلى الشاحنة ومخيمنا لكي يقابلنا لاحقاً في أثناء اليوم. والآن كنا قد وصلنا قمة المدرج بعد صعود شديد الوعورة في آكام الحجارة والجروف، وقد استغرق ذلك منا حوالي ساعة، على الرغم من أن الارتفاع لم يكن يزيد عن أربع مئة قدم تقريباً فوق سطح الأرض.

وهنا اكتشفت أننا كنا على امتداد جنوبي - غربي من جبل الفوهة (أو سلسلة أم جلد) ومنه نزلنا في واد وصعدنا في آخر (وكلاهما رافدان من وادي العويند عن يسارنا) حتى تل واسع وعر، الذي قادنا إلى سفح منحدر حاد من الرمل الصافي سعته ٥٠٠ قدم، وهو يرتكز بثبات على جبل أكثر صلابة، وببعض التسلق الشاق وصلنا قمته، وتوقفنا لبرهة لنرى المشهد؛ كانت فوهة الخاقوق البركانية المطلة على مخيمنا تتجه نحو الشمال - الشمال - الشرقي، والجزء الجنوبي من جبل الفوهة في الشمال - الغربي تقريباً وقريباً منا تماماً، كما أن حافة وقرن مدرج الذئب في الشمال - الشرقي، وعلى يسارنا يمتد خط وادي العويند، مع ثنية واسعة لليمين حتى حوض كبير كان يقع أمامنا في جهة الجنوب، وفي زاوية الثنية وعلى الضفة اليمنى يرتفع تل هائل يدعى حمراء شواربي بينما كان يمتد على

مسافة غير بعيدة باتجاه مجرى المياه منه على الضفة اليسرى للوادي مرتفع يعرف باسم خشم عساف.

وهنا، كان بنو عطية، في الأيام الأولى لسيطرة السعوديين على المنطقة، قد هجموا على قافلة سعودية ضخمة كانت تحمل الإمدادات والمؤن لتبوك من الوجه، وكان يرافقها ناصر بن عساف، وهو مواطن من الرس في القصيم، والذي كان سيخلف محمد بن شهيل، أول أمير سعودي على المنطقة، وقد قُتل ناصر نفسه في هذه العملية، ولا شك أن لصوص وقطاع الطرق من بني عطية قد عوملوا بما يناسبهم، إلا أن التاريخ لا يذكر لنا البعثةَ التأديبيةَ؛ التي أعقبت هذا الحادث القبلي؛ لسلطة ابن سعود، وكان هذا قد حدث في ١٩٣٠، وبعد ذلك بسنتين، وفي أثناء عودتي من رحلة الربع الخالي، وجدت محمد بن شهيل قد نصب أميراً على تربة البعيدة إلى الجنوب، ويذكر هذا الحادث على أنه قد وقع في السنة نفسها التي حدث فيها تمرد الدويش (١٩٢٩ - ١٩٣٠م) ضد ابن سعود في شرق الجزيرة العربية، والذي قام خلاله عبد العزيز بن مساعد، أمير حائل، بقتل عبد العزيز بن فيصل الدويش في أم رضمه على الحدود مع العراق.

وقد تخلصت من حذائي لتسلق المنحدر الرملي الكبير، وأنا ما زلت حافي القدمين، وغالب سيري على الجانب المعاكس للمنحدر

الرملي من الجبل تجاه السهل المتسع لوادي العويند. لقد استغرقنا حوالي نصف ساعة للوصول إلى الضفة اليسرى من الوادي بعد المرور بين تلين غير مميزين قال لي عبد الله: إنهما "البيبان" !! وقد بحثت بأقصى ما يمكن لأعثر على شيء في أي من التلين يبرر الأحلام المفرطة التي استحضرها ذلك الاسم في ذهني عندما ذكر لي أول مرة.

لقد كانا مجرد تلين عاديين جداً بينهما درب للإبل القادمة من ضباء اختصاراً للطريق لتفادي الثنية الواسعة للوادي، وبدا عبد الله الآن غير متأكد قليلاً من موقع بئر العويند، وقررنا أنّ أفضل سبيل نتبعه هو أن نسير في مجرى الوادي باتجاه التيار إذا كنا نريد أن نصل مخيمنا في وضح النهار، وأصبحنا الآن في الظهر، وانطلقنا في رحلة العودة، على أننا لم نكد نمضي خطوات قليلة حتى جذب انتباهي شيء ما غير عادي في المنطقة التي تحيطها ثنية الوادي. وحيث إنه لا يزال أمامنا وقت وفير، فقد عزمت على إشباع فضولي، ولم نستأنف سيرنا باتجاه مجرى التيار إلا بعد ذلك بساعتين، ولشدة دهشة عبد الله، الذي أخبرني أصلاً بآثار العويند، وجدنا أنفسنا في وسطها، فقد كانت مستوطنة قديمة مهدمة ذات حجم عظيم، بمبانيها المتهالكة من ألواح الحجر الرملي التي تحتوي على عددٍ مرض جداً من النقوش الثمودية، ولم يكن هناك سوى

قليل من البقايا المتهدمة لمساكن بسيطة على السطح تحكي قصة هذا الموقع القديم، وساد عندي انطباع أن النصوص الثمودية على الصخور المتناثرة قد تكون سجلت منذ حوالي ٢٠٠٠ سنة مضت على أنقاض قرية أشد قدماً بكثير، ووحدها مسحاة علماء الآثار هي التي يمكن أن تفيدنا بشأن هذه المشكلة. وأرضيت نفسي باستنساخ النقوش.

وفي غضون ذلك كان عبد الله، بعد أن اشتكى من الظمأ، قد طلب إذناً وناله مني للبحث عن البئر، الذي وجده في الوقت الملائم على بعد حوالي ميل عكس مجرى التيار، وكنت قد انتهيت بشكل أو بآخر من عملي عندما عاد، وتأخرنا للحظات ونحن نتناول غداءنا البسيط من البسكويت والتمر، وكان معي حافظتي (الثرموس) مملوءة بالشاي المر لبلع ما أكلناه، ولكن عبد الله رفض دعوتي للشاي، قائلاً إنه وجد البئر وروى ظمأه. وقد شربت باقتصاد لأحتفظ ببعض الشاي للرحلة الطويلة الشاقة التي تواجهنا، وفي حوالي الثانية ظهراً بدأنا المشي نازلين في الوادي، وبعد ربع الساعة تقريباً تركنا حوض الوادي لنسير بمحاذاة رف في جرف الضفة اليسرى، التي تلتزمها الإبل المارة تفادياً للرمل الكثيف المتراكم على ثنية أخرى في الوادي، وفي الوقت المناسب عدنا إلى الوادي مقابل جبل الشواربي، وصادفنا قبراً مبنياً بصورة بسيطة من

ألواح الحجر الرملي، يبدو قديماً من مظهره على الرغم من أنه يحتمل أن يكون قبر ناصر بن عساف نفسه. ونحن ما زلنا جاهدين في السير توقفنا عند الرابعة لصلاة العصر في نقطة شبه مستوية مع دائرة الذئب، حيث كنا نأمل أن نجد الشاحنة في انتظارنا، ولم يكن هناك أي أثر أو صوت لها حيث واصلنا السير ببطء وتثاقل ونحن نمني أنفسنا بأمل بعد أمل أنها قد تأتي لإنقاذنا من يأسنا المتزايد، وخلال ذلك اعترف لي عبدالله بأنه وجد بئر العويند جافة، ولم يشرب شيئاً منذ أن غادرنا مخيمنا في الصباح، في حين كان معي حوالي نصف حافظة الشاي. وطلبت التوقف عند الساعة الخامسة عصراً للقضاء على ما تبقى معنا من الشاي ونحن واثقون من أن الشاحنة ستأتي لمقابلتنا، في أي ساعة كان. وأصر عبد الله أن أشرب أكبر قدر، ولم أستطع إغراءه بشرب نصيبه إلا بالتهديد بأنني سوف أريقه على الرمل. في جميع تجاربي وخبراتي بالجزيرة العربية لم أواجه أبداً مثل هذا البيان المؤثر للإخلاص والإيثار والتضحية بالنفس؛ لقد كان الرجل يموت من العطش، ولكنه يأبى الهزيمة.

وقبل الغروب مررنا على لوحة إرشادية كأنها وضعت لإبعاد الطيور ولكنها في الواقع تشير إلى اتجاه حوش أحد الرعاة، وبعد ذلك بقليل مررنا على كومين صغيرين من الحجارة يدلان على قبرين يشهدان على أحد جرائم البدو. وفي الغسق رأينا أثر المسارات

الخارجة والراجعة لشاحنتانا، التي التزمناها حتى اشتد الظلام بدرجة لا يمكن تعقبها بعد ذلك، ربما كان مخيمنا غير بعيد، ولكننا يمكن أن نضل بسهولة في الظلام، وليس هناك من أي إشارة لنيران المخيم، ولذلك عزمنا على أن ننام حيث كنا، بلا ماء أو عشاء كما أوقدنا ناراً لنجذب انتباه جماعتنا، وندفئ أنفسنا ونحن نحاول جاهدين أن ننام في هذا الليل القارس، ولم نتمكن من رؤية الشاحنة إلا بعد شروق الشمس قادمة نحونا من الاتجاه الذي أتينا منه منهكين.

لقد قضى رفاقي الليلة في مدرج الذئب، على الرغم من أنني قلت لهم إننا لن نعود إلى هناك حيث نويت العودة نزولاً من وادي العويند، بل إنهم حتى لم يرسلوا مراقبين لرصد مرورنا، بالرغم من أنه وبعد فوات الأوان، قضى عطا الله الليل مع بعض البدو فوق الإبل يبحثون في الوادي عن آثار سيرنا، التي وجدوها في النهاية. وعموماً، فكل ما ينتهي على خير فهو خير. وكان لي ولعبد الله سبب قوي في شكر النعم التي أولتها لنا العناية الإلهية، على الرغم من أن ردنا على هذا الموقف كان مختلفاً بشدة؛ فقد ملأ بطنه بالماء، في حين انتظرت أنا كوباً من الشاي، فلم أكن أشعر بالظمأ ولا بالجوع، حيث إنني أتميز عنه بتدخين التبغ خلال فترات سهرنا.

وسرعان ما نسينا متاعبنا، على الرغم من أننا لم نتمكن من تنظيم أنفسنا بصورة كافية إلا في العاشرة صباحاً تقريباً لننطلق باتجاه الشرق عائدين. وعندما وصلنا المضيق بين برقة سميحان وبرقة دمج كنا قد وصلنا الدرب المألوف، وبعد ذلك بزمن وجيز توقفنا مدة عند صخور المعيقيلة لنقل بعض النقوش الباهتة واستنساخ صورٍ لافتة للنظر للفرسان وراكبي الإبل على الرغم من حداثتها الواضحة، وخلال نصف ساعة كنا قد عدنا مرة أخرى إلى بيت الضيافة في تبوك، حيث استطعت أن أقدم لعلي ثروت انطباعاتي عن رحلتنا أثناء العشاء المبكر الذي قدمه ترحيباً بنا، وقضيت ما تبقى من الليل في معالجة القدر الكبير من البريد، الذي وصل في أثناء غيابنا، وهو أول بريد يصلني منذ أن غادرت المدينة منذ أربعين يوماً مضت.



الفصل الثامن

شَرَوْرَى وقُرَيَّة

قضيت الفترة بين عودتنا من رحلة روافة في ٢٨ يناير ومساء الأول من فبراير، عندما غادرنا تبوك نهائياً لبدء المرحلة التالية من رحلتنا، في أنشطة داخل الواحة وحولها التي سجلناها في الفصول السابقة. وكان آخر صباح لنا قد خُصص لزيارة رجوم شوهر، ومنها عدنا في وقت ملائم لتناول آخر غداء في بيت الضيافة مع علي ثروت، الذي سوف أتذكر دائماً مساعدته وكرم وفادته بالشكر والامتنان.

وكنا في منتصف ما بعد الظهر عندما خرجنا من تبوك على درب عادي للسيارات على طول الجانب الغربي من سكة الحديد، ولدينا فكرة عامة في قضاء الليلة عند سفح منبر شرورى، إلى الشمال تماماً من تبوك. وبعدما خرجنا بحوالي أربعة أميال عبرنا مصرف النصيفة الذي يمر تحت الخط بعبّارة، وبعد أن سرنا أميالاً قليلة دخلنا في حوض المحتطب الواسع، والذي يبلغ عرضه عدة أميال مع سبخات طينية متفرقة على جانبي سكة الحديد، تأتي السيول من المعيسى

والبقار والغويل (العويند) ويستوعبها هذا المنخفض، وفي نقاط كثيرة كسحت المياه السدود الترابية للطريق الدائم، وتركت قضبان سكة الحديد معلقة فوق الثغرات، على الرغم من أنها ما زالت متماسكة بعد خمسة وثلاثين عاماً من عدم الاستعمال.

وبعد مغادرة تبوك بنصف ساعة وصلنا محطةَ المحتطب، وهي مبنى وحيد من أربع غرف، مشيّد بصورة جيدة من الحجارة الرملية المشذبة، مع قليل من البيوت الدائرية البسيطة البائسة، ولا يوجد بئر هنا، ولكن الصهريج المبني تأتيه دائماً إمداداته بالمياه بسكة الحديد من تبوك، لتفي احتياجات الموظفين والقاطرات عندما كان الخط في الخدمة.

وتحتل المملحة (أو حلة الملح) الجزء الأسفل من الحوض الكبير، الذي يمتد متعارضاً مع الخط. وكان هناك علامات على نشاط البدو في أعمال الملح، ذي اللون الرمادي - البني ولا يبدو أنه جيّد النوعية، وكان لا يزال في إمكاننا رؤية محطة تبوك (وأشجار النخيل)، ربما على بعد اثني عشر ميلاً أو أكثر باتجاه ١٤٤ درجة، في حين كان منبر النبي صلى الله عليه وسلم شمال - شمال - شرق (٢٠ درجة)، على الرغم من أن طريقنا كان لا يزال ممتداً على طول الجانب الغربي من الخط باتجاه - شمال - شمال - غرب حتى المحطة

القادمة، وهي محطة الحَزْم، وقبيل أن نصل إليها عبرنا قناة وادي ضَمّ الضحلة الواسعة، وهي شريان التصريف الرئيس لوسط حسمى التي كانت تشتهر بأنها تحتوي على ما لا يقل عن تسعة وتسعين رافداً، وتمر تحت الخط بصف طويل من الفتحات لتدخل في سبخة طينية شاسعة تمتد حتى حافة تلال شروري، وهناك من السلسلة الطويلة لتلال عاجات الصغيرة نحو اثني عشر منها على الجانب القريب من القناة.

وكان المنبر يقع الآن للشرق منا تقريباً (٧٣ درجة)، بيد أننا لا نزال مضطرين للاتجاه شمالاً حتى نجد طريقاً أكثر صلاحية وملاءمة عبر أرض شروري المرتفعة. كانت محطة الحزم مثل محطة المحتطب بقدر كبير، وهنا يعبر الطريق الخط، ويسير موازياً له على الجانب الآخر في سهل ثابت من الحصى، الذي لا يزال تظهر به بوضوح تام عشراتُ الآلاف من دروب الإبل في طريق الحج القديم، إن اتساعه يزيد عن نصف ميل، وهذا يكفي لألف من الإبل أن تسير جنباً إلى جنب، ويستطيع المرء أن يتخيل بسهولة من هذه الدروب الملتوية قليلاً من صور جيوش الحجاج في العهد القديم وهم يندفعون بقوة للأمام في أعدادهم الضخمة يطوون ببطء -ولكن باستمرار- آلاف الأميال التي تفصل دمشق عن مكة، بيد أن عقلي كان مشدوداً نحو شخصيةٍ واحدةٍ فقط من بين كل هذه الحشود المتدفقة عبر القرون

على طريق الحج متوجهة لعبادة الإله الواحد الحق في حرمه المقدّس وزيارة مسجد نبيه ﷺ؛ تلك كانت شخصية فريدة يُعد كافراً في رأي جميع من ركبوا معه في تلك الأيام، ومع ذلك ظل موقراً بشكل غريب من الرجال الذين كانوا يستطيعون دخول الجنة بذبحه؛ وهو الذي كتب عليه أن يقضي عامين في محن وابتلاءات فرضها هو على نفسه ليحرز قدراً من الخلود نادراً ما يمنحه العرب بتوجسهم الطبيعي من الأجنبي في ديارهم؛ ذلك هو داوتي الرجل الفريد الذي سمي بحق "خليل" صديق أعدائه.

وعندما انحرفنا مبتعدين بالتدريج عن دروب الحجاج، وصلنا خلال خمس عشرة دقيقة تقريباً إلى الحافة العليا لسبخة طينية كبيرة ولكنها غير مستوية تسمى قعل الحرضة في حوض واسع لجبال عاجات توفر ممراً إلى داخل جبل شروری، في هذه النقطة كنا قد قطعنا خمسة وعشرين ميلاً تقريباً من تبوك، والآن استدرنا تجاه الجنوب - الشرقي من دربنا الشمالي بشكل أو بآخر نحو منبر النبي ﷺ، ونحن نسير بمحاذاة الجانب المرتفع من قناة شعيب الحرضة الضحلة، وبعد الغروب مباشرة توقفنا للصلاة، ثم واصلنا السير في الغسق نحو هدفٍ بدا أنه يبتعد عنا كلما دنونا منه. عندما أطبق الظلام علينا كنا قد وقعنا في شرك متاهة لا أمل فيها من الوهاد الصغيرة، والوعرة، والحادة التي تمنع الاقتراب من الجبل المقدس،

وفي حوالي السابعة والنصف مساءً قررنا أن نخيم على أرض مرتفعة تطل على وهد عند سفح المنبر، وهنا قضينا ليلة بائسة بالكامل، بلا نار، بلا شاي، أو حتى عشاء، والأسوأ من هذا كله، بلا دليل، فأرضيت نفسي بغليوني ومذياعي الذي جاءني بأخبار العالم الكبير، البعيد الآن عني بكثير، في بقعة لم يزرها أبداً من قبل بكل تأكيد شخص "متحضر"، مع احتمال استثناء شخص واحد هو أمريكي مجهول، وهذا الشخص لابد من أنه قد زار هذا المكان إما قبلي أو بعدي بفترة وجيزة، لأن تقريره عن احتمال وجود بترول ومعادن في منطقة المنبر قد أدى إلى اجتماع مجلس من الخبراء حول الصخرة في أوائل عام ١٩٥٤م لمناقشة الموقف، ولكن نتيجة هذا الاجتماع لم تنشر بعد على الناس.

وألقت مشكلةُ عدم وجود دليل لنا ظلالاً كئيبة على مخيمنا، وسرعان ما أصبح من الواضح أن الرجل الذي جاء معنا بهذه الصفة كان ببساطة رجل شرطة في حاجة إلى من ينقله وهو في طريقه إلى ذات الحاج، وهي محطة الحدود على سكة الحديد، لقد كان يعلم الطريق بالفعل، ولكني كنت أريد رجلاً ذا علم بالمنطقة، وهي رغبة يجب عليّ الاستغناء عنها في الوقت الحاضر.

لقد استغرقنا حوالي ساعتين في الظلام لنصل إلى مخيمنا من سبخة الحرضة على الرغم من أن المسافة بينهما لم تكن أكثر من اثني

عشر ميلاً، حيث إننا قطعناها في ساعة خلال عودتنا في اليوم التالي.

عندما استيقظت وجدت كل شيء مرتباً ومعداً للانطلاق فوراً من هذه البقعة القاحلة، لا شاي، ولا فطور، وكل شخص بائس وتعيس إلا أنا، لقد هونت الأمر على نفسي بتدخين غليون أو اثنين بدلاً من شاي الصباح، وعند الثامنة -وبدون أن أنبس ببنت شفة- انطلقت فجأة في نزول المئة قدم المؤدية إلى أسفل الوادي ومن هناك صعدت، ببطء ومشقة، على الحافة الحادة الوعرة من ركام الحجارة المتساقطة والمتناثرة من سفح جرف حاد في القمة الحقيقية للجبل، وما كان يشبه من بعيد مسند القراءة قد تحول عن قرب إلى منحدر وعر ومرعب ربما بمسافة ٦٠٠ أو ٧٠٠ قدمٍ من قاع الوادي، والشيء الذي رأيناه من تبوك صغيراً قد أصبح جبلاً بحجم مخيف، وقد استغرقت ساعة للوصول إلى نقطةٍ على حافته الشمالية - الغربية بحوالي ٢٠٠ قدم أسفل القمة.

وكان من المستحيل تماماً عليّ أن أحاول تسلقه وحدي، وقد يستطيع متسلقو الجبال بلا ريب فعل ذلك، وأنا نفسي ربما وجدت طريقاً حول الجرف إذا كان عندي وقت غير محدود، ولكني توصلت إلى استنتاج وهو أن النبي صلى الله عليه وسلم، لم يُلق خطبته إلى العرب والعالم من هذا المنبر على وجه التحديد. وعندما

كنت أجلس هناك على الرف الخطر، حلقت طائرة فوقي، لا يمكن رؤيتها في السُحب، متجهة شمال - غرب نحو دمشق.

وعلى مسافة بعيدة، كانت تظهر بصعوبة سلسلة الطَّبَيْق على حدود الأردن، وراء الأرض المرتفعة الشاسعة خلف مجموعة شروري - عاجات، في حين كان امتداد السلسلة مع قمم دقداش والثية قد رأيته بنفسي من مخيمنا في أقصى الشمال - الشرقي، وفي غضون ذلك وجدت السيارة طريقها لتصل إلى سفح المنبر، ونزلت إلى نقطة ملاحظة جديدة لأرى الجرف الحاد بارتفاع ٦٠٠ قدم على الحافة الجنوبية -الجنوبية- الغربية للجبل، ثم عدت للسيارة، وهي غير بعيدة عني، لأكتشف أن رفاقي قد شغلوا أنفسهم خلال غيابي بالشاي، بعدما وجدوا وقوداً كافياً لإضرام نار، وأن عبد الله بن قعم قد اصطاد أرنباً برياً وأحضره حياً في كيس، وقد رفضت ما قدّم لي من مشروبات، وكانت الساعة الواحدة تقريباً بعد الظهر عندما بدأنا رحلة العودة عن طريق أسهل بكثير من الذي سرنا به في الظلام.

وبعد أن وصلنا رأس حوض الحرضة أسرعنا السير في السبخة الطينية وما تلاها من سهل حصوي لنصل محطة بير ابن هرماس في أقل من نصف ساعة بعد أن قطعنا ثمانية أميال تقريباً، وبهذا نكون قد قطعنا ما مجموعه حوالي عشرين ميلاً من سفح المنبر، وكانت

هنا بئرٌ، فيها ماء على عمق ستة قامات. وفوهة البئر مبنيّة بصورة جيّدة بالطوب والخرسانة ويبلغ قطرها عشرة أقدام عند القمة. وعلى هذه الفتحة قام مهندسو السكة الحديد بتركيب مضخة تعمل بطاحونة الهواء، والتي كانت -على كل حال- عاطلة عن العمل منذ مدة طويلة بقدر ما يستطيع أي شخص أن يتذكر.

بيد أن المحطة كانت تشغلها مفرزة صغيرة من ثلاثة رجال من المركز في ذات الحاج وكنت مسروراً أن أتركَ معهم دليلنا غير المجدي دون شكر أو مكافأة. وهذه المحطات كلها من نموذج واحد. وهنا يسير الخط جنوب -شرق وشمال- غرب، وفي هذا الاتجاه الأخير إلى ذات الحاج، التي لم نستطع أن نرى نخيلها، على الرغم من أن معالمها الأرضية القريبة كانت واضحة بدرجة كافية.

وكان بين ذات الحاج والمدوّرة في إقليم الأردن يمتد خط الحدود بين المملكتين، ومن المدوّرة فصاعداً حتى معان كان خط سكة الحديد قد تم تفكيكه خلال الحرب العالمية الثانية، ثم أعيد تمديده من معان حتى العقبة، وهذا هو الانقطاع الكبير الوحيد في الخط كله الذي كان ذات يوم يربط المدينة بمعان ودمشق، وإنه في الحقيقة لأمر يجلب التقدير لمنلر باشا وزملائه أن يصمد الخط الذي شيدوه بقوة شديدة لجميع التقلبات الطبيعية لما يقرب من أربعين عاماً من الإهمال وعدم الاستخدام، ولم يخضع للهوان على فترات متقطعة إلا بفعل

التخريب البشري المتعمد. وفي عام ١٩٢٤م قام الأمير علي، الإبن الأكبر للملك حسين، فعلاً بإحضار عدد من القطارات من المدينة المنورة إلى عمان على طول هذا الخط، ليس بلا مصاعب محلية، ليحتفل بزيارة والده الرسمية لعاصمة الأردن الكبير، على الرغم من مزاعم تدميره بالديناميت على يد لورانس وعصاباته خلال الحرب العالمية الأولى.

لقد كان، ولا يزال، عملاً رائعاً وفذاً في هندسة السكة الحديد تمّ إنجازه حتى الآن في أرضٍ قاحلة وربما يجرى ذات يوم مرة أخرى إذا كان من الممكن استخدام المال في مشاريع أكثر ربحاً وعائداً، وعلى مدى ثلاثين سنة قيل لنا إنّ ذلك سيحدث، إلا أننا كنا -على ما يبدو- نتفاءل كثيراً طيلة هذه المدة.

في هذه اللحظة كنت مهتماً بصورة أكبر بالمشهد نحو الغرب تجاه الآثار الأسطورية للقريّة (أي القرية الصغيرة)، والتي على حسب علمي لم يزرها أبداً شخص أوروبي. لقد سمع بها داوتي وبيرتون وموسل وكاروثرز وكلهم تمنوا زيارتها، بيد أنه لم يستطع أحدٌ منهم عمل ذلك، سأكون هناك في المساء، لأصبح أول من يكشف النقاب عن أسرار مستوطنة نبطية قديمة، وبعد ثلاث سنين لاحقاً قال لي صديقي جورج رنتز من شركة أرامكو -حيث لفت انتباهي لحقيقة- إنه قد سبقني بخمسة وأربعين عاماً الرحالة الألماني برنارد مورتز

الذي زار الموقع في ١٩٠٦م. وقد نشر وصفاً موجزاً لزيارته في كتابه العربي الذي أصدرته مطبعة في هانوفر عام ١٩٢٣م، وهذا لم يدع أي مجال للشك في أسبقيته، ومع ذلك لم أتمكن بعدُ من متابعة وصفه الأكثر تفصيلاً لزيارته في دورية علمية صدرت في بيروت عام ١٩٠٦م أو العام الذي بعده(١).

وتتحدر الأرض من المحطة برفق مرتفعة إلى أعلى نحو الغرب، تتناثر فيها هنا وهناك مجموعات أو خطوط من أكوام الحجارة الرملية، حيث كان دربنا يمتد، عدة أميال أمامنا، بين تلك التي تسمى عظيمة البير عن يسارنا وعظام الطعوس عن يميننا. والمقطع الأول من الاسمين يشير إلى المماثل الطبيعي في الأرض لسلسلة فقرية لهيكل عظمي كبير.

وكان هناك بالعرض جبلٌ أعلى منهما هو عظمة المساعيد قد حجب الوادي بعيداً عن رؤيتنا حيث تقع القرّية، ولكننا كنا نستطيع أن نرى سلاسل الجبال والتلال في الهضبة المنبسطة المرتفعة من ورائها لمسافة بعيدة، وكانت أكوامُ سرابط الحاج البارز وتلُّ الشعثاء الشاهق يظهران الموقع التقريبي لمحطة ذات الحاج إلى الشمال -

---

(١) مجلة كلية الشرق ببيروت - المجلد الثالث - الجزء الأول.

(Melanges de La Faculte Orientale de Beyrouth, Vol. III, part I.)

الغربي منا، على بُعد اثني عشر ميلاً أو أكثر، والمسافات الفاصلة بين سلاسل الجبال المختلفة مملوءة بطبقات من الرمل، تطورت في بعض الأماكن إلى خطوط قصيرة من تلال منخفضة.

وقد وجدت نقوشاً قليلة على صخور عظام الطعوس، وبعد ذلك فوراً عبرنا جبل المساعيد من خلال مضيق منخفض، علامته أكوام تشبه الأعمدة تسمى عُمَيِّد الخُرم. من هنا نظرنا إلى الأسفل إلى الوادي والسهل الفسيح المسمى غويل السيل، على الرغم من أننا لم نتمكن من رؤية أي شيء من قريّة مقابل خلفيتها الداكنة من سلاسل الجبال المنخفضة، وكان السهلُ الذي عبرناه على طول الضفة اليسرى لشعيب الغُوَيْل ذا طُفّال رملي، ناعم جداً في بعض أجزائه وتقطعه بُقع كثيرة من الرمل، وطبقات من الحجر الرملي الأبيض الصلب، والطريق الرئيس من تبوك، عبر الحزم، إلى مدين يقطع هذا السهل بالعرض متجهاً إلى ممر بين جبلي عمارة العجوز والذيابية على مسافةٍ ما عن يميننا.

وبعد أن عبرناه سرعان ما وصلنا إلى أول علامة من علامات الزراعة القديمة وهي حقول فواصلها من الحجارة، وسدود، ومبان متهدمة. وخلال عشر دقائق كنا قد نصبنا مخيمنا قريباً من الركن الشمالي - الشرقي للمدينة الركام نفسها، وإلى الغرب من صخرة المنبر البعيدة الآن في شروري.

وقد عزمت على أن أبقى هنا الوقت اللازم للاستكشاف التام لقريّة وما جاورها، ولكن كان همي العاجل الآن أن أعيد تنظيم جماعتي. ولأسفي الشديد، لم يكن زعل معي ليرافقني، وقد أعاد علي ثروت تعيين عطا الله وعبد الله بن قعم والرجلين الآخرين من جماعة رحلتي في الروافة، محمد بن دخيل وحمد بن دايل، ليكونوا مرافقين لي. وعلى الرغم من المتاعب التي تعرضنا لها بالفعل، فإنني لم أعترض على هذا الترتيب، على أمل أنهم ربما، بعد معرفتهم بي وبطريقتي، يبذلون جهداً لمساعدتي في أداء مهمتي، لقد أظهروا بوضوح خلال هذين اليومين الأولين أنه ليس لديهم أي نية لتنفيذ ذلك، وقررت أن أتخلص منهم. وفي الساعات الباكرة من الصباح التالي انضممت إليهم عند نيران المخيم، وقلت لهم إن الشاحنة تحت تصرفهم لتعود بهم إلى تبوك مع خطاب يشرح مبرراتي لفصلهم.

إن توفير الأدلاّء كان مصدراً مزمناً للمتاعب في رحلاتي، وهذه المهمة كانت بلا شك من مسؤولية الرجال الذين تُعيّنهم السلطة المختصة ليكونوا رؤساء لجماعاتي. لقد كان لهم مطلق الحرية في اختيار أفراد تلك الجماعات، ونظراً للأرباح والعلاوات والأجور الإضافية التي سوف يحصلون عليها من خلال خدمتي، فقد كانوا في العادة يختارون -فقط- أقاربهم أو أصدقاءهم الحميمين.

وأوضحت لهم مراراً وتكراراً أن كل ما أطلبه منهم توفير أدلاء ذوي معرفة جيدة بالمنطقة. إنني سوف أتغاضى عن كل أنواع القصور الأخرى، ويشمل ذلك نقص الطعام وخلافه، ولكن بدون دليل كفء لا أستطيع أن أؤدي عملي بصورة مرضية. ولذلك لن أتسامح مع أي تقصير في هذا الجانب.

وبعد هذا كله تنشأ المشكلة نفسها مرة بعد أخرى، إنهم فقط لا يستطيعون أن يفهموا سبب احتياجي أكثر من مجرد شخص يعرف الطريق وكفى، وفي هذه القضية الماثلة أستطيع القول أن عطا الله ومجموعته كانوا مسرورين للرحيل عني مثلما كنت مسروراً برؤية آخر واحد منهم، على الرغم من أنني لست متأكداً من ذلك تماماً؛ فخلال ساعة أو نحوها استطعت أن أتنهد زفرة ارتياح عندما رأيت اللوري ينطلق بهم إلى تبوك.

وفي غضون ذلك، كان توقع وجود قهوة وطعام في مخيمنا قد جذب الاثنين الوحيدين من الرعاة العرب في المنطقة المجاورة لنا، وعقدت اتفاقاً مع كليهما ليعملا دليلين خلال مدة بقائي في قريّة، وكانا يحملان اسماً واحداً، سلمان، وهما من بني عطية من فخذ الربيلات وهكذا تركنا أحدهما ليحرس المخيم حتى عودة اللوري بفريق جديد، وذهبت مع الآخر لاستطلاع المناطق المحيطة بنا من الجبل الشاهق المطل على أطلال المدينة القديمة، وحلقت فوقنا طائرة

ونحن ذاهبون، ومن تكرار ما سمعنا أصوات الطائرات وهي ذاهبة في هذا الاتجاه أو الآخر خلال هذه الأيام يظهر أننا كنا تماماً تحت الطريق المنتظم بين جدة ودمشق. يبلغ طول تل حصن قريّة ١٠٠٠ ياردة تقريباً وعرضه يصل إلى ٣٠٠ ياردة، وكان شيئاً مثيراً للدهشة والإعجاب. فالطرف الشرقي المستدير، المطل على المدينة، كان جرفاً حاداً ارتفاعه ٤٠٠ قدم تقريباً، ومن طرفيه يمتد الجانبان الشمالي والجنوبي وهما مشكلان من نتوءات (أجراف) متماثلة يصعب الوصول إليها ويتراوح ارتفاعها بين ٢٠٠ و ٤٠٠ قدم وتمتد نحو الغرب بحوالي ٦٠٠ ياردة.

عند هذه النقطة يتفكك الجبل إلى بقعة وعرة من الصخور المنهارة والرمل بدون جرف على كلا الجانبين، بينما كان الجرف واللسان في الطرف الغربي يطلان على السهل بجدران حادة الانحدار ولا يمكن الاقتراب منها. وتوفر المنطقة المفككة من الجبل طريقاً سهلاً ولكنه وعر إلى قمة الجبل من جهتي الشمال والجنوب لمرور المشاة أو الحيوانات، ولكن بالتأكيد ليس لأي نوع من السيارات، وقد تغلبت أنا وسلمان على المنحدر الوعر في الجانب الشمالي، لنصل إلى الجزء الأعلى من القمة عند بقايا أحد الأبراج (إي - أ) وهو نحو ٢٥ قدماً مربعاً ومنه ينزل جدار طوله ٢٠ قدماً نحو الشمال بطريقة حادة حتى حافة الجرف على ذلك الجانب، على مسافة تبلغ ١٥٠ ياردة

تقريباً. ومن البرج نفسه يمتد جدار آخر في اتجاه الشرق مسافة ٧٠ ياردة على امتداد قمة الجبل، أي حوالي ٥٠٠ قدم فوق السهل، ومن هذه النقطة ينزل بصورة حادة على المنحدر المعاكس حتى حافة الجرف على الجانب الجنوبي، أي مسافة تبلغ حوالي ١٥٠ ياردة. من الزاوية المكونة بهذا الشكل تمتد ذروة الجبل نحو الشرق حوالي ٢٠ ياردة حتى برج آخر (برج بي - ب)، ومنه ينزل الامتداد الجبلي بشكل حاد مسافة عشرة أقدام تقريباً ليستمر في الاتجاه نفسه نحو ٨٠ ياردة حتى ركام برج ثالث (البرج سي - ج)، ومن هنا تستدير القمة قليلاً لليسار ليصل ارتفاعها الأصلي عند البرج (دي - د) أو عند البوابة، مسافة ١٠٠ ياردة، ومن هذا البرج على قمة الجبل يتجه السور الشرقي للحصن نازلاً بصورة حادة نحو الشمال - الغربي والجنوب - الغربي حتى حافة الجرفين الشمالي والجنوبي على التوالي.

والجزء الشمالي من السور ينزل بشكل حاد ويبلغ طوله ١٠٠ ياردة، بينما الجزء الجنوبي منه أقل حدة في الانحدار وطوله ٩٠ ياردة تقريباً، وهذان السوران الشرقي والغربي من منطقة القلعة يتراوحان من عشرة إلى اثني عشر قدماً في الارتفاع حسب ما هما عليه الآن، على الرغم من أنهما كانا بلا ريب متساويين في الارتفاع بحوالي عشرين قدماً عند بنائهما في الأصل. وهما مشيدان من ألواح الحجر

الرملي الرقيقة الحمراء مع استعمال مونة طينية في رصف الألواح الحجرية، وقد يبدو أيضاً كما تدل بعض المؤشرات أن جداراً من نوع ما كان يمتد على طول القمة بين الأبراج المختلفة التي أشرنا إليها آنفاً، ولكن من الناحية العملية لم يتبقَ شيء منه الآن وحتى الأبراج نفسها لم يبق منها إلا النذر اليسير متمثلاً في قواعدها.

وبخلاف الأسوار والأبراج فلا يوجد أي أثر لأي مبنى آخر من أي نوع في مساحة تغطي نحو مئة وعشرين فداناً، بيد أن المنطقة كلها داخل وخارج الأسوار تتناثر فيها بكثرة الكسر الفخارية، التي جرفت المياه الكثير منها من الجرف إلى سطح الأرض في الأسفل، وبخلاف البرج (دي - د) الذي ربما كان بوابة تؤدي إلى الجزء الشرقي من الجبل خارج الأسوار، فإن العلامة الوحيدة الأخرى على مدخل يؤدي لمحيط القلعة توجد في زاوية السور الغربي، حيث يوجد دليل على طريق ممهد يصل إليها من الجانب الجنوبي للتل، مما يبرر بسهولة عدم وجود أسوار على الجانبين الشمالي والجنوبي حقيقة إن الأجراف الحادة في هذين الجانبين لا تحتاج إلى أي تحصينات دفاعية اصطناعية.

وعلى بُعد ثمانين ياردة تقريباً نحو الشرق من البرج (دي)، على قمة التل في اتجاه المدينة، تقع بقايا برج صغير أو نقطة مراقبة، وفي الوقت نفسه توجد رقعة مماثلة من الآثار على حوالي المسافة نفسها

بعيداً في اتجاه الشرق، وبعدها توجد أخرى أيضاً على مسافة تسعين ياردة، في حين تنحدر بعد ذلك بنحو أربعين قدماً أرفف الجبل بصورة حادة حتى حافة الجرف الحاد، حيث توجد بقايا برج مشيد تشييداً قوياً من الحجارة الرملية الصلبة، وهو أفضل شيء باق من الأشياء الأخرى في منطقة القلعة ما عدا السورين.

وتبلغ حافة الرف أربعين ياردة من هذا البرج، كما تمتد حافة الجرف، الذي يصل إلى ٤٠٠ قدم، من اللسان الشرقي لياردات قليلة وراءها، وتمتد رأس مساحة واسعة من أنقاض الصخور، والطمي، والرمل المنجرف مع التيار حتى منتصف الطريق إلى الجرف الحاد، مع قاعدة منحنية عند المسطح الذي يبلغ اتساعه ١٠٠ ياردة تقريباً، وقد لفت انتباهي ذلك كواحد من أهم معالم قريّة، لقد اختلطت مكوناتها الطبيعية مع أكداس من كسر الأواني الفخارية من كل نوع وشكل وبعضها له ألوان وطرز شديدة الجمال والجاذبية، ويبدو من المستحيل تقدير كميتها دون تنقيب شامل ربما ينفذه ذات يوم علماء آثار أكفاء. وتتناثر شظايا الكسر الفخارية على السطح المنحدر للساحة، فالحفر البسيط تحت السطح لاختبارها يشير بوضوح إلى أن هذا التل مستودع من البراهين الأثرية.

وقد أودعت ما جمعته من تلك الكسر الفخارية كما ينبغي في متحف جدة، وقد احتفظت بالقليل منها لتقديمها إلى الآثاري

المصري الدكتور/ أحمد فخري الذي فحصها وقدر بأن تاريخها يعود لما بين عام ٢٠٠ قبل الميلاد و ٢٠٠ ميلادي. وهذه القرون تشمل فترة ازدهار الأنباط وسيطرتهم على شمال الجزيرة العربية، وليس من شك في أن الأنباط كانوا آخر عنصر مهم سكن قريّة. والتنقيبات العلمية وحدها يمكن أن تكشف الطبقات التحتية التي كان يسكنها أسلافهم، أياً ما كانوا. ولا بد من التأكيد هنا على أن الأشياء التي أخذتها معي تمثل مجموعة منتقاة من اللقى جمعتها من سطح الأرض أو تحت السطح مباشرة وكذلك من منطقة الأنقاض في المدينة القديمة ومن تلها خارج السور الجنوبي.

وبخلاف المباني التي تشبه الحصون أو ما تبقى منها، والتي تحيط بذروة الجبل، لم يكن هناك أثر لأي منشآت أخرى من أي نوع كانت في كامل المنطقة التي يحيط بها السوران وقمم الجروف على كلا الجانبين اللذين ينحدر إليهما الجبل المركزي في قسمين متساويين تقريباً مثل سقيفة عظيمة. وإذا كان هناك أي مبانٍ على الإطلاق في هذه المساحات فلا بد من أنها قد انجرفت مع الأمطار عبر القرون فوق حافة الجرف، على الرغم من أن حقيقة عدم وجود دليل على أي بناء متهدم أو ساقط عند سفح هذه الجروف يؤكد عدم وجود مثل هذه المباني أصلاً. ومن ناحية أخرى تتناثر في المنطقة علامات واضحة على سكنى الإنسان متمثلة في هذه الكسر الفخارية على

الأسطح المنحدرة وعند قاع الجرف. وربما كان الموقع مستخدماً كمستوطنة يلجأ إليها سكان قريّة في أوقات الخطر كمخابئ، وهناك تفسير آخر بديل وهو أنه ربما كان مكاناً مرتفعاً (سامياً) للاحتفال المرتبط ببعض الطقوس الدينية، وهذا ما لا يمكن تأكيده إلا بعمل علماء الآثار في الموقع.

وفي كلا الحالتين يحتمل أن سكان التل قد عاشوا في الخيام أو في العراء خلال إقامتهم المؤقتة به، ويأتون ومعهم مؤونتهم وماؤهم في جرار وأباريق، التي يوجد قدر هائل من الأدلة عليها في كل مكان، لا سيما في الساحة الشرقية، حيث لا يمكن تفسير وجودها هناك إلا بافتراض أنها كانت ترمى أو تلقى عمداً في الأسفل من فوق الجرف عندما تنكسر أو تنتهي الحاجة إليها، وقد وُجد هنا وهناك على مجموعة الأجراف المحيطة بالتل، لا سيما على الطرفين الغربي والشرقي، عددٌ هائل من النقوش، معظمها ثمودية، وبعضها يوحي بأنها موغلة في القدم، على الرغم من أن المظهر القديم بشدة لبعضها قد يُعزى إلى نوعية الصخور أو مدى تعرضها للعوامل الجوية.

وأخيراً، وبقرب الطرف الشرقي من الواجهة الشمالية وفوق مستوى الأرض قليلاً، يوجد كهفان اثنان فحصتهما بالتفصيل ذات أصيل؛ كانت جدران الجرف (الذي يحوي الكهف) من الطين والمرل حوالي ١٠٠ قدم من القاعدة، وبعد ذلك من الحجر الرملي

الصلب ذي اللون البني والأحمر الفاتح، وكان منظرُ الكهفين من مخيمنا يوحي بمحاولات الأنباط البدائية نسبياً لتقليد طراز القبور الحجرية التي كانوا يحبون دفن موتاهم فيها، ولكن الفحص عن كثب أظهر أن هذين الكهفين كانا، على الأقل جزئياً، نتيجة نحت أو تآكل طبيعي في قاعدة الجبل الهشة، في حين تم تطويرهما بالتأكيد، بصورة عشوائية نسبياً، من قبل الإنسان ربما ليستخدمهما مقابر جماعية.

كانت فوهة الكهف الأول مبطنة بألواح الحجر الرملي مع ملاط من الطين، وكان واضحاً أن هذا المدخل قد تهشم على يد الباحثين عن الكنوز، إذ تقع الحجارة المتساقطة جزئياً داخل الكهف وخارجه على جانبي الحاجز المنخفض، الذي يمثل قاعدة السور الأصلي. وكانت غرفة الكهف عرضها ١٥ قدماً عند المدخل، ثم تضيق إلى ١٠ أقدام عند الطرف الداخلي، الذي كان على بُعد حوالي ٥٠ قدماً من الفوهة. أما ارتفاع الغرفة فقد كان ١٥ قدماً تقريباً، في حين كان الجدار عند الطرف الداخلي محفوراً لتوفير فتحتين لغرض غير معروف، ولم يكن هناك علامة تدل على قبور أو تجاويف صغيرة، مثلما يوجد في معظم قبور الأنباط الصخرية، وكانت هذه الغرفة كلها منحوتة، إما طبيعياً أو اصطناعياً، من طبقة الطين والمرل في الجرف حتى السقف الذي تكونه طبقةُ الحجر الرملي الصلب والناعم

في الجزء العلوي، ويلاحظ في الجدران حفر من مخلفات أعشاش الدبابير، وتمتلئ الأرضية بكميات كبيرة من عظام البشر والإبل، مما يوحي بأنها قد أتت بها الضباع إلى هناك من القبور أو المراعي المجاورة. ويوجد الكهف الثاني على مستوى أكثر ارتفاعاً نسبياً عن الآخر، وكان حوالي قدمين فقط من جدرانه الداخلية مكونة من طبقة الطين والمرل، في حين كان الباقي كله من الحجر الرملي الصلب، ومن الواضح أنه من عمل البشر، ولم يكن المدخل مبنياً مثل ما في الكهف الآخر، ولكنه كان مغلقاً بحاجز وعر من ركام الصخور والرمل، الذي كان مفصولاً إلى جزأين ربما بفعل لصوص القبور.

ويتكون الكهف من جزأين، الأول غرفة في الخارج عرضها ١٥ قدماً، مثل المدخل، وطوله ٢٥ قدماً في الداخل، وارتفاعه اثنا عشر قدماً تقريباً، ثم ردهة داخلية ضيقة يصل ارتفاعها إلى ٣ أقدام، وتمتد من فتحة في الجدار الخلفي حوالي ٨٠ قدماً في الصخر الصلب.

ولم يكن هناك أيضاً أي أثر لقبور أو تجاويف صغيرة، ولا حتى فتحة أو ارتداد من أي نوع، بالرغم من أن الأرضية كانت مفروشة بعظام وجماجم بشرية وعظام إبل مثل سابقتها، ومن هنا قد حملت جمجمة بشرية كاملة وهي الآن في متحف جدة.

هذا كل شيء عن تل الحصن والذي تمتعت من نقاط مختلفة في قمته المزخرفة الجميلة بإلقاء نظرات رائعة على المنطقة المحيطة به في هذه المناسبة وغيرها من المناسبات، لا سيما من أعلى نقطة فيها عند البرج (بي : ب) ومن قمة البرج الشرقي. وكانت هذه الأخيرة تطل مباشرة على آثار المدينة القديمة، القريبة من الناحية الشمالية - الشرقية، بينما كان المرتفع الجميل من هذا البرج حتى البرج (بي : ب) تمتد من اتجاه شمال الغرب.

وكان السور الدائري للمدينة كلها، الذي تمثله الأحجار المتساقطة منه وبعض الثغرات فيه بسبب السيول، يمكن رؤيته وتمييزه بوضوح من البرج، وعلى فترات متقطعة خلال إقامتي أتيحت لي فرص قياسه كله بالخطوات، لمعرفة المخطط الدقيق لتصميمه؛ لقد كان للسور أحد عشر ضلعاً، والتي يمكن تخفيضها بقليل من رسم الزوايا الواسعة بخطوط مستقيمة إلى خمسة أضلاع، ورأسه يشير للشمال وقاعدته تتجه للجنوب، تبلغ المساحة التي تغطيها الآثار ١٢٫٥ فداناً ونصف الفدان، وطولها ٣٠٠ ياردة تقريباً من الرأس حتى النقطة الوسطى في القاعدة. وقمت بقياسات مماثلة فيما بين الزوايا الأخرى. وكان حوالي ثلث المساحة كلها، تقريباً على طول الأسوار الشرقية، يشغله منخفض جاف يحتمل أنه كان بحيرة أو خزاناً للمياه لضمان إمداد السكان بالماء بصفة دائمة، وكانت الأرض المرتفعة

على ثلاث جوانب من هذا الحوض مغطاة بأشياء مبعثرة من أنقاض المساكن التي كان الناس يعيشون فيها، ولا يمكن من الناحية العملية تمييز وحدة واحدة من هذه المساكن وسط الخراب العام.

وعلى المرتفع الجبلي فقط والذي يشكّل الجانب الجنوبي من منطقة الخرائب، يوجد ركام الأحجار المتساقطة من بناء الأسوار والمباني التي يمكن بالكاد معرفة مخططاتها في غياب عمل آثار مقدر، والمساحة المتهدمة من السور في الجهة الشمالية - الشرقية ربما كانت تحتوي على بوابة اختفت معالمها تماماً، بينما توجد بقايا البوابة الوحيدة التي يمكن تمييزها في الزاوية الجنوبية - الغربية المقابلة من المدينة.

ويوجد الكثير من كسر الفخار والزجاج، والقواقع وأشياء أخرى يمكن جمعها من بين الأنقاض وفي الكوم الكبير خارج السور الجنوبي، ولكن الفوضى التامة وحالة الآثار داخل الأسوار قد منعت أي محاولة لتحليل المعثورات. ونوعية البناء الجيد على الأرض المرتفعة داخل السور الجنوبي توحي بأن هذه المنطقة كانت مكان السكن الرئيسي، بينما كان الجزء الأكبر الواقع بين السور الغربي والبحيرة يؤوي بلا شك غالبية السكان. وتمتد الحافة الشرقية للماء على طول السور في ذلك الجانب، والانقطاع في السور الشمالي يوحي بأن مخرجه إلى الوادي المجاور كان هناك أيضاً. وتنحدر قناة

هذا الوادي -الذي يُعرف بشعيب قريّة من التلال المنخفضة في المدينة- لتمرَّ من خلال فجوة ضيقة (حوالي ٢٠٠ ياردة) بين الزاوية الجنوبية - الغربية للمباني الأثرية وسفح تل الحصن الواقع مباشرة تحت قمة البرج المزخرفة. وهناك بقايا سد يمتد على هذه الفجوة لا تزال معالمه واضحة على الجانبين، في أسفل جرف المجرى السورُ الغربي للمدينة. والمنحنيات الأخيرة تلتف حول الجانب الشمالي لتلتقي بقناة وادي الطرف الكبيرة، التي تنحدر من التلال العالية لهضبة حسمى.

ويمر الوادي على طول السور الشرقي من المدينة ليدخل في حوض كبير تبلغ مساحته ٢٠٠٠ فدان تقريباً وتوجد فيها أدلة وافرة على ازدهار الزراعة في العصور القديمة. وسوف نأتي على كثير من التفاصيل عن هذا الوادي فيما بعد، إلا أنه يمكننا أن نذكر الآن أن هذا الوادي كان أيضاً مسدوداً في العصور القديمة بسد في اتجاه شرق - غرب، يربط الزاوية الجنوبية - الشرقية من المدينة بالأرض المرتفعة من جبل خضروات ناحية الشرق.

ولا ريب في أن هذا السد كان يحافظ على تعبئة بحيرة المدينة بالماء، حيث بلغ طوله ٧٠٠ ياردة تقريباً، مع قناة سيل الوادي التي يبلغ طولها أربعين ياردة وكانت متقاطعة معه في أقل من منتصف المسافة من الجهة الشرقية. والسهل على الجهة الغربية من تل الحصن

كانت تقطعه بالعرض قناة وادي المسيوغ الرملية الواسعة، والضحلة نسبياً، وهي تنحدر أيضاً من التلال في الهضبة العالية وتسير باتجاه الشمال على طول جبل منخفض على شكل معيّن الذي يفصلها عن الحوض المزروع، وفي مجراها تلتقي بعدد من الروافد، تشمل شعيب حرف ضباء وشعيب الطف وأخيراً شعيب الغل من جبل الذيابية، وفي النهاية تتلاشى في سبخة طينية مالحة يصعب تحديدها نسبياً تعرف باسم سبخة عظمة الخارم، حيث تلتقي هناك بخط تصريف سيل الغويل الذي عبرناه ونحن في طريقنا إلى قريّة.

وهذه المنقطة كلها محصورة فيما تسمى أرض لح التي تشمل الحافة الخارجية للأرض المنخفضة بين الهضبة والحوض، ولا بد أن هذه القنوات ظلت ذات يوم تصرف مياهها فيها حتى كبرت التلال الرملية وأعاقت مجراها. وكما رأينا من قبل، فإن الجزء الجنوبي منها يضم المناطق الآهلة بالسكان في كل من رجوم شوهر والجرثومة والرايس والقرى التابعة لها، بل وحتى تبوك نفسها.

إن قريّة وبعض الأصقاع الأخرى، التي سوف نناقشها في الوقت المناسب، تمثل مجموعة ثانية من القرى القديمة المعتمدة على الزراعة، بينما على مسافة أبعد في الشمال نجد أن واحة ذات الحاج وربما المدّورة نفسها هما أبعد القرى للشمال من أرض لح. وفي العصور البائدة لا بد أن قريّة كانت أهم مركز فيها، لأنه لا يبدو أن

هناك دليلاً بذلك أن تبوك كانت ذات يوم آهلة بعدد كبير من السكان، على الرغم من أنها كانت بالتأكيد مكاناً هاماً لمياه الشرب على طريق القوافل الرئيس. لقد كانت تبوك بكل تأكيد ما اسماه بطليموس تباوا، وإلى أن يأتينا التأكيد من الآثار يمكننا أن نقبل مبدئياً تحديد موسل وهو ليس بالضرورة مؤكداً، بأنّ قريّة هي ما أطلق عليه بطليموس اسم أوستاما. (وبالمناسبة فإن موسل قد أخطأ، بصورة يمكن التغاضي عنها، في وضع قريّة في وادي زَيْتَة الذي -كما سنرى- كان موقعاً لمستوطنة قديمة أخرى). إن كل ما نعلمه على وجه اليقين أنه من المستبعد أن تسمى قريّة الأنباط. ويبدو أن سبب وجودها أصلاً كان زراعياً بصورة أساسية، ولكن الإمكانيات الدفاعية والمزايا الدينية لتل الحصن قد تكون منحتها أهمية قصوى في المنطقة.

وعزمت على أن أقضي اليوم الثاني في فحص مفصل للأمور الزراعية فيها، ولكن بعد يوم عامر تماماً بالعمل في الحصن ومسح ابتدائي لأسوار المدينة ما لبث أن أستقر بي المقام في المخيم بعد حلول الظلام مع السلمانين حتى قطع هدوءنا أزيز سيارات مقتربة. لقد عاد عطا الله وزملاؤه من تبوك، بالإضافة إلى زعل الذي رحبنا به كثيراً، ومعهم خطاب من علي ثروت يقترح فيه ضرورة احتفاظي بالجماعة كلهم، على الرغم من أنني كنت حراً في إعادتهم إذا

رغبت في ذلك. وقد عقدنا " مجلس حرب " كان من نتائجه أن يبقى معي زعل وابن دخيل، بصفته طباخنا وعاملنا اليدوي، في حين يجب على البقية أن يعودوا في شاحنة الأمير التي رافقت اللوري.

ولكنني قد اشترطت شرطاً هو أنه يجب على زعل أن ينطلق في الصباح التالي إلى ذات الحاج ليجد دليلاً كفؤاً للرحلة التي أمامنا، حيث لم يكن لدى السلمانين أي رغبة في مغادرة المنطقة واعترفا عن طيب خاطر بجهلهما المطبق بكل شيء خارج حدودها الضيقة. إنهما لم يكونا بارزين بالضبط في معرفتهما بمنطقتهما المحدودة، ولكنهما كانا رفيقين حسني النية طيّبي المعشر وبسيطين، ووفقاً لذلك، ففي الصباح التالي، ظل ابن دخيّل والسيد في المخيّم مع الشاحنة، بينما انطلق زعل وباقي الجماعة، بمن فيهم السلمانان، في شاحنة تبوك. وقد رافقتهم حتى النقطة التي كنت أريد أن أبدأ منها استكشافي للمنطقة الزراعية.

لقد ضاق الحوض هنا إلى حد ما بسبب الإنحناء إلى الداخل في التلال المرتفعة على كلا الجانبين، وقد اختار القدماء هذه البقعة لبناء سد طويل ليحتفظ بمياه السيول لري أحواض محاصيلهم كالمعتاد. لقد كان منشأة جديرة بالملاحظة خشن إلى حد ما وظاهر بصخوره ومحتوياته من الحصى، ولكنه كان كافٍ لأداء غرضه. بدءاً من قمة

التل المنخفض على جانبه الغربي، الذي تبينه كومة من الحجارة، يصبح اتجاهه العام نحو كوم من الحجارة مماثل على الجانب الأبعد جنوب - شرق (١٣١ درجة)، مع اتساع طفيف باتجاه الشمال في منتصف المسافة تقريباً، حيث يوجد هناك ثغرة في بنائه المتصل، وكان ذلك من دون شك نتيجة للسيول الحديثة، على الرغم من حقيقة وجود دلائل كثيرة نسبياً أيضاً على الزراعة القديمة أسفل السد تتمثل في الحقول المخططة بالحجارة مما يوحي بأنه عندما يكون هناك ماء كاف في الحوض فإن فائض المياه يُستفاد منه في الأسفل، وكانت قمة السد عند كوم الحجارة في شكل النصب يبلغ ١٠٠ قدم تقريباً فوق مستوى الحوض، وجداره الصخري يمتد نازلاً بانحدار نسبي حتى الحوض، بمسافة تبلغ ١٣٣ ياردة.

وهنا يبدأ السد الفعلي، فهو تل مستدير من الصخر والطين بدون أي دليل على بناء صخري حقيقي ويبلغ ارتفاعه ١٠ أقدام تقريباً في المتوسط، وقد تتبعته مسافة ٣٨٣ ياردة حتى بداية الثغرة التي كان عرضها ٨٧ ياردة، وهناك شجرة طلح واحدة متوسطة الحجم أعلى التيار مباشرة من الفتحة، وكان بين فروعها عش غراب قديم، ومن الطرف البعيد للثغرة يمتد السد مسافة ٥١٨ ياردة حتى حافة التل على الضفة اليمنى المعلّمة هنا ببناء مستطيل -بارتفاع الكتف- من الطوب والحجارة الرملية الكبيرة والمشذبة تشذيباً خشناً، ويبلغ طول البناء

٢٠ قدماً وعرضه ١٢٫٥ قدماً ونصف القدم، ومن الصعب تخمين الغرض منه. وبعد ذلك يستمر السد بجدارٍ صخري حتى المنحدر مسافة ٢٣٦ ياردة أخرى حتى برج مشيد تشييداً قوياً جداً يبلغ خمسة عشر قدماً مربعاً وطوله عشرة أقدام، وكان جانبان منه لا يزالان سليمين بينما الجانبان الآخران قد تفككا وانهارا وانجرفا إلى أسفل المنحدر البعيد.

ويبلغ إجمالي طول هذا البناء بهذا الشكل ١٢٥٧ ياردة، منها ٨٨٨ ياردة تمثل القسم الذي يقطع الحوض الحقيقي، ومن هذا البرج يمتد خندق للحماية يتبع تضاريس المرتفع الصخري في اتجاه الجنوب بصفة عامة، وينثني ويدور خلال شق طريقه في منحنيات التل. وربما كان هذا لتنظيم تدفق المياه ومنعها من غمر المحاصيل المزروعة، أو لحفظ المياه في قنوات خاضعة للتحكم والسيطرة تأتي من المنحدر على مسافات متباعدة.

وكان إجمالي طول هذا الخندق من البرج حتى الطرف الشرقي لخزان المدينة ٢٢٠٠ ياردة تقريباً، بفجوة حوالي ٥٠٠ ياردة للجنوب من الخزان لمرور طريق السيارات الرئيس من تبوك إلى القريّة ويشمل هذا الانقطاعات الناجمة عن الفيضانات والمساحات التي تركت عمداً لتدفق الروافد الصغيرة إلى الداخل. وليس هناك ما يستدعي وصف الحافة الغربية من الحوض لأنها تتكون من تل منخفض

مستقيم، يتكون من جزء من الصخر وآخر من الرمل وتمتد مباشرة من كوم الأحجار (النصب) الغربي في السد الأسفل حتى حافة تل الحصن.

ومن سفح تل الحصن، وبجوار كهوف المقابر، يجري خندق طيني نحو الشمال - الشرقي مسافة ٥٠٠ ياردة تقريباً، وعندها يلتف لليمين نحو بستان عظيم حقاً من أشجار الطرفاء في قاع شعيب قريّة على مسافة غير بعيدة عن السور الشمالي للمدينة، وفي منحنى هذا الخندق يلتقي بآخر آت من سفح جرف الحصن عند نقطة تبعد ٤٠٠ ياردة تقريباً عن الكهوف، ومن الواضح أن هذين الخندقين قد صُمما لتوجيه المياه المنصرفة من التل نحو رأس قناة قصيرة تؤدي إلى قاع شعيب. ويبدو أن بستان أشجار الطرفاء نفسه هو الشيء المتبقي من منطقة حدائق منمقة وملحقة بمجموعة من المباني بالضفة الجنوبية للقناة. وكانت كل المنطقة المرويّة تقع بين الضفة الجنوبية للشعيب والسور الشمالي للمدينة. ومن المحتمل على الأرجح أن تمثل هذه المنطقة فناءً لقصر الأمير الحاكم، ولكن لا يستبعد احتمال أن تكون منطقة معبد، وقد أطلقت على المباني بصورة مبدئية اسم (Nymphaeum) أرض الحور المحلية [١].

(١) يشير المؤلف لآلهة الحور التي كانت الأساطير القديمة تصورها في شكل عذارى جميلات يقمن في الجبال والغابات والمروج. (المترجم).

إن تكرار الإشارة في النقوش السبئيّة إلى "منزهات" أي آلهة المياه، الذين كانوا دائماً ذوي أهمية قصوى في الحياة الاقتصادية بالجزيرة العربية قبل الإسلام، قد يبرر مثل هذه التسمية، على الرغم من أن الغرض من تلك الآثار لا يمكن تحديده بصورة نهائية إلا بالتنقيب والدراسة المتخصصة. ولم أجد شيئاً هنا سوى قليل من الحجر الصوّان، وبعض المحار، وبعض كسر الزجاج (وهذا ليس شائعاً في قريّة) وبعض كسر الأواني الفخارية العادية. ومن المعبد نفسه لم يبق إلا القليل، الذي يشمل أساساته، التي تعطي المرء فكرة معقولة عن حجم ومخطط المباني. وكان الجدار الشرقي من المبنى الرئيس يمتد تقريباً شمالاً وجنوباً (٣٤٤ درجة حتى ١٦٤ درجة)، ويبلغ طوله ٨٥ قدماً، والجدار الشمالي كان بطول ٧٠ قدماً وبزوايا قائمة معه. وداخل هذا المستطيل كان في الركنين الشمالي - الشرقي والشمالي - الغربي غرفتان كبيرتان، مقاسهما على التوالي ٢٧ × ٤٠ قدماً و ٤٢ × ٤٠ قدماً، بينما كان الجزء من الفناء الواقع جنوب الغرفة الكبرى فيما يبدو ساحة مكشوفة.

وباقي المساحة مشغولة بأربع غرف صغيرة (أو ممرات)، وكلها بطول ٤٠ خطوة من الشرق للغرب، وتختلف في الاتساع من ٩ إلى ٧ أقدام. وكانت القياسات الخارجية لهيكل المبنى ٨٥ × ٧٠ قدماً. وكان سُمك جدران المعبد ٥ر٢ قدمين ونصف ا القدم وهي مشيّدة في

الغالب بطوب من الحجر الرملي غير المشذب، على الرغم من أن البناء كان في بعض الأجزاء ذا جودة رائعة. والمباني الثانوية تضم غرفة مفردة، مساحتها ٣٠ × ٢٥ قدماً، وضلعها الشمالي في خط مع الجدار الجنوبي للمبنى الرئيس، ويبعد حوالي ٣٠ قدماً للشرق منه. ومبنى ثانٍ يتكوّن من غرفتين، على مستوى واحد مع الجزء الشمالي من المعبد، ومفصول عنه بممر طوله ٧ أقدام. وتبلغ مساحة الغرفتين على التوالي ٥٠ × ١٨ قدماً و٥٠ × ٣٨ قدماً.

والمبنى الوحيد الآخر الجدير بالذكر في منطقة الآثار بقريّة يقع أيضاً مباشرة خارج السور الدائري، وفي زاويته الجنوبية - الشرقية، تقريباً عند طرف المدينة من السد الطويل عبر قناة طرف. وقد أطلقت على هذا المبنى مبدئياً اسم "القصر"، على الرغم من أنه على حسب موقعه ربما يكون على الأرجح المقر الرئيس لإدارة الري المسؤولة عن التحكم في مياه السيول. وكانت توجد بالمنطقة المجاورة له، وخارج السور الدائري، على الرغم من أنها تقع بينه وبين الوادي، مجموعة من أكوام الأنقاض المتناثرة، التي ربما كانت أكواخ العاملين في القنوات. والقصرُ نفسه هو المبنى الوحيد في قريّة الذي ثبت إلى حد ما لتقلبات الزمن، فلا تزال أجزاء كبيرة من جدرانه قائمة بشكل أو بآخر، ومنها على وجه التحديد قطعة واحدة كبيرة مشيدة من عشرة مداميك من البناء المشذب جيداً بارتفاع ١٥

قدماً، هذه القطعة وعدة أقسام أخرى أصغر منها ذكرتني بقوة بمعبد روافة، وليس من شك في أنهما يعودان إلى الفترة نفسها. وينتصب القصر على رابية صغيرة، التي يحتمل أن تكون طبيعية ولو جزئياً على الأقل، وبارتفاع يتراوح بين ١٥ و ٢٠ قدماً تقريباً، خارج محيط المدينة، حيث يكون الجدار الغربي للمبنى متوازياً معه وبينهما ممر واسع، وهذا الجدار يبدأ مقابل نقطة على بُعد ٨٠ ياردة شمال الركن الجنوبي - الشرقي للمدينة، ويمتد شمالاً لنحو ٣٧ ياردة، العشرة الأولى منها تبدو أنها تخص شرفة بارزة من المبنى الرئيس، والذي كانت مقدمته نحو المدينة نحو ٢٧ ياردة. ويبلغ اتساع المبنى من الغرب للشرق ١٧ ياردة تقريباً، والمخطط الداخلي كان يضم في الغالب غرفتين، إضافة إلى غرفتين صغيرتين يفصل بينهما ممر يؤدي إلى الداخل من بوابة في الجدار الغربي.

والقسم الأفضل ثباتاً من السور الدائري يقع في الركن الجنوبي - الشرقي، حيث توحي البقايا المتهدمة من البناء الحسن بوجود برج على الأرض المرتفعة (وهي أعلى نقطة في المباني المهدمة)، ومنه يمتد السور الجنوبي مسافة ٢٢٠ ياردة حتى الركن الجنوبي - الغربي، وبالقرب منه توجد البوابة الرئيسة ويحدها جداران غير طويلين (حوالي ثماني إلى عشر ياردات) في الخارج ومبنى صغير يحتمل أنه كان غرفة للحارس، ويتجه السور الشرقي المنحني قليلاً حوالي

٢٤٠ ياردة من الركن الجنوبي - الشرقي حتى ثغرة يبدو أنها كانت بوابة للمرور القادم من الشمال والشرق، والخط المستقيم الذي يربط البوابتين ببعضهما يشكل قاعدة شبه مستطيل يمثل معظم الجزء الأكثر كثافة سكانية من المدينة، التي ترقد الآن في حالة من الفوضى والخراب. وكان مخيمي خارج منطقة الآثار في زاويتها الشمالية - الغربية، وعلى الضفة اليمنى لشعيب قريّة. وربما تخضع ذات يوم هذه الآثار التاريخية الهامة للتنقيب العلمي والدراسة وعند ذلك فقد يمكننا أن نأمل في معرفة أشياء محددة عن الناس الذين سكنوها خلال أيام ازدهار حضارة الأنباط، ومن شبه المؤكد خلال عصور من هم أقدم من الأنباط.

يختلف ارتفاع القريّة قليلاً عن ارتفاع تبوك، ربما بمئتي قدم. لقد طوقت السماء سحبٌ كثيفة في ليلة وصولنا، بيد أنها انقشعت خلال الجزء الباكر من النهار التالي لتعود مرة أخرى في اليوم الذي بعده عندما تساقطت علينا قطرات قليلة من المطر. ومع ذلك كان الجو معتدلاً بصورة حسنة ومقبولة حيث وصل الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٥٢ درجة فهرنهايت. وكانت ليلتنا الثالثة أقل لطفاً بسبب الريح الرعدية العاصفة، التي بدأت خلال العصر واستمرت طول الليل كله، وهطلت علينا أمطار غزيرة قبل منتصف الليل مباشرة جعلت رفاقي يلجؤون إلى الكهوف، حيث استطاعوا -على

الأقل- أن يحتفظوا بملابسهم جافة في صحبة جماجم وعظام الأموات، ونحو الشمال كانت توجد سحبٌ رعدية كثيفة مع برق متكرر، وهبطت درجة الحرارة إلى حد أدنى قدره ٤٠ درجة فهرنهايت، ومع ذلك بزغ فجر اليوم بشكل جميل وبلا رياح في سماءٍ خالية من الغيوم. وظل اليوم جميلاً ودافئاً، بيد أن ذلك الليل (٦ فبراير) جاءنا بمزيد من هبوط في درجة الحرارة إلى حد أدنى قدره ٣٦ درجة فهرنهايت، وكان الصباح رائعاً مرة أخرى ولكنه كان بارداً نسبياً مع نسيم لطيف من الشمال، وكان من الواضح أن أحوال الشتاء كانت تقترب بالتدريج، ومع هذا كنا على وشك أن ندخل في الشتاء الحقيقي بصحراء حسمى العالية.

إن ندرة البدو الشديدة في هذه الأصقاع كانت تهدد بخلق صعوبات خطيرة في إعادة تنظيم جماعتي للرحلة التالية، التي لا أستطيع أن أشرع فيها بدون أدلاّء أكفاء، قد ازدادت مهمتي صعوبة بعودة الجماعة التي ذهبت إلى ذات الحاج بحثاً عن دليل، ليس فقط بدون دليل، ولكن أيضاً معززة بشخص يحتل منصباً هاماً ورفيعاً هو الضابط المسؤول عن مركز الحدود، الذي يُدعى ابن مزيد. وكان هدفه مناشدتي إعادة عطا الله وأصدقائه للعمل، وقلت له بكل لطف وأدب واحترام نظراً لرتبته العالية كرقيب أول ومسؤول عن مركز حدودي هام، بالرغم من أنه غير مشهور، إنّني لا أستطيع

على الأرجح أن أوافق على طلبه بسبب تجربتي الماضية مع هؤلاء البشر، وأردفت قائلاً إنه ما دام يتمتع بالطيبة الكافية حتى يخرج شخصياً إلى هنا لمساعدتي في مغامرتي فأقل ما أتوقعه منه أن يعثر لي على الأدلاء الذين أحتاجهم قبل أن أجرأ على مغادرة قريّة، حيث كنت مستعداً لقضاء ما تبقى من عمري هنا إذا كان ذلك ضرورياً. وهكذا، ومع أن الوقت كان متأخراً بعد الظهر انطلق مع عطا الله بحثاً عن مخيمات البدو التي قد تكون في المنطقة المجاورة.

وإنصافاً له يجدر بنا القول إنه عاد فيما بعد خلال الليل مع رجلين من بني عطية ليحلا محل السلمانين اللذين دفعت لهما أجرهما ورحلا وهما مبتهجان بأنهما لن يضطرا إلى الكدح معي بعد الآن. وقد ثبت أن سليمان وهويمل، خلفاءهما، كانا أكثر كفاءة بقدر كبير منهما في نطاق خبرتهما المحدودة نسبياً، وقد شرفني ابن مزيدٍ بالبقاء ليلتين في مخيمنا، وبعدها غادرنا آخذاً معه عطا الله وأصدقاءه الذين لم أرهم بعد ذلك. الآن فقط استقامت مجموعتي بوجود زعل وابن دخيل، والسيد طبعاً، والدليلين الجديدين. وتنفست الصعداء بتخلصي من هؤلاء الرفاق غير الملائمين.

ومع دليليّ الجديدين عدت لزيارة الحصن لمراجعة أسماء أماكن مختلفة كان السلمانان قد أعطياني إيّاها، وكما توقعت، كان هناك بعض التصحيحات التي يجب إدخالها على ملاحظاتي السابقة.

وهذا أمر عادي جداً في استكشاف الجزيرة العربية مما يزعج المرء بشكل كبير، على الرغم من أنه يعني دائماً إعادة العمل مرة أخرى بلا ضرورة. فالجبلان الاثنان المنخفضان اللذان يقعان إلى الشمال - الغربي من تل الحصن، وكانا بلا شك يشكلان جزءاً منه في العصور الجيولوجية القديمة قبل أن تنشأ الفجوات التي تفصلهما الآن عن بعضهم البعض، قد أعيدت الآن تسميتهما لي باسم أم رقبة، وعلى مسافة بعيدة في الاتجاه الذي سوف نسير فيه بعد فترة وجيزة، أشارا إلى جبل أم العواذر الذي يمتد بينه وبين جبل عمارة العجوز على الجانب القريب منه وادي زيتة الرئيس، الذي سوف نسير فيه صاعدين تقريباً حتى منبعه في مرتفعات الهضبة.

وقد أعيد لي أيضاً تسمية كثير من القمم والجبال في هذه المنطقة؛ فالقناتان، النازلتان على التوالي من تلال غوبّى في الجنوب - الغربي وجبل سدير في اتجاه دائري نحو الغرب، كان اسمهما شعيب المسيوغ وشعيب الزنيبل اللذين يتحدان ليستمرا بالاسم الأول حتى يلتقيا بوادي الغال الذي ذكرنا سابقاً أنه يتدفق مع قنوات قريّة في سبخة الخرم المالحة، أو على الأصح الجدرية.

وكل قنوات التصريف هذه لا بد أنها قد دخلت في العصور القديمة الامتدادات المنخفضة لوادي زيتة وهي في طريقها إلى سبخة الحرضة الطينية إلى أن أدى تكوم الرمال إلى انسداد ممر كلتا الشبكتين

وخلق أحواض مالحة منفصلة لكل منهما . وعلى مقربة منا أشار الأدلاء الجدد إلى بعض الخرائب الأثرية في شعيب طرف أو بُريقة ، ولكي نرى هذه الآثار نزلنا من الجهة الجنوبية للحصن ، وفي وسط القناة الرملية الواسعة تماماً عند هذه النقطة ، توجد جزيرة كبيرة للجنوب تماماً من خرائب قريّة ، وعلى بُعد ميلين أو ثلاثة تقريباً . وتتناثر على سطح هذه الجزيرة ، الذي كان في الأصل انبعاجاً للضفة اليمنى ، بقايا أثرية بسيطة منها خط طويل مستقيم من القبور الدائرية ، المجاورة لبعضها بعضا ومكوّنة من صخور صلبة ، معظمها ممدة على الأرض مثل أجنحة النسر .

ولم نجد شيئاً ذا أهمية هنا ، حيث واصلنا سيرنا مسافة قصيرة عكس اتجاه التيار حتى نتوء دائري واسع من الوادي ، وهنا وجدنا دائرة من الحجارة ، على مستوى سطح القناة الرملية تقريباً ، وعرضها خمسة عشر قدماً من جميع الجهات وقطرها مئة قدم ، ويحتمل أن تكون بقايا سور قديم حول خزان مائي قد ردمه الرمل بالكامل ، وفي داخل الخزان ، قرب حافته الشمالية ، كان يوجد كوم دائري آخر من الحجارة أصغر من الأول ، ربما يمثل مخرجاً للماء المخزون نحو اتجاه المدينة . وليس من شك في أن القدماء بقريّة كانوا يعلقون أهمية كبرى على حفظ وتوزيع المياه ، التي لا بد أنها كانت تعتمد دائماً على السيول الموسمية في هذه الأودية .

وقد أخبرني أدلائي أيضاً بوجود آثار في جبال أم رقبة أو حولها. وكذلك في مكان آخر غير بعيد عنها، وقد خصصت جزءاً من اليوم التالي، وهو آخر يوم لنا في قريّة، للقيام بزيارة في هذا الاتجاه. بعد أن عبرنا وادي المسيوغ الرملي الواسع، مررنا على مقربة من جرف أم رقبة دون أن نلاحظ شيئاً ذا بال.

وسرنا أعلى رافد خريف ضباء الذي وجدنا في واديه الواسع علامات كثيرة على خنادق حجرية وأحواض زراعة مسورة وربما كانت هذه هي الآثار التي أشار إليها الدليلان، ومع ذلك، بعد أن واصلنا سيرنا لأميال قليلة صادفنا آثار قرية قديمة كبيرة، تجثم على الأرض المرتفعة في جبل خريف ضباء. وقد تسلقنا حتى الطرف الشمالي - الغربي من السور، الذي توجد فيه أبراج في الزوايا، وكانت جبال أم رقبة تقع تقريباً في الجنوب - الشرقي، في حين كان منبر شرورى في الشرق تماماً تقريباً.

ويمتد السور جنوب - شرق حوالي خمسين ياردة حتى برج ثان، وعنده يسير خط الآثار شرقاً مسافة مئة ياردة، ثم يستمر في اتجاه شمال - شرق مسافة ١٠٠ ياردة أخرى حتى نهاية خط من الآثار يمتد عائداً على طول لسان المرتفع الجبلي إلى الركن الشمالي - الغربي. وهذا يكوّن مساحة مقدرة من الآثار المختلفة لمبان حجرية هائلة غير واضحة المعالم وفي حالة شديدة من التهديم حتى إنها لا تعدو أن

تكون أكثر من خليط من الحجر الصخري غير المشذب ولا يستطيع المرء فيها إلا أن يحدد عدداً من الغرف الفردية دون أي أثر للمخطط الأرضي. وقد وجدنا هنا وهناك بعض حجارة البناء المشذبة، وقليلاً من رقائق الصوان، وبعض المحار البحري، وبعض كسر الأواني الفخارية والعادية جداً، وكان الامتداد الشمالي لمنطقة الآثار هذه مفصولاً بواد ضيق أو خليج صغير (به بعض علامات على سد مهدم) عن مجموعة أخرى من الآثار على مرتفع جبلي مماثل، يمتد من نقطة تقريباً إلى الغرب منا مباشرة حتى نقطة أخرى باتجاه الشمال تماماً، وكانت تبدو أنها لا تستحق الزيارة، ولكني أرسلت هويمل ليبلغنا عنها، ولم يجد شيئاً ذا بال إلا قلة من الرسومات المخربشة للوعول على الصخور.

ومن الواضح أن هذه القرية كانت قائمة على الزراعة في الأودية المجاورة، ومظهرها البائس يوحي بأن سكانها كانوا عبيداً يحرثون الأرض لسادتهم الأنباط. وقد عدنا بطريق مباشرة بشكل أساسي عبر قناة خريف (أو ربما حريف) ضباء ونطاق واسع من التلال الرملية المنخفضة حتى وادي المسيوغ العريض، الذي كان بالجهة القريبة منه علامات كثيرة دالة على الزراعة القديمة، التي يبدو من الواضح أنها كانت تعتمد على قناة تحت الأرض من نوع الكريز والتي كان من السهل تتبع آثارها مسافة في كلا الاتجاهين عن طريق

خط من فتحات تنظيف القناة (بالوعات). ولقد حاول العرب المعاصرون في أحيان كثيرة تتبع فتحات البالوعات هذه حتى مصدر النبع الذي لابد أن الأقدمين كانوا يسحبون منه ماءهم، بيد أنهم لم يحققوا أبداً أي نجاح. ومع ذلك يصعب علينا أن نشكك ولو قليلاً في أن الازدهار القديم لهذه المنطقة، بقليل من المشاريع والمصروفات، يمكن استعادته لصالح سكانها البؤساء نسبياً، الذين لم يعد يُسمح لهم باقتناص الحجاج ونهبهم أو أي حركة أخرى غير شرعية.

ولقد أخبرني دليلاي عن آثار مشابهة لتلك الموجودة في خريف ضباء في أم العواذر (أي المكان القفر)، وإلى هناك ذهبنا في اليوم التالي (٧ فبراير) عندما غادرنا قريّة نهائياً، وقد اتجهنا شمال - شمال - غرب نحو الطرف الأيمن من جبل عمارة العجوز، عابرين البقعة الرملية بين المسيوغ وحوض قريّة، ثم انحدرنا عبر قاع المسيوغ الوعر نسبياً، وعبر التقائه بشعيب خريف ضباء، حتى وصلنا إلى رفٍ ذي أرض سيئة شديدة الوعورة من الحجر الرملي المفكك، وهو ناتئ من خط عمارة العجوز، وهذا مما جعلنا نقاسي عشر دقائق من الارتجاج المزعج أثناء تقدمنا لعبور رافد شعيب الطف حتى وصلنا مسار السيارات الرئيس، الممتد على طول الضفة اليمنى لشعيب غال. وبعد أن استدرنا الآن بصورة أكبر إلى الشمال - الغربي على طول

القناة، التي عبرناها بعد مسافة أميال قليلة لنجعل جبل الذيابية عن يسارنا، سرعان ما وصلنا إلى وادي زيتة الواسع، هنا يلتقي طريق السيارات القادم من ذات الحاج مع طريقنا، الذي يستمر على طول الضفة اليمنى للوادي، بيد أننا ضربنا في دلتاه الفسيحة، العامرة بمخلفات الزراعة القديمة، وقنوات الكريز المهدمة واتجهنا نحو جبل أم العواذر (أو أم العويذر) ونتوءاته من الحجر الرملي على الضفة اليسرى، ووجدنا أمام الجبل مباشرة عدداً من النتوءات المرتفعة قليلاً من الحجر الرملي تتوجها آثارٌ تشبه إلى حد كبير تلك الموجودة في خريف ضباء، وقد اخترت أكبر هذه الآثار لفحصها بالتفصيل. يرتفع هذا البناء نحو ١٠٠ قدم، وطوله ٥٠٠ ياردة من الشمال - الغربي إلى الجنوب - الشرقي، وعرضه ٢٥٠ ياردة تقريباً على القمة. والتل الثاني يبعد نحو ٦٠٠ ياردة إلى الشرق، وثالث نحو ٥٠٠ ياردة إلى الجنوب - جنوب - غرب، ورابع على بعد ٥٠٠ ياردة للغرب.

من الواضح أن هذه المواقع الأربعة كانت تشكل مستوطنة واحدة، تسكنها عناصر مختلفة من قبيلة واحدة من المزارعين، وتمتد قناة أم العواذر على امتداد الضلع الجنوبي لوادي زيتة، في حين يفعل شعيب السعيدي الشيء نفسه على الضلع الشمالي. وعند هذه النقطة تسد تلال الزلاقة وتلال المندفنة الرملية الطرف الأسفل لوادي

زيتة إذ ينبسط في دلتا واسعة شبه دائرية، الجزء الأكبر منها عبارة عن سبخة طينية مالحة. وقد قدّر لنا أن نرى كثيراً من هذه الآثار على طول قمة الجبل الرئيس على الضفة اليمنى، ولا بد أن السكان القدماء المعنيين بتطوير هذا الحوض كان عددهم ضخماً. ولسوء الحظ كانت الآثار فوق تلنا رديئة تماماً، ولم نجد شيئاً ذا بال بين البقايا المتهدمة من بيوت مبنية بالحجارة لابد أنها لم تكن أكثر من مجرد مأوى لمجموعات العبيد، الذين كانوا ينهمكون في إنتاج الطعام لسادتهم. ليس هناك علامة واحدة في المكان توحي بأي قدر من الحضارة بين سكان هذه الأكواخ الحجرية التي يبدو أنها قد انهارت أشلاء نتيجة لهجرها وليس نتيجة لأي كارثة طبيعية.

وبدا من غير المجدي فحص المجموعات الأصغر منها في التلال الأخرى، وبعد أن شققنا طريقنا نحو الجنوب تماماً التقينا مرة أخرى بدرب السيارات في حوالي عشر دقائق، بعد أن مررنا عبر جبل منخفض يفصل قناة أم العواذر عن قاع وادي زيتة، الذي كانت توجد فيه بقايا سد قديم. وواصلنا الآن سيرنا في وادي زيتة، الذي أصبح بشكل متزايد رملياً ووعراً كلما تقدمنا فيه، وبعد حوالي خمسة أميال ضاق الوادي كأنه ممر، يتراوح عرضه بين ٢٠٠ و ١٠٠٠ ياردة، والذي كان معلماً لخروجنا من منطقة أرض لح المنخفضة إلى أرض حسمى المرتفعة. وعلى يميننا يقع الامتداد

المنخفض المغطى بالرمل لجبل العواذر، بينما كان جبل السويلمية المنخفض يطبق علينا من اليسار، وبعد ذلك فوراً غرزنا بالسيارة بصورة سيئة في الرمل العميق فقضيت الوقت الذي استغرقه أصحابي في استخراج الشاحنة من هذا الرمل في محاولة تحديد موقعنا قبل أن ندخل في التلال البعيدة عن العلامات الأرضية التي كانت توجهنا حتى الآن. وعندما شقت الشاحنة طريقها بصعوبة وهي خارجة من سجنها الرملي انضممت إليها على مسافة غير بعيدة عن النقطة التي كنت أجري ملاحظتي منها. وعندها اكتشفت أن بوصلتي قد ضاعت.

لقد تجولت بقدرٍ كبير في منطقة رملية تنتشر فيها النباتات الصحراوية، حيث وجدت صعوبة في اقتفاء متاهة أثر أقدامي عائداً إلى النقطة التي كنت قد وضعت فيها الجهاز (البوصلة) في أثناء تدوين ملاحظاتي النهائية. وهكذا خرجنا من لح إلى مرتفعات حسمى.

الفصل التاسع

هضبة حسمى

ربما باستثناء مجموعة معابد روافة، التي يجب -بالأحرى- أن تحسب من حرّة الرحى لأنها تقع على حدودها الشمالية، فإن صحراء حسمى خالية تماماً من المباني، ويحتمل أن تكون قد ظلت على الدوام خالية أيضاً من السكان. إنها مقر العرب الرُحّل، مع قطعانهم ومواشيهم التي تجد المرعى الوفير في قفارها الرملية في جميع المواسم ما عدا الشتاء، عندما تطرد رياحها الثلجية القارسة الإنسان والحيوان على السواء إلى المناطق ذات المناخ الأكثر اعتدالاً في المستويات الأشد انخفاضاً للشرق والغرب منها، أي حوض تبوك وتهامة. ويبلغ متوسط ارتفاع حسمى حوالي ٤٠٠٠ قدم فوق سطح البحر، وترتفع قممها وجبالها الشاهقة إلى ٥٠٠٠ قدم أو أكثر.

وقد كنا لا نزال في وادي زيتة، ولكن على مقربة من حافة التلال الخارجية بالهضبة، وبعد أن سرنا مسافة أبعد بأميال قليلة وجدنا أنفسنا في كتلة متشابكة من الجبال العالية والتلال التي ينحدر خلالها

الوادي من الغرب. والآن استدرنا بزاوية قائمة مبتعدين عنها لنغطس نحو الجنوب في أرض فضاء شاسعة من الرمال الكثيفة بين الجبال البازلتية المنحدرة، والتي وجدنا فيها شاحنة شبه مدفونة قد تركها طاقمها قبل مرورنا بأربعين يوماً تقريباً. وغني عن القول أن شاحنتنا قد انغرزت بصورة سيئة، وعلى الرغم من أن ذلك لم يدم إلا نصف ساعة فقد استفدت منها استفادة طيبة بالمشي حتى قمة المرتفع لإلقاء نظرة عامة على المنطقة أمامنا. لم تكن هذه البقعة السيئة تزيد عن ميل عبر رمال خرم ثميري ولكنها كانت سيئة حقاً لأقصى درجة يمكن أن يتمناها أي سائق.

ومن القمة، كانت هناك مسافة طويلة خالية من العقبات نحو الجنوب - الشرقي فوق أرض سهلة على طول قاعدة جبل سدير مع الكثير من الجبال الأخرى على مسافة بعيدة عن الدرب على يميننا وهي: القليب والقطاريّة وثميري والزور بهذا الترتيب على طول طريقنا، وأمامنا تقع الكتل الشاهقة لجبل حوصل التي سوف تنحرف عن مسارنا إلى الجنوب - الغربي من نهاية جبل سدير.

وكان في التلال، على مسافات منفصلة متكررة، عروق من الرمل المنجرف، تصل أحياناً إلى ارتفاع منتصف جانب التل. وبعد أن سرنا ربع ساعة وصلنا إلى تل الضب المنعزل، حيث توقفنا هناك فترة وجيزة لشرب الشاي، بينما تسلقت أنا وهويمل بسرعة حتى

قمته. ويوجد هنا بعض النقوش الثمودية على الصخور إضافة لبعض الصور المثيرة التي قمت باستنساخها وعندما نزلنا إلى سفح التل وجدنا آثاراً واضحة لجدار قديم ودوائر من الحجارة يحتمل أنها كانت تستخدم لتثبيت أطراف الخيام التي نصبها من كانوا يخيمون في هذه البقعة. إن طريق السيارات الرئيس الحالي كان بالتأكيد طريق القوافل في عصر ما قبل السيارات، وكانت الأودية حول هذا التل المنعزل توفر دائماً مرعى طيباً للإبل خلال التوقف.

ولأسباب جغرافية عندي، كان الضب ذا أهمية قصوى؛ فعلى طول الطريق من تيماء حتى هذه البقعة لم يكن عندي وسيلة لقياس المسافات بدقة، لأن عداد السرعة في الشاحنة كان معطوباً. ولقد كنت أحتفظ بسجل تفصيلي لكافة الدقائق التي كنا نقضيها في السير أو الراحة، ولكن حتى مع ذلك لا يستطيع المرء إلا أن يخمن متوسط معدل التقدم، ومن الواضح أنه لا توجد سيارة تحافظ على سرعة منتظمة فوق طرق غير ممهدة يختلف نوعها من لحظة إلى أخرى. وبناءً على ذلك، كان من الواجب مراجعة المتوسطات التي وضعتها اعتماداً على قراءات البوصلة بعناية من قواعد قياسية وهكذا دواليك، ولم يكن ذلك مقبولاً ولا مرضياً تماماً، ولكنه أفضل ما يمكن عمله في هذه الظروف، وكان تنفيذه ينطوي على جهد مضنٍ. وبوصولنا عند الضب تغيّر هذا الموقف، لأنني كنت قد وضعت

هدفاً لنفسي خلال رحلتي الطويلة على مدى عامين لاحقين أن آت إلى هذا التل بنفس سيارة اللاندروفر القديمة، التي عولجت الآن من أعطابها، وبها عداد سرعة صالح للعمل، وعلاوة على ذلك، كان لدى رفيقي آر. جي. بوقي جهاز قياس الارتفاعات الذي أعطانا أفكاراً دقيقة بصورة معقولة عن ارتفاعنا في نقاط مختلفة.

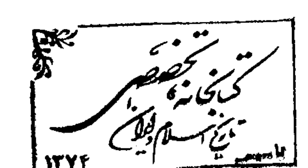
من هنا كان منبر شرورى وأحد نتوءات جبل عاجات على خط واحد في اتجاه الشرق، وعلى الرغم من أننا لم نستطع في الحقيقة رؤية قريّة، إلا أن تلال مقاطع الخضر المطلة على قناة طرف كان من السهل تمييزها بوضوح، وكذلك قمة غوانم خلف تبوك. وقد وفرت لي الزيارة الثانية لهذه البقعة مادة علمية لتصحيح أي أخطاء ربما نشأت عن الأولى.

من تل الضب سرنا عشرة أميال في أرض فضاء رملية شاسعة بين جبال منخفضة على كلا الجانبين حتى منحدر يُصرّف مياهه للوراء في وادي زيتة، لتصل إلى مستجمع أمطار بينه وبين قناة وادي الصحب وهو رافد من وادي الأبيض الذي يمر في النهاية عبر مدين إلى البحر شمال الخريبة ولم يكن هناك سوى قليل من الملاحظات الخاصة في هذا الجزء من خط سيرنا، على الرغم من أن السيارة قد انغرزت مرات عدة في الرمل الناعم بالوادي. كان ارتفاع مستجمع الأمطار ٤٢٠٠ قدم فوق البحر، ومنه سرنا في قناة الصحب خمسة

أميال أخرى قبل أن نعزم على نصب خيامنا في حمى جرف حضب البير (أو قارة الحمراء) الضخمة، لقد استغرقنا سبعاً وستين دقيقة من السير الفعلي لنقطع مسافة خمسة عشر ميلاً من الضب، وأصبح ارتفاعنا الآن ٣٩٠٠ قدم.

وفي الطريق تمتعنا بإلقاء بعض النظرات الخاطفة الرائعة على جبال مدين، وقمة اللوز العظيمة في اتجاه الغرب منا، وكان مخيمنا الصغير المؤقت على خط تصريف سطحي على طول سفح الجرف قد بدا قزماً ضئيلاً وسط مجموعات عديدة من الجروف الصخرية العملاقة ذات اللون الأحمر - البني. وامتدت أمامنا سبخة طينية راسخة طولها ٥٠٠ ياردة تقريباً وتشغل نصف عرض القناة، وقد أمرت أن يوضع فراشي تحت قوس بسيط من الجرف الحاد، مع خط من شجيرات الرتم يفصل بيني وبين رفاقي في ارتداد آخر من الجرف. وعند الغروب تحول الرمل المنجرف في الوادي إلى لون بنفسجي زاه جميل بينما عند الشروق كانت الأجراف المقابلة لمخيمنا والرمال الممتدة أمامها تسطع بلون أحمر وأبيض زاه وفاتن.

وكان في نسيم الصباح لمسة من الشتاء، في حين كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة ٣٥ درجة فهرنهايت تقريباً، وعلى مدى عشر ياردات من مكاني اكتشفنا آثار سير حديث للضباع، التي كان من الواضح أنها قد استطلعت موقعنا عن كثب، بيد أنها قد تخلت عن أمل



اصطياد تيسنا الباقي على قيد الحياة، والمربوط بإحكام بحبل طويل خلف كتل رفاقنا النائمين، وقد أكدنا فقدان الأمل بالنسبة للضبع بأن ذبحنا التيس لحفظه في بطوننا أثناء وجبة العشاء.

ويكتسح وادي الصحب من مقدمته نازلاً -حتى هذه النقطة- أرضاً رملية فضاء شاسعة، تتراوح من ١٠٠٠ حتى ١٥٠٠ ياردة، بين جبال عظيمة من الصخر الرملي تزداد دوماً في الارتفاع من ٣٠٠ قدم عند مستجمع الأمطار إلى ما يقرب من ١٠٠٠ قدم عند مخيمنا، حيث يضيق الوادي نحو ٤٠٠ ياردة. وينحرف وراء هذه النقطة مباشرة بصورة حادة نحو الشمال من مساره الغربي، بعد أن يتدفق فيه اثنان من الأودية الضيقة شديدة الانحدار من المرتفعات المجاورة هما: نتيش أو انتيش من الشمال تقريباً، وأم طليحة من الجنوب - الجنوب - الشرقي.

ويهبط الوادي الآن بمقدار ١٠٠ قدم في مسافة خمسة أميال إلى هضبة مدورة صغيرة من الجرانيت والبازلت مساحتها ٥٠ قدماً تعرف باسم المفرق، وتعد بصورة عامة مفترق طرق لحركة المرور المتجهة على التوالي إلى مدين ومركزي الحدود علقان وأبي الحنشان ويوجد مفترق الطرق في الواقع بعد مسافة سبعة أميال باتجاه مجرى التيار، حيث يأتي وادي زيتة (الذي يختلف بوضوح عن الوادي الذي ذكرناه آنفاً، على الرغم من احتمال أنهما ينزلان من مستجمع

أمطار مشترك في تلال تسمى مزيّلة) منحدراً من الشرق، كما يأتي وادي القحزة من الشمال - الشمال - الشرقي لتلتقي جميعها بقناة الصحب وتشكّل وادي الأبيض.

ويمضي طريق الحدود مع مسار وادي القحزة، بينما سرعان ما يترك طريق مدين القناة الرئيسة ليختصر ثنية طويلة وعرة من الصخر، وعند المفرق يلتقي وادي الصحب بقناة كبيرة تسمى وادي العقلة آتية من الجنوب، وباثنين من الأودية الصغيرة شديدة الانحدار من جبلي حصب وجلادي في جهة الغرب. وتعد بعض السلطات المحلية أن التقاءَ واديي العقلة والصحب هو الرأسُ الحقيقية لوادي الأبيض، بينما يرى آخرون، لأسباب أشد وضوحاً، أن العقلة وامتداده بأسماء محلية أخرى هو وادي الأبيض الحقيقي، الذي يصرّف مياه المنحدرات الشرقية من جبل مدين، ويزدوج لاحقاً في مساره على طول حافته الغربية حتى البحر، بعد أن يصبح اسمه الآن عفال. ومهما يكن من أمر، يجب أن نلاحظ أن تل المفرق الصغير يرسّم فعلاً حدوداً جغرافية هامة؛ فالصخور النوبية الرملية تبتعد الآن لتفسح المجال لصخور مدين الجرانيتية والبازلتية.

لقد وصلنا الحدود الغربية لصحراء حسمى على الرغم من أننا لم ننته منها بعد، وقضيت جزءاً كبيراً من الصباح التالي مع الأدلاء في البحث عن نقطة عالية ذات مزايا توفر لنا رؤية عامة لأرض الميعاد.

وسرعان ما استبعدنا شريط الأوتاد الصخرية العظيمة على كلا جانبي الوادي قرب مخيمنا لأنه من المستحيل تماماً تسلقها، وقد تجمد الأدلاء من الرعب عندما درت دورة حول مكان راحتهم بحثاً عن طريقة للتسلق. أستطيع القول إن أحد متسلقي الجبال يمكنه عمل ذلك، ولكنني لست واحداً منهم على كل حال على الرغم من أنني أستطيع أن أدعي بأنني قد تسلقت قمماً عربية أكثر من أي رجل حي (أو ميت في هذا الأمر بالتحديد).

إن الجزيرة العربية في الحقيقة أحد أكثر المناطق وداعة وسهولة في العالم، وجبالها لا تمثل صعوبة خطيرة، على الرغم من وجود كثير من المشاق التي يجب على أولئك الذين يريدون ذلك أن يواجهوها.

وقد اتفقنا على تسلق جبل أم طليحة وبعد تسلق قاس تماماً وصلنا في وقت مناسب إلى قمته على ارتفاع ٥٠٠ قدم تقريباً فوق مخيمنا، وهنا انفجر أمامي كل بهاء مدين ومجدها القديم، وأحسب أننا كنا، نحو ٢٠٠ إلى ٣٠٠ قدم أقل علواً من جبلي هضاب البير وقرة الحمراء الكبيرين، بينما كانت مرتفعات وقمم أم طليحة نفسها تغطي مساحة قدرها ميلان أو ثلاثة أميال مربعة. وقد فصلتنا قناة العقلة عن الكتلة المتهدمة من صخور الجرانيت والبازلت، وارتفعت بصورة حادة إلى الضلع الرئيس لسلسلة جبال مدين، الذي كنا الآن نرى قممها تمتد أمامنا وترتفع ارتفاعات شاهقة حوالي ٧٠٠٠ قدم

وهي : اللوز ومجموعتها على مسافة بعيدة نحو الشمال، وبعدها قمة المقلع الهرمية العظيمة نحو الجنوب، وسلاسل جبال الشلالة العالية تهبط إلى جبل الزهد الكبير، وهو أقربها إلى البحر، وباتجاه جنوب - جنوب - شرق يقع فضاء البُطينة الواسع، الذي يفصل صخور حسمى الرملية عن أصقاع مدين البركانية .

ولكي نصل إلى ممر البطينة اضطررنا إلى أن نمضي حتى صخرة المفرق ونسير مسافة قليلة في وادي العقلة، حيث انتهى بنا رافدٌ شعيب العوينات إلى جرف طور الجوف من الصخر الرملي الضخم، الذي وجدنا فيه عدداً هائلاً من النقوش .

وهنا قدّر لنا أن ننصب خيامنا في رحلة عودتنا بعد ذلك بثلاثة أيام مع دليل جديد هو عودة بن سعيد -من فخذ الخمسات من بني عطية -الذي وجدناه في (أبو مخروق) ليحل محل سليمان بن محمد وهويمل، اللذين كانا من فخذ الربيلات من القبيلة نفسها . ومع عودة انطلقت صباحاً في رحلة إلى تلٍ ووادٍ في منخفضات فرع الأسمر البازلتية، ولرؤية كوم ضخم من الصخر الرملي برز لي من مسافة بعيدة كنقطة مثالية لأشاهد منها المنطقة، وقد ثبت أنه من المستحيل تماماً الوصول إليه أو الاقتراب منه، فهو حوالي ٨٠٠ قدم من الصخور الرملية الحادة الانحدار، طولها ٥٠٠ ياردة وسمكها ٢٠٠ ياردة، وينتصب على قمة بازلتية من المنخفضات حوالي

٤٦٠٠ قدم فوق البحر، لابد أن قمة الجبل (الكوم) كانت حوالي ٥٤٠٠ قدم أو ربما أقل بقليل.

وعندما انطلقنا من المخيم مررنا بآثار أقدام الضباع الحديثة، وفي واد آخر خلال عودتنا صادفنا آثاراً قديمة لمشى زوج من الحيوانات، ومن الطريف أننا شاهدنا أيضاً آثاراً حديثة لسير وعول (تيوس الجبل) في الرمال المنجرفة قرب قمة أم طليحة، وعلى أحد جوانب أحد الشعاب (الأشهب) -الذي قطعناه بالعرض عند عودتنا للمخيم في هذه المناسبة- مررنا على أنقاض كتل صخرٍ ضخمة قد انهارت في غضون الأيام القليلة الماضية بسبب الأمطار، ولا بد أن حوالي نصف الكوم قد سقط للأمام، مما ترك صفحة نظيفة من الصخور الجديدة وراءه، بينما كان المنحدر تجاه قاع الشعيب مليئاً بأطنان الأنقاض من الصخور المحطمة. لابد أنني وعودة قد مشينا حوالي ثلاثة أميال حتى جبل فرع الأسمر وكانت رحلة العودة التي التفت حول الأودية كانت أطول نسبياً، وفي أثناء سيرنا تاركين المكان بالسيارة التزمنا الطريق المباشر إلى نقع بني مُر عن طريق ممر البُطينة متجهين بشكل منتظم نحو الجنوب - الجنوب - الشرقي. وبعد حوالي ميلين أو ثلاثة أميال من جبل طور الجوف وصلنا أعلى الممر (٤١٠٠ قدم فوق سطح البحر تقريباً)، الذي يشكل فاصلاً بين خطّي تصريفٍ أحدهما يتجه للشمال ليلتقي بقناة وادي الأبيض

عكس اتجاه التيار تقريباً من صخرة المفرق، بينما الوادي الأكبر منه ينحدر نحو الجنوب، والذي يجمع المياه الفائضة من وهاد كثيرة أثناء تدفقه يمكن أن يعد أعلى امتداد لوادي ضم الذي عبرناه في المنطقة المجاورة لمحطة الحزم، وهو يلتف نحو الشرق الاسم نفسه في المنطقة المجاورة لبعض الأكوام الضخمة من الحجر الرملي، تعرف باسم سرُّ أم جُمَيْع، من بقايا خزان مياه قديم مبطن بالحجارة في القاع وبئر لا تزال توجد فيها المياه خلال المواسم الطيبة.

ويقع مستجمع الأمطار في منخفض بجبل العوينات، حيث تظهر القواعد البازلتية لهيكل الصخور الرملية بوضوح على كلا جانبي الممر، والباقي منه نحو الجنوب ويشكّل حداً فاصلاً وواضحاً بين المرتفعات البازلتية بالغرب وصخور حسمى الرملية نحو الشرق، وكان المشهد عن يسارنا من أجمل المشاهد فأجراف الموفة الحادة وأبو كفر والمخضمات والحبيل تبطن الممر بين الاثنين الأخيرين الذي يؤدي إلى بعض الجدران الصخرية الرائعة بنفس القدر وتعرف باسم (أبا البيبان) التي زرناها في رحلة عودتنا.

وأمام الجرف الرئيس فيها تمتد "خبرة" كبيرة أو سبخة طينية منخفضة، تحتفظ بالماء في المواسم المطيرة، وكان قسم كبير من الجرف نفسه قد صقله القدماء ليكون لوحة هائلة تعكس صفاً من الرسومات الخطية البدائية نسبياً لعدد من الكائنات البشرية الخرافية

من الذكور، ذات أحجام مختلفة، يحتمل أن تكون هيكلاً لعرض آلهة ثمود، وكانت هناك صورة واحدة أصغر نسبياً من الأخريات، ويبدو واضحاً أنها تهدف لتمثيل معبودة أنثى.

وتوجد أيضاً منصة بارزة من سفح الجرف فوق مستوى بركة خبرة من المؤكد أنها تشير إلى أن هذا كان نوعاً من مراكز العبادة، على الرغم من أن النقوش القليلة التي وجدناها في المنطقة المجاورة لم تزد عن كونها توقعيات الزوار أو المسافرين العابرين، ولم يكن هناك أي شيء مهم ليلقي الضوء على فحوى هذه الصور، وما على الخبراء إلا أن يقترحوا لنا نظرية ما تفسر أهميتها [١]. وكان من الواضح أن المجموعة كلها قد نفذت بيد واحدة، وليس من المرجح أن يكون غرضها المتعة أو التسلية فقط.

ومن الواضح أن هذه المنطقة يرتادها البدو في الأيام الخوالي، وكذلك المسافرون، لأنه، بالإضافة إلى توفر إمدادات المياه بصورة مؤقتة من بركة (أبا البيبان)، فإنه يوجد ينبوع مياه أكثر ديمومة وهو مشاش المغار على بُعد حوالي ميل إلى الشرق، عند أسفل أخدود رائع، ينحدر بقوة من مرتفعات جبل مغار ذي الصخور الرملية.

---

(١) ويؤكد بيريه فان دن براندن أن هذه الأشكال تمثل آلهة تظهر السمات الذكورية بوضوح شديد.

وقد وجدنا عدداً كبيراً من النقوش الثمودية في محيط الجبل وفي سلسلة من الكهوف والدهاليز، التي حفرتها السيول في جوانب الأخدود، وهي كالعادة غير مفهومة.

وكانت المراعي الغنية حول هذه البقعة وفي الممر الرئيس الذي جئنا من خلاله، تجذب في هذا الوقت أسراباً ضخمة من الجراد، معظمها مستقر على الأرض أو على شجيرات الحمض والرمث بينما رأينا أيضاً غزالة وحيدة، وفي الممر وحوله كانت توجد أعداد مثيرة من كتل الصخر الرملي هي ثليثوة أي ذات الأعمدة الثلاثية، وخالث البدن التي تشبه عش الغراب، وجرف الأرخم الحاد، الذي تتناثر فيه الكهوف، وقد توقفنا عنده لنتيح لعودة أن يضع لنا أحماله بعد غيابه في مهمة. ولم يكن يدري متى سيعود لاستعادتها، كما لم يخطر بباله أبداً أنه قد يفقدها عند عودته فعلاً.

إن قانون البدو يضمن عدم انتهاك مثل هذه المخابئ. وفي أثناء خروجنا توقفنا للشاي عند سفح جرف موفة على بُعد أربعة أميال تقريباً بعد مستجمع الأمطار، ومن هنا سرنا سيراً طيباً نسبياً، مع توقف عند صخرة عش الغراب لاستنساخ نقوشها، وقطعنا حوالي أربعة أميال حتى وصلنا إلى آبار بني مُر في حوض النقعة الذي أخذ نفس اسم العنصر القبلي ويحتمل أن يكون جزءاً من بني عطية، على الرغم من أنني لم أتمكن أبداً من الحصول على أي تفسير مقبول

لهذا الاسم. ومع ذلك قيل إن كلمة مُر (أي مرور) قد تكون أقدم بكثير من وجود بني عطية في هذه المناطق، وقد ترتبط بمرور بني هلال وهم في طريقهم إلى أفريقية.

وبالقرب من هذه الآبار، التي لا تعدو أن تكون حفر مياه موسمية تحفظ كمية لا يمكن الوثوق بها من المياه، كانت توجد كتلة جميلة المنظر من الصخر الرملي فيها قوس رائع، يغطي فجوة كبيرة في طرفها الجنوبي، وكانت تبدو مكاناً مثالياً لنصب خيامنا فيه، إذ سرعان ما حططنا رحالنا تحت قبوها بجوار ينبوع مياه ضحلة، آمنين من الجو الذي كان قد بدا ينذر بالتغيير، وقد كانت جدران الكهف مغطاة بغزارة بما دوّنه الضيوف الذين تمتعوا بملاذه من ذكريات على مدى ألفي عام قبلي.

وقد عثر رفاقي على ارتداد ملائم في الأجراف القريبة لإقامة خيامهم، واستقر بنا المقام فيما ثبت أنها كانت ليلة معتدلة ومريحة، حيث كان الحد الأدنى لدرجة الحرارة مرتفعاً حتى ٥٠ درجة فهرنهايت. وسرعان ما بدأت السماء تتلبد بالغيوم بصورة كثيفة نسبياً قرب منتصف الليل، على الرغم من أنها كانت صافية تماماً عند الغروب، كذلك المشهد الساحر لمطاردة المشتري للزهرة في الأفق، والنجم الثاني من الحوت أعلاه تماماً، والقمر الذي ما زال بدراً ليس ببعيد خلفهن، وفي الساعات الباكرة من الصباح بدأت تهبّ علينا

ريح باردة جديدة محملة بقطرات من المطر على فترات متقطعة، ولكنه ليس عندي ما يقلقني إلا مشكلة الأدلاء التي تتكرر دائماً. لقد عمل سليمان وهويمل، لاسيما الأخير، بإخلاص شديد في خدمتي منذ استخدامهما في قريّة، ولكنهما قد وصلا فجأة إلى آخر إمكانياتهما عند البطينة، وكان من الواضح أنهما قد وصلا نهاية قدرتهما على متابعة الأمور.

وعلى كل حال، كانت مراعي حمض الغنية في الممر قد جذبت جماعة صغيرة من عرب الخمسات (من بني عطية) وقطيعاً من الإبل علاوة على الجراد، وقد رأينا بعض الجمال حديثة الولادة التي لا يزيد عمرها عن يوم أو يومين في أثناء مرورنا بجوارهم، ومن الطريف أن القسم العربي في هيئة الإذاعة البريطانية قد أذاع لتوه تقريراً عن هجوم قوي للجراد على كل من العقبة ومناطق عبر الأردن، الذي يحتمل أن يكون قد نشأ في صحراء حسمى، حيث رأيت بالفعل علامات للجراد في أقصى الجنوب بمناطق مثل الزاوية وروافة، وفي بعض أجزاء وادي البطينة كانت شجيرات الحمض قد نمت إلى شجر كثيف كبير يصل ارتفاعه أحياناً إلى ثلاثة أقدام، مما كوّن غابات كثيفة حقاً تعرضت فيها شاحنتنا لصعوبات مرات كثيرة. وكان سهل أو حوض النقعة دائرياً بشكل أو بآخر بقطر يبلغ ميلين تقريباً بين الصحراء البازلتية الداكنة عن يميننا والحجارة الرملية

عن يسارنا، والأخيرة تضم عدداً من النتوءات والأجراف الرائعة حول حافة الدائرة.

وخلال الجزء الأخير من رحلتنا نادراً ما كان يختفي عن أنظارنا نقطة أو أخرى من جرف جبل الشَّعْثَاء والنَّعَمى وقمم تهامة من خلفهما، والتي تشمل دباغ وحَرْب اللذين لم يتعرف عليهما دليلاي حيث اعترفا صراحة بأنه ليس لديهما أي علم بهذه المنطقة الجديدة، وكل ما استطعت أن أقوله لهما إنهما لابد أن يعثرا على دليل جديد ليحل محلهما إذا كانا يريدان الانصراف من خدمتي، وبمحض الصدفة حُلّت المشكلة في الليلة نفسها بوصول رجل من مخيم الخمسات يبحث عن عشاء ووظيفة مربحة؛ كان هذا هو عودة الذي ورد اسمه بالفعل فيما تقدم من قصتي، وحلقت فوقنا طائرة في منتصف الليل، عندما كنت أتهيأ للنوم بعد أن انتهيت من حل الكلمات المتقاطعة في جريدة التايمز، فقد تلقيت عدداً هائلاً من إصدارات هذه الجريدة التي ترسل بالبريد الجوي قبل مغادرة تبوك مباشرة في أول بريد يصلني منذ أن غادرت المدينة، وقد ألزمت نفسي إلزاماً شديداً حتى الإفراط بألا أقرأ أكثر من جريدة واحدة كل ليلة، لتزودني بالراحة والاسترخاء الوحيد الذي سمحت به لنفسي خلال أسفاري ورحلاتي.

استيقظت في الصباح التالي بظهور دملاً كبيراً على كاحلي الأيمن، والذي أصبح مؤلماً بشكل متزايد في أثناء النهار، وكل ما كنت أستطيع أن أفعله أن أعرج حول الجرف في جبل «أبو مخروق» الذي كنا نخيم فيه، ربما بمقدار مسافة نصف ميل من المشي، لاستنساخ النقوش الكثيرة جداً، التي كان معظمها نقوشاً نبطية، وبعد أن انتهيت من ذلك تمددت على فراشي فترة وجيزة وتناولت قرصين من الأسبرين لتخفيف الألم، وبعد ذلك اكتشفت زاوية منعزلة مريحة ومحمية من الريح الغربية القاسية، وقضيت فيها جُل الأصيل بلا عمل، ودخنت مرات كثيرة من الغليون وانتهيت من حل كلمات متقاطعة أخرى.

وكان عزائي الوحيد أنني لم أكن أستطيع بأي حال من الأحوال أداء كثير من العمل في ذلك اليوم. وقد بزغ الفجر في سماء رمادية كئيبة، بقطرات من المطر من وقت لآخر لتبشر بالعاصفة القادمة، التي طوّقت فعلاً جبل الشعثاء وأجزاء أخرى من سلسلة المرتفعات، حيث كان المطر ينهمر فيها بغزارة تتخللها لحظات من الرعد والبرق. وعندما تقدم النهار بدأت السحب تقترب منا كثيراً وعند منتصف النهار كان الرذاذ ينزل بصورة مستمرة مع أزيز الرعد أحياناً. لقد اختفى العالم كله من حولنا بشكل حقيقي بسبب العاصفة، وبعد الظهر استمر هطول الأمطار بغزارة حوالي عشرين دقيقة، وعند

ذلك فقط بدأت بعض البقع الزرقاء تظهر في السماء في الشرق، على الرغم من بقاء السحب الممطرة السوداء فوق باقي المنطقة. وفي مثل هذه الظروف لا يمكن أداء عمل جاد، وقررت أن نظل حيث كنا في المساء على أمل أن تتحسن هذه الظروف في الغد. إن حوض نقع بني مُر كان عنصراً بالغ الأهمية في اقتصاد حسمى بحيث لا يمكن الاستهانة به، وكان من غير المرجح على الإطلاق أنني سوف أراه مرة أخرى، وفي الحقيقة لقد زرته بعد ذلك بعامين من هذا اليوم بالضبط (١١ فبراير ١٩٥٣م) عندما عرجت مرة ثانية على "أبو مخروق" في ثنايا رحلتي مع بوج.

لقد كان أدنى مستوى في الحوض على ارتفاع ٣٥٠٠ قدم فوق سطح البحر، وبالتالي نكون قد هبطنا حوالي ٤٠٠ قدم من مخيمنا في قرة الحمراء، والرافد الرئيس هو وادي الرَّيْط الذي يقع رأسه عند مسافة بعيدة إلى الغرب في مستجمع أمطار مشترك مع وادي الأبيض، ويلتقي بكثير من الروافد في طريقه، وكلما اقترب من حوض النقعة فإنه ينبسط في الدلتا الواسعة التي تندمج في أرض وادي البلس المنبسطة مثلها، وينحدر هنا الوادي من تل بارز يحمل الاسم نفسه في الجنوب - الغربي، كما ينحدر شعيب الخوى من الأرض المرتفعة إلى الشرق من الحوض بصورة شديدة الانحدار نسبياً من مستجمع أمطار على ارتفاع يبلغ ٤٠٠٠ قدم فوق سطح

البحر، وقد زرته مع بوج لنكتشف جرفاً مزيناً برسم أخاذٍ -على الرغم من بدائيته- لصفٍّ من ست عشرة نعامة. كانت هذه النقطة على بُعد حوالي ثمانية أميال من الحافة الشرقية للحوض، التي تصب فيها السيول بين رأسي جبلين شاهقين هما قور البيضاء وقور الحمراء. والمياه السائلة من المنحدر العكسي تشق طريقها حتى وادي ضم ثم تستمر حتى تصب في النهاية في سبخة الحرد بحوض تبوك. وكما ذكرنا من قبل، يلتف ممر البطينة نحو الشرق ليصبح اسمه وادي ضم على بُعد ميل أو اثنين قبل الحافة الشرقية لحوض النقع الذي يتلقى على كل حال مساهمات قليلة من المياه من الصخور والجبال الكثيرة حول حافته. وما يجدر ذكره منها شعيب الغُوَيْل من الجنوب - الشرقي، حيث تبرز قمم الشَقيق والشُقيق بصورة واضحة وجلية في عنان السماء. وهناك أخدود وعر ضيق يفصل الواجهة الرئيسة لجرف قور الحمراء عن كوم شديد البروز من الحجر الرملي يُسمى مَقْلاع الذي زرته أملاً في العثور على نقوش، ولم أر شيئاً منها هناك، بيد أنني وجدت الكثير منها بوفرة في مواقع أخرى كثيرة بالمنطقة المجاورة له؛ وهي على وجه التحديد صخرة صغيرة معزولة مربعة على بُعد ألف ياردة فقط من كهفي الذي كنت فيه.

وليت وجهي شطر هذه الصخرة في أول تحرك لي في الصباح الذي تلا يوم توقفي عن العمل. كان الحوض مغطى بضباب كثيف،

وقد شتته الشمس ببطء، ولم يكن هناك أي سحب في السماء، وكان الهواء يبدو ثقيلاً بلسعة ثلجية مميزة، على الرغم من أن الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل لم يهبط أقل من ٤١ درجة فهرنهايت.

وفي البداية لم يكن هناك ريح على الإطلاق ولكن خلال النهار بدأت تهب علينا ببرودة قارسة، وفي أثناء زيارتي الثانية للصخرة لإكمال استنساخ نقوشها كانت فرائصي ترتعد من برد الريح الثلجية، ولم تكن أصابعي تقوى على إمساك القلم إلا بصعوبة بالغة. لقد كانت جوانب الصخرة الأربعة تغص -بكل ما في هذه الكلمة من معنى- بالنصوص الثمودية، بيد أنه كان يوجد أيضاً بعض النصوص السبئيّة والنبطية وعدد ضخم حقاً من النصوص العربية.

ومن الواضح أن حوض نقع كان ملاذاً أو منتجعاً شعبياً منذ عصور موغلة في القدم، يحتمل أنه كان في أحد العصور بمثابة محطة من مراحل طريق الحجاج إلى مكة. كانت النصوص العربية بكل تأكيد من عمل الحجاج، الذين مروا من هنا إلى حوض النعمى المشابه له، والذي كان موقعه في الجنوب يدل عليه تل الغراب ذو اللون الأسود، ومن هناك على طول الجانب القريب من الجرف حتى ممر الخريطة في اتجاه الجنوب في الغالب.

كان سطح الحوض مشبعاً بالماء من مطر يوم أمس عندما سرنا عبره إلى كوم مقلاع الذي مكننا من إلقاء نظرة رائعة على المنطقة المحيطة به، على الرغم من أن قمته كان من المستحيل الوصول إليها، حيث كانت ترتفع فوقنا بجرف حاد قدره ١٠٠ قدم تقريباً، وبالقرب منا على صخرة صغيرة معزولة عن جرف قور الحمراء اكتشفنا عدداً طيباً من النقوش، قبل أن نضرب مطايانا (سياراتنا) عائدين إلى خيامنا عبر الحوض عن طريق الآبار التي كان فيها كثير من الماء، على الرغم من أنني وبوج قد وجدناها بعد ذلك بعامين متوقفة عن العمل بسبب السيول، وعلى مقربة، كانت توجد آثار بيت بسيط يبدو أنه كان في الأصل مخصصاً لحراسة الماء من الأعداء.

وعندما عدنا إلى كهفنا، قمنا بتحميل أمتعتنا وسرنا بكل تراخ وتمهل عبر الحوض نحو الشمال، ونحن نتنقل من صخرة إلى صخرة بحثاً عن مزيد من النقوش وجدنا كمية غزيرة منها في الطريق إلى جبل الشُقيق المنخفض والمكون من الحجر الرملي، على بُعد حوالي خمسة أميال للشمال تماماً من كهف "أبو مخروق"، حيث قررنا أن ننصب خيامنا هناك لقضاء الليل. هنا وهناك كنا نجد برك المياه في التجاويف عند سفح الأكوام المختلفة، وكان الجراد بالطبع لا يزال موجوداً بوضوح. ليس من الضروري أن نذكر بالتفصيل ما تبقى من رحلة عودتنا عن طريق أخدود مغار و "أبا البيبان" اللذين

ناقشتهما من قبل. يكفي أن نقول: إننا قد وصلنا في وقت مناسب عند صخرة المفرق منتصف نهار يوم ١٢ فبراير، لنواصل السير هابطين في وادي الأبيض.

وقبل أن نستمر في تلك القصة، يجدر بنا أن نتخطى سنتين من عمر الزمان، لنوضح غموض مصادر وادي الأبيض، الذي يعد "نهر" مدين العظيم. في ٩ فبراير ١٩٥٣م، وفي ثنايا رحلاتنا الطويلة بشمال - غرب الجزيرة العربية بطولها وعرضها، وصلت أنا وبوج قناة وادي الأبيض عند التقائها مع وادي زيتة ووادي القحزا على بُعد ميلين تقريباً أسفل الثنية الكبرى التي تحدثها باتجاه الغرب لتتفادى الحاجز من جبال مدين الذي لا يمكن اختراقه. عند حوالي ثلاثة أميال فوق الثنية أقمنا مخيمنا عند شفا جرف رائع حقاً من الجرانيت، الذي يرتفع مقوساً قليلاً عدة مئات من الأقدام فوقنا، مع وجود قناة شديدة الانحدار على أحد الجوانب وهي هابطة في غابة صغيرة من أشجار السنط، هذه هي أم نُخَيْلَة حيث تقرر بموجب ترتيبات قمت بها مع أمير ضباء قبل ذلك بعدة أسابيع، أن تترك لنا شاحنة البريد المنتظمة اثني عشر برميلاً من الوقود لمواصلة رحلتنا.

لقد كانت البراميل هناك، وبمصادفة عجيبة كانت الشاحنة التي وضعتها قد وصلت من تبوك في صباح اليوم التالي، ليتناول سائقها

طعام الإفطار معنا وتأخذ البراميل الفارغة معها قبل أن نفترق على طرق مختلفة.

وفي غضون ذلك كنت أنا وبوج قد قمنا برحلتنا السريعة التي ذكرتها آنفاً، إلى الضب عن طريق صخرة المفرق ومخيمي القديم في قرة الحمراء.

وطلع علينا صبح اليوم التالي بريح شمالية باردة تلفح وجوهنا مع ضباب كثيف مثل ضباب اسكتلندا وكان ذلك نذير شؤم لسيرنا في ذاك اليوم، على الرغم من أنه قد تشتت وتلاشى في النهاية. وبعد أن قطعنا ميلين بعد مخيمنا كنا قد عدنا إلى صخرة المفرق، ومن هناك فصاعداً كنا في منطقة لم يرها شخص متحضر أبداً من قبل. لقد غيّرنا الدليلين اللذين رافقانا حتى الآن برجل من الخمسات من بني عطية، يُدعى مقبل بن سلامة بن مقبل بن عايض، الذي حاز الدرجة الكاملة في رأيي بتأكيده على ما لديّ من انطباع، وبالرغم من التشتت الذهني لدى بعض البدو المحليين، على أن القناة التي سوف نسير فيها الآن كانت هي الجزء العلوي من وادي الأبيض، فالجزء الأول من الوادي يُعرف محلياً باسم وادي العقلة بدءاً من بئر على مسافة بعيدة عكس اتجاه التيار. وكان اتجاهنا العام نحو الغرب قليلاً من الجنوب باتجاه تلين يشبهان الشديين ويُسميان الرُميمنة في منطقة غير مرتفعة نسبياً يلتقي فيها الكثير من الروافد الصغرى

بالوادي الرئيس على كلا جانبي المنخفضات البازلتية المنحدرة، التي تفصل سلاسل جبال مدين الرئيسة (الجرانيتية) عن صخور حسمى الرملية. كانت الرؤية لا تزال ضعيفة نسبياً، ومحدودة مسافة ميل تقريباً، بسبب الضباب الذي ما يزال عالقاً، والذي من خلاله كانت المعالم الأرضية الأشد بُعداً تلوح أمامنا مثل الأشباح.

بعد حوالي خمسة أميال من المفرق بدأ الوادي يتجه غرب - جنوب - غرب إلى سفح جبل اللوز الذي بدأت تظهر منه بعض القمم الأكثر قرباً من الجنوب، على الرغم من أن قمته الرئيسة كانت محجوبة عن أنظارنا بالأكتاف الشرقية للجبل، وعند هذه النقطة يقع بئر العقلة بعيداً إلى حدٍ ما عن مسارنا نحو الغرب، بينما كان تلاّ الرميمنة نحو الغرب.

وكلما اقتربنا من قاعدة الجبل أصبح الوادي مغطى بكثافة بشجيرات الرتم ونباتات أخرى، وبعد حوالي ثلاثة أميال من الثنية كان هناك شعيبا الحُزيّن من الضفة اليسرى وعُميّد من الضفة اليمنى وقد قيل لي إنهما على الطريق العادي المنتظم للإبل المحملة بأحمال خفيفة، والمؤدي إلى ممر وعر عبر الجبال حتى وادي عَفَال على الجانب الآخر، وهناك طريق ثان في شعيب السِّيق على مقربة من الطريق الأول ويلتحم معه ليمرا معاً فوق الكتف الأيمن لجبل اللوز بمضيق الحَجيّة. والآن يبتعد وادي الأبيض عن حافة الجبل نحو

الجنوب - الشرقي، وبعد ذلك نحو الجنوب، ليتفادى أو يلتف حول الأسوار الخارجية للجبل، كلما اقتربنا تدريجياً من مستجمع أمطار الوادي تحت جبل المحرق الأسود.

وقد بدأنا الآن ندور ونلف في منطقة شديدة الوعورة تحت الجوانب شديدة الانحدار لجبل مَقْلاع حتى خرجنا إلى أرض فضاء واسعة قادتنا إلى رأس وادي الأبيض بين كتلتي المحرّق عن يميننا والقحبونة إلى يسارنا، هنا توقفنا لصلاة العصر وتناول بعض المرطبات أي على بعد عشرين ميلاً تماماً من صخرة المرفق وعلى ارتفاع ٥٢٦٠ قدماً فوق سطح البحر حسب جهاز قياس الارتفاعات بمعيّة بوج. من هنا يمتد وادي الأبيض نحو الشمال - الشمال - الغربي، بينما تقع أمامنا نحو الجنوب - الشرقي، المنحدرات المعروفة باسم علو حيفا التي تتقارب خطوط تصريف المياه فيها مع قناة وادي حيفا، ولم يكن هناك شيء مميز عند هذا الخط المهم لتقسيم المياه، على الرغم من وجود بعض أكوام الحجارة المتناثرة، التي ربما كانت مجموعة من قبور الحجاج.

عندما استأنفنا رحلتنا بعد توقف دام ساعة، أتينا بعد ما يزيد قليلاً عن ميل إلى أيكة كبرى جديرة بالملاحظة، فهي غير عادية بدرجة كافية في مثل هذه الأرض حتى إنها تحمل اسماً فذاً لها، وهو المطعمة. لقد كان من الواضح أنها الأثر الباقي على الوجود من

بستان كبير ذي أهمية دينية أو قبلية، حسب ما تدل على ذلك الخرق أو الأسمال البالية التي لا تزال تتطاير مع النسيم من أغصانها العادية من الورق، هذه الزينة توحي بأنها كانت محطة على طريق الحجاج نحو حوض بني مر الذي أشرت آنفاً إلى احتمال كونه محطة على الطريق إلى مكة.

وعلى كل حال، لم يكن لدى مقبل أي فكرة عن الموضوع، على الرغم من أنه قد سمى الأيكة باسم البُطم وهي نبات البُطم أو الضّراوة المذكورة في الإنجيل، أو أحد أنواع شجر البلوط المعروف على نطاق واسع في منطقة أبعد إلى الشمال في محيط البتراء، على الرغم من أنني وجدت صعوبة في التوفيق بين الأوراق الميتة من الأغصان وبين هذا التعريف. كانت الأيكة التي فحصتها عن كثب، تتكون من ثلاثة جذوع لأشجار منفصلة، ذوات محيط كبير، فيها عُقد كثيرة وملتوية مع مرور الزمن، وأغصان ممتدة وترتفع لنحو عشرين قدماً.

لقد اضطررنا إلى ترك مشكلة أشجار البُطم بلا حل ونحن ننزل منحدر حيفا نحو الفجوة الضيقة بين جبلي الجهراء والعجيثر أمامنا، وفي أثناء ذلك مررنا على رجل وحيد يركب جملاً متجهاً نحو مستجمع الأمطار الذي تركناه لتونا، وقد دهشت من اكتشاف أن خط التصريف من البقعة التي عبرناها بالعرض من مستجمع أمطار

وادي الأبيض كان ينحرف بسبب هذه الجبال نحو الجنوب - الغربي ليدخل في وادي عفال من خلال فجوة بين جبلي مقلاع والشلالة. وواصلنا سيرنا باتجاه جنوب - شرق عبر ممر الجهراء - عجيثر حتى هبطنا في رأس وادي الريط، وهناك أقمنا مخيمنا لنبيت الليل فيه. لقد هبطنا حوالي ألف قدم من مستجمع الأمطار، وعلى الرغم من صفاء السماء وخلوها تقريباً من الغيوم، كنا قد قضينا يوماً تضعف فيه الرؤية بسبب الضباب المبكر وما تلاه من عتمة، ولقد قطعنا ثلاثين ميلاً فقط خلال النهار، بيد أنه كان يوماً عامراً بالاكتشافات المثيرة تماماً.

ومن سوء الحظ أننا لم نقابل أي بدوي، وتناولنا عشاء كاد أن يكون بلا لحم لولا وجود أرنب بري صاده مسفر، وكان قد جاءنا رجلٌ من بني عطية في مخيمنا في أم نخيلة مع زوجته وأخيه الأصغر، بعد أن ساروا الطريق كله من رم في الأردن، ونصبوا خيامهم خلف بعض الشجيرات بالقرب من خيمتي، ولكن اقتراحي بضرورة إرسال الأرنب المطبوخ إلى المرأة قد رفضه زوجها، وكل ما نالته كان ما بقي منه بعد أكلنا؛ لقد كانوا في طريق عودتهم إلى نقعة بني مر بعد زيارة أقاربهم في رم. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٣٤ درجة فهرنهايت، ولأول مرة منذ أسابيع كثيرة نزل علينا ندى كثيف، على الرغم من أن الصباح قد بزغ بسماءٍ صافيةٍ خالية من السحب والريح.

يمتد مسارُنا الآن نحو الجنوب - الشرقي في وادي الريط، وليس هناك ما يستحق ذكره سوى دخول روافد صغيرة متنوعة من هذا الجانب أو ذاك من مرتفعات البازلت على كلتا الناحيتين، وكانت الشاحنة تحرث طريقها وسط النباتات الغنية من شجيرات الشيح والرتم والبعيثران (الحمض) التي كانت روائحها العطرة متعة لأنوفنا.

ونحن في الطريق قدّم مسفر لنا مرة أخرى قدراً طبخ فيه زوجين من طيور الحجل، اللذين -لسوء الحظ- لم أرهما قبل أن يطبخا.

سيكون الأمر شديد الإثارة لو عثرت على الحجل بنفسي (Alectoris graeca philbyi) في منطقة بعيدة للشمال مثل هذه، ولكن من الأسلم أن نفترض أن هذه الطيور كانت من نوع الميلانوسيفالا (Melanocephala) إن ندرة الطرائد في كل هذه المنطقة غير المطروقة بصورة شبه كاملة تثير الدهشة تماماً لاسيما وأن هذه القنوات كلها كانت غنية بالنباتات والشجيرات، وكانت أجزاءٌ كبرى من وادي الريط تغطيها غابات حقيقية من أشجار الرتم والمراعي الوفيرة.

وعلى العكس من ذلك كانت خطوط المرتفعات القاحلة نسبياً على كلا جانبينا خالية من النباتات وهي منحدرات الحوض بما فيها ستة نقاط شاهقة ممتدة على يسارنا. وجبل السرو على يميننا، وعقبته

أو ممره في منتصف الطريق تقريباً. وعلى مسافة بعيدة في اتجاه غرب - شمال - غرب يقع جبل النشات الذي يوجد فيه ممر آخر قرب أحد قمتيه الشاهقتين. هذان الممران يوفران طريقاً للدخول من حوض الريط إلى قناة تصريف حيفا، وبالتالي إلى الجزء الجنوبي من وادي مدين.

من المفيد أن نذكر هنا أن جميع قنوات تصريف مياه الحافة الشرقية لجبل مدين العظيم تشق طريقها في النهاية حول هذا العائق حتى تصل إلى الوادي الرئيس، ويحدث ذلك عندما تتجه شمالاً وجنوباً على التوالي عبر وادي الأبيض ووادي حيفا، لتلتف حول طرفي الجبل، ولم أستطع أن أتأكد على وجه التحديد أي الروافد الجنوبية لوادي عفال (الامتدادات السفلى لوادي الأبيض) كانت امتداداً لوادي حيفا، وربما يكون على الأرجح وادي الشويحط الذي يمتد على طول الجهة الجنوبية من جبل الزهد أو ربما يكون وادي حُرَاب. وعلى كل حال، يعد مستجمع أمطار واديي الأبيض وحيفا نقطة البداية لواديين يسيران في اتجاهين متعاكسين تماماً بكل ما في الكلمة من معنى، ثم يتقابلان مرة أخرى قرب البحر بعد أن يرسما شكلاً بيضوياً حول سلسلة جبال مدين.

إن وادي الريط هو الشريان الرئيس لمنطقة محدودة نسبياً، مع أن الجداول التي تلتقي به من كلا الجانبين كثيرة جداً، وفي بعضها توجد

منابع الشرب الدائمة بشكل أو بآخر، مثل ضُريب وياردة وغيرهما. وقد قيل إن بئر (منبع) ياردة التي لم أزرها حقيقة على الرغم من أنها كانت غير بعيدة عن خط سيرنا، بئرٌ عميقة فيها مياه كافية وقد غرق فيها رجلان منذ وقت طويل مضى.

في هذه المنطقة صادفنا مجموعة صغيرة من الخيام لرعاة من بني عطية من فخذ السُليمات ومعهم قطيعٌ من الأغنام معقولة العدد. وبعد حوالي عشرة أميال باتجاه مجرى التيار من مخيمنا وصلنا صخرة عُريق سعيد المعزولة (١٠٠ قدم) عندما يتسع الوادي عند التقائه بشعيب الخَرَج المنحدر من وراء تلال حوض على يسارنا، ووادي القاع الذي توجد رأسه على مسافة بعيدة عن يميننا في جبل رَوَا والذي ينحدر منه على طول سفح جبلٍ عالٍ يسمى القيسي ذا القمتين المستديرتين الشاهقتين. وتنزل المياه المنصرفة من الجهة البعيدة لجبل روا في وادي عَيْنُونَة الذي يصل البحر عند ميناء الخُريبة الصغير.

لقد كان يحدوني أملٌ في أن أعثر على نقوش على صخرة عُريق سعيد، التي كانت تبدو من بعيد كما لو أنها نتوء منعزل من الحجر الرملي في قفر بازلتي، بيد أن شكلها الجذاب ذا اللونين الأحمر والأسود ثبت في النهاية أنه من أصل بركاني، مزيج من صخور إندست والرايوليت. ربما أجد لزاماً عليّ أن أذكر أنني قد استعملت

بصورة عامة كلمة البازلت لوصف جميع الصخور التي لها طبيعة بركانية خلاف الحمم البركانية المكوّنة حديثاً نسبياً، ولكن في هذه الرحلة كنت قد استفدت من الترحال مع عالم بارع في الجيولوجيا هو بوج الذي جعلني أدرك أنه، في جميع الاحتمالات، كانت معظم الصخور بهذه الصفة التي رأيناها من نوع إندست، ولا يجوز وصفها بالبازلتية فقط.

كنا قد سرنا حوالي خمسة عشر ميلاً في وادي الريط من مخيمنا الليلي (ثلاثة وعشرين ميلاً من مستجمع أمطار الأبيض - حيفا) عندما بدأنا نرى بعض المعالم الأرضية المعروفة لنقع بني مُر، وكانت قمة البلس الصغيرة البارزة تقع الآن في الجنوب - الشرقي، بينما كان شريط مَقْلاع الكبير من الحجر الرملي إلى الجنوب قليلاً من اتجاه الشرق، وكانت قمم مناوة ويزر والوعير تقف شاهقة عن يميننا، وتشكّل قوساً يمتد من الجنوب إلى الغرب تقريباً، بينما عن يسارنا كان يقف جبل الغشيمي خلف منخفضات حوض كمعلم للخط الفاصل بين قناة تصريف المياه المنحدرة في وادي الريط وقناة شعيب الغشيمي، التي تعد رافداً من وادي ضم. وكان اتجاهنا في قناة وادي الريط حتى ممر الضيقة بين جبلي جهراء وعجيثر نحو الشمال من الغرب قريباً. وقد كانت تلال المحرق، المطلة على مستجمع أمطار وادي الأبيض، في الشمال - الغربي تقريباً. وكان ارتفاعنا عند هذه

النقطة ٣٤٠٠ قدم فوق سطح البحر، حيث كان الوادي قد بدأ يتلاشى وينبسط في دلتا واسعة كلما اقترب من التقائه مع دلتا مشابهة من وادي البلس ويتلقى المياه السائلة من عدة أودية أخرى على كلا جانبيه. وقد بدأ مقبل، دليلنا، الآن يشك في نفسه بالرغم من أنه كان رائعاً وممتازاً حتى هذه النقطة، ولكن ارتباكه لا يعنيني كثيراً طالما أنني عدت إلى منطقة مألوفة لديّ. وبعد أن قطعنا حوالي أربعة أميال وصلنا إلى الالتقاء الحقيقي مع وادي البلس، ومن هناك سرنا المسافة نفسها تقريباً على سهل مستوٍ حتى كهفي القديم في جبل «أبو مخروق». ولم يتغير شيء إلا قليل في العامين اللذين مضيا منذ زيارتي الأولى للكهف، على الرغم من أن الآبار كانت متوقفة عن العمل، لذا كنا نضطر لأن نرسل شخصاً إلى بركة قرب مرتفع مقلاع لتعويض ما نحتاجه من ماء.

كنت أنا وزعل الباقيين الوحيدين من الجماعة القديمة في شاحنة السيد التي يصعب الوثوق بها رغم جسارتها، ولكن دخولنا الحالي لحسمى كان على نطاق أشد ضخامة من ذي قبل، ومعنا ما لا يقل عن خمس سيارات. لقد حملتني سيارتي القديمة من طراز اللاندروفر، بعد أن تعافت بالكامل من الأعطاب التي مرت بها في تيماء، دون مخاطرة تذكر لما يزيد عن ١٧٠٠ ميل من جدة وهي تسير في جميع أنواع الأراضي في منافسة أخوية مع سيارة بوج

الجيب. وعلاوة على ذلك، كان بوج قد أحضر معه سيارتين من نوع دودج (Point Four Dodge Power-Wagons)، مجهزتين بحبال سحب لإخراجنا من أي متاعب قد نتعرض لها، بينما كان ستة من أتباعنا من وزارة المالية يمتطون شاحنة لوري حكومية لنقلهم في مهامهم الرسمية.

وكنا قد قطعنا فقط خمسة عشر ميلاً تقريباً من صخرة المفرق، عندما ظهر على جهاز قياس الارتفاعات عند بوج قراءة قدرها ٣٢٨٠ قدماً. وقد وفّرت لنا الصخرة الحماية التامة من الريح الشمالية - الشرقية الباردة. وعاد زعل، الذي أرسلته في الحال لتجنيد دليل جديد، ظافراً بالنجاح في مهمته بل إنه جاء أيضاً بشاة ليضمن لنا عشاءً طيباً، وكان الدليل الجديد من خمسات بني عطية يدعى مطير بن مسعود بن خضر بن نجم، وقد أقر بأنه على علم جيد بالمنطقة على طول الجرف الذي سوف نقوم باستشكافه الآن، بيد أننا لا بد أن نترك قصة هذه الرحلات إلى فرصة أخرى، فقد حان الوقت لنعود إلى صخرة المفرق وعام ١٩٥١م.



الفصل العاشر

وادي مدين

تُعد صخرة المفرق، التي انطلقنا منها في وادي الأبيض يوم ١٢ فبراير ١٩٥١، المحور، كما يفترض أن تكون، للطبوغرافيا والجيولوجيا المحلية. فمنها استطعنا أن نرى كتلاً أو أجزاءً من جميع مكونات العناصر الجيولوجية في المنطقة كالجرانيت القاعدي وطبقات الرايوليت الداخلية وطبقات الإندست التالية لهما ثم الصخور الرملية النوبية الأكثر حداثة.

ومن ناحية جغرافية فهي نقطة الالتقاء لخطي التصريف الرئيسين من غرب حسمى وشرق مدين على التوالي. وهما، وادي الصحب الذي تقع رأسه على بُعد حوالي عشرة أميال في اتجاه أعلى التيار على طول الطريق الذي أتينا منه، ووادي الأبيض الذي ينطلق من على بُعد عشرين ميلاً تقريباً إلى الجنوب تحت الحافة الحادة لجبل مدين. وفي هذا الملتقى، وفي مساحة قدرها سبعة أميال باتجاه مجرى التيار تصب فيه المياه المنحدرة من مجموعة الجبال المجاورة له، جبال الحُصُب والجحاشي على الضفة اليسرى حتى الثنية،

وهضب البير والنخيلة وأم هاشم على اليمين، وبعد مسافة قليلة من الثنية الغربية في القناة الرئيسة، يلتقي الوادي بآخرين مهمين هما زيتة والقَحْزا المنحدرين من الشرق والشمال على التوالي، ويصرّفان أيضاً مياه منطقة تشبه حسمى في خصائصها وتشكل في الواقع امتدادها الشمالي نحو الحدود مع الأردن.

وعلى مسافة ثلاثة أميال أسفل التقاء واديي زيتة مع الأبيض، وعشرة أميال من المفرق، يترك درب السيارات قاع الوادي ليصعد في رافد قصير ولكنه واسع يسمى شعيب ضال الذي يهبط بين كتلة جبل الجحاشي وجبل قريّة المنخفض (ربما قريعة) على الضفة اليسرى لوادي الأبيض.

بعد مسافة قليلة أسفل هذه النقطة يبرز تل كشو الواضح باللونين الأحمر والأسود (الرايوليت والإندست) على الضفة اليمنى ليكون علامة لبداية امتداد حوض قيل إنه من الصعب على العربات عبوره بسبب الخواص الصخرية. وتناثر الصخور الجلمودية في القناة من هناك حتى نقطة ثنيته الكبرى والنهائية نحو الجنوب، حيث يلتقي درب السيارات به هناك مرة أخرى. وفي غضون ذلك حاولنا المسير على طريق "ضال الوعر" نسبياً الذي يقع في فسحة كبيرة بين جبال الجحاشي والرس وقريّة، وتدريجياً غيّرنا اتجاهنا قليلاً من الغرب للشمال لنتسلق المنحدر السهل لشعيب المعطية حتى رأسه على

مسافة أربعة أو خمسة أميال صعوداً من النقطة التي تركنا عندها وادي الأبيض.

وعند مفترق الطرق، الذي يمتد منه وادي صُرَيْم الواسع باتجاه الغرب بين جبال منخفضة من البازلت، توقفنا لنحدد موقعنا؛ كانت هذه البقعة مميزة بعدد من الأكوام الحجرية التي ربما كانت نصباً تذكارية أو قبوراً أو متاريس مرتجلة من عمل البدو للدفاع عن الممر. وقد لاحظت قرب فوهة شعيب ضال بعض البقايا المتناثرة لمبانٍ بدائية، التي ربما كانت سداً أو بيوتاً بسيطة، وكان هناك شيء ما في مسمى هذه المنطقة جعلني أمعن التفكير فيه.

فاسم قريّة نفسه يوحي تقليدياً بوجود موقع للخرائب الأثرية، وهذا ما يؤكده بصورة جزئية الوجود الحقيقي لبعض الآثار، مهما كانت ضئيلة، ولكن اقتراب جبل الرّس منا لا يبدو أنه شيء عرضي بالكامل. ففي القرآن الكريم: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ﴾ [1] ويقول أيضاً: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ ذُو الأَوْتَادِ ﴿١٢﴾ وَثَمُودُ وَقَوْمُ لُوطٍ وَأَصْحَابُ الأَيْكَةِ أُولَئِكَ الأَحْزَابُ ﴿١٣﴾ إِن كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ﴾ [2]. وفي حدود ما أعلم لم يتمكن أحد حتى الآن من تحديد الرس والأيكة

---

(١) الآيات ١٢ و ١٣ و ١٤ من سورة ق.
(٢) الآيات ١٢ و ١٣ و ١٤ من سورة ص.

(تترجم أحياناً بكلمة الغابة)، على الرغم من أنه يبدو أن هناك افتراضاً عاماً بأنهما لا بد أن يكونا في المنطقة المجاورة لمدين.

وقد يكون من المبالغة أن أزعم أنني بذلك قد وقعت على آثار الرس والأيكة المذكورتين آنفاً، بيد أنني لا أعلم أي رس أخرى في الجزيرة العربية تكون هي المقصودة باستثناء تلك التي في القصيم، ومن المستبعد أن تكون الإشارة إليها في مثل ذلك السياق. وكما سنرى فيما بعد، يبدو أن اسم "الأيكة" لا يزال باقياً في أحد الوهاد المنحدرة إلى وادي عفال من جبل اللوز العظيم.

وليس هناك شيء من المبالغة في افتراض أن النقاط الاستراتيجية الكثيرة على طول النهر المؤدية إلى مراكزها الرئيسة على مسافة بعيدة إلى الجنوب كان يسكنها المدينيون القدماء (ومن جاء بعدهم، ومنهم الأنباط) وربما من سوء الحظ أن انحراف طريق السيارات عن قاع الوادي وابتعاده عنه قد حرمني من زيارة ضريح الولي سموأل الذي ما زال يقدّره البدو، ويقال إنه يقوم على جرف عال مطل على الضفة اليمنى لوادي الأبيض في نقطة يلتقي عندها الوادي مع رافد من الشمال - الغربي هو شعيب الوسيطة ويحتمل أن يكون مزاراً يعود لما قبل الإسلام، وقد وضعه موسل على خريطته، بالرغم من أنه لم يزر هذا المكان، وفي حدود علمي لم يزر هذا المكان أي أوروبي من قبل. من موقعنا عند رأس وادي صريم كنا نستطيع أن

نرى سلسلة الجبال العالية التي تصطف على الضفة اليمنى للوادي، بيد أن عودة لم يتمكن من تمييز أو تعريف قممها، وكان علينا أن ننتظر حتى نجد دليلاً جديداً، وعندها استطعت أن أشبع فضولي وحبي للمعرفة، وكان هناك هضبة مدوّرة معزولة عند الطرف الجنوبي تدعى شعل وبعدها قمتا الثمائل نحو الشمال، وكذلك قمتا القصير بينهما وبين جبل الشُريّف ذي الرأسين على مسافة أبعد نحو الشمال، وبعد فجوة وادي الشرف كان خط الجبال يواصل سيره بجبل حُميّر المنخفض، ويغطي ثنية وادي الأبيض، الذي يأخذ الآن اسم عفال.

وكان وادي صريم من رأسه حتى التقائه بوادي عفال يهبط بانحدار شديد بمقدار ١٣٠٠ قدم تقريباً في مسافة اثني عشر ميلاً حيث كان ارتفاعنا في المخيم عند ملتقى الواديين حوالي ٢٦٠٠ قدم فوق سطح البحر، وبعد ميل أو اثنين نزولاً على منحدر من الرمل الجرانيتي الخشن المكسو بكثافة نسبية بشجيرات الرتم لاحظت مجموعة صغيرة من خيام الرعاة على يميننا، وأوقفت الشاحنة وأرسلت إليهم زعلاً وعودة بحثاً عن دليل، وقد رجعا خاليي الوفاض وتوقفنا مرة أخرى بعد حوالي عدة أميال أخرى لنبحث عن دليل في مخيم آخر تحت جبل الرّقة على الجهة اليسرى، مقابل جبل الغراب على الجهة الأخرى. وهنا كنا أوفر حظاً حيث أحرزنا

نجاحاً، وفي أثناء انتظار عودة زعل إلينا، جاءنا غلام صغير من المخيم ليتبادل معنا حديثاً ودياً في غير تكلف، وأخبرنا بعضاً من أسماء المعالم الأرضية الرئيسة الظاهرة.

كان دليلنا الجديد يدعى زيداً من فخذ النشارى من بني عطية، وقال لي إن مصطلح المعزّة والذي استخدمه أحياناً ريتشارد بيرتون وموسل كثيراً في الإشارة إلى بني عطية، قد سقط الآن بالكامل ولم يعد يستخدم تماماً تقريباً، على الرغم من أنه كان مشهوراً كاسم عام يشمل القبيلة كلها. وفي أسفل هذه النقطة مباشرة، وبعد حوالي ستة أميال من الرأس تدخل قناة شمرخ المنحدرة من الكتف الشمالي لجبل اللوز، في وادي صَرِيم، بينما تمتد جبال شمرخ كل الامتداد من جبل الرُقة على طول الضفة اليسرى.

وبعد ذلك سرعان ما ينبسط الوادي في دلتا واسعة بين تلال منخفضة غريبة نسبياً عندما يصلُ قناة عفال بواجهة واسعة، هنا نصبنا خيامنا في أيكة صغيرة متناثرة من أشجار السنط كاملة النمو، غير بعيدة من مخيم صغير لرعاة من قبيلة عمران التي يبدو كأنها مستقلة عن بني عطية ولكنها مرتبطة بها، وجاء عدد من رجالها ليذوقوا عشاءنا، وعادوا في الصباح لتناول القهوة والفطور معنا قبل أن نستأنف سيرنا، ولم يكن لديهم إلا معرفة ضئيلة عن منطقتهم على الرغم من أن اسم القبيلة يذكرنا بأسرة آل عمران التي كانت في

سلسلة الأنبياء من آدم إلى نوح وإبراهيم. وجاء في القرآن الكريم ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[1] ويحتمل أن تكون هذه القبيلة من القبائل ذات المكانة الدنيا، مثل هتيم والشرارات التي يكثر وجودها في شمال - غرب الجزيرة العربية، بالرغم من أنها قد تكون منحدرة من أصول قديمة مثل بني عقبة من مقنا، ولم نكد نقضي في المخيم فترة طويلة إلا وبدأت عاصفة شديدة تتجمع وتتكون بين الجبال الشاهقة التي تلقي بظلالها علينا، وبحلول المغرب كانت المنطقة كلها تلتف بالغيوم، وبعد ذلك بساعات قليلة هطلت علينا أمطار شديدة وغزيرة، وفي منتصف الليل كانت السماء قد عادت لصفائها تماماً مرة أخرى. وكان الحد الأدنى لدرجة الحرارة في الليل ٤١ درجة فهرنهايت.

ولم نستأنف رحلتنا إلا قرب منتصف نهار ١٣ فبراير، لأن رفاقي كانوا في سعادة تامة مع ضيوفهم من قبيلة عمران وأفراد الشاحنتين القادمتين من تبوك في طريقهما إلى ضباء، والذين جلبوا معهم آخر الأخبار من عاصمة المناطق الشمالية التي عاد إليها خالد السديري فور مغادرتنا. وفي غضون ذلك، فقد استفدت من توقفنا الطويل

(١) الآيتان ٣٣ و ٣٤ من سورة آل عمران.

في استكشاف المنطقة من قمة تل صغير رائع بارتفاع ١٠٠٠ قدم من صخور الرايوليت والإندست على نفس حافة قناة عفال. لقد كان صباحاً جميلاً مشرقا يلفه نسيم بارد نسبياً يهب من الشمال. كانت القمة الرئيسة في جبل اللوز المختفية جزئياً في السُحُب، ترتفع إلى الجنوب - الشرقي من موقعنا، في حين كانت ثنية وادي الأبيض على بُعد ميل تقريباً للشمال.

ولابد أن طول الوادي الإجمالي من مستجمع المياه حتى هذه النقطة يبلغ حوالي خمسين ميلاً تقريباً، وكانت قمة الرس واضحة للرؤية قرب رأس وادي صريم للجنوب قليلاً من الشرق، بينما كان وادي الشرف الشديد الانحدار يهبط في خط مستقيم من منحدرات الشُرّيف المقابلة. كان هذا أحد الطرق القديمة لحجاج الإبل القادمين من مصر، بعد أن يعبروا صحراء سيناء إلى العقبة، ويأتوا من هناك على طول الساحل، ثم يلتفوا حول الأراضي الداخلية من هنا ويلتزموا وادي عفال حتى الساحل قرب عينونة. إن ممر الحجيّة الذي تلتف به قوافل الإبل حول الحافة الشمالية لجبل اللوز حتى تهبط في وادي عفال يمتد تقريباً للجنوب منا، ويرتفع ارتفاعاً تدريجياً، ويوجدُ على مقربة منه تحت تل آخر يُسمى قصيراً نبع ماء يمكن أن تتزود منه القوافل، ويلتقي الوادي الذي يتدفق بين سلسلتين من الجبال الشاهقة جداً، بالكثير من الروافد من كلا الجانبين على امتداد

طوله بالكامل بدءاً من ملتقى صُرَيْم حتى خرائب مدين، والروافد على الضفة اليسرى المنحدرة من جبال اللوز والمنحدرة من الشمال إلى الجنوب تتمثل في سبيط وشمرخ وخبيت والحَجيّة وملحة والعين وعلجان وأم مطر والمواث. أما سلسلة الروافد على الضفة المقابلة فهي الجرف والحوى والعريجي والأعقر ونثيب النُتيش والمرفد ولبونة ونصب الشعراء وقلخة وعجوجة والرغامة.

يتراوح عرض الجزء العلوي من الوادي بين ٥٠٠ و ١٥٠٠ ياردة في الاتساع، مع وجود أحواض أوسع أحياناً تسمح برؤية رائعة للجبال الشاهقة، ومنها قمة جبل اللوز التي كانت تظهر فوقها رقعة من الثلج، وقد أكد الدليل أنها فعلاً ثلج، وإذا كان الأمر كذلك فإن هذه كانت المرة الأولى والوحيدة التي أرى فيها الثلج على الإطلاق بالمملكة العربية السعودية، على الرغم من أنني سمعت أحياناً بتقارير عن تساقط الثلج في جبال أبها وغيرها، ويشمل ذلك الصحراء شمالي حائل[١].

وفي أثناء هبوطنا الوادي واجهنا في أماكن مختلفة بعض النتوءات والتلال الصغيرة الجميلة حقاً بأشكال واضحة المعالم ذات لونين أحمر وأسود، صنعتها خنادق من صخور الرايوليت

(١) في يناير ١٩٥٧م أبلغ عن سقوط ثلج كثيف على القويعية في مرتفعات العرض غرب الرياض وذكر شاهد عيان أن الثلج غطى المنطقة لارتفاع ستة أمتار. (المؤلف).

والإندست في الطبقات الأشد قدماً من الصخور الجرانيتية الرمادية القاعدية. وتبدو الخنادق متنوعة ومتعددة الأوضاع، فأحياناً تكون رأسية، وأحياناً أفقية، وأحياناً تغطس بانحدار شديد، وأحياناً متموّجة، وفي كثير من الحالات يقع خندق الرايوليت بين طبقتين متداخلتين من البازلت.

وبعد حوالي عشرة أميال من مخيمنا مررنا على مدخل شعيب الحوى على يميننا، نازلاً من قمة الخزانة على يسار جبل شعل، وفي مساره يلتقي عند المنحدر بوهد سيل العرف وبين الاثنين يوجد مرتفع صغير لكنه ظاهر بوضوح يُسمى جبل الغلاين صاحب اللون الأصفر الفاتح الذي يستغل البدو الحجر الصابوني المتوفر فيه لصنع غلايين التبغ الضعيفة نسبياً.

ويتكوّن جبل شعل والمنحدرات المقابلة له من الجرانيت مع الخنادق الكثيرة من طبقات الرايوليت والإندست. وبعد اثني عشر ميلاً ينكمش الوادي عند النتوء الأسود بالضفة اليسرى، الذي يُعرف باسم نزلة الرفيعة والذي توجد على قمته بقايا قلعة قديمة، لا ريب أن الغرض منها كان السيطرة على الممر الضيق وحمايته من الأعداء. من هنا استدرنا قليلاً للغرب من مسارنا الغربي عموماً نحو تل لبونة البازلتي البارز، بعد حوالي ثلاثة أميال. وعلى طول الوهد في

جانب مجرى التيار من هذا التل كان موسل قد جاء من العقبة على ساحل الخليج، ودخل وادي عفال في طريقه إلى مدين.

ومن الطريف أن نذكر أنه بعد حوالي ميل عكس اتجاه التيار من مضيق نزلة الرفيعة وعند مدخل شعيبي السدرة والمتاهة من الضفة اليسرى، عندما يكوّن الوادي ثنية واسعة، حاول البدو المحليون حفر بئر، ولكنهم تخلّوا عن هذه المهمة يأساً عندما طمر سيل مفاجئ الحفرة التي كانوا حفروها بشق الأنفس لحوالي ثلاث قامات. وبعد تل لبونه مباشرة تقريباً، دخلنا الثنية الحادة لمضيق قلخة أسفل النقطة التي ينحدر عندها شعيب الأجان (ربما يكون هو الأيكة التي ورد ذكرها في القرآن الكريم، لأن حرف "ك" يُنطق أحياناً " ج ") من حافة اللوز مقابل خط تصريف صغير يسمى المابيه، في مضايق القلخة لا يزيد اتساع الوادي عن ٢٠٠ ياردة، بينما يكوّن قاع الوادي من الرمال الكثيفة ثنية مزدوجة بزاوية قائمة، مع منخفضٍ في أحد الأركان فيها أحياناً عبارة عن بركة.

وبعد ثلاثة أميال من المضيق تغيرت خواص المنطقة فجأة تماماً. فمنحدرات اللوز والمقلعة الجرانيتية، بخنادقها البازلتية وعروقها وطبقاتها السطحية، قد أفسحت المجال لأرض سهلة قليلة الانحدار، حيث تلتقي فيها الفروع الكثيرة لوادي مواث مع القناة الرئيسة.

طلبت التوقف هنا لتناول المرطبات ولكي ندرس هذا التغيّر الجديد. لقد كان الطقس أصيلاً دافئاً ومشمساً، ولكننا تضايقنا كثيراً من الذباب خلال توقفنا.

وكانت المنطقة تبدو قاحلة وجافة قليلاً، وقال لي زيد إنه لم يكن هناك مطر أو سيول جديرة بالذكر في هذه المنطقة حوالي أربع سنوات مضت، ولم نجد أي أثر مهم يدل على وجود نقوش في الوادي كله، بل ولا حتى الخربشة باللغة العربية التي يتركها الحجاج، وهذا يعود بلا ريب إلى صفة الصخور هنا، إذ إن معظمها من نوع الجرانيت الرماي والفلسبار الوردي وبه عروق وخنادق من الإندست والرايوليت.

وبعد أن خرجنا الآن من منطقة الصخور القاعدية وعروقها البركانية القديمة، اتسع الوادي لما يزيد عن ميل بين مرتفعات متحدرة ومتتابعة، ويرتفع في بعض الأماكن إلى ٤٠٠ قدم أو نحوها، ويتكوّن من رمل جرانيتي خشن ممزوج بكتل من البازلت، والجرانيت والفلسبار من جميع الأحجام والأشكال، وكان بعضها يتناثر على المنحدرات الصاعدة من القناة. كان السطح ناعماً وهشاً، ونشأ عندي انطباع بأن هذا كان كوماً هائلاً من الأنقاض في المراحل المبكرة من التكوّن والتكتل، أي مثل التحلية شبه المطبوخة. وكانت ضفاف وادي عفال تقل في الارتفاع كلما هبطنا في القناة، وبعد

دخول فرعين من شعيب مطر من اليسار، لم تكن جوانب الوادي أكثر من أجراف طينية بارتفاع عشرة إلى عشرين قدماً بينما نجد المرتفعات المتكتلة خلفها على الجهتين، وكنا نقترب من جبل متعارض منخفض والذي بدا أنه يمتد على طول المسافة عبر الفسحة العريضة التي تشبه الدلتا، كما تمر القناةُ بمضيق بين اللسانين الشاهقين لجبل الشقدوين التي تسمى أيضاً الرغامة (وهي كلمة تعني القصبة الهوائية وتستخدم كثيراً في هذا المكان للدلالة على مضيق أو ممر).

إن تحلل الطمى عكس اتجاه التيار من هذا المضيق يعود -بلا ريب- لحجز السيول في المضايق، وكان هذا الامتداد الفسيح كله يبدو مثل منطقة مراعٍ غنية جداً، على الرغم من أن حالة هذه المراعي تعتمد على الأمطار الموسمية، وكان المضيق نفسه، الذي يبلغ متوسط عرضه ٢٠٠ ياردة تقريباً ويقل طوله عن ميل، ويتسع الوادي في طرفيه لنحو ٥٠٠ أو ٦٠٠ ياردة، واللسانان العظيمان، اللذان يرتفعان حوالي ٧٠٠ قدم أو أكثر فوق الطرف الغربي للممر ينتصبان على قاعدة علوها مئتا قدم من مزيج صخور الكتل الوعرة التي وصفناها آنفاً، ويوجد من فوقها طبقة من الحجر الجيري قليل الاصفرار سمكه ١٠٠ قدم، وفوق تلك الطبقة طبقة أخرى سمكها ٢٠٠ قدم من مزيج الكتل المماثلة، وأخيراً طبقة سمكها ٢٠٠ قدم

من الحجر الجيري الضخم على القمة، عند هذه النقطة كنا قد قطعنا ٣٢ ميلاً من مخيمنا في ملتقى صُرَيْم، وهكذا يصل إجمالي طول وادي الأبيض - عفال إلى ٨٢ ميلاً حتى الآن، ويستمر بعد ذلك بقناة محدودة مسافة قليلة، ولكن فور اجتيازه بقايا عاصمة مدين يبدأ في الاتساع في دلتا تزداد في الاتساع باستمرار حتى تصل البحر، أي بمسافة إضافية قدرها ٣٠ ميلاً من المضيق، أو بمجموع إجمالي قدره ١١٢ ميلاً.

من نقطة عالية تمنح رؤية ممتازة على قاعدة اللسان الجنوبي استطعت أن أرى جبال سيناء بوضوح تام، والجبال التي تصطف على خليج العقبة على الجانب القريب منها، والخط الطويل لجبل تيران يمتد على طول الجانب البعيد من الوادي المؤدي إلى البحر عند ميناء مقنا، بيد أن كل ما استطعنا رؤيته من هدفنا المباشر كان قليلاً من النخيل في أقصى الطرف الأيمن لواحة البدع، تلوح على خجل حول رأس مستدق لجبل منخفض حجب عنا رؤية ما تبقى من آثار عاصمة مدين، كان النخل على بُعد ميلين تقريباً، وسرعان ما اقتربنا منه، لنجد أنفسنا في بستان صغير طوله ميل وعرضه ١٥٠ ياردة تقريباً، يتناثر فيه عدد من الأكواخ المصنوعة من سعف النخيل وفروع الشجر، وكان أحدها بيتاً للحكومة المحلية، أي مقر قيادة قوة صغيرة من الشرطة تحت إمرة ضابط صغير، وأمام هذا الكوخ يقع

المسجد المحلي وهو بدون جدران أو سقف، مجرد مساحة مستطيلة محددة بصف من الحجارة، ولم يكن هناك أي إنسان في المكان، بينما الريح المعتدلة التي تهب فوق رؤوس النخيل تصدر حفيفاً يُذكر بأرواح سكان ميتين. إنّ للبدْع شهرة صحية سيئة بسبب الملاريا المتوطنة، والتي يزدها تفاقماً العدد الكبير من الآبار الضحلة التي لا يتجاوز عمقها ثلاث أو أربع قامات وتستمد مياهها من الوادي من خلال مجرى تحت الأرض.

لقد وجد موسل في عام ١٩١٠م المجرى يسير على السطح، وهذا ما يمكن أن يحدث بلا ريب في أي وقت خلال مواسم الأمطار الوفيرة. إن البدو أصحاب هذا النخيل لا يأتون إلى هذا المكان إلا لجمع المحصول ولا يتجشمون حتى عناء تلقيح النخل بل ويتركون ذلك للطبيعة ولكن بنتائج غير مجزية طبعاً، لقد كانت بقعة بائسة وكئيبة فيها شيء من السحر الحزين على وجه يتيم مهجور. بيد أن المشكلة الماثلة أمامنا الآن كانت في عدم وجود دليل يرشدنا إلى كهوف جثرو (مغاير شعيب) حيث كنا نفكر في نصب خيامنا لأيام قليلة لفحص الموقع كله فحصاً شاملاً ودقيقاً، والذي قام كل من بيرتون وموسل باستكشافه ووصفه وصفاً كاملاً، ومن المثير للدهشة أن رفاقي، وكلهم قد مروا من خلال البدع من قبل جيئة وذهاباً بين تبوك وضباء، لم يتجشموا أبداً عناء زيارة مشاهد أنشطة جثرو

(شعيب) المذكورة في القرآن الكريم، ناهيك عن المواقع التقليدية المرتبطة بموسى (عليه السلام)، وكان لزاماً عليّ أن أتولى زمام المسؤولية عن هذه الإجراءات، معتمداً على ما تحفظه ذاكرتي من خرائط موسل التخطيطية، ولكن في لحظات قليلة كنا في قلب الآثار والقبور، ونحن نستقر في مخيمٍ في حماية جبل من الكتل الصخرية ذات اللون المرجاني وأمام قبر صخري بحجم مقدر ولكنه مهدم بالكامل. لقد اختفت واجهتُه، وكل ما بقي داخله كان اثنتي عشرة تجويفة في الجدار الخلفي، مواجهة للمدخل، وثلاث تجويفات مماثلة في الجدار على يمين الفتحة.

ومن الواضح أن هذا القبر كان قبواً لعائلة لها بعض الأهمية ولكن لا يوجد أي دليل على شخصية بُناته أو أصحابه، وقد أعطيت هذا القسم من المقبرة اسم "المجموعة أ". وقبل حلول الظلام ألقيت نظرة عجلى على مجموعات أخرى مختلفة من القبور على الجانب الآخر من الجبل نفسه، والذي يُعرف لدى العرب باسم مصلى شعيب. وكل هذه القبور بالطبع نبطية، وبالتالي بعد عصر شعيب بما يقترب من ١٥٠٠ عام.

من الغريب أن القرآن الكريم لا يذكر شيئاً عن حكم الأنباط، على الرغم من أنه يذكر مرحلة من التاريخ أشد قدماً، التي لم يكتشف دليل أثري يدل عليها حتى الآن. وقد سمى موسل آثار

المدينة على طول الضفة اليمنى من وادي عفال باسم الحوراء إلا أن هذا الاسم يبدو أنه قد اختفى من ذاكرة السكان المحليين، وكل استفساراتي التي وجهتها الآن وفي مناسبات أخرى للبدو المساعيد وهم أصحاب نخيل البدع والوادي بصفة عامة قد فشلت في إثارة أي جواب عن أسئلتي الإيحائية عن الموضوع، بل إنهم في الحقيقة لا يطلقون اسماً على هذه الآثار بل تُعرف لديهم بصورة مبهمة باسم رقبة المالحة الذي يبدو أنه لا يعني أكثر من مجرد جبل أو جرف من الوادي يطل على بستان نخيل صغير يسمى المالحة ويحتوي على جذع نخلة بالغة الطول حتى إنها أصبحت معلماً واضحاً على بُعد أميال من جميع الجهات.

وبالطبع تعرف القبور باسم مغاير شعيب، وكلمة "الحوراء" التي تعني الطباشير أيضاً، وقد أخذها موسل لتعني "الأبيض"، وهذا نعت يصعب أن يكون ملائماً للآثار السوداء في المنطقة، وهي مثل كلمة "حوري" التي نطلقها نحن على حور الجنة بسبب سواد عيونهن. وفي جميع الاحتمالات فإن المعنى الحقيقي للكلمة يرتكز على المقابلة بين كلمتي أسود وأبيض.

ومن الطريف أن الكلمة نفسها قد استخدمها على ما أعتقد كلٌ من بيرتون وموسل للآثار الواقعة في المناطق الواقعة إلى الداخل قليلاً من ميناء أملج الصغير على ساحل البحر الأحمر بين الوجه

وينبع والذي يطلق عليه الجغرافيون القدماء اسم لوكي كومي أي القرية البيضاء. وهنا أيضاً اختفى هذا الاسم من ذاكرة المعاصرين، وهنا أيضاً نجد الآثار سوداء مثلما هي عليه الآن، ومن البازلت في الحقيقة. والبيوت فقط في القرية الحديثة نسبياً على الساحل هي التي قد تبدو بيضاء للمسافرين بالسفن التي تمر عليها.

وتقع واحة المالحة الصغيرة في الوادي نفسه وتحت الآثار مباشرة، على بُعد حوالي ١٠٠٠ ياردة من مخيمنا قرب المجموعة (أ) من المغاير التي ينزل من على مقربة منها وهدٌ قصير من أجراف المصلى متجاوزاً الآثار حتى القناة. وكان في هذه الواحة عدد من الآبار بعمق ٣٫٥ قامة تقريباً وفيها ماء شديد العذوبة حتى إنه يقارن محلياً بالنيل. ومن هنا جاء هذا الاسم، الذي يعني "البئر المالح"، على أساس مبدأ المدح بما يشبه الذم. وكانت مساحة الواحة كلها لا تتعدى ٥٠٠ × ٢٥٠ ياردة في حجمها، وتتكون بالكامل من نخيل مع شبكة معقدة لا يمكن اجتيازها تقريباً بسبب الأعشاب والحشائش. ومن الواضح أن الصورة الفوتوغرافية التي التقطها موسل لهذا المكان كانت صورة البرج على مسافة غير بعيدة من هنا، ووصفه لصهريج مائي وعين متدفقة لا يمكن بأي حال أن ينطبق على المليحة التي كانت -بلا ريب- تعتمد دائماً على آبارها لري النخيل، ويعد صهريج البرج أروع مثال على ما قام به الأتراك من أعمال

حفظ المياه، حيث تبلغ مساحته ٣٠ × ٢٠ ياردة، ومشيد بطريقة ممتازة من الألواح الحجرية المشذبة، وله سبع درجات نازلة على الحوض في اثنين من أركانه، بينما يوجد درجتان فقط في الركنين الآخرين. وتعرف باسم الفسقية أي النبع وقد وجد موسل فعلاً ماءً جارياً هنا، على الرغم من أنه لم يوجد بالتأكيد أي دليل أو أثر على هذا الماء الجاري في وقت زيارتي. وعلى مقربة منه ينتصب تل البرج الصغير، وعلى أحد جوانبه، وتحت قمته بمسافة قصيرة توجد فتحة بئر عمقها ١٥ قامة ذات بناءٍ متقن نسبياً، مع قوس متدل يقسم الجزء العلوي إلى قسمين، وبقايا جدران يحتمل أنها كانت من مبنى يغطي المنشآت كلها.

لقد كان من الصعب تخمين تفاصيل المبنى، الذي كان طول جداره الشمالي ٣٨ قدماً، وطول كل من الجدارين الغربي والشرقي ٢٢ قدماً تقريباً، وكانت هذه الجدران تمتد حتى حافة التل نفسه، التي كانت بهذا الشكل بمثابة الجدار الجنوبي، وتوجد خارج هذا المبنى مباشرة حفرة ليست عميقة يحتمل أنها كانت بمثابة حوض أو وعاء يؤخذ منه الماء، ولها قناة صغيرة تمتد ثلاثة أقدام مبنية من الحجارة تصل ما بينها وبين حافة البئر على طول أعلى الجدار الغربي، وقد قال لي الشيخ حسن من قبيلة المساعيد المحلية الذي رافقني خلال فحصي للموقع: إنه ليس من المعروف أن البئر تحتوي

على ماء في حدود ما يتذكره الناس في الوقت الحاضر وكان يطلق عليه اسم " السيدني " الذي ربما يكون تحريفاً من كلمة " سيدي " وذلك لأن المبنى كان من الواضح أنه ضريح لأحد الأولياء. وربما يكون الأتراك هم الذين أنشؤوه، وأن تاريخه يعود لزمن ارتياد الحجاج المصريين لهذا الطريق بعد نزولهم من العقبة، حيث كانوا ينصبون خيامهم بجوار الماء قبل أن يتقدموا للمحطة التالية في عينونة أو الخريبة. ولم يكن من العسير على منظمي الحج أن يتجاوزوا هذا البئر المديّني على أنه هو نفسه الذي سحب منه موسى (عليه السلام) ليسقي قطيع أغنام بنات شعيب. وبناءً على ذلك، فيحتمل أن يكون موسى هو الولي الذي خصص له الموقع.

والمنطقة المحيطة بموقع المخيم تغص ببقايا ما تركه الحجاج العابرون، مثل كسر الأواني الفخارية، وعدد هائل من حبات الخرز ذات اللون الأزرق الفيروزي من النوع العادي ربما كانت مصنوعة في ألمانيا أو بيرمنجهام، ومن الطريف أن زيداً قد أخبرني بوهد " شعيب الحجيّة " الذي ينحدر من عفال ويدخل في هضبة اللوز، والذي رأى فيه بعض الحجارة الزرقاء اللامعة، التي قد تكون فيروزاً، على الرغم من أن وصفه لهذه الحجارة كان يوحي بأنها ياقوت. ومن سوء الحظ أننا كنا قد تجاوزنا هذه المنطقة بكثير حتى إنه لم يعد من الممكن التأكد من ذلك، وفي رحلاتي اللاحقة لم أعثر

على أحد يعلم شيئاً عن هذه البقعة ولا محتوياتها الشهيرة، ولم يقم بيرتون أبداً بفحص أخاديد جبل اللوز أو الجبال الأخرى في سلسلة جبال مدين، وليس من غير المرجح أنها قد تحتوي على معادن من أنواع مختلفة. وكان جبل مقلاع البازلتي، الذي يشبه الهرم، يبدو من السهل تسلقه إلا أن قمم اللوز من الجرانيت الخالص كانت تستلزم من الوقت والجهد أكثر مما هو متاح لي الآن. وفي حدود علمي أنه لم يتسلقها كائن بشري أبداً.

ومن بئر موسى حتى مركز الشرطة الحديث في البدع مشينا مشياً يسيراً حوالي عشرين دقيقة، أي ميلاً تقريباً، على طول درب تحت جبل الدرك المرتفع قليلاً، والذي تغطي قمته ومنحدره آثار مبانٍ قديمة بسيطة وبدائية. ومما لاشك فيه أنها جزء من مستوطنة نبطية أو لقوم أقدم منهم وقد بنيت مرتفعة فوق الوادي غير الصحي، الذي لا بد أن سكانه قد عاشوا بالتأكيد في الخرائب الأكثر اتساعاً في رقبة المليحة والملقطة. وعلى طول سفح الجبل يمتد سورٌ انجرفت بعض أجزائه وهو من المؤكد قد شيّد لحماية الطريق من انهيارات الأنقاض المفككة من منحدرات الجبل. وفي الحقيقة، خلال زيارتي الثانية عندما تعرضنا عدة ساعات لأمطار غزيرة فشلت محاولتي لتسلق التل تماماً بسبب الطبيعة اللزجة غير المضمونة لسطحه الجيري الناعم. وعلى مقربة من الواحة عند نهاية الدرب توجد مقبرة غير

مميزة، ويحتمل أن تكون للحجاج. وعلى أحد شواهد القبور كانت توجد طبعة يد كبيرة محفورة فيه، بينما كانت الشواهد الباقية بدون زخرفة أو أسماء. وكان الاتجاه الطولي للقبور للشمال قليلاً من الشرق وللجنوب قليلاً من الغرب، وهكذا تكون جثث المسلمين قد دفنت ورؤوسها للغرب ووجوهها نحو الجنوب باتجاه مكة. وفي هذا الوقت كانت قوة الشرطة الصغيرة قد عادت إلى مقرها، وبمناسبة زيارتي للبرج استضافني قائدها سعد بن إبراهيم لشرب الشاي والقهوة، وهو مواطن من الحريق في جبل طويق جنوب الرياض.

والسبب الرئيس في وجود مركز الشرطة هو منع الحجاج من التسلل داخل البلاد عبر هذا الطريق من الأردن وفلسطين بدون أن يدفعوا الرسوم الجمركية، ولهذا السبب كان لديه خمسة من الرجال المسلحين تحت تصرفه، والذين كانوا يقضون معظم وقتهم وهم يجوبون الصحراء على ظهور الجمال بحثاً عن المخالفين الذين لم يدفعوا ما عليهم من رسوم، وقد دعانا الشيخ محسن لزيارة خيامه على مسافة ما في وادي عفال، ولكني اضطررت لعدم قبول الدعوة لأننا كنا قد طلبنا سابقاً من سعد ورجاله أن ينضموا إلينا في العشاء. من الصعب أن نقول إنهم كانوا متحمسين للدور الذي يؤدونه في الدفاع عن الحدود السعودية، فقد كانت رواتبهم متأخرة لفترة

طويلة، ولكنهم كانوا يحصلون على مؤونتهم على فترات متقطعة من مقنا أو الخريبة وكان بعضهم قد اتخذ زوجة له من قبيلة المساعيد المجاورة، وكانت مشاركتهم فيما أعرفه عن المنطقة ضئيلة ولا تكاد تذكر، على الرغم من أن سعداً كان يروي قصة موسى وشعيب بسهولة بالغة، وقد تطوع أيضاً بتزويدنا بمعلومة صغيرة من المعلومات، والتي لا بد أنه قد اختارها من بعض الكتب أو القصص القديمة التي لا علم لي بها. فقال إن منطقة مدين قد شهدت ازدهار وانحطاط خمس أسر حاكمة، بدأت بشعيب من بني أبجد الذي تزوجت ابنته موسى (عليه السلام)، وجاء الحكام من بعده من قبيلة هوّز التي أفسحت المجال لقبيلة حطي وتلاها في الدور عشيرة كلمن ثم سعفص ثم قرشت.

وهكذا يكون العدد قد اكتمل بستة أسر حاكمة، وربما كان يستطيع أن يكمل السلسلة بثخذ وضظغ حتى يكمل الكلمات الثمانية في النظام التقليدي الذي يحدد الحروف الأبجدية وهو نظام له دلالة رقمية، مثل حروف الهجاء اليونانية، حيث تمثل الحروف الثمانية والعشرون الوحدات، والعشرات، والمئات، حتى الألف (غ). وقد بدا أنه غير واع بهذه المصادفة.

ومن الطريف أني نسيت أن أذكر القلعة بموقع البرج التي كان من الواضح أن الأتراك شيّدوها للسيطرة على البئر لصالح الحجاج.

وتقوم هذه القلعة على أرض مرتفعة قليلاً على بُعد حوالي عشرين ياردة شمال البئر، ومقاسها ثماني عشرة ياردة من الشمال للجنوب وخمس عشرة من الشرق للغرب، وتتجه جدرانها جميعاً نحو الجهات الأصلية الأربع في البوصلة.

إنها الآن في حالة يُرثى لها من عدم الحفظ والصيانة، على الرغم من أنها مشيّدة -كما هو واضح- بعناية فائقة من حجارة البناء الصغيرة المشذبة تشذيباً جيداً، والمترابطة في مكانها بملاط من الطين، وقد انهار الجداران الشرقي والشمالي انهياراً كاملاً، ولم يبق منهما إلا الأساسات التي يمكن تتبعها تحت أكوام الأنقاض التي تكدست فوقها، والجدار الغربي سليم حتى المدماك العاشر، الذي يرتفع حتى الثالث عشر مسافة قصيرة قرب الركن الجنوبي - الغربي، ومنه يمتد الجدار الجنوبي سليماً على امتداد طوله البالغ ثلاثة عشر مدماكاً، والذي يرتفع بمقدار تسعة أقدام، على الرغم من أن صالة المدخل قرب هذا الركن من الجدار الجنوبي قد سقطت وانهارت بالكامل ما عدا جدارها الداخلي الموجود بعيداً نحو ثلاث ياردات عن خط الجدار الخارجي.

لقد جذبت نيران مخيمنا وأنواره حتماً الضيوف من المراعي المجاورة، حتى إنه نادراً ما نكون بلا صحبة خلال تناول الطعام وحول موقد القهوة، ولهذا استطعت أن أجند دليلاً جديداً محل

زيد. وكان يُدعى عيد بن محيسن من المساعيد، والاسم الذي سمى به آثار الحوراء كان الملقى، وقد فسّر هذا الاسم بأنه يعني المكان الذي يمكن أن يعثر فيه المرء أو يجمع أشياء مثل العملات القديمة، أو قطع الزجاج وكسر الأواني الفخارية؛ وهذا اسمٌ غير مناسب تماماً لإطلاقه على المنطقة الرئيسة من الآثار على الضفة اليمنى، لأنه توجد رقعة أخرى كبيرة نسبياً من الآثار على "جزيرة" في منتصف الوادي، والتي تُعرف لدى البدو بالتحديد باسم الملقى، هذه الملاقي أو (الملقطة) كانت ثرية على نحو خاص بكسر الأواني الفخارية المتعددة الألوان والأنواع وهي ربما تكون نبطية، على الرغم من أنها يُحتمل أن تكون من العصور الوسطى.

ومن المفيد أن نقف على وصفها قبل أن ندخل في الحديث عن المدينة الرئيسة. تقع هذه "الجزيرة" على بُعد أقل من ميل عن بستان نخيل المليحة، وتكوّن شكلاً بيضوياً وعراً من الطمي، الذي يرتفع سطحه إلى ما يقرب من عشرة أقدام فوق الوادي المغطى هنا بكثافة بأشجار البلميط (الحيش: نوع من النخيل قصير ومروحي السعف) ونبات الطرفاء، ومن المحتمل أنها تمثل موقعاً لبساتين نخيل كبيرة في العصور الماضية. والمنطقة المأهولة محاطة بآثار سور طيني، به بقايا من برج في الركن الجنوبي - الغربي، وخزان مياه صغير قرب الركن الجنوبي - الشرقي ولكنه يقع خارجه. هذا الخزان يُستفاد منه الآن

كحقل للمزروعات البسيطة التي يزرعها البدو، مثل الشعير والدُخُن، التي تنمو على التربة الطينية التي ملأت الحوض الذي ما يزال بلا ريب يستفيد من السيول، ومن الركن الشمالي - الغربي للمساحة المسوّرة يمتد جدار آخر في اتجاه الشمال لنحو مئة ياردة ليتصل بجدار متعارض يبلغ طوله مئة ياردة ويمتد شمال - شرق وجنوب - غرب. وربما كان خندقاً لحماية الجزيرة من قوة السيول القصوى. والنسبة العالية من أجزاء وكسر الأواني الفخارية المتميّزة تماماً توحي بأن هذه المستوطنة الجزيرة كانت مقراً لسكن الناس ذوي المكانة الاجتماعية الرفيعة الذين كانوا يفضلون العيش خارج المدينة الرئيسة.

تمتد المدينة الرئيسة على الضفة اليمنى للوادي حوالي ١٢٠٠ ياردة، وتنحدر انحداراً قليلاً نحو الشرق نسبياً من الجنوب. وتنقسم إلى ثلاثة أطوال متساوية تقريباً بواسطة قناتي تصريف قصيرتين منحدرتين من الأرض المرتفعة بحبل المصلى، وهناك قناة ثالثة مشابهة لهما تمر في القسم الأوسط لتملأ خزاناً داخل زاوية البقعة التي تشبه حرف (L) الإنجليزي. وقد تكَوَّن هذا الشكل من جزئي القناة اللذين يملأ أحدهما طول الوادي الرئيس ويبرز نحو الغرب باتجاه التل، وهذا الخزان، الذي وُجه شمال - شمال - شرق جنوب - جنوب - غرب، عبارة عن مبنى مربع يبلغ ضلعه سبعين

قدماً، ومشيد من صخور البناء الخشنة التي صفت بالمونة وتمت كسوتها بالإسمنت الجبسي، الذي توجد رقع منه باقية حتى الآن. ولا يمكن تحديد عمق الخزان لأنه مملوء بالأنقاض والركام، ولا بد أن وقتاً طويلاً قد مضى منذ أن أدى الغرض الذي شُيّد من أجله لآخر مرة، وهو يحتل مساحة تبلغ اثنتي عشرة ياردة داخل ثنية المساحة على شكل حرف (L) وعلى بعد مسافة ٢٠٠ ياردة تقريباً من هذه الثنية نحو الجنوب - الغربي يوجد مبنى طويلٌ قُبَالة قناة مصلى شعيب ماراً بقبور المجموعة (أ) ومخيمنا، أو ربما بالأحرى على الضفة اليمنى لأحد الفرعين من القناة الذي ينقسم كلما اقترب من الخرائب، ويشغل المبنى مساحة تُقدّر بحوالي ١٠٠ × ٤٠ ياردة بين الفرعين، وربما يمتد حتى يصل كليهما على الرغم من أنه لا توجد أي علامة أو أثر باق من مثل هذه السدود. وفي مثل هذه الحالة يمكن أن يكون القصد منها تحويل المياه الجارية لتصب في الخزان.

ومن ناحية أخرى فإن قواعد الأساس -وهي كل ما تبقى الآن- توحي بأنه ربما كان حديقة أو بستان نخيل يُسقى من هاتين القناتين وهما في طريقهما إلى الخزان.

إن القناة التي تفصل القسم الأوسط عن القسم الجنوبي من المدينة تنحدر من منطقة القبور الرئيسة على الجانب الآخر من المصلى من مخيمنا، وبين هذه المنطقة وأسوار منطقة الآثار يوجد عدد من الأكوام أو الآكام المنهارة ذات أحجام وارتفاعات متفاوتة والتي ربما تكون بقايا مساكن، وهذه الآكام مصنوعة من الحجر الجيري

الجبسي، وفي حالة واحدة على الأقل تبدو القاعدة قطعت في مربع لتصبح أساساً للبناء ويتكون معظم الأنقاض على منحدراتها من الفلسبار المتحلل بيد أنني وجدت قليلاً من الكسر الفخارية، التي ربما قد تكون انجرفت أو انطمرت.

ويبدو أن القسم الشمالي من منطقة الآثار كان مستوطنة للفقراء، وربما الحرفيين والعمال من أنحاء المنطقة. أما القسم الجنوبي، الذي يمتد بالتوازي مع واحة مليحة في قاع الوادي، فيتمتع بمظهر متميز وفخم، ولاشك أنه كان مركزاً لطبقات المترفين والحكام، ويحتمل أن يكون القسم الأوسط هو المقر التجاري والسوق، الذي يتمركز على الخزان المائي.

كان القسمان الأوسط والجنوبي مسورين من جميع الجهات، إلا من جهة ضفة الوادي، إذ يبدو بالطبع أن المياه كانت السبب في إزالة الأسوار إذا كانت موجودة فعلاً. ومع ذلك توجد آثار كبيرة من الأسوار والأبراج على طول مجرى القناة الشمالية حتى النقطة التي تبرز عندها في الوادي الرئيس، من الواضح أن هذا الركن قد تمّت تقويته ليقاوم السيول، وأنها قد دمرته بصورة سيئة. ويبدو أن القسم الشمالي لم يكن له أسوار، ويبدو أيضاً أنه كان مأهولاً في العهود المتأخرة كثيراً، ربما من قبل البدو أصحاب النخل عندما يأتون لجني ثمار التمر، أو من قبل الحجاج. والأرض المنخفضة بين بقايا المساكن والوادي كانت مستخدمة على نطاق واسع كمقبرة.

ولم يبق إلا أقل القليل -ما عدا أنقاض البناء والحجارة المختلطة بلا انتظام- من المباني التي لابد أنها كانت تُزيّن القسمين الرئيسين من المدينة، ولكن يستطيع المرء أن يميز هنا وهناك أجزاء من الأسوار، أو أساسات المنازل أو الغرف. والجزء الجنوبي من القسم الأوسط فيه ملامح معمارية تشير إلى أنه كان حصناً أو قلعة تشرف على ضفة الوادي، ويبدو أن هذا القسم كان أقل ازدحاماً وتكدساً بالمباني، وبالتالي كانت توجد به مساحة واسعة لتشييد مزيد من المباني الفخمة والقصور، وفي خارج الركن الشمالي - الغربي من منطقة الحصن المشار إليها آنفاً يوجد مبنى مستطيل ذو حجم معقول، والذي ربما كان قلعة أو معبداً أو قصراً، وفي الوقت نفسه فإن القناة التي تفصل هذين القسمين لا بد أنه كانت فيها سدود أو جسور على ما يبدو مما تبقى من البناء على كلا الجانبين.

وتوجد أفضل سلسلة باقية من القواعد داخل الزاوية الشمالية - الغربية من منطقة الحصن حيث يسهل هناك تتبع الخطوط العريضة للغرفة بوضوح، التي تبلغ مقاساتها ثماني ياردات من الشرق للغرب في ست ياردات، وتوجد أيضاً أجزاء من القواعد المجاورة لهذه الغرفة، علاوة على أساسات غرفة أخرى أكبر منها نسبياً، أبعادها ٩ × ٧ ياردات.

ولكن نظراً لضيق الوقت وعدم توافر أدوات المسح والحفر معنا، كان من الواضح استحالة عمل أي شيء آخر أكثر من ذلك لتفسير مشكلة هذه الآثار، وعلينا أن ننتظر، ربما لوقت طويل، حتى يتم

عمل تنقيب أثري على أسس علمية في الموقع. ومن الملائم بدرجة معقولة أن نقول: إنه لا يوجد شيء من حضارة المدينيين في الآثار الظاهرة على السطح بالمنطقة كلها، بيد أن القبور، التي سوف أناقشها باختصار الآن، تؤكد أن الوادي قد سكنه الأنباط لفترة طويلة من الزمن، ولا بد أن ينتظر تاريخ المنطقة للفترة من بعدهم وما بينهم وبين المدينيين معاول علماء الآثار، على الرغم من أن الأواني الفخارية، الموجودة الآن في متحف جدة، قد تُلقي بعض الضوء على المسألة. إنني لم أتمكن أبداً من الحصول حتى ولو على وصف تمهيدي للعينات التي أخذتها إلى مصر منذ عدة سنوات مضت، وكل ما أعرفه عنها الآن أنها ضاعت أو وضعت في المكان الخطأ.

وتعد قبورُ الأنباط أو مغاير شعيب كما يسميها العرب المعلم البارز في منطقة مدين هذه، ومن واجبنا أن نقر بأنها لا تقارن بالآثار والتحف الرائعة في البتراء أو مدائن صالح، ولكن ذلك قد يعود إلى نوعية الصخور التي حفرت فيها معظم هذه القبور. وأفضل وصف لهذه الصخور أنها من الحجر الجيري المتحلل ومكوناته من الجبس وحبيبات الرمل الخشن يجعله هشاً وسهل التحلل، وفي مثل هذه الظروف يبدو من المدهش أن الريح، والمطر، والشمس على مدى ألفي عام لم تمح تماماً هذه الهندسة المعمارية الجنائزية للأنباط في هذا المكان، وسوف أذكر قائمة بجميع القبور التي رأيتها مع تفاصيل كاملة عن حالتها ومحتوياتها في الملحق الوارد في آخر هذا

الكتاب لكي يستفيد منه أولئك الذين قد يكونون مهتمين بمقارنة ما ذكرته مع ما ذكره بيرتون وموسل.

إن تقرير الأخير عن هذه القبور، الموضح بالصور الفوتوغرافية والرسومات البيانية الكاملة، لعملٌ مثالي من الطراز الأول، وقد يكون من المكابرة أن نحاول تحسينه. لقد كنت أحتفظ بكتابه الرائع معي أثناء زيارتي للموقع، واكتشفت أنه من المناسب بشدة أن أدوّن ملاحظاتي الخاصة على هامش صوره ونصوصه الوصفية، وإليها أُحيلُ أيّاً من قرائي الذين قد يسعدهم الحظ يوماً بزيارة هذه الآثار. وفي نفس الوقت سوف أرضي نفسي هنا بذكر وصف موجز جداً لما رأيته بأم عيني.

ومن المجموعة (أ) قُرب مخيمنا، يوجد قبرٌ واحدٌ كبيرٌ به فتحات قليلة في الجرف والتي ربما كانت تؤوي الجثث، وقد قلت آنفاً كل ما هو ضروري أن يقال عنه. أما المجموعة (ب) على الجانب الآخر من جبل المُصَلىّ والمفصولة عنه بقناة شعيب الجنوبية، فتتكون من مجموعة من سبعة قبور ومحفورة في جوانب تل صغير على مستويات مختلفة، وواجهاتها كلها في مراحل متفاوتة من التحلل والتفكك الفظيع، ففي حالات كثيرة لم تكن الجدران والأسقف إلا أكواماً من الحجارة، ولكن هناك ظاهرة عامة تشملها جميعاً ألا وهي أن القبور، إذا كانت هي فعلاً قبوراً، فإنها تأخذ شكل تجاويف منحوتة في الجدران. ولا توجد حالة واحدة تم فيها استخدام مساحة الأرضية للدفن.

والعدد الإجمالي للتجاويف كان خمسة وثلاثين، ويتراوح من تسعة إلى واحد في القبر الواحد. وتحتل المجموعة (ج) تلاً صغيراً معزولاً مماثلاً نحو الغرب من المجموعة (ب)، وبها خمسة قبور تتجه للغرب وهي في حالة أفضل من حيث الحفظ والصيانة، فعلى الأقل يستطيع المرء أن يميز القمم المدرّجة لواجهات ثلاثة منها، والتيجان في قبر آخر تشبه تلك التي عرفت بها كورنث (Corinth) اليونانية. وتاج آخر من نوع تيجان أعمدة البتراء يوجد في قبر خامس. هنا أيضاً كان يوجد الكثير من القبور المحفورة في الأرضية إضافة إلى عدد من التجاويف في الجدران، ومع ذلك كانت أفضل القبور في المجموعة (د) تلك المحفورة في جرف جبل المُصَلّىّ في منتصف المسافة تقريباً بين سفحه وقمته وفي صخور أكثر قوة وأشد تحملاً. وليس في هذه المجموعة إلا ثلاثة قبور واحدٌ منها قد فقد من الناحية العملية واجهته كلها، على الرغم من أن داخله كان سليماً، وتبلغ مساحته أحد عشر قدماً مربعاً وارتفاعه ستة أقدام، وبه خمسة تجاويف على مستويات متفاوتة في جدرانه، وكان أحد هذه التجاويف بعرض خمسة أقدام وعمق ستة أقدام في الجدار، وبارتفاع خمسة أقدام.

ويوجد أيضاً تجويف آخر من هذه التجاويف بالحجم نفسه تقريباً، والباقي منها كان أصغر بكثير. المبنيان الآخران كانا أكثر جمالاً؛ فيهما واجهات رائعة تماماً وفي حالة جيدة من الحفظ والصيانة، وكل واحد منهما له مدخل مسقوف، وفيه جدران على

كلا الجانبين، بها منصة حجرية من ثلاث طبقات، والتي تستمر على طول جانبي الجدار الخلفي الذي يوجد فيه باب القبر الذي يبلغ ارتفاعه ستة أقدام وعرضه قدمان ونصف القدم. وفي القبر الرئيس يوجد في أعلى الباب مثلث زخرفي مقوس، وقد انمحى بالكامل تقريباً على الرغم من أن شكله يمكن أن يُرى على ارتفاع ثلاثة أقدام، وفوق ذلك يمتد الجدار الصخري حالياً أربعة أقدام تقريباً، وأسفل عتبة تدعم ستة أبراج متدرجة ونصف برج على كلا الطرفين وفوقها عارضة بارزة قليلاً ويكون الجدار فوقها عارياً ثلاثة أقدام، ثم يصل إلى عتبة ثانية تدعم خمسة أبراج متدرجة ونصفين، وفوقها مثلث بارز يصل إلى قمة طبقات الحجر الرملي، وفوقها يوجد حجر جيري صلد. ويبلغ إجمالي ارتفاع الواجهة عشرين قدماً أو أكثر بقليل، وعرضها ستة عشر قدماً تقريباً، وبها ارتداد بعرض خمس عشرة بوصة وعمق ست بوصات فوق الدرج على كلا جانبي المدخل.

والعمق الداخلي لهذا القبر يصل إلى خمسة عشر قدماً، وعرضه اثنا عشر قدماً، وارتفاعه سبعة أقدام، ويوجد مدخل آخر في جداره الخلفي حوالي قدمين فوق مستوى الأرضية بارتفاع ستة أقدام وعرضه قدمان ويؤدي إلى قاعة صغيرة مساحتها تسعة أقدام مربعة وارتفاعها خمسة أقدام ونصف القدم. وكانت هذه القاعة خالية تماماً، ولكن كامل مساحة الأرضية في الغرفة الرئيسة المكونة من ٧ × ٥ر٢ قدمين ونصف القدم تشغلها القبور الموضوعة طولياً بالنسبة للأبواب،

ستة منها في صف على طول الجدار الخلفي، وزوجان اثنان داخل المدخل مباشرة وهما مفصولان بممر يؤدي إلى القبور الداخلية.

ومن المؤكد أن هذه القبور كلها قد نبشها اللصوص بحثاً عن الأشياء الثمينة، وكان بعضها مملوءاً عن آخره بالعظام، بينما كان من الواضح أيضاً أن البعض الآخر قد تم تنظيفه لاستخدامه من قبل الإنسان أو للأغنام. وكانت هناك بعض بقايا من الخشب متناثرة في المكان، والتي ربما كانت بقايا التوابيت، والقبر الثاني كان في معظم الأحوال مشابهاً للأول، على الرغم من أن كليهما كان له إفريز فيه خمس قباب (برج) واثنتان فقط من أنصاف القباب (الأبراج). وكان فيه ضريح داخلي مثل الآخر، ولكنه في وسط الجدار على الجهة اليمنى، والمدافن مرتبة بالعرض على الجدار الأيسر، خمسة منها، بممر طوله أربعة أقدام يفصلها عن خمسة مدافن طولية على كلا جانبي الممر المؤدي إلى الضريح الداخلي واثنان على جانب المدخل الرئيس وثلاثة أخرى على الجدار الخلفي. وأعتقد أن هذين القبرين يمكن عدهما بقدر معقول من الثقة ضمن قبور الملوك.

ومن هنا تسلقت أنا ودليلي على الجرف لنرى "دوائر" شعيب على قمة جبل المصلى، ومنها نزلنا بسهولة بالغة إلى مخيمنا على الجهة البعيدة. ويخبرنا موسل أنه اضطر إلى أن يسير في دائرة من كيلومترين حتى يقترب من الجبل من جهة الشمال، بيد أن الطريق الأكثر استقامة لم يمثل أي صعوبة لنا. وهناك نصب من أكوام الحجارة يحدد البقعة التي يُعتقد أن شعيباً قد صلى فيها، وحولها من

جميع الجهات دوائر كثيرة يصعب أن نخمن معناها أو أهميتها، ويبدو أن بعض المواضع قد تم تحديدها لفائدة الحجاج الذين يزورون الموقع الذي جادل فيه شعيب (عليه السلام) قومه من أهل مدين. ومن هنا تمتعت بإلقاء نظرة رائعة على سلسلة جبال مدين كلها حيث يقع جبل اللوز والقمم المجاورة له في الشمال - الشرقي وجبل مَقْلاع للشمال قليلاً من الشرق، ويفصل وادي النمير الأخير عن جبل المرّة الطويل المنخفض، الذي يمتد من الشرق إلى الجنوب - الشرقي، حيث تبرز قمتا حروب (هروب) الاثنتان أمام جبل الزُّهْد العظيم الذي يمتد حتى نقطة ليست ببعيدة عن البحر باتجاه الجنوب منا.

وعلى الجانب الآخر، من الجنوب - الغربي والالتفاف إلى الشمال - الغربي، تقع سلسلة جبال تحجب رؤيتنا لخليج العقبة وتيران والنُّتَيْش وسلك ومَرْشَه وزريق مع مرتفع عابدين الشاهق الذي يشير إلى الطريق المؤدي إلى ميناء مقنا الذي كنت سأزوره في اليوم التالي. بيد أن البقعة التي استولت على خيالي وتفكيري كانت هي قمة حراب الجرانيتية الناعمة ذات الرأسين (وقد نطق دليلي عيد هذه الكلمة "حروب") وهي الكلمة المرشحة الواضحة لتكون جبل حروب المرتبط بالهجرة اليهودية التي ورد ذكرها في الإنجيل، ومعها الشجيرة المشتعلة التي رآها موسى وكذلك ألواح الهدى اليهودية، وهذه القمة هي المرشح الوحيد لنيل هذا الشرف والتي تستطيع أن تدعي أنها حفظت الاسم. وفي حدود ما أعلم لم يذكر أحدٌ من قبل

وجود هذا التل في مدين أبداً[(١)]، وكنت بالطبع شغوفاً باستكشافه هو وما يحيط به. ولكن سيارتنا اللوري العتيقة لم تعد الآن صالحة للمغامرات الجبلية الوعرة، وكان عليّ أن أنتظر سنتين حتى أنال فرصة إشباع طموحي في ٣١ يناير ١٩٥٣م. وحيث إنني قد قمت بهذه الزيارة وحيداً مع الميكانيكي والدليل حسب الله يجدر بي أن أقحم هذه القصة هنا لإكمال الصورة عن مدين.

لقد وصلنا البدع في الليلة السابقة، بعد أن تركنا كل من بوج ومحيسن ليقضيا الليل في جبل المرو للقيام ببعض الأعمال الجيولوجية المكثّفة على المنطقة المجاورة له، وعزمت على أن أستفيد من وقت انتظاري في زيارة حُراب.

وركبنا سيارتنا على الطريق الرئيس نحو البحر حوالي ستة عشر ميلاً حتى نقطة رأينا عندها تل نخلة البارز في المنطقة الكبريتية للشمال قليلاً من الغرب بينما تقع قمة حراب الرئيسة من ناحية أخرى بين الشمال - الشرقي والشرق - الشمال - الشرقي (٥٨ درجة). وكنا الآن نشق طريقنا في منطقة وعرة في خط مستقيم بقدر ما تسمح طبيعة الأرض لنا بذلك، وفي مسافة ثلاثة أميال عبرنا

(١) لقد نصب ألويس موسل خيامه في وادي حروب (المصدر السابق صفحة ١٢١) ولكنه لم يشر إلى مكانته أو أهميته المحتملة في الإنجيل. ومع ذلك، ففي الملاحق (المصدر السابق صفحة ٢٦٣ و ٢٦٩ و ٢٩٧ و ٢٩٨) يذكر على وجه التحديد هذا الوادي بلفظة هروب. وبناءً على ذلك لست أول من يقترح هذه المكانة لحراب. على الرغم من أن اقتراحي هذا قد قدمته بصورة مستقلة. ومرجعية موسل القوية تؤكد التعريف الذي طرحته.

ثلاث قنوات فيضية من وادي عفال كلٌ منها بعرض ١٠٠ ياردة تقريباً، في حين كانت الثالثة على ما يبدو بوضوح قاعاً لنهر مهجور، له مصطبة شاهقة من الحصباء على طول ضفته اليسرى، التي تسلّقناها بلا صعوبة، ومع ذلك واجهنا قناة أخرى، أشد اتساعاً وأكثر قدماً، بمصطبة مماثلة من الحصباء على طول جانبها الشرقي وعنده صعدنا إلى سهلٍ منحدر انحداراً لطيفاً. وهكذا رأينا مقطعاً عرضياً من وادي عفال يبين القاعين الحاليين لسيوله واثنتين من قنواته القديمة على مستويات أعلى. وكان سيرنا الآن يسيراً تماماً، ولو أن الأرض كانت رملية قليلاً في بعض البقاع، وبعد مسافة ميلين أتينا إلى درب إبل الحجاج، الذي ينحدر من المخيم في البرج على طول سفح الجبال، وفي النهاية يلتف حول النقطة البعيدة من جبل الزهد ليصل إلى عينونة. ووراء هذه الدروب مباشرة جئنا إلى آثار سير سيارتنا في الليلة البارحة، عندما كنا نحاول قدر المستطاع التزام طريق الحجاج، على الرغم من أننا في الظلام كنا أحياناً نضل عنها، لا سيما عندما كانت ممحوة في معابر الوادي المختلفة. وبعد ميلين وصلنا إلى حافةِ فجوة واسعة بأجراف من أربعين قدماً من الحجر الرملي والطمي على طول الضفة اليسرى، وارتفاع أسهل على جانبنا، تتناثر وتختلط فيه، بكل ما في الكلمة من معنى، جلاميد ضخمة من الجرانيت والبازلت بدءاً من الحافة المنحدرة لجبل حُراب الموجودة أمامنا مباشرة، ولم تستطع العربة اللاندروفر أن تتقدم أكثر من ذلك، وقمت بفحص الوادي وحافة

الجبل مشياً على الأقدام. يتكوّن الجبل من الجرانيت، بخنادق من البازلت على مسافات متقطعة، وتمتد من الجنوب - الغربي إلى الشمال - الشرقي بزاوية مقدارها ثلاثون درجة.

ولم أحاول أن أقلد العمل البطولي الذي قام به موسى (عليه السلام) عندما تسلقه، إن كان قد تسلقه فعلاً[١]، ولكني قمت ببحث دقيق في الوادي وأجرافه ذات الحجر الرملي أملاً في العثور على بعض النقوش. وكل ما وجدته كان قليلاً من وسوم البدو، بيد أن القناة نفسها، بعرضها البالغ مئة ياردة وغطائها بأشجار وشجيرات السنط، والمدخل العميق للجبل الذي تخرج منه كان ذلك مثيراً للإعجاب حقاً. وكان جرف طيني هائل يشكل الضفة اليسرى مسافة ما من الفوهة الحقيقية للمدخل، بينما في الأسفل كان جرف الحجر الرملي أقل ارتفاعاً، وكانت الخمسة عشر قدماً الأولى من مستوى الوادي حمراء، مع طبقة ارتفاعها عشرة أقدام من الحجر الرملي الأصفر فوقها، وفوق هذه الطبقة طبقة سميكة من الطمي.

هنا وهناك كان الحجر الرملي قد أصبح أشد قوة وصلابة حيث اكتسى باللون الأسود مما يحتويه من حديد، واستناداً لما قاله حسب الله ينطبق اسم حُراب بصفة أساسية على الوادي، في حين سمّى الجبل نفسه باسم المنيفة (التي تعنى ببساطة "المرتفع"). وإذا كان لدى حُراب أي أسرار يبوح بها فإنه بالتأكيد لم يبح بها لي، ومن

(١) هذا التشكيك من المؤلف ليس في محله.

العسير أن نأمل في اكتشاف أي دليل على زيارة موسى (عليه السلام) وبني إسرائيل لهذه البقعة، ولكن الاسم يوحي بهذه الذكريات على الأقل، كما أنه من غير المرجح أن يكون بنو إسرائيل قد تاهوا أربعين سنة في سيناء والصحراء المجاورة لها دون أن يجدوا طريقاً لهم في وادي مدين[1]. وعند عودتنا إلى السيارة سرنا باتجاه الشمال - الغربي في مناطق وعرة، ووصلنا بعد حوالي خمسة أميال إلى هضبة شاسعة من الحصباء، وكان عبورها قاسياً بصورة بالغة. ومنها نزلنا في واد واسع، ينحدر بين مصاطب حصوية، وبعد ذلك سرعان ما وصلنا الطريق الرئيس بعد حوالي أحد عشر ميلاً من المخيم.

لقد قضينا الجزء الأعظم من ١٥ فبراير في زيارة مقنا التي زرتها مرة أخرى أيضاً في مناسبتين لاحقتين (أي في أبريل ١٩٥٢م وفبراير ١٩٥٣م). وبعد مرورنا على تل قبور المجموعة (ب)، وعبور القناة المنحدرة من جبل المصلى إلى الآثار ووادي عفال، سرعان ما وجدنا أنفسنا في منطقة الحمضة ذات المراعي الواسعة، وواديها يتدفق أمامنا في مجرى بين جبل تيران على اليسار وجبل النتيش (إنتيش) الجرانيتي الجميل ذي العروق البازلتية على اليمين، ويستمر هذا الجبل الأخير لما وراء الثغرة التي حفرها الشعيب المتدفق من جوار جبل الحمراء المماثل، حيث يتراوح عرض وادي الحمضة بين

(١) كلام المؤلف هذا غير صحيح؛ لأن بني إسرائيل وقعوا في التيه أربعين سنة بنص القرآن، قال الله تعالى في سورة المائدة: ﴿فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِي الأَرْضِ فَلا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ [المائدة: ٢٦].

١٠٠٠ و ٢٠٠٠ ياردة حتى يدخل في أخدود جميل عرضه ٣٠٠ ياردة فقط، بين الجبال الحمراء والسوداء (الرايوليت والإندست) في المنطقة المجاورة لقمة عابدين.

وبعد ذلك تتسع القناة في مدرج طبيعي لتلتقي بوادي الخَرَج الذي يتدفق باتجاه الشمال في منطقة من جبال الحجر الجيري القائمة على قواعد من الحجر الرملي، والتي تمتد خلالها القناة الموحدة حتى البحر باسم وادي مقنا. من هذا الملتقى فصاعداً كان هذا الوادي يعج بغابة كثيفة من بساتين النخيل، التي لا يمكن أن تمر فيها سيارة، على الرغم من أن المسافة كانت حوالي ميلين فقط حتى مقنا نفسها والبحر.

وقد استغرقنا ساعة لنقطع مسافة ثمانية عشر ميلاً من مخيمنا في البدع حتى هذه البقعة، ومنها اضطررنا للسير في دائرة واسعة أربعة أميال على الأقل في أرض وعرة حتى نصل إلى مقصدنا. وبعد أن سرنا حوالي ميل في وادي الخرج استدرنا يميناً في المنحدر الرملي والصخري المؤدي في النهاية إلى بساتين النخيل على مسافة نصف ميل تقريباً من القرية ومن على قمة المنحدر وقع نظري لأول مرة على البحر فقد كان أزرق وهادئاً في خليج العقبة وجبال سيناء العظيمة من ورائه. وعندما وصلنا إلى النخيل وجدنا جدولاً مائياً جارياً، ينبع من عين الطيوري البعيدة لمسافة عن الواحة، ويتجه نحو البحر الذي لا يصله في الحقيقة. وعلى ساحل البحر نفسه يوجد اثنان من بساتين النخيل الصغيرة، في أحدهما كان يوجد قليل من

الأكواخ السكنية المصنوعة من سعف النخيل، بينما كانت القرية الرئيسة ذاتها تتكوّن من مجموعة بائسة من حوالي عشرين كوخاً تشبه سابقتها، وكان أحدُ الأكواخ الكبيرة فيها محمياً من الريح بصورة متقنة بسورٍ سميكٍ من أغصان الشجر المقطوعة حيث كان يتخذ بيتاً للحكومةٍ المحلية. وكان في هذا الكوخ رقيبٌ وثمانية من قواته يحكمون مصائر مقنا وهم يكابدون لسع البراغيث والبعوض في الواحة، ويقومون بدوريات على الساحل لمراقبة تهريب السلع والبضائع إلى داخل أو خارج الدولة. ولم يكن بالقرية محلات أو دكاكين أو أي شيء آخر من أسباب الراحة والمتعة، على الرغم من أن حرس السواحل يتم إمدادهم بصورة دورية باحتياجاتهم عن طريق قوارب صغيرة (قاطرة) تذرع الساحل جيئة وذهاباً من ضباء. وكان من المعروف أن الميناء تدخله أحياناً قوارب بخارية صغيرة، ولكنه لا يصلح إلا للقوارب الشراعية (سنبوك) التي تجوب ساحل البحر الأحمر، لأن مرفأه محصور بين لسانين من الصخور المنخفضة قريبة من سطح الماء، وكانت أمواج البحر الهادئ الصغيرة الناعمة تصطدم بهما في تراخ وكسل خلال وقت زيارتنا. إن جميع بساتين النخيل في مقنا يملكها أفراد (غائبون) من بني عطية الذين اشتروها منذ زمن مضى من مُلاكها الأصليين من فخذ الفوايدة من قبيلة بني عقبة القديمة التي تمر الآن بأوقات سيئة في ظل السلام والنظام السائد بجزيرة العرب.

ويتكون صدر الشاطئ من رقعة رملية شبه دائرية، يسدها من الجنوب جبل طحيثات البازلتي، الذي يمتد حتى البحر، ومن

الشمال جبل الرغامة من الحجر الجيري، بلسانه الكبير المتجه نحو البحر ووراءه يبرز جبلا المَرْشة وزريق البازلتيان الشاهقان اللذان يشرفان على بساتين نخيل ومرفأ (طيب اسم) على بعد عدة أميال على الساحل، والذي لا ريب أن اسمه يرجع إلى حقيقة أنه بالتأكيد لا يصلح كميناء عند هبوب العاصفة. ومن المثير للعجب أن نتذكر أنه في الثلاثينيات من القرن الماضي (١٨٣٠م) ذكر جي. آر. ولستد وهو مساح بحري متميز ومكتشف لسواحل البحر الأحمر، رأيه الثابت في أن السفن البخارية الجديدة في عصره لن تتمكن أبداً من التغلب على العواصف في هذا الخليج الذي كان غير معروفٍ ذات يوم.

وخلال مدة إقامتنا القصيرة كنا نتمتع بكريم ضيافة رشيد بن عبد الرحمن، قائد حرس السواحل (الدورية أو خفر السواحل). وكان مواطناً من السيح في منطقة الأفلاج التي ظل غائباً عنها باستمرار في وظائف رسمية صغيرة متنوعة، يكسبُ منها راتباً ضئيلاً يعيش به على مدى ربع قرن من الزمان، وعندما حان وقت مغادرتنا، أرسلت اللوري ليسير في الطريق نفسه الذي جئنا منه، وزودته بتعليمات بأن ينتظرني عند رأس الوادي، وفي غضون ذلك انطلقت برفقة رشيد وبعض من رجاله، سيراً على الأقدام لرؤية الواحة وفحصها، كان الطرف الأسفل من بساتين النخيل يطل عليه تلٌ صغيرٌ يسمى النواصر بارتفاع ١٠٠ قدم، الذي كانت منحدراته الحادة نسبياً تتناثر عليها شظايا كسر الفخار وأنقاض المباني فوق

قمته، التي من الواضح أنها كانت المقر الراقي لسادة مقنا في العصور الغابرة، وعلى أنف جبلي في الطرف الغربي وجدنا سبعة أو ثمانية قبور طويلة بصورة غير عادية، وحولها كانت تتناثر محارات بحرية وعظام، بينما كان الطرف الشرقي من التل تحتله أنقاض قلعة قديمة تعرف باسم العويشة وكان بناؤها بسيطاً وغير مميز ويتضمن قطعاً كثيرة من الجرانيت والفلسبار، التي يعتقد أنه جيء بها من مسافات بعيدة نسبياً، ربما لأغراض الزينة، لأن التل نفسه والمنطقة حوله من الحجر الجيري، وكانت بقايا المباني الأخرى حول القلعة بلا شك مساكن للجند وخدم سادة الإقليم، ليس معروفاً على وجه التحديد تاريخ المجمع كله ولكنه قد يعود إلى وقت ما خلال العصور القديمة أو الوسطى. وكانت كسر الأواني الفخارية منتشرة في كل مكان، ويبدو أنه لا توجد روايات محلية بخصوص السكان السابقين لهذا الميناء البحري. وكان الجدول المائي، الذي يُعرف باسم المعيطر، والذي يجري عبر بساتين النخيل عند سفح التل، ينحدر من نبع بعيد مسافة ما في أعلى الوادي، ويعززه في أسفل الوادي نبع آخر يسمى الطيوري الذي يتدفق بغزارة من بين صخور الضفة اليمنى في شكل شلال رائع بين نباتات السرخس والطحالب.

وهنا تسلقنا بصعوبة الجرف والطبقة الكثيفة من الرمل المنجرف التي تغطيه حتى وصلنا إلى ارتفاع حوالي ١٠٠ قدم فوق الوادي حيث وصلنا إلى أهم معلم من معالم مقنا؛ ذلك هو نبعان قريبان من بعضهما، يتدفقان بغزارة من خلال طبقة رقيقة من الرمل والطين

السائل ليرويا بستاناً ضخماً حقاً من النخيل على القمة، ويسيلا بهدوء على جانب التل لينضما إلى المجرى الرئيس. كان هذا هو النبع الشهير المعروف بعين الطباخة (أي عين الماء الذي يغلي وليس، كما قال بيرتون عين المرأة الطباخة) والتي ترتبط في الأسطورة المحلية بقصة موسى (عليه السلام) ويقال إنها البقعة التي ضرب فيها الصخر بعصاه ليوفر الماء لبني إسرائيل.

ولم يكن الماء عند حواف البركة العظيمة التي كوّنتها العيون حاراً بصورة ملحوظة، وربما كان فاتراً، ولكن احتمال الخوض في الطين السائل قد ثبط عزيمتي لمحاولة اختبار صحة أو صدق الرأي المحلي على أنه كان حاراً عند النقاط التي يخرج فيها الماء من الصخر. إن الاعتقاد المحلي المتوارث جيلاً بعد جيل عن أصل هذه العيون تؤيده الآثار القريبة منها لمبنى متماسك صغير يعرف باسم "مسجد موسى" وكل ما بقي منه هو أساسات جدارين جانبيين، مصنوعين من أحجار كبيرة جداً من الصخر الجيري الجبسي يبلغ سمك الحجر الواحد خمس عشرة بوصة، والأبعاد الخارجية للمبنى كانت ٢٠ × ٥٠ قدماً والمحور الطويل يمتد تقريباً للشرق والغرب، أما الجانب الجنوبي، فيتجه نحو مكة المكرمة تقريباً.

لقد كان بلا شك مزاراً للحجاج الأكثر حباً للمغامرة الذين كانوا يخيمون في البدع وهم في طريقهم للمدينتين المقدستين، ولقد شُيّد في جميع الاحتمالات خلال القرون القليلة الماضية تحت رعاية الأتراك، ومن هنا، بعد مسح المنطقة حولنا، هبطنا في الوادي عند

عين معيطر التي كانت شبه مدفونة على الرغم من أنها كانت حية بصورة واضحة تحت كتلة متشابكة بشكل مذهل من أشجار النخيل المتساقطة، والسعف والأغصان والأعشاب التحتية المتقطعة، التي كان من الصعب حقاً أن نشق طريقنا خلالها. والنخيل بعد هذه النقطة لا ينال حظه من الماء إلا من الأمطار والسيول الموسمية، على الرغم من احتمال وجود رطوبة جوفية عالية في المنطقة.

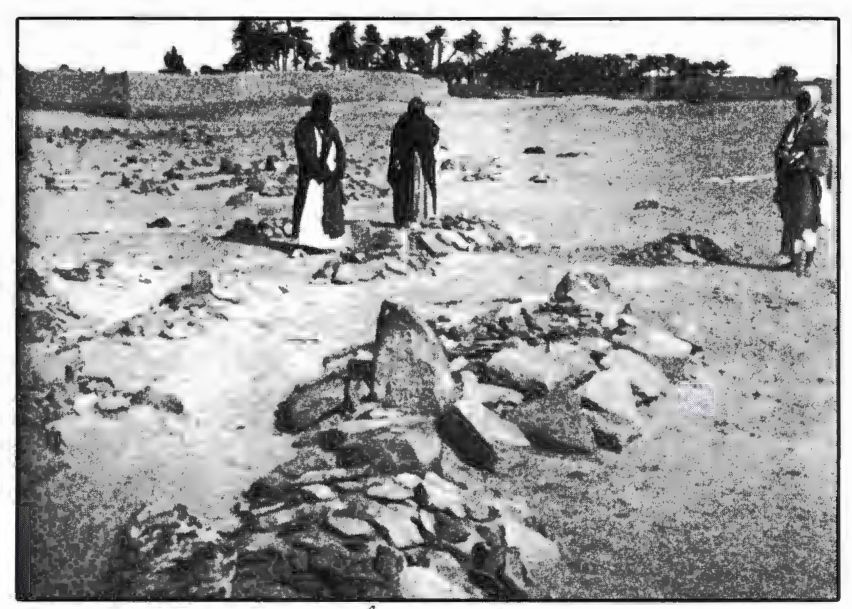
وبسبب الأعطال الدائمة في السيارة اللوري استغرقنا ثلاث ساعات لنصل إلى مخيمنا في رحلة العودة، حيث أتيحت لي فرص كثيرة لدراسة الوادي على مهل، إن اتجاهه العام من الشمال - الشرقي إلى الجنوب - الغربي، ولجبل تيران الواقع أعلى طول ضفة الوادي اليسرى طبقة فوقية كثيفة من الحجر الجيري تغطي الطبقة الأساسية من الجرانيت والفلسبار تحتها، وعلى الضفة اليمنى لم يكن هناك حجر جيري على أي حال بينما كانت صخور الرايوليت سائدة بصورة عامة في الامتدادات السفلى وفي أجنحة جبل النتيش والجبال الأخرى من خلفه. وعلى مسافة ستة أميال تقريباً من نخيل مقنا كان وادي الحمضة الذي يلتقي هنا بشعيب المطيرف من منحدرات جبل تيران، قد تحول إلى منطقة مراعٍ واسعة تعرف باسمٍ مستقلٍ هو الحنجور.

وبعد ذلك بثلاثة أميال تبرز ساحة صخرية شاسعة في الوادي من جبل تيران على جانبي خط تصريف مياه واسع يسمى وادي الأمغر ليلتقي بخط تصريف شعيب العجوجة الذي ينحدر من جبل

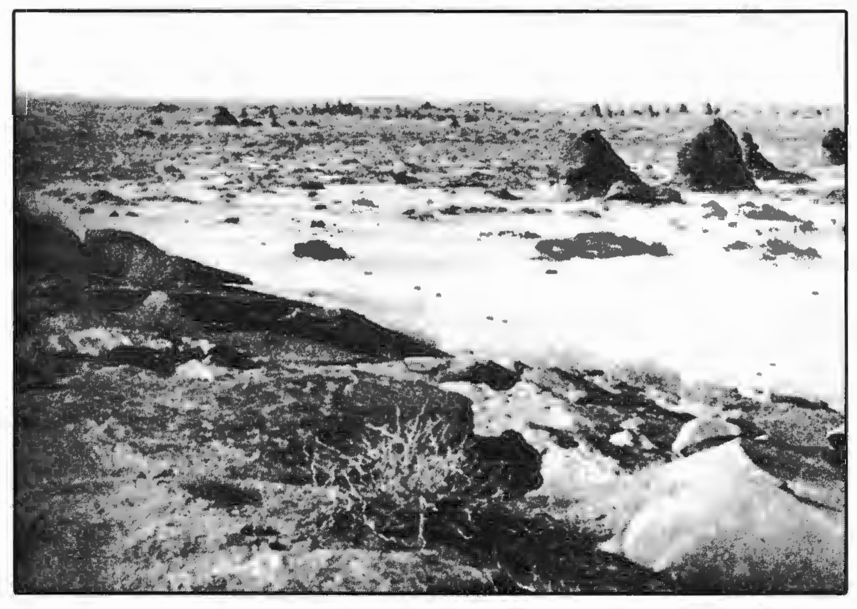
منخفض بالاسم نفسه على الجهة الشمالية من سهل الحمضة الذي يختلط فيه، وتوجد هنا شجيرات الحمض والرمث التي كانت جافة نسبياً هذا العام، على الرغم من أنه بعد ذلك بعامين وبعد هطول أمطار طيبة، أصبحت كأنها غابة مزدهرة. وعلى بعد ثلاثة أميال عكس اتجاه التيار، عند حافة وادي الحمضة، يقع مشرب دحل حمضة وهو حفرة كبيرة مفتوحة تم حفرها في طمي الوادي، غير مبطنة بالحجارة ولكن عليها جذوع أشجار موضوعة متعارضة على أحد زواياها حتى يقف عليها الرجال وهم يسحبون الدلاء الجلدية. ويبلغ عمقها ست قامات تقريباً، ولم أستطع رؤية أي أثر للماء في القاع، على الرغم من أن الدليل قال لي: إنه يوجد أنفاق داخلية، تؤدي إلى البئر من اتجاهات مختلفة في متاهات جوفية في واحد أو آخر منها يمكن دائماً العثور على الماء تعويضاً عن مشقة النزول للقاع واستكشاف جوانبه. بعد ذلك بحوالي ميلٍ أو نحوه يبرز تلٌّ طويّل الحمضة المنخفض، لكنه ظاهر للعيان بوضوح، ومنه ألقيتُ نظرةً أخيرة على المنطقة قبل أن ننطلق في المرحلة الأخيرة مسافة أربعة أميال إلى مخيمنا، وكانت جبال سيناء تلوح في الأفق غير واضحة خلفنا في الضباب الخفيف، في حين كان يمتد أمامنا خط طويل من جبل اللوز ومدين، وهكذا انتهت أوّل زيارة لي إلى مدين، وعندما يبزغ فجر الغد علينا -إن شاء الله- نكون قد قطعنا مسافةً في طريقنا هابطين إلى ساحل البحر الأحمر.



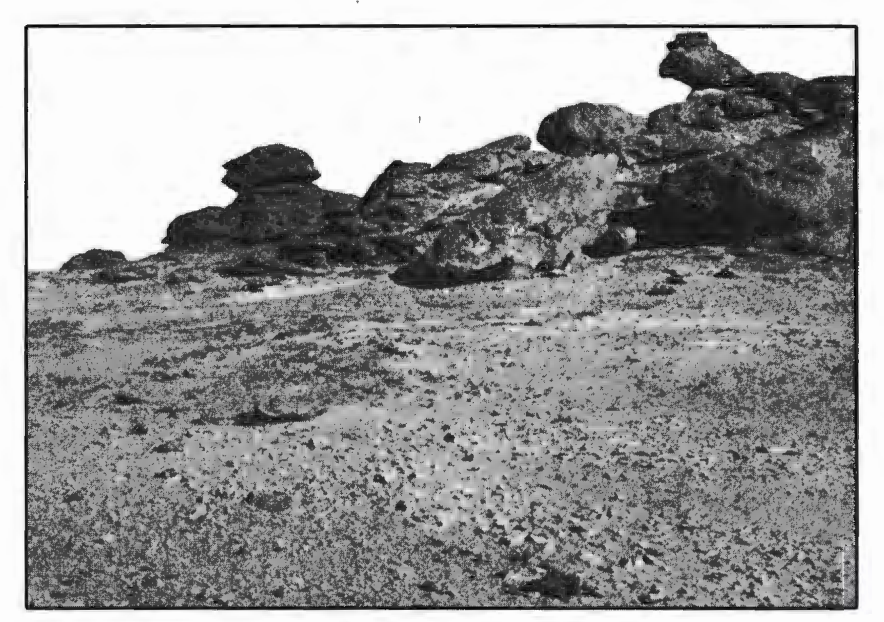
بئر هداج وبعض الإبل أثناء العمل



مقابر عبدالكريم بن رُومان وقاتله



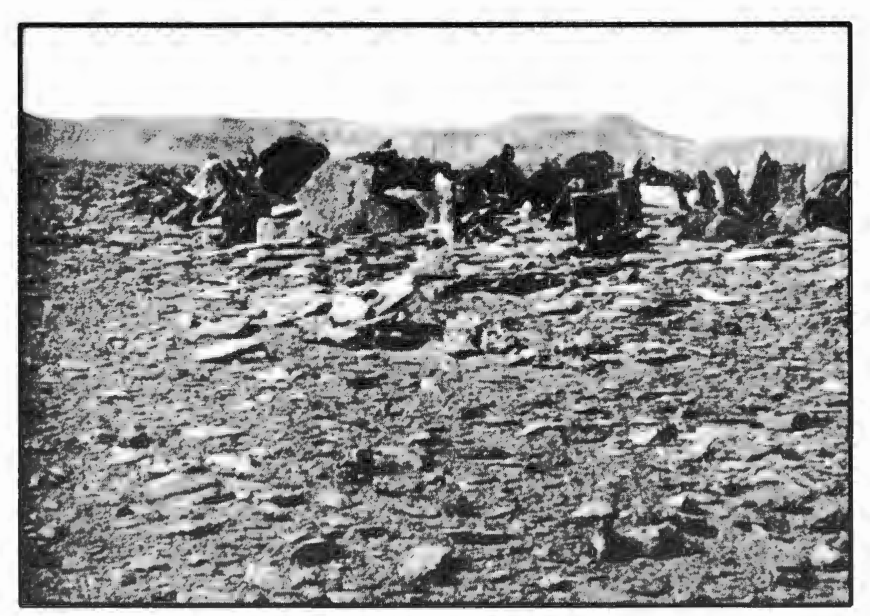
صخور منطقة الخبو الشرقي الرملية بالقرب من تيماء



صخور في وادي البياضية



مركز القليبة الحدودي



قبور قديمة بالقرب من القليبة



خزان عين السّكر في تبوك



سوق تبوك كما يشاهد من القلعة مع شجرة كافور، وقصر عبدالله السديري



قلعة تبوك



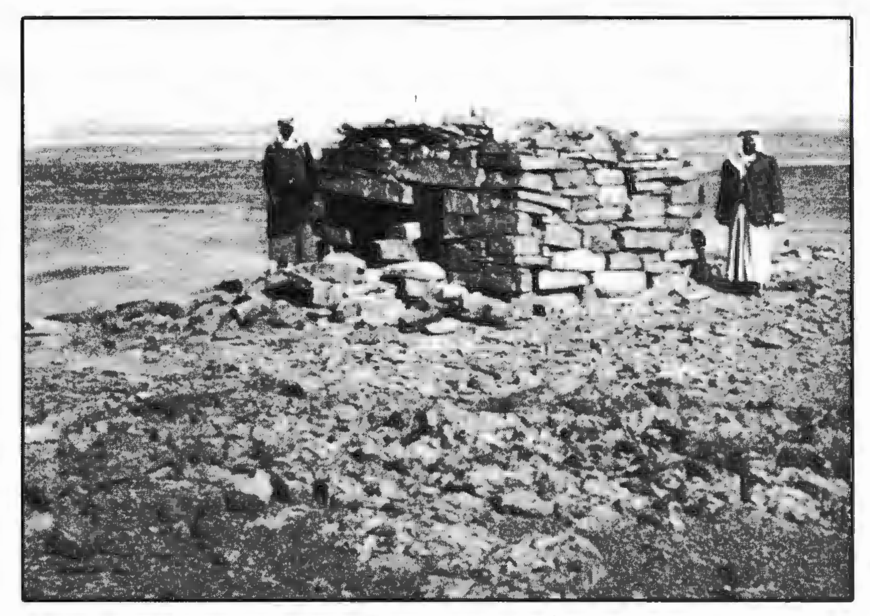
قلعة تبوك من الداخل



المسجد التركي في تبوك



واحة الجرثومة بالقرب من تبوك



قبر في رجوم شوهر



القرينان: وادي ضيق مع صخرة مقوسة من الحجر الرملي



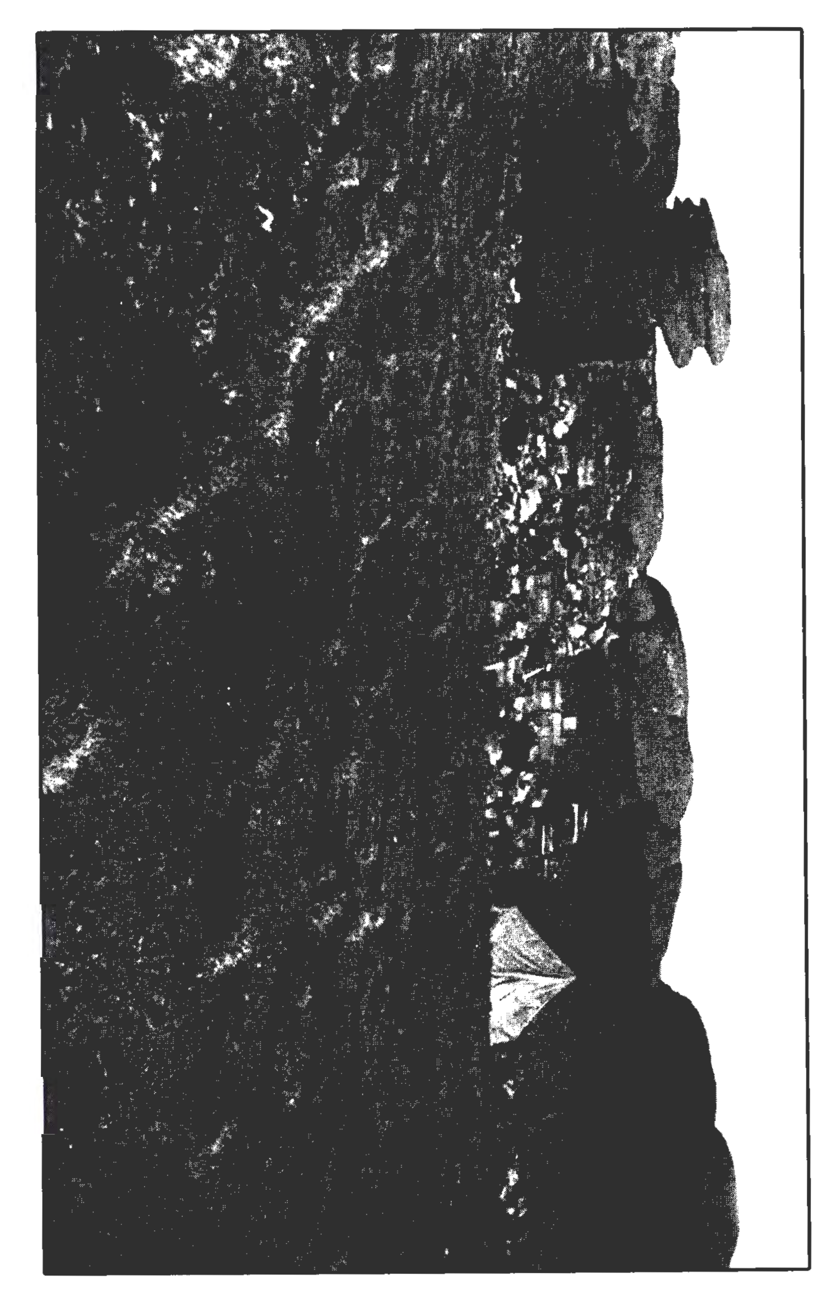
مرتفعات روافة (أغطية من الحجر الرملي والبازلت)



معبد روافة



خرائب القرون بالقرب من روافة



معبد روافة والمعسكر بالقرب من الخرائب



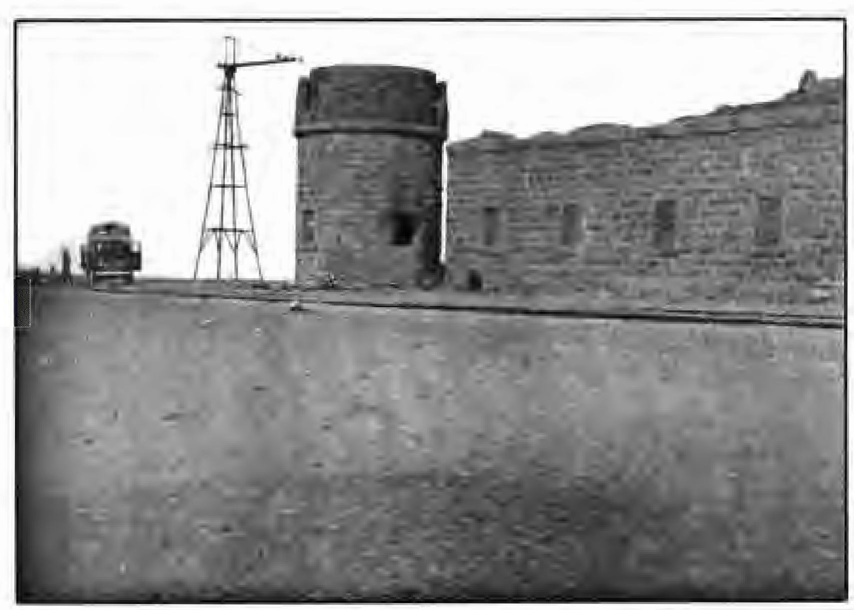
صخور الباير



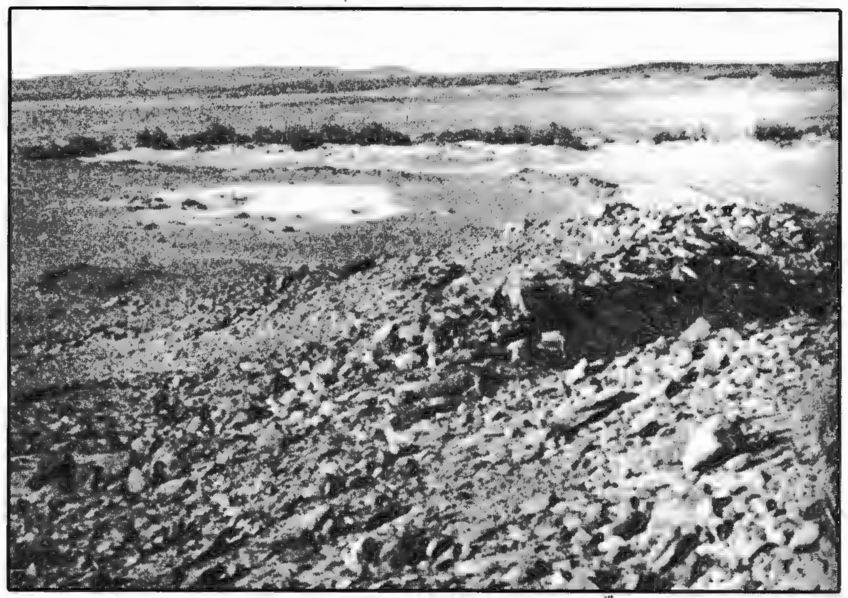
المعسكر بالقرب من أجراف العسيّة



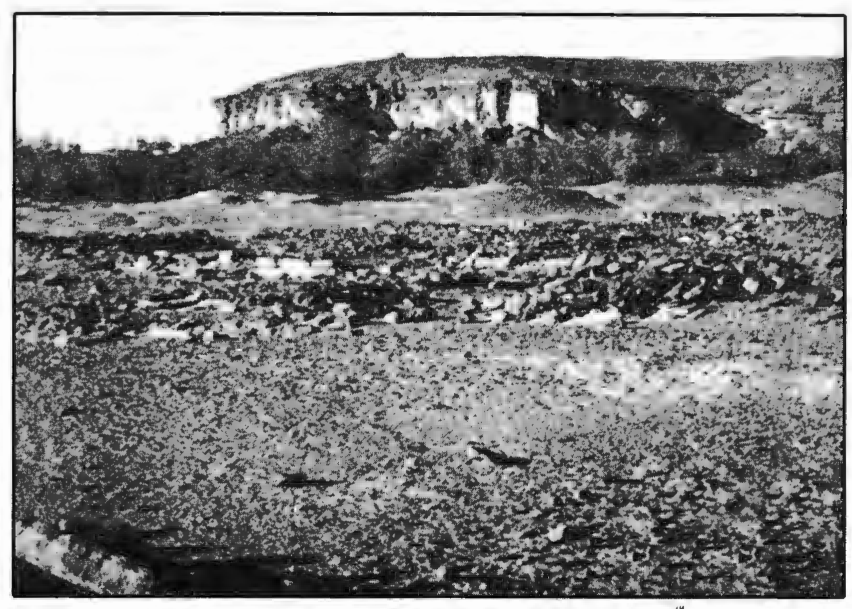
(منبر الرسول ﷺ) في سلسلة جبال شرورى



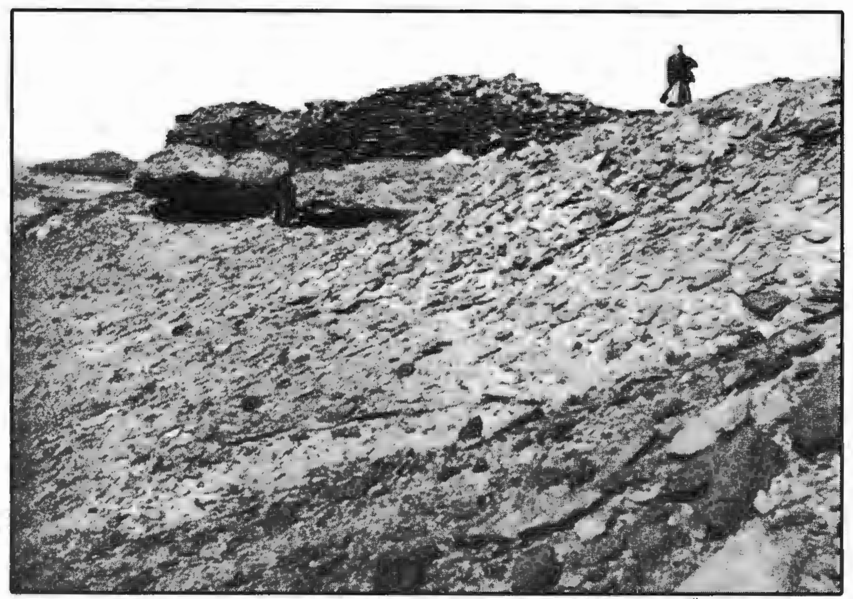
محطة بئر ابن هرماس على سكة حديد الحجاز



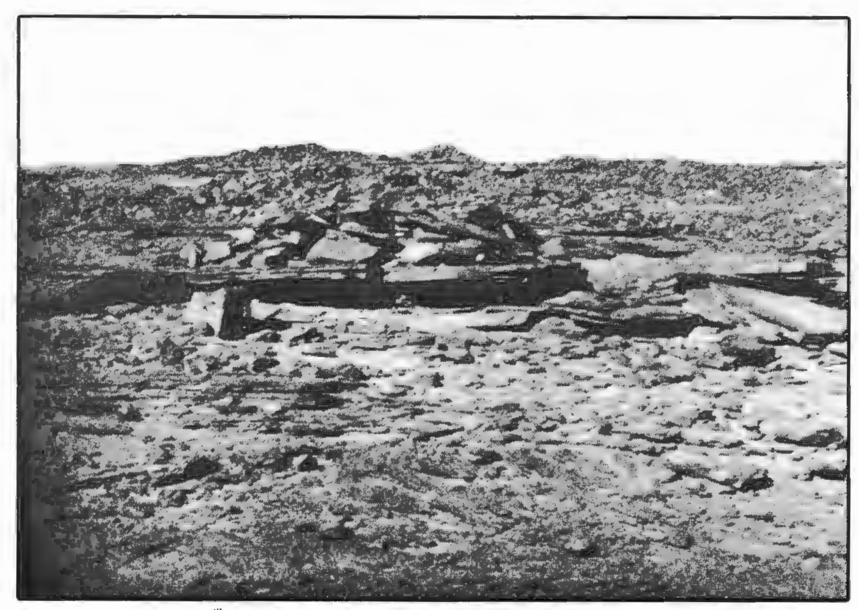
قريّة: آثار السور الشرقي والحورية



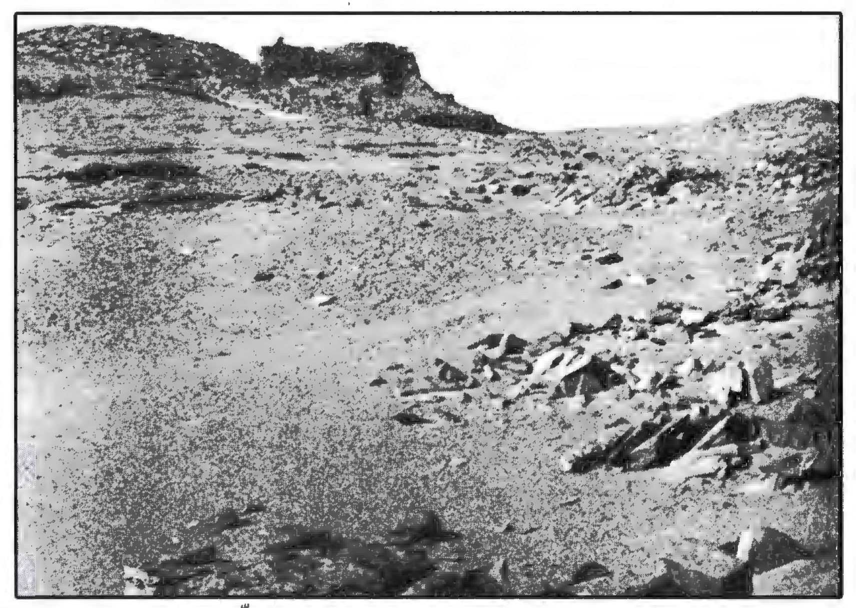
قريّة: جبل القلعة مع آثار الحورية في المقدمة



قريّة: جزء من السور وخرائب المدخل في القلعة



خرائب حريف ضباء بالقرب من قريّة



خرائب العويذر بالقرب من قريّة



أم البيبان مع (المكان السامي)



مغاير شعيب المقابر النبطية (المجموعة ب)



مغاير شعيب. المقابر النبطية (المجموعة د)



خليج الحريبة مع المركب الشراعي الصغير في الميناء



قلعة المويلح، السور الشرقي، باتجاه الشمال الشرقي



ميناء أملج



منطقة تلال التباب بالقرب من آبار نبط



ضباء: السوق مع قلعة، على الجرف



قصر الأزلم: البوابة من الداخل



الفصل الحادي عشر

ساحل مدين

بعد أن عزمنا على استئناف رحلتنا في ١٦ فبراير، اكتشفت وجود الكثير من التفاصيل التي يجب إيضاحها وبيانها في أجزاء مختلفة من المنطقة التي ورد وصفها في الفصل الأخير، ولم ننطلق في رحلتنا إلا عند الظهر بعدما استجمعنا قوانا في الحقيقة وغادرنا المخيم. وكانت أصول المجاملة تتطلب منا القيام بزيارة وداع لقائد الشرطة ورجاله، الذين كانوا زواراً دائمين لخيامنا، ومن البدع انطلقنا على طول جبل درك لإلقاء نظرة أخيرة على بئر موسى. والآن ظهر الشيخ محسن على مسرح الأحداث وهو يلحّ في دعوته لتناول العشاء معه في خيامه، ولكن الساعة كانت قد اقتربت من الثانية ظهراً تقريباً، واضطررت مرة أخرى إلى رفض كرمه، على أنني أردفت رفضي هذا بهديةٍ مناسبة وجعلته يقفل عائداً وهو جذل مسرور.

بعد ذلك انطلقنا في رحلتنا بهمّةٍ وحماس على أمل أن نقطع مسافة خمسين ميلاً باللوري الذي كان عُرضة للعطل على فترات

متفاوتة. وقد كانت معلومات سعد عن هذه المنطقة غير صحيحة، على الرغم من أننا قد قضينا تقريباً ساعتين من الحركة الحقيقية (أربع ساعات في الواقع شاملة الوقفات الاضطرارية أو الاختيارية) لنكمل مسافة خمسة وثلاثين ميلاً إلى الخريبة. وعندما وصلنا إلى النقطة التي انطلقنا منها سابقاً لزيارة حُراب فقد واصلنا سيرنا على طول الضفة اليمنى لوادي عفال فوق بعض التلال والمرتفعات الأرضية المنخفضة التي كانت تضيق بالتدريج حتى جبلٍ يفصلها عن قناة وادي قيال الموازية له على يميننا.

وعلى الرغم من أن هذا الوادي يتلقى المياه المنصرفة من التلال والمرتفعات التي يجري خلالها إلا أنه عبارة عن مصب في الحقيقة، يصل إلى البحر على يمين وادي عفال. وبينما ينبسط وادي عفال ويتمدد نحو نهايته في دلتا رملية واسعة ومليئة بشيجرات الأثل، إلا أننا نجد أن وادي قيال يضم بستاناً من النخيل طوله ميل، وتوجد به بيوت قليلة للبدو الذين يأتون لجني التمور.

وفي مناسبة أخرى، عندما كنت -في الحقيقة- ماراً على طول هذا الشريط من النخيل فوجئت بأحد الأعراب يدنو مني ويطلب ماءً للشرب. وحيث إنني قد تضايقت قليلاً من مثل هذه الوقاحة، على اعتبار أنه كان على بُعد مرمى حجر من آبار الواحة، فقد رفضت أن أتوقف، ولم أدرك إلا بعد حين كم كنت مخطئاً؛ إن نخيل وادي

قيال ينمو ويزدهر بشكلٍ أو بآخر اعتماداً على مياه البحر، وآباره كانت شديدة الملوحة. ومن سوء الحظ أنني كنت أسير هذه المرة بعيداً جداً عن هذا المكان حتى إنني لم أستطع معالجة خطئي، الذي لا أقدر إلا أن أشعر بالخزي والخجل من أعماق قلبي. لقد تعرضنا للمشاكل والمتاعب في مناطق معينة ونحن نعبر هذه الدلتا المالحة والامتدادات الرملية لوادي عفال، ولكنا وصلنا إلى فوهته في رقعةٍ صغيرةٍ جداً من نخيل بائس نسبياً. من هنا حتى الطرف العلوي لنخيل قيال كانت المسافة ستة أميال، بينما تفصل مسافة مثلها بستان قيال عن النقطة التي انطلقنا منها لحُراب، أي حوالي ثمانية وعشرين ميلاً من البدع حتى البحر.

وفور أن انعطفنا نازلين للساحل بين البحر وبقعة واسعة من شريط حصوي وجبال على يسارنا، توقفنا للشاي والصلاة، وتوضأنا للصلاة من ماءٍ مالح فاتر. وقد استفدت من فرصة التوقف هذه لأمسح الأرض من قمة جبل ارتفاعه أربعون قدماً، وتمتد جبال تهامة واحداً بعد الآخر في رتابة حتى الساحل لمسافة بعيدة تصل إلى ذرى شار البارزة. ومن سوء الحظ، سرعان ما أصبح واضحاً أن دليلينا، عيداً وزيداً، اللذين كانا لا يزالان معنا، ليس لديهما أي معرفة مهما كانت عن المنطقة الجديدة التي سوف تشهد سفرنا وترحالنا على مدى الأيام القليلة القادمة، وقد استغنيت عنهما بعد

ذلك بفترة قصيرة، وفي الوقت المناسب تركناهما وراءنا في الخريبة. وكان البحر يطوف برفقٍ ولطفٍ على الشاطئ المنبسط، وكان مليئاً بقناديل البحر مختلفة الأنواع وهي مخلوقات كريهة المنظر. وقد كنا الآن في الجنوب تماماً تقريباً من البدع بينما مرتفعات سيناء ظاهرة للعيان، علاوة على الجزر الكثيرة الواقعة في مدخل خليج العقبة، وهي: تيران، وصنافر، وأبو شعشوعة، وبرقان. ولقد سرنا سيراً سهلاً مسافة ثمانية أميال تقريباً حتى الخريبة، وقبل أن نصلها عبرنا قناة وادي عينونة التي يبلغ اتساعها ميلاً قرب اتحادها مع البحر.

إن الخريبة قرية من أكواخ متناثرة مصنوعةٍ من سعف النخيل في عدد قليلٍ مبعثر من أشجار النخيل وحولها إضافة إلى مجموعة صغيرة من المباني الحديثة نسبياً على طول الشاطئ ذي المرسى الصغير، بينما كانت نقطة الشرطة المحلية تحتل تلاً رملياً صغيراً على جهة البر من النخيل.

ولقد كنت أنوي أن أقضي الليلة هنا لفحص آثارها، ولكن يبدو أن السكان المحليين الذين قابلناهم ليس لديهم معرفة عن أي شيء أكثر خراباً من مساكنهم البائسة. وحيث إنه قد تطوع أحد الخدم الذي تبدو عليه أمارات الذكاء، يُدعى أحمد، وقدم لنا معلومات عن وجود بعض الآثار القديمة في عينونة عرض علينا أن يدلنا عليها، فقد قبلت عرضه فوراً وانطلقنا دونما توانٍ قبل أن أتيح

للشرطة فرصة اعتراضنا بكرمهم وضيافتهم، وسرنا بمحاذاة الضفة اليسرى على تلالٍ من الحصباء المتموجة، ووصلنا إلى نخيل عينونة في حوالي عشر دقائق (أي اثنين أو ثلاثة من الأميال تقريباً)، واستقر بنا المقام فوراً في مخيمنا بالواحة، وفي ميعاد ملائم تماماً لمشاهدة الشمس وهي تغرب خلف قمم سيناء. وعلاوة على البعوض، الذي كان كثير العدد شديد الإزعاج والمضايقة فقد قمنا بكل تأكيد بعمل ما في وسعنا للاختباء هنا بعيداً عن الأوساط الاجتماعية في الخريبة التي من الواضح أنها كانت في العصور القديمة ميناءً بحرياً لعينونة، على الرغم من أنه، كما قال أحمد، لا يوجد إلا القليل أو ربما لا شيء مما يمكن عده آثاراً.

وكانت عينونة فيما يبدو مكاناً ذا أهمية عظيمة حيث إنها تقع، كما هي الآن، في موقع استراتيجي في وحول مضيق ضيق، الذي يشق خلاله الوادي طريقه عبر جبلٍ طويلٍ من الحجر الجيري يحجب جميع طرق الدخول إلى السهل والبحر. وكما ذكرنا من قبل، فإن رأس وادي عينونة يقع في الناحية المتجهة نحو البحر من جبل رَوَا من هضبة حسمى على الرغم من أن ألسنته العلوية تعرف باسم وادي النتيش (أو إنتيش) أو وادي رَوَا، بينما الوادي الحقيقي بالاسم الأخير منفصل تماماً ويصب في وادي عفال على طول الحافة الجنوبية من جبل الزهد. وهذا حسبما اكتشفت من قبل في عام ١٩٥٣م

عندما عبرت وادي عينونة بعد المضيق بحوالي عشرة أميال تقريباً، أي المكان الذي نخيّم فيه حالياً ثم التزمنا وادي رَوَا (وادي الشواحط) مسافةٍ ما حتى دخلنا في وادي عفال. ويقع مسيل الغيل، الذي ينزل من خلال المضيق ليصل إلى مسافة بعيدةٍ في اللسان الرملي الواسع من الوادي على الجهة المواجهة للبحر من الجبل.

وقد قضيت عدة ساعات في الصباح التالي أفحص المعالم المحيطة بنا بالتفصيل. ويوجد في أسفل مخرج المضيق مباشرة، وعلى الجبل المنخفض ورف الضفة اليمنى خرائب الآثار المتهدمة والمبعثرة لمستوطنة كبيرة، والتي يبدو منها مبنى واحد كبير خشن البناء يبدو أنه كان قلعة مصممة لتشرف على مدخل السهل، وكانت باقي المباني، المنتشرة على مساحة كبيرة، شديدة الخشونة في البناء مثل سابقها ولكنها كانت متناثرة بصورة تبعث على اليأس لدرجة أنه كان من المستحيل رؤية كيفية تخطيط القرية أو ترتيب الغرف في منازلها. ويبدو لي أنها كانت مساكن يقطنها العمال وغيرهم من سكان الطبقة الدنيا، لأننا سوف نرى في الوقت المناسب فيما بعد أن عينونة لم تكن فقط نقطة استراتيجية بارزة فحسب ولكنّها أيضاً مركزٌ ذو أهمية اقتصادية. من هذه الآثار تسلقنا بصورة شاقة نسبياً على المنحدر الصخري الوعر حتى قمة الجبل. وهنا كان بحق "المقام السامي" في عينونة، حيث كانت تعيش الطبقات الراقية. ومن الواضح أنهم

كانوا أناساً بلا حسٍ فني، حسب ما يتضح من بقايا مساكنهم الحجرية الفظة، ويحتمل أنهم كانوا يهتمون فقط بالمحافظة على وضع أيديهم على منطقةٍ كان يتم فيها الحصول على الذهب بمجرد غسل التربة. وكانت المستوطنة القديمة تمتد من الحافة الغربية للآثار مسافة ٥٠٠ ياردة على طول القمة المسطحة من الحجر الجيري باتجاه جنوب - شرق حتى جرف المضيق، وباتجاه الشمال - الغربي أيضاً كانت القمة تمتد المسافة نفسها تقريباً، ولكن بلا مبانٍ، على الرغم من وجود بعض أكوام الحجارة في هذه المنطقة والتي قد تكون بقايا أبراج مراقبة. وكان اتساع المستوطنة يبلغ ٢٥٠ ياردة تقريباً، ويبدو أن زاويتها الشمالية - الغربية كانت مشغولة بقصرٍ أو حصن.

فيما يبدو أيضاً أن هناك بعض الآثار على الامتداد الشرقي للجبل بعد المضيق، ولكني لم أرها. ويقع نخيل الخريبة إلى الجنوب - الغربي، بينما على مسافةٍ أبعد كنا نستطيع رؤية بساتين الشرمة إلى الجنوب - الشرقي. والمواد المستخدمة في مباني المستوطنة والقلعة كانت من كل شكلٍ ولون، وتضم كتلاً غير متساوية من الجرانيت والبازلت، بحجم رأس الإنسان، علاوة على كتل الحجر الجيري، وكان من السهل تتبع مخطط بعض الغرف أو المباني.

ولكن لم يكن هناك أي شيء ذو أهمية معمارية، وكانت الكسر الفخارية منتشرة في المكان. وفي الحقيقة كان هناك قليل مما يميز

المستوطنة العلوية عن السفلية، ومن القمة ألقينا نظرة رائعة وأخذنا فكرة طيبة عن المنطقة الواقعة على الجانب الشرقي من الجبل، وكان الوادي يمتد نحو الشمال - الشرقي نحو ٥٠٠ ياردة من المضيق، ثم يتحول باتجاه الشرق حتى نقطةٍ على بُعد ميل تقريباً، ومنها ينثني مختفياً عن الأنظار، على الرغم من أننا لمحناه عدة مرات في الشمال - الشرقي مسافة تمتد حوالي ثلاثة أو أربعة أميال. وتوجد به منطقة شاسعة من النخيل في رُقعٍ متقطعة بامتداداته المرئية.

وعندما نزلنا من القمة بعد دراستنا غير المثمرة نسبياً فقد واصلنا تقدمنا في الوادي عبر المضيق على طول الغدير المتدفق، الذي يتناثر حوله النخيل وتحده حزمٌ كثيفة من أعواد القصب والأثل الذي اضطررنا إلى شق طريقنا خلاله بصعوبة حتى المنطقة الأكثر سهولة من ورائه. هنا أتينا على بعض الآثار على كلا ضفتي القناة على بُعد حوالي ميل عكس اتجاه التيار من المضيق.

وقد سماها أحمد "مغاير الكفار" وهي مبان حجرية شديدة الخشونة من النوع الذي رأيناه سابقاً، وتحتل موقعاً على الضفة اليمنى، طوله ٥٠٠ ياردة تقريباً وعرضه ١٠٠ ياردة، وفوق هذا الموقع مباشرة يوجد حاجز يمثل سداً طبيعياً عبر الوادي، بارتفاع أقدام قليلة فقط، وعند نهايته على الضفة اليسرى توجد بقايا مبنى حجري، ربما كان هذا الحاجز أساسات سد حجري لم يبق منه شيء

وقد بُني ليوظف في عمليات غسل الذهب، التي يحتمل أنها كانت سبب وجود هذه المستوطنة. ومع وضع احتمال تكوّن الطمي في عصور متأخرة، فإن الحاجز ربما يكون قد أدى الغرض منه دون أي مبان فوقية.

ومن الطريف أن صخور البازلت والجرانيت تحتل كل المنطقة نحو الشرق من جبل الحجر الجيري الذي يقوم هو نفسه على قاعدةٍ من الصخور النارية نفسها، ويبلغ عرض الوادي خمسين ياردة بين أجراف طمييَّة بارتفاع عشرة أقدام عند السد، ولا يوجد أي مبان عكس اتجاه التيار منه على كلا الضفتين. وفي قمة ومنحدرات جبل يرتفع إلى ٣٠٠ قدم على بُعد مسافةٍ من الضفة اليمنى، وعلى المستوى نفسه مع المغاور، يوجد أيضاً عدد من المباني الحجرية من النوع نفسه، والتي لم أزرها، والأكواخ المصنوعة من سعف النخيل قرب المضيق لا تستخدم إلا في موسم جني التمور.

وعند عودتنا إلى الخريبة زرنا مركز الشرطة، حيث تم استضافتنا على الشاي والقهوة قبل أن نتقدم لاستكشاف القرية، التي كان معظم مبانيها من الصخور المرجانية الصلبة، وكان حوالي عشرين أو أكثر من هذه المباني ملاصقاً للشاطئ، وفي القرية وجدنا اللوري، الذي كان مرّ بجوارنا في البدع منذ أربعة أيام، وكان متجهاً نحو الجنوب، في طريق عودته إلى تبوك بحمولةٍ من البنزين للحكومة.

ولا يوجد في المكان إلا القليل مما يشجع على مزيد من التأخير، ومررنا حول الشاطئ الرملي وحول خليج ساحر رائع، وكان الجانب البعيد منه يبرز مسافة طويلة في البحر ليشكل شبه جزيرة الشرمة الواسعة، التي يرويها وادٍ بنفس الاسم وقد وصلناه بعد أن قطعنا ستة أميال من الخريبة.

وقد قضى موسل وقتاً طويلاً في شبه الجزيرة هذه عام ١٩١٠م، واكتشف الكثير من آثار السكنى والزراعة القديمة، والقرية مهجورة الآن، باستثناء الزراعة الموسمية للدُخُن التي يقوم بها البدو في مواسم الأمطار والسيول الجيّدة.

وعلى طول الضفة اليمنى من الدلتا الرملية الواسعة بوادي الشرمة وجدنا غديراً مائياً (غيل) يجرى سدىً في الرمل بعد أن يؤدي غرضه من ري واحة الشرمة على بُعد نصف ميل تقريباً عكس التيار، ولم ننعطف جانباً لنزورها في هذه المرة، ولكن عند زيارتي القادمة لها في إبريل من العام التالي مع عالم الجيولوجيا المصري مصطفى صادق توقفنا هناك لتناول الغداء على مرجٍ أخضر جميل، ينحدر إلى قاع الوادي من واحة كبيرة مزروعة بنخيل كثيف بعضه ذو ارتفاع عظيم. لقد كانت بقعة ساحرة فيها نخيل كثيف في دائرة تمتد حول ثنية القناة، وعندها كانت أمواج الماء من عدة جداول قادمة من العين تنتشر في أوحال وبرك قذرة، كان البدو، ومنهم جزء كبير من

النساء، يسحبون الماء لأغنامهم، أو يملؤون قربهم ليحملوها عائدين إلى خيامهم القريبة. وزعت على النساء والأطفال ما تبقى من غدائنا الوفير مع بعض النقود القليلة، التي قبلوها بشكر جزيل، وقد انضم إلينا على المرج الأخضر خلال الغداء رجلٌ ثرثار نسبياً ذو مظهر جذاب، وكان قد عاد إلى بلده الأصلي بعد أن قضى خدمة طويلة في الشرطة السعودية.

لقد رأى كثيراً من العالم، المقتصر بالطبع على الجزيرة العربية، خلال مدة خدمته، وكان لديه الكثير والكثير مما يقوله لنا عن الناس المهمين الذين قابلهم في حياته، ومنهم لورانس وكما قال بالحرف الواحد "وفي العام الماضي فقط وفي هذا المكان نفسه قابلت فيلبي". ولم يرتبك إلا قليلاً عندما أخبرته من أكون، وإنني لم آت أبداً من قبل إلى واحة الشرمة في حياتي. ربما قد سمع عن تجوالي ورحلاتي العام الماضي في منطقة مدين، ولكني لا أعتقد أنه قد وقعت عيناه عليّ في ذلك الوقت. كما أنني بالتأكيد لا أتذكر أنني رأيته من قبل. لابد أن عينَ الشرمة وواحتها ذات أهمية أثرية عظيمة، والكوم الشاهق من الطين والركام على طول حواف القناة قد يخفي كثيراً من الألغاز عن القوم الذين سكنوها في الماضي.

وكانت البيوت القليلة العادية المبنية من الحجر على السطح تبدو حديثة العهد، ومن المحتمل أنها لم تكن تستخدم لأغراض المعيشة،

إذ لابد من أن الواحة كانت مرتعاً خصباً للملاريا، ومن هنا -على ما أعتقد- كان موسل قد انطلق في رحلته بوادي العَرْنَب وممر السِّيق الضيق الشهير حتى هضبة حسمى.

ويبلغ اتساع دلتا الشرمة التي عبرناها على طريق السيارات الرئيس، ثلاثة أميال تقريباً، وبعدها يقع سهلٌ رملي واسع ومرتفع قليلاً، تصرف مياهه قنواتٌ كثيرة قادمة من التلال المنخفضة البعيدة في المنطقة الداخلية، وكان طول أربع منها خمسة أميال تقريباً وهي نخبر وراطية وكريكرة وروضة العبد بهذا الترتيب من الشمال للجنوب، إضافة لتل زبيل الصغير البارز على الأرض المرتفعة بين الاثنتين والأولين، وإلى الشرق من ممر السيارات.

وبعد ميل جنوب روضة العبد دخلنا وادي تيرم الكبير وعبرناه، وهو آخر امتداد نحو البحر لوادي سَدْر الذي يرتفع بعد مسافةٍ طويلة عند ممر الخريطة في الهضبة، ويمر درب السيارات على طول واجهة واحة شاسعة من النخيل، بها آبارٌ كثيرة، وتمتد عدة أميال حتى الممر الصخري الضيق، الذي يشق منه الوادي طريقه عبر المرتفعات الساحلية حتى البحر، وعلى شاطئه تقع قرية السورة وبها بعض أشجار النخيل ومركز حرس السواحل عند النقطة التي تلتقي بها دلتا تيرم مع وادي وقدان، وقد عبرنا الوادي الأخير بعد أربعة أميال تقريباً جنوب نخيل تيرم، عند حافة بقعة واسعة من التلال

الصخرية، التي تفصل حوض وادي سَدْر عن حوض وادي المزيهيرة بعد مسافة ميلين من المسير. وقد نزلنا في هذا الوادي لنصل إلى البحر بعد حوالي سبعة أو ثمانية أميال شمال ميناء المويلح البحري الهام. هنا وطأت قدما بيرتون الأرض لأول مرة في بعثته عام ١٨٧٧ بحثاً عن مناجم الذهب في مدين.

ونظراً لأنني كنت أخشى أن نتأخر بسبب كرم ضيافة السلطات الحكومية في المويلح فقد قاومت إغراء البقاء لبعض الوقت في واحة نخيلها العظيمة والتي تنتصب في وسطها قلعة رائعة، على الرغم من أنها خربة متهدمة، كانت قد شُيّدت لحماية الحجاج بناءً على أوامر من السلطان سليم خان، الخليفة العثماني، وقد سحبنا على عجل الماء من مرواها أي بئرها الرئيسة، بجوار طريق السيارات، وأخذنا نسرع في السير دون أن يشغل بالنا شيء سوى الوصول إلى ضباء وبعد حوالي تسعة أميال من السير من المويلح مررنا على ما يسمى بجبل الكبريت.

وتقع ضباء نفسها على الساحل على بُعد تسعة عشر ميلاً تقريباً خلف هذا التل، وقبل وصولنا إلى مقصدنا بميلين مررنا على المصبين الواسعين اللذين يُعرفان باسم الحشّية وضحكان وبهما نخيلٌ وآبارٌ، وعلامات أخرى على استيطان البشر، وكانا المتنزّهين المفضلين لمواطني ضباء.

لقد انقضى الآن ثلاثة أشهر منذ أن خرجنا من الرياض في بعثتنا لاستكشاف مدين، وكانت مهمتنا قد انتهت تقريباً، على الرغم من أنني كنت شديد الوعي والاهتمام بالمهام الأخرى التي تنتظر عودتي -التي طال أمدها- إلى الحضارة، ومع ذلك كنت أستطيع الآن أن أرتاح ليلة في الضيافة الغامرة لمحمد النفيسي وهو مواطن من منفوحة قرب الرياض، الذي كان أميراً على المنطقة الساحلية تحت الإمارة العامة لخالد السديري، حاكم المناطق الشمالية، التي كانت ضباء ميناءها الرئيس.

ولم يكن هناك شيء يميز المدينة على وجه الخصوص، والتي كانت قد تطورت حديثاً بصورة نسبية؛ فهي تقع على أرض مرتفعة على طول شاطئ البحر، وبها سوق واسع ومركز تجاري تتخلله المكاتب البلدية والحكومية، وقد تم إيواؤنا في هذه الليلة ببيت قرب سكن الأمير الخاص في الشارع الرئيس، ومن نافذتي كنت أستطيع أن أنظر نحو الشمال إلى قمم وأوتاد شار الجرانيتية العظيمة، والتي تهيمن على كامل المنطقة حول جبل الكبريت. في تلك الليلة استضافنا الأمير على مأدبة أميرية في بيته، وقد دعا إليها جميع كبار المسؤولين الحكوميين في المنطقة، ومنهم القاضي، عبد الغني مشرّف المدني، وهو رجل علم مستنير ينحدر أصلاً من المدينة، والذي كان شغوفاً بأن يسمع عن رحلاتنا في مدين. لقد قضينا ليلة

سعيدة ونحن نتحدث عن ضباء وأنشطتها التجارية وآمال تطورها الاقتصادي.

وفي العصور القديمة كانت هذه الموانى الشمالية على البحر الأحمر تنتعش من عائدات صادرات الأغنام والفحم إلى السويس، ولكن هذه الحركة قد أوقفتها الحكومة السعودية وهي محقة في ذلك تماماً، وعلى العكس شجعت واردات الأغنام من الصومال ومن دول أخرى لتفي باحتياجات أسواق جدة ومكة. وتبعاً لذلك كانت آمال ضباء تنصبُّ على مشروع الطريق المباشر إلى تبوك مروراً بممر الخريطة لتفادي المصاريف الباهظة للنقل بالسيارات اللوري بين هاتين المدينتين بالطريق الطويل عبر مدين.

ويتكون الجزء الأعظم من الحركة المرورية من نقل البنزين والزيوت، والتي كان إسماعيل البديري، من إحدى الأسر في ينبع، طرفاً مشاركاً فيها، وكانت سيارات الحجاج القادمة من الأردن تضطر الآن، وبموجب الشروط الحالية، أن تحمل كافة احتياجاتها من الوقود وزيت التشحيم من معان حتى المدينة، وعند وصولها للحدود السعودية في ذات الحاج كانت تضطر إلى دفع الرسوم الجمركية السعودية كاملة عن كل تلك الحمولة. إنهم سيكونون سعداء بشراء احتياجاتهم داخل المناطق السعودية، إذا كان بالإمكان تنفيذ ذلك على أساس اقتصادي، ولكن النقل الطويل

يجعل الثمن باهظاً ليس في مقدور أحد، ولذلك حرم التجار السعوديون من تجارة رابحة. والسبب نفسه ينطبق على أنواع أخرى من البضائع، التي يمكن استيرادها رخيصة من معان بدلاً من نقلها من ضباء إلى تبوك، ومع ذلك لم يبق إلا ميل واحد من هندسة الطرق في ممر الخريطة الذي يجب تنفيذه حتى يضيف شيئاً كثيراً إلى رخاء ضباء وتبوك، ولكن، كما يعلم الجميع، هذا المبلغ القليل من المال المطلوب للمشروع يُخصص لأغراضٍ أقل أهمية، وكان السكرتير الرئيس والمستشار المالي للأمير رجلاً يُدعى عبدالدايم وكان جده الأكبر رئيس المسؤولين في المويلح عندما نزل فيها بيرتون عام ١٨٧٧م. وخلال الصباح التالي قمت بجولة من الزيارات الودية للقاضي ورؤساء الإدارات الحكومية المختلفة وكبار التجار ومحلات ودكاكين متنوعة في السوق قبل أن أتناول الغداء مع الأمير ومن ثم أودعه.

وقد اضطررنا للتوقف عند واحة صغيرة في بستان من أشجار النبق على بُعد حوالي ٥٠٠ ياردة في وادي ضباء من حافة البحر، لكي نسحب الماء من بئر مروى وهي مبطنة تبطيناً رائعاً بالحجارة وذات فوهة واسعة وماء عذب غزير على عمق ست قامات، وكان هناك بئر أخرى قريبة هي بير أبو شعلان تستخدم لري بستان صغير من نخيل متناثر تضم بينها قليلاً من البيوت أو الأكواخ الحجرية. وكان طريقنا الآن يمتد تقريباً على طول البحر، مع بعض الانحرافات

لتفادي الأرض الوعرة، وعبر سلسلة من الأودية المتقاطعة، التي تنشأ من الأرض المرتفعة نحو الشرق، أو من منابع أشد بُعداً، وكان أهم واد من هذه الأودية يسمى شعيب المشاش على بُعد ثلاثة عشر ميلاً تقريباً من ضباء حيث كنا بجوار جزيرة النَّعْمَان التي تبعد قليلاً عن الساحل وتعد الآن معلماً أرضياً بارزاً لجميع الطائرات السعودية المسافرة بين جدة والقاهرة، ومن هنا تدخل الطائرات في البحر عرضاً حتى رأس محمد في الطرف الجنوبي من شبه جزيرة سيناء، وبالعكس.

إن جميع هذه الأودية الضحلة نسبياً تشق طريقها عبر أراض مرتفعة شبه مستوية وواسعة من الحصباء، يتراوح ارتفاعها بين ١٠٠ إلى ٣٠٠ قدم، وتمتد حتى البحر من مسافةٍ ما نحو الشرق، ولا يمكن عدّ أي منها خط تصريف رئيس. وكان أولها في جنوب ضباء، وادي دامة الواسع، بعد وادي المشاش بسبعة أميال، والذي رأيناه سابقاً حيث يرتفع في منطقة حرّة الرَّحَا البركانية القريبة من روافة، ويبلغ اتساع الوادي في هذه النقطة أكثر من ميلين، وفي جزء من قناته توجد غابة حقيقية من أشجار الغضا وشجيرات عادية أخرى في بقعة رملية متحركة والتي كان سيرنا فيها صعباً، وينزل الطريق في الوادي مائلاً ليتفادى جرف الحصباء شديد الانحدار على ضفته اليمنى. وبعد الوادي توجد بقعة واسعة ووعرة من أحواض رملية تسمى الشبيرم ومنها مررنا عبر وادي المَرّ المنبسط ذي الحصباء

ودخلنا في وادي الأزلم وهو قناة رئيسة أخرى تنحدر من المنطقة المجاورة لشَغَب والهضبة من بعده. وفي دقائق قليلة كنا في الشمال، وعندها فقط وجدنا بوابة قلعة الأزلم العظيمة حيث توقفنا فترة قصيرة لفحص هذا المبنى، بعد أن قطعنا بالضبط ثلاثين ميلاً من ضباء. تنتصب القلعة على حافة قناة الأزلم، التي تجري حتى البحر عبر جبل صخري على بُعد أميال قليلة نحو الغرب، وهي عبارة عن مربع تقريباً مساحته ستٌ وثلاثون ياردة على اتجاه جهات البوصلة الأصلية الأربع. وبها برج مثمن الأضلاع ناتئ في الأركان الأربعة وكل ضلعين من الأضلاع الثمانية في الأركان مُعشّقان في الجدران الرئيسة، بينما يبلغ النتوء الخارجي في كل ركن سبع ياردات تقريباً. وكانت النقوش العربية على الجدار الشمالي، التي تبين تاريخ تشييدها، قد دمرت لدرجة يستحيل معها قراءة النص.

ولم أستطع أن أخرج بمعنى واضح من النسخة التي حاولت استنساخها في ظروف صعبة، ولكن أعتقد أن القلعة شُيدّت لفائدة الحجاج ويمكن نسبتها إلى عهد السلطان سليم(١). إن هذا المبنى،

---

(١) الصحيح أن بناءها كان في عهد السلطان المملوكي محمد بن قلاوون، ثم أعيد بناؤها في عصر السلطان المملوكي قانصوه الغوري سنة ٩١٦هـ. وما استصعب على المؤلف قراءته من النص المنقوش على القلعة فهو: حضر في هذا المكان الأمير الأشرف/ الأجل الأمير خشقدم الخازن ل/ معمار السلطان سنة سطعشر وتسع ماية.

وعن هذه القلعة انظر: علي غبان: الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني، ص٢٤١-٢٤٣.

على الرغم من أنه الآن في حالة سيئة جداً من عدم الحفظ، وبالطبع لم يعد مستخدماً، يُعد مفخرة للرجال الذين صمموه ونفذوه؛ فالبناء كله استخدمت فيه حجارة مشذبة تشذيباً رائعاً، لقد سقطت قطع كثيرة من المبنى، أو تم خلعها منه لاستخدامها في أماكن أخرى، ولكن رواق المدخل عند البوابة لا يزال يحتفظ بشيء من رونقه وروعته الأصلية، وفيه قوس شبه مستدق فوق البوابة وصالة رحبة مقببة محمولة على أقواس شبه مثلثة، وهذا الرواق يؤدي إلى ساحة أو فناء فيه بئر كبيرة، يبدو من الواضح أنها لم تعد مستخدمة، في حين كانت ثلاثة من جوانبه مجهزة بغرف أسطوانية الشكل يحتمل أنها كانت مقراً لأمير الحج وموظفيه وقواته. وتوجد بئر خارج القلعة يأخذ منها البدو ماءً قليل الملوحة لسقيا دوابهم، وقد تم تدعيم فوهة البئر بقطع أحجار مأخوذة من المبنى الرئيس.

وفي حين كانت التلال التي تغطي الضفة اليمنى لوادي الأزلم من المضيق الذي يدخله قرب واحة شغب الصغيرة قد بدأت تتلاشى مقابل القلعة، إلا أن تلك التلال الموجودة على الضفة اليسرى تمتد حتى البحر بكتلة صلبة من الجبال الصخرية، والتي من خلالها نضطر الآن إلى شق طريقنا، من وهد إلى وهد على مدى الخمسة والثلاثين ميلاً القادمة.

ويصعد طريق السيارات من القلعة على قناتي المريبد والمقوامة إلى أن يصل إلى ممر متعرج موازٍ للبحر على الرغم من أنه بعد مسافة منه،

وبعد مرورنا من وهد إلى آخر وصلنا إلى وادي دخان وهو أحد خطوط التصريف الرئيسة في هذه المنطقة الجبلية، التي تمتد حتى البحر على بُعد ميلين من النقطة التي دخلناه عندها، وبعدما صعدنا درب دخان وقطعنا ميلين سرنا في أحد روافده -يسمى بُقير سماوة- ميلين آخرين لنصل إلى حافة منطقة مفتوحة نسبياً على هضبة عالية تنحدر برفق نحو خط وادي مرّ على يميننا والذي يمتد حتى البحر.

وأدركنا الغروب في هذه المنطقة، المغطاة بالكامل تقريباً بالشجيرات والأشجار الشوكية الصغيرة في المنخفضات الرملية الكثيرة حيث قررنا أن نخيّم في شعيب نبقة.

ونظراً لانطلاقنا متأخرين وتوقفنا الطويل نسبياً عند قلعة الأزلم، فلم نتقدم سوى ساعة واحدة تقريباً من السير، وخلالها قطعنا حوالي عشرين ميلاً. وكنا الآن على بُعد مسافة قريبة من الوجه وألقينا عصا الترحال في هذا المساء الجميل مع العشاء الشهي، وبعده بقيت ساهراً لفترة من الزمن، أنجز فيها ملاحظاتي عن الرحلة، وأجمع الحشرات التي جذبها مصباحي، ثم انتهيت بحل الكلمات المتقاطعة. لقد كان مساءً رائعاً معتدلاً حيث كانت درجة الحرارة في الستينيات، والسماء صافية بلا رياح، بينما الرمل الناعم وتناثر الأشجار والشجيرات حولنا جعلا الموقع نموذجياً لمخيم صحراوي. وكنت نائماً نوم المطمئن عندما شنت الطبيعة، في منتصف الليل تقريباً، هجوماً مفاجئاً علينا بعاصفة عنيفة هوجاء مباغتة، هزت

الرمل هزاً عنيفاً ورفعته في سحابة هبت علينا مثل جيش من الشياطين، وخطفت كل شيء خفيف في الهواء، ودفنت كل الأشياء بما فيها نحن أيضاً، تحت طبقة من عدة بوصات من الرمل. وفي حلكة الظلام لم يكن هناك شيء يمكن عمله على الإطلاق إلا تحمل لحظات البؤس هذه ما دامت مستمرة، ثم ابتسم لنا الصباح كما لو لم يكن له أي علاقة بما فعله الليل بنا، وبدأت أحفر الرمل لاستخراج ممتلكاتي من قبرها، مقياس الحرارة (ثرمومتر)، والبارومتر المعدني، وزجاجات السم، والأوراق والكتب، وغيرها.

وقد اختفت خريطة موسل لشمال غرب الجزيرة العربية مع بعض الأوراق الأخرى التي كنت تركتها بجوار فراشي. وكنت أعزي نفسي بفكرة أنني قد انتهيت من الاستفادة من الخريطة في كل المنطقة التي تغطيها وعندها -يا للعجب- رأيت ورقة ما معلقة في شجيرة من شجيرات الشوك غير بعيدة عنا وتلك كانت هي خريطة موسل. وعلى حسب ما أذكر فإنني لم أفقد شيئاً ذا بال، واستأنفنا رحلتنا، ليس بأفضل مما قاسيناه في مغامرتنا مع العاصفة الرملية.

واصلنا السير خمسة أميال، وبعدما قطعنا منطقة وعرة ولكنها لا تزال مفتوحة، عبر أو على طول منحدرات الأبيض والطعف وصلنا إلى شريان رئيس آخر من شرايين تهامة وهو وادي ذلبة الذي ينحدر بأسماء مختلفة من سلسلة الجبال خلف البدع (ولا يصح الخلط بينها

وبين البدع في مدين). وامتدادات الوادي السفلى مغطاة بكثافة بشجيرات الطرفاء وشجيرات أخرى، ويدخل البحر بين رأسين من الأرض دقيقين بعيدين تمام البعد عن بعضهما، على مسافة ميل تقريباً على اليمين من طريقنا. وبعد مسير تسعة أميال عبر منطقة صخرية وعرة لا يمكن وصفها، وعبر خطوط تصريف كثيرة، وصلنا إلى ثاني واد كبير هو وادي عنتر الذي يعد محطة معتادة أخرى على طريق الحج القديم، ولا يوجد بها قلعة، ولكن الأتراك قد شيدوا خزاناً رائعاً ببناء أنيق لاستقبال الماء خلال موسم الحج من بئرين في القناة، وقد تم بناء فوهة دائرية واسعة بالحجارة في كل منهما حتى مستوى المياه فيها الذي يبلغ ثلاث قامات.

وتبلغ مقاسات بركة عنتر ٤٥ × ٤٥ قدماً من الداخل كما يصل سمك الجدران قدمين ونصف القدم، وارتفاعها ٢٠ قدماً تقريباً، وبهذا الخزان ستة عشر مدماكاً من البناء، والخزان الثاني متهدم بصورة سيئة ويبلغ نفس حجم الخزان الأول ويجاوره من جهة عكس التيار.

ومن الواضح أنه كان يستقبل مياه السيول ويصفيها من خلال بوابات عالية ويصبها في خزان ماء الشرب الرئيس. والخزانان والآبار مشيّدة بطوب من الحجر الجيري الأبيض (الكاولين) أبعاده ١٢ × ٥ بوصات، ولكن أعالي الخزانين مغطاة بألواح طويلة من الحجر الرملي أبعادها ٣٦ × ١٢ × ٩ بوصات، وتوجد في أحد الآبار شجيرة مزهرة كبيرة من شجيرات الشفالة نامية في شق

أو صدع في البناء، وقد ملأت تقريباً فوهة البئر الدائرية كلها، ومنها طار زوج من البلابل عندما اقتربت لفحص البئر.

وتبلغ المسافة بين بركة عنتر والوجه ثلاثين ميلاً فقط، وكنا الآن قد خرجنا من المنطقة الجبلية إلى سهلٍ واسعٍ ينحدر باستمرار حتى البحر على بُعد عدة أميال ولا نراه بعدُ، من سلسلة جبال على بُعد نصف ميل تقريباً على يسارنا، ومنها تتدفق شعابٌ كثيرة عبر مسارنا.

وكان جبل برام الذي يمثل جزءاً من الضفة اليسرى لوادي عنتر، يطرحُ غطاءً من كتلة صخرية مختلطة من الكاولين حتى حافة مسارنا تقريباً ويستمر نفس التركيب على طول الجبل التالي الذي يُدعى النخيرة ويستمر امتداده مسافة أطول إلى الداخل بالكتل الجرانيتية الضخمة تحت اسم جبل لبن وهو المعلم الأرضي الرئيس في منطقة الوجه. هذه هي كل منطقة بلي التي كان شيخها الرئيس في ذلك الوقت (ولا يزال حتى الآن بلا ريب) الشيخ إبراهيم بن سليمان بن رفادة الذي كان أبوه (سليمان) قد قتل في التلال المنخفضة قرب جبل شار أثناء تمرده الفاشل ضد ابن سعود في أوائل الثلاثينيات من هذا القرن[١]. إن جبل لبن الذي يتكون من ثلاث كتل رائعة من

(١) الصحيح أن الذي تمرد على الملك عبدالعزيز هو حامد بن سالم بن رفادة وليس سليمان والد إبراهيم اللذين كانا من أشدّ المعارضين لثورة حامد بن رفادة.

الجرانيت الأحمر، هو المصدر الرئيس لمعظم خطوط التصريف العابرة لسهل الوجه باستثناء إقليم بلي، ويسكنه بصورة رئيسة مهاجرون من الحويطات من الشمال الذين ينتمون إلى قسم سطوح، وقد ذكرت سابقاً موضوع إمكانية عدّ وادي عنتر من وجهة النظر المائية (الهيدرولوجية) كحد جنوبي لأرض مدين على الرغم من أن المدينيين قد انتشروا حتى الوجه ووادي الحمض من ورائها، مثلما فعل الأنباط بالتأكيد. إن العوامل السياسية والاقتصادية تفسر بصورة كافية هذا التوسع والانتشار، لأن جزءاً كبيراً من مناجم الذهب بمدين توجد إلى الجنوب من الحدود المائية. كما إن وادي عنتر نفسه لم يُكتشف حتى منبعه الذي لا يزال مجهولاً، ولكن من المحتمل أنه يقع في المنطقة الصخرية حول لبن لأن تصريف مياه المنطقة بعده وحتى الهضبة، يتم بروافد مختلفة تصب في وادي ثُلْبة.

وكان هناك ما لا يقل عن ستة عشر خطاً من خطوط التصريف العابرة لمسارنا بين وادي عنتر ورأس شعيب ملسة الذي يمتد على طول الجهة الداخلية من هضبة الوجه، ليلتقي بوادي سبيل عند النقطة التي يدخل فيها ميناء الوجه. وكافة الخطوط الأخرى تشق طريقها بصورة منفصلة عن بعضها البعض، أو بتشكيلات مختلفة، حتى تصل إلى البحر شمال الهضبة. وبعد حوالي ثلاثة أميال في

ملسة (والتي نطقها أدلاّء مختلفون منسه أو حتى منفه) ينعطف الطريق إلى المدينة العليا بصورة مفاجئة وحادة ليصعد على جرف حاد الانحدار، ارتفاعه ١٠٠ قدم تقريباً، ليصل إلى الهضبة على بُعد ميل تقريباً شمال قلعة رائعة حقاً من عصر الأتراك[١] (شُيدت خلال الحرب العالمية الأولى)، والتي تحمل الاسم الغريب قلعة بلاش (أي قلعة العدم) وذلك يعود إلى حقيقة أن الغرض منها كان الدفاع عن الوجه ضد لورانس والأمير فيصل، ولم يشغلها أحدٌ أبداً (كما لم تستخدم قط منذ ذلك الحين) بسبب سقوط المدينة مبكراً. وبعد المسير مسافة ميل عبر الهضبة الجرداء من قمة الجبل تقع مدينة الوجه العليا، في زاوية تشكّلت من جرف بحري عند انحنائه للداخل على طول حافة المدينة السفلى (التجارية) والميناء.

ولم يكن النهار قد انتصف بعدُ عندما وصلنا أمام قصر الأمير، لم يكن هناك من طريقة لرفض دعوته (أو أمره) بالبقاء كضيوف عنده في الليل. لقد كان ناصر السديري عضواً آخر من أحد أكثر العائلات العامة تميزاً في السعودية، والتي كان من بين صفوفها في ذلك الوقت أكثر من اثني عشر أميراً على المناطق.

---

(١) يرجح الدكتور علي غبان بناءً على روايات محلية أن بناء القلعة كان زمن الأشراف، ويضيف أن هذه القلعة أزيلت تماماً، إلاّ أن مكانها لا يزال معروفاً.
انظر: علي غبان: الآثار الإسلامية في شمال غرب المملكة، الكتاب الثاني، ص٢٨٤. (المراجع).

وتبلغ المسافة الرسمية من ضباء حتى الوجه ١٥٦ كيلومتراً، أي حوالي ٩٧ ميلاً، مما يجعل المسافة تبلغ ١٩٦ ميلاً من البدع. والتقدير الرسمي للمسافة من ضباء إلى تبوك بطريق السيارات العادي الذي استخدمناه في الرحلة يبلغ ٣٧٦ كيلومتراً، أي ٢٣٥ ميلاً، بينما الرحلة بالإبل بين هاتين النقطتين تستغرق خمسة أيام، أي ١٢٥ ميلاً تقريباً، عن طريق الخريطة.

بعد العاصفة في الليلة السابقة، كان النهار بارداً وغائماً، وقد قضيت فترة ما بعد الظهر في جولة طويلة وكئيبة نسبياً في زيارات لرؤساء الإدارات الحكومية، الذين كانوا قد دُعُوا للاجتماع بنا على العشاء في بيت الأمير عند الساعة الرابعة عصراً. وقد ناقشنا، ونحن نرشف أكواباً لا حصر لها من القهوة المُرّة والشاي الحلو، أحوال وإمكانيات الوجه، التي كانت في العصور السابقة مَصْدراً رئيساً للأغنام المصدّرة إلى السويس، سواء باستخدام السنابك التي كانت تعمل في البحر الأحمر أو بسفن البريد البخارية الخديوية.

وكانت هذه الأخيرة لا تستطيع أن تقف على طول جانب أرصفة الميناء ولكنها ترسو في المُكلا قرب الشاطئ لتحميل حمولتها الحيّة من صنادل باستخدام قيود الربط الحديدية في السفينة، التي ترفع الأغنام عالياً بطريقة فظة، ستة منها في كل مرة وكلها مربوطة معاً من رجل واحدة خلفية. وقد توقفت هذه الحركة التجارية الآن،

ليس لأسباب إنسانية ولكن للمحافظة على مورد اللحوم بالبلد، وقد تم تطبيق الحظر نفسه على صادرات أخرى قديمة، وهي السمن أو الزبدة الصافية، والتي كان عليها ذات يوم طلبٌ شديد في السوق المصرية. وصادرات الوجه الوحيدة الآن هي الفحم النباتي، الذي يتم شحنه في السنابك في أكياس سعة قنطار، والتي تباع بسعر عال يصل إلى ١٢٥ قرشاً مصرياً في السويس. وكان تعداد سكان الوجه يقدر بحوالي ١٥٠٠ نسمة، مقابل ٢٠٠٠ نسمة في ضباء، ومن المؤكد أن الوجه الآن أقل ازدهاراً ورخاءً عما كانت عليه في أيام ما قبل الحرب عندما كانت ميناءً تزوره بانتظام السفن البخارية الخديوية وغيرها. وتوجد بيوت كثيرة في المدينة السفلى، والبعض في العليا، والتي يعود تاريخها إلى أيام سحيقة نسبياً من عصر الاحتلال المصري لشمال الحجاز، وهذه البيوت ذات جودة أفضل بصورة عامة من المباني الحديثة.

والقلعة الكبرى المطلة على المدينة السفلى من مقدمة الجرف المنحنى، تعد حالة ذات صلة وثيقة بموضوعنا، على الرغم من أنني لم أر داخلها الذي كانت تشغله الحامية المحلية والشرطة. وفي المدينة السفلى توجد السوق الرئيسة، وهو حدث مثير حقاً، كما توجد مكاتب الجمارك والعوائد، ناهيك عن مباني الميناء، والمحاكم، وهلم جرا.

وكان إمداد المياه للمدينة في الأزمان الغابرة يعتمد جزئياً على عدد من الأحواض أو الصهاريج المصممة لتجميع مياه الأمطار في المنطقة والاحتفاظ بها، وجزئياً على عملية أكثر تكلفة تنطوي على إرسال الإبل (والشاحنات في الفترة الأخيرة) إلى آبار على بُعد ستة أميال تقريباً في وادي السبيل الذي ينحدر من المرتفعات المجاورة حتى الميناء.

وقرب الآبار تنتصب قلعة "الصليبيون" الشهيرة، التي تُسمى قلعة زريق والتي زرتها بصحبة الدكتور / دي. جي. هوجارث في يناير ١٩١٨م ونحن في طريقنا من جدة إلى العقبة والسويس، بعد مناقشتنا للشؤون السياسية العربية مع الملك حسين، ملك الحجاز.

وبينما تنفتح مدينة الوجه العليا على مصراعيها على الهضبة الشاسعة الممتدة إلى الشرق منها، بدون أسوار، حيث تتوزع المدينة في غير نظام على طول قمة جرفها، فإن المدينة السفلى مكتظة نسبياً في المساحة الضيقة بين سفح الجرف والميناء، ويحميها من الغزو على الجهة الشرقية سور، متهدم الآن نسبياً، ويوجد به ما يسمى باب البحر الذي يوجد بداخله "مناخ" واسع وهو مكان توقف قوافل الإبل في الماضي. (وقد حل محلها الآن السيارات التي من أجل خدمتها يشغل المكان بصورة رئيسة حالياً بائعو الوقود، وقطع الغيار، والمستلزمات الأخرى، وقد تم إبعاد براميل البنزين المخصصة

لإعادة تزويد خزانات السيارات بالوقود إلى مكانٍ خارج السور كإجراء احتياطي ضد الحرائق).

وكان التاجر الرئيس في المدينة يُدعى مصطفى البديري الذي قابلنا أخاه إسماعيل مؤخراً في ضباء، وهو في هذا الوقت تقريباً، أصبح وكيلاً محلياً لشركتي فيما يختص بتخزين وقود الطائرات بغرض تزويد طائرات الخطوط الجوية العربية السعودية بالوقود في رحلتها من جدة للقاهرة.

والدائرة التي تحدد أرض المهبط في الوجه والتي تم إعدادها في الأيام البعيدة خلال الحرب العالمية الأولى، لا تزال علامة أرضية واضحة من الجو، على هضبة قلعة بلاش ولكن لا يمكن لطائرة من العصر الحديث تحترم نفسها أن تستخدمه بدون المخاطرة بحدوث كارثة فادحة، وقد تم استبداله بشريط مهبط واسع على الساحل إلى الجنوب قليلاً من الجانب البعيد للميناء.

وهنا لا توجد مرافق عادية من مرافق المطارات المعهودة والآلاف من براميل وقود الطائرات مرصوصة في صفوف متراصة، ومعرضة لعوامل الطقس، إلى أن تتم مناولتها يدوياً وصبها في خزانات الطائرات عند الطلب، ولا يحدث ذلك إلا عندما ترد إشارة عن عزم طائرة بالهبوط للتزود بالوقود، وهذا لا يحدث عموماً إلا في

موسم الحج فيخرج المسؤولون من موظفي المطار، ومندوبو البديري، والمشاهدون من المدينة، في مأموريات قصيرة ليؤدوا مهامهم المختلفة وليتمتعوا بتغيير غير عادي يكسر رتابة الحياة بالوجه. وكان الشيء نفسه يحدث في الأيام الخالية عندما كان مواطنو المدينة يتمتعون بزيارة السفن البخارية الخديوية خلال الساعات القليلة التي كانت تقضيها في الميناء، إما لأداء أعمال تجارية، أو لمقابلة أصدقاء أو وداعهم، أو أحياناً لأخذ عينات من ترتيبات التموين في العالم الحديث. وقد هبطت مرة واحدة فقط في مطار الوجه في طريق عودتي إلى جدة من القاهرة، وما زلت أتذكر تشبيهي لهذا المطار مع مطار كان الفرنسي مع تغيير ما يلزم.

والأكثر إثارة من بين موظفي الوجه الرسميين كان -بلا شك- القاضي، الشيخ مصطفى السناني، وهو رجل علم من المنطقة استقرت عائلته في الوجه منذ عدة أجيال، كمهاجرين من مصر خلال أيام الحكم المصري لهذه المناطق، وكان عمه إسماعيل بن محمد السناني، في هذا الوقت حاكماً محلياً، وهو -أيضاً- رجل ذو سحر وتحضر عظيم، والذي فعل -بلا ريب- أقصى ما في وسعه من أجل مدينته في ظل ظروف هذا الزمن المثبطة نسبياً.

لقد كان الشخصية الرائدة في ضمان تأمين مساعدة من الحكومة لتركيب مكثف لمياه البحر قبل زيارتنا بحوالي ثلاثة أعوام لتعزيز

وتقويم إمداد المياه المتذبذب للناس. وحقيقة إن هذا الجهاز كان عاطلاً عن العمل بسبب عيوب ميكانيكية مختلفة ليس مسؤولاً عنها، ولقد كان أيضاً مشرفاً على تركيب مضخة ميكانيكية من طراز قديم، التي كانت أفضل ما استطاع أن يعتصره من الحكومة، في بئر قلعة زريق، ومرة أخرى لم يكن من أخطائه أن هذه الأداة غريبة الشكل مخزونة الآن في أحد الغرف المتهدمة من القلعة نفسها، لأنها فشلت في استخراج المياه من البئر. وربما يتقاسم أيضاً مع الأمير شرف التغلب على هذه الصعوبات بتوفير عدد من شاحنات الصهاريج "الوايت" بسعة ٥٠٠٠ جالون ليوفر على الإبل عناء حمل المياه حتى باب البحر لتوزيعها على المواطنين بسعر رمزي.

وكان القاضي مصطفى رجلاً ذا قدر عظيم من الاستنارة، ويتمتع بمعرفة عملية طيبة للإشارات القرآنية إلى الآثار القديمة مع التركيز على وجه الخصوص على الإشارات إلى مدين وقوم ثمود. ومن المؤكد أنه لا يتصف بالتحيّز، مثلما يفعل كبار الشيوخ في الرياض، ضد دراسة أي شيء قبل الإسلام(١)، حتى إنه كان من جامعي الآثار من نوع ما، على الرغم من أن ما جمعه قد يكون متأثراً بأفكاره المبالغ فيها عن القيمة المالية للأشياء الأثرية.

وقد قدّم لنا قطعتين من العملات الذهبية، لكي نفحصهما، زاعماً أنهما قد وجدا على التوالي في البدع ومدائن صالح، واقترح

---

(١) لعل المؤلف فهم من محافظة الشيوخ في الرياض على الهوية الإسلامية وعدم الخوض فيما قبل الإسلام على أنه تحيز وهذا غير صحيح.

ضرورة أخذهما معي لتحديد نوعهما، وقد رفضت هذه الثقة، ولكني اغتنمت إذنه بأخذ رسومات أو طبعات لهذه الآثار الثمينة ووعدته بالإفادة في الوقت المناسب عما تكون وما قيمتها النقدية. واستطعت أن أفي بهذا الوعد من خلال مساعدة الدكتور جون واكر من المتحف البريطاني، الذي أفادني في الوقت الملائم أن هذه العملات لا تساوي أكثر من قيمة معدنها (الذهبي). وقال إنها عملات إيطالية معروفة قديماً (١٥٧٠ - ١٥٧٧م) من نوع دوق البندقية (Venetian Doge) وأليوسس موسينجو (Aloysius Moceni-go) وقد كتب عليها الكلمات: S(anctus) M (arcus) Vent (us) ALOY MOCEN. والكلمة دو (Dux)، بينما الصورة القائمة للقديس مارك تمثله وهو يقدم الراية المباركة لدوج (Doge) الراكع أمامه. ربما يكون صديقي قد خاب أمله بالمعلومات التي كنت قادراً على تزويده بها، ولكن يبدو أن العملات جاءت للجزيرة العربية في أيدي بعض الحجاج في عصور عتيقة نسبياً.

إن مدينة البندقية مشهورة لدى العرب من خلال التجارة القديمة في البنادق بين البلدين. وكان ابن مصطفى، عبد الله، في هذا الوقت يعمل مسؤولاً عن العوائد في ضباء.

عند وصولنا للوجه تمتعت برفاهية حمامٍ دافئ وتغيير كامل ملابسي بعد مضي أيام لا أعلم عددها منذ آخر مرة انغمست في مثل

هذا الترف، وغمرني شعور طيب بأنني نظيف ومهندم بصورة جيدة ومعقولة للمناسبات الاجتماعية والمقابلات. لقد خططنا أن ننطلق مبكراً في الصباح التالي، ولكن عندما ذهبت إلى صناديقي المقفلة لاستخراج أموال كافية لمكافأة خدم وموظفي الأمير على الاستضافة السخية عند الأمير، اكتشفت أن مفاتيحي مفقودة!!

والتفسير الوحيد الذي طرأ على ذهني أنها لا بد قد دفنت تحت الرمل عند هبوب العاصفة الرملية في نبقة وإلى هناك أرسلت زعلاً والسيد في الشاحنة للبحث بدقة في الموضع الذي نمت فيه واسترجاع مفاتيحي، وكان عليهما أن يقطعا حوالي خمسة وأربعين ميلاً ذهاباً، ومثلها في العودة، واستفدت الاستفادة القصوى من هذا التأخير الإجباري في القيام ببعض الزيارات الإضافية. وفي الحقيقة لم أكن نادماً على هذا الحادث المؤسف لأنني كنت أعاني من قروح في يداي وقدماي خلال السفر الوعر في الأسابيع القليلة الماضية، وكانت الوجه تتمتع بميزة وجود عيادة صغيرة، وإلى هناك مشيت على طول الجرف لزيارة الطبيب تحت الاختبار المسؤول عنها، وكان شاباً من الوجه يُدعى محمد قنديل والذي كان هنا منذ حوالي عام بعد التدريب في مدرسة الطب بمكة، ولم يكن طبيباً مؤهلاً بأي حال، فقد كانت وظيفته الرسمية صيدلي، وتعامل معي بكفاءة ومهارة تامة، وتركته وجروحي المختلفة ملفوفة بالأربطة.

وفي غضون ذلك تأخرت الشاحنة وبدأت أتساءل عن إمكانية أن ننطلق في وضح النهار. وقد اتفق على وجوب تناول العشاء مع الأمير في الميعاد المعتاد (الرابعة عصراً)، ونبدأ رحلتنا فوراً بعد ذلك إذا كانت الشاحنة قد عادت في ذلك الوقت. وظننت أنه من المفيد أن نقوم بتعبئة كل شيء انتظاراً لوصول السيارة، وعندما كنت أنزل ملابسي المتسخة من المشجب وجدت مفاتيحي الضائعة في جيب ملابسي التي غيرّتها. جعجعة ولا طحين! ولكني كنت قضيت النهار بسرور كاف ولم يكن هناك شخص أشد فرحاً بموضوع هذه المهزلة المضحكة من زعل والسيد عندما عادا بوجهين كئيبين ليُبلّغاني عن نتائج بحثهما السلبية. والآن كان الوقت قد تأخر، ولكني قررت، بموافقة الأمير، أن ننطلق في رحلتنا، وهكذا بدأنا عند الساعة الخامسة والنصف عصراً.

وفي خلال خمسة دقائق كنا على قمة الجرف، بعد أن رفضنا بلباقة وأدب قدر الإمكان دعوة من مركز مراقبة صغير للشرطة على الطريق للبقاء معهم وتناول فنجان قهوة. بعد ذلك بدقيقتين كنا نسرع نازلين في آخر مرحلة من رحلتنا في وادي ملسة حتى وصلنا وعبرنا الدلتا الواسعة لوادي سُبيّل، وعندما تقدمنا في رافد واسع أتينا إلى حافة بحيرة مالحة كبيرة، تعرف باسم الملاحة التي تزود الوجه والمناطق المجاورة لها بالملح، وعلى شاطئها الداخلي في هذه

النقطة ينتصب نتوء واضح من الحجر الجيري ذي قمة مسطحة يُسمى ديرة الملاحة وعنده يتشعب الطريق، فالطريق الجنوبي الرئيس يسير في امتداد مستقيم، موازٍ بشكل أو بآخر للساحل، ولكننا أخذنا الطريق الأيسر، الذي يمتد جنوب - شرق إلى قرية منجم الذهب الكبرى التي تدعى أم القرايا[1] حيث كان علينا أن نقضي الليل هناك. كان تشعب الطريق يمتد فقط لميلين من بوابة البحر في الوجه، وأسرعنا السير حيث كانت الشمس تقترب من المغيب وخلال الغسق سرنا عبر الأودية الضحلة الواسعة المسماة أم تنضب وأم سدرة وبعدها كان سهل التصريف الواسع لوادي السُرّة -وفيه قنوات فيضية عديدة- يفصل بيننا وبين جبال أم هَشيم. وخلال هذه الجبال صعدنا على طول رافد السرة الضيق، واستغرقنا خمس عشرة دقيقة حتى وصلنا إلى رأسه، ومنها نزلنا في وادي الخور ونصبنا خيامنا على أطراف عاصمة الذهب أم القرايا.

وفي الصباح التالي استيقظت مبكراً لأقوم بفحص خاطف لمنطقة الآثار الواسعة التي كانت قد استكشفت بالكامل، بنتائج سلبية تماماً، منذ سنوات من قبل كي. إس. توتشل.

واكتفيت بالنواحي الجغرافية للمنطقة، والتي تمتعنا بإلقاء نظرة طيبة عليها من قمة ما بدا أنه كان منجم الذهب الرئيس عند

(١) وقد رسمها المؤلف: أم القُرَيَّات.

القدماء. وكان جبل لبن يمتد الآن على الناحية الشمالية - الغربية لنا، بينما في الاتجاه المقابل (جنوب - شرق) تقع جبال رال الجرانيتية الضخمة، وهي المقر الرئيس لشيخ بلي ابن رفادة، الذي أعاق حتى الآن أي استكشاف لجباله. إن رؤوس الجبال المخروطية بارتفاع ٣٠٠٠ قدم من الجرانيت، والتي لا يمكن الوصول إليها، على وادي الحمض الذي توجد به قرية الشيخ وتسمى أم الضريبة، وهنا في العصور القديمة كانت قوافل الحج إلى مكة تتوقف عادة للتزود بالماء والإمدادات الأخرى كما كانت بلي تعيش في ازدهار من حركة هذه القوافل التي كانت في أكثر من مرة خلال عهد الأتراك والأشراف قد تعرضت للخطف والتوقيف نظير فدية، ولتفادي مثل هذه الحوادث أقامت الحكومة التركية نظام الصُرّةَ أي المعونات القبلية. وهو الآن معطل مؤقتاً، على الرغم من أن جميع القبائل في السعودية تحصل على أرزاقها نقداً أو عيناً على أساس مختلف نسبياً.

ومن النقطة المميزة التي أقف فوقها كنت أستطيع رؤية قناة الخور العريضة حوالي خمسة أميال عكس اتجاه التيار في منطقة تلال منخفضة، وعلى مسافة ثلاثة أميال باتجاه التيار حتى النقطة التي تلتقي عندها بالرافد الأكبر لوادي المياه الذي ينحدر من جبال الكُرّ والنبه الشاهقة والبعيدة باتجاه الشمال - الشرقي، وبعد ذلك يجري الوادي بسرعة حتى البحر.

كانت الساعة التاسعة والنصف صباحاً عندما بدأنا سيرنا، وسرعان ما وصلنا إلى قناة وادي المياه الذي يوجد به بئر المرير في غابة من شجيرات الطرفاء. وبعد أرض فضاء نجد وادي العرجاء وهو خط رئيس آخر من خطوط التصريف ويستمر حتى البحر ماراً بجوار نتوء شديد التآكل من الحجر الجيري، مثل نتوء ديرة الملاحة، وفي هذه الأرض الفضاء صادفنا أعمال منجم ذهب آخر، يعرف باسم الخور وأحياناً يسمى جبل الأبيض على بُعد ستة أميال من أم القرايا.

وعندما وصلنا إلى قناة وادي العرجاء نزلنا فيه عبر طريق السيارات الحديث من الوجه إلى العُلا، وواصلنا السير حتى مضيق ضيّق بين أجراف جرانيتية، التي يتسع بعدها الوادي بسرعة بين طبقات من الحصى تعلوها جبالٌ من الحجر الجيري. ووصلنا الطريق الجنوبي الرئيس قبل نتوء ديرة الملاحة بمئات قليلة من الياردات ثم انعطفنا لنتابعه حتى الساحل. عند هذه النقطة كانت المسافة للوجه خمسين ميلاً تقريباً بهذا الطريق.

وكنا الآن نسير على مقربة من البحر على سبخة طينية شاسعة الامتدادات المتناثرة من الأودية الكثيرة وهي طويّل والغليفين ووادي المرّة وهي امتداد لوادي أبا القَزَاز والرميحية، وتوجد رقعة بستان اصطناعي واسع (شورة) على خط الشاطئ على طول فوهة وادي

المُرّة ومن الجانب البعيد من الرميحية، بعد حوالي تسعة أميال من قناة العرجاء دخلنا بقعة تلال رملية شاسعة في الدلتا الحقيقية لوادي الحمض، والذي يمتد مسافة بعيدة إلى الغرب في قناة رأس كَرْكُمَة الواسعة حيث ينتهي بغطاء منخفض مصفر اللون ومنه جاء اسمه (يعني الكركم).

وكنت الآن قد تجاوزت المدى الذي غطته رحلات موسل بكثير، وقاسيت من عدم اصطحابي النسختين اللتين أحتفظ بهما من كتابي ريتشارد بيرتون عن مدين ومعادنها. لقد زار بالطبع أعمال أم القرايا والخور، علاوة على المرور في المسْمَاء أحد روافد وادي العرجاء، الذي لا أعلم عنه شيئاً الآن. والخطأ الأسوأ من ذلك كان مرورنا بتل الكبريت غير مدركين به وهد يسمى طُوَيِّل الكبريت على مرمى حجر في وادي طويّل من الطريق. والآن كنا على وشك عبور دلتا الحمض دون أن ندرك أنه على بُعد ميلين عكس اتجاه التيار توجد أنقاض معبد نموذجي قديم وقد زاره بيرتون ووصفه بالتفصيل. وقد استطعت في الوقت المناسب أن أعوّض هذه الهفوات بعد دراسة أعمال بيرتون عند عودتي إلى مكة. وفي هذه الأثناء كنا مضطرين لعبور دلتا وادي الحمض كثيرة القنوات، التي يبلغ اتساعها حوالي ستة أميال على طول الدرب الذي يمر خلال بعض الرقع الصعبة من الرمل الناعم مع بئر القُرْنَة المالحة على مسافة نصف ميل تقريباً من

النقطة التي دخلنا عندها الدلتا. وكانت المنطقة كلها مغطاة تماماً بشجيرات الطرفاء والنباتات الأخرى، بينما يوجد بعد دلتا الحمض سهل حصوي واسع، فيه كثيرٌ من الأودية الضيقة ذات الأشجار، وعند حافتها ينقسم الطريق إلى فرعين، يتجهان على التوالي نحو جنوب - جنوب - شرق وجنوب - شرق. يمتد الطريق الأول حوالي خمسة عشر ميلاً حتى البحر وعلى طول الساحل ستة أميال ثم يلتف للداخل ليلتقي بالطريق الثاني الأكثر استقامة، ولكنه مع ذلك أشد الطريقين صعوبة ووعورة، لاسيما بعد الأمطار الغزيرة، عندما يصبح من المستحيل تقريباً التغلب على أوديته المعترضة الكثيرة. ويتقابل الطريقان في المنطقة المجاورة للضفة اليمنى من قناة مهمة تسمى مشاش الكلب (من نبع أعلى التيار) أو الروضة والتي عندها يكون الطريق الطويل المجاور للبحر قد امتد سبعة وثلاثين ميلاً تقريباً.

وعلى كل حال كنا في هذه المرة قد سلكنا الطريق المباشر، واستغرقنا ساعة ونصف الساعة لنصل إلى النقطة نفسها، ربما لمسافة ثلاثين ميلاً تقريباً، أو أقل منها قليلاً، على الرغم من أن عداد السرعة المعطوب لم يعطنا أي معلومات في هذا الشأن. لقد عبرنا عدداً من الأودية في طريقنا مثل السويلك والحيران وغيرها ولكن دليلنا لم يكن متأكداً تماماً من أسمائها، واضطررت أن أنتظر حتى

رحلاتي اللاحقة لأحصل على فكرة أفضل عن دراسة هيدرولوجية تهامة في هذه المنطقة. ومن مشاش الكلب فصاعداً كنا نرى لمحات من البحر على فترات متقطعة على بُعد ميلين أو ثلاثة أميال فقط وعلى الأخص عند عبورنا شعيب الرفيع بعد حوالي أربعة أميال، والذي يمثل فمه مرسى للسفن الشراعية الخفيفة في البحر الأحمر.

وبعد ميلين كان وادي شبيرم يمتد أيضاً في الميناء نفسه، وبعد ذلك بميلين آخرين صادفنا منطقة مسطحة غير عادية تشبه الطاولة، من الصخور بجوار الطريق، على ارتفاع يبلغ أربعة أقدام ومكوّنة بالكامل تقريباً من صخور مرجانية تحجرت حديثاً. من هنا فصاعداً كنا نسير سيراً طيباً على تربة حصوية ثابتة حيث كنا قد اقتربنا من منطقة تشبه المتنزه من لسان طويل من الحمم البركانية (حرّة القلب) الممتدة حتى البحر بلسان بارز، وبالقرب منه كانت البعثة المصرية لمكافحة الجراد تنصب خيامها.

تعرف منطقة المتنزه باسم روضة الهليل وتتكون من التقاء دلتا واديين هامين هما عمك ومرخ. ويقع حقل الحمم البركانية بالكامل إلى الغرب من طريق السيارات ويشكل الضفة اليمنى لوادي المزيهيرة الذي دخلناه الآن ونزلنا ميلاً واحداً نحو طرف ضفته البعيدة على شاطئ البحر. إن أشجار السنط النامية نمواً طيباً والنباتات الغنية الكثيفة في الوادي، التي تعلل بلا ريب وجود بعثة

مكافحة الجراد كانت حتى الآن أفضل عرض لخضرة الربيع التي رأيناها طوال رحلتنا كلها، وكان امتداد صغير من الحمم البركانية يغطي الطرف البحري من الضفة اليسرى، التي وصلناها عند جبل حصباء منخفض، وكانت المسافة من مشاش الكلب حتى ضفة الوادي اليمنى تبلغ سبعة عشر ميلاً، مع تل صغير متحجر في نصف المسافة تقريباً، بينما كان الطريق في الوادي حتى البحر مساحته ستة أميال.

والآن سرنا قريباً بمحاذاة الساحل في أرض رملية ناعمة نسبياً، والتي أعاقت تقدمنا إلى حد ما، وفي النهاية أجبرتنا على الخروج إلى حافة البحر حول خليجٍ الدغّم وهي قرية صغيرة من المزارعين قرب الساحل، وكوخ أبيض لحرس السواحل على الجرف الآخر، سرنا مسافة طويلة كانت العجلات الخارجية للشاحنة داخل مياه البحر فعلاً بين العجلات القريبة في الرمل المبلل من المد العالي. وبالقرب من نخيل الدغم مباشرة وبعد خمسة أميال من الزحف على طول الساحل، والسيارة تسير في الماء وخارجه في الوقت نفسه شققنا طريقنا إلى المناطق الداخلية صاعدين على منحدر بينما زراعة البدو المتفرقة على تلال القرص عن يسارنا، وصلنا إلى هضبة وبساتين نخيل الغبايا المتناثرة ولكنها شاسعة، التي يُعتقد أنها تمثل قرية لوك كومي القديمة والتي كان ميناؤها على موقع أملج الحديثة، على بُعد ثلاثة أميال فقط.

وأعتقد أن بيرتون هو الذي أطلق الاسم العربي «الحوراء» على هذه المنطقة ولكن مثلما الحال في خرائب مدين لا يبدو أن هناك مصداقية صحيحة لهذا الاسم. وتوقفنا مدة وجيزة عند بئر العجيوة لسحب الماء، مثلما يفعل أهل أملج أيضاً عادة، وهي بئرٌ دائرية مبنية بطريقة جيدة في الصخر وبها ماءٌ عذبٌ وفير عند عمق ثلاث قامات فقط. وكان لها قمة إسمنتية سمكها قدم تقريباً من البناء الحجري حول الفوهة. وبعد ذلك مررنا بوحدات أخرى مختلفة من الواحة حتى وصلنا في الوقت الملائم إلى أملج حيث تم استقبالنا بحفاوة في بيت الحكومة لقضاء الليل.

كان فهد بن عبد العزيز وهو مواطن من قرية ضرماء الباسلة في وسط الجزيرة العربية، قد قضى الآن العام الرابع من ولايته بأملج، وكنت أعرفه قبل ذلك بعشرين عاماً عندما كان أميراً على العلا. ولقد قام -بالتأكيد- باستضافتنا بشكل أميري، حيث دعا جميع أعضاء السلطة الرسمية في إمارته والأعيان والوجهاء بالمدينة للاجتماع بنا على العشاء، وتم توفير مأوى لنا في بيت فخم، على الرغم من قدم طرازه نسبياً، على الجرف البحري المنخفض، حيث كانت الأمواج تهدهدنا للنوم في الوقت المناسب برشرشة لطيفة وهي ترتطم بالشاطئ تحتنا. ويقال إن اسم المكان يعود إلى صوت الاصطدام هذا (فكلمة لجّة تعني إصدار ضوضاء) بالرغم من أن نفس الكلمة يبدو أنها تعني أيضاً "عمق الماء".

وبالقرب منا كان فوق الصخور المسطحة الصغيرة في البحر مئات من طيور النورس والطيور الأخرى تبيت خلال الليل، وصار سطح الصخور أبيض من ذرق (روث) الطيور. وكان عدد السكان، بمن فيهم المهاجرون الكثيرون من مصر -مثلما الحال في ضباء- حوالي ٢٠٠٠ نسمة، في حين أن سجل المعونات الخيرية للمنطقة كان يضم ٧٠٠٠ شخص، شاملاً القرويين في الواحة والبدو من حولها. وكان القاضي المحلي فلسطينياً من نابلس، الذي هاجر أبوه إلى هنا خلال الحرب العالمية الأولى وظل مديراً للمدرسة المحلية لسنوات كثيرة. وكان مدير مكتب العوائد رجلاً يدعى عبد الله الجليداني من المدينة المنورة وكان طيباً بدرجة كافية حتى إنه اصطحبني في جولة حول المدينة والميناء، اللذين تم تطويرهما حديثاً نسبياً وبهما شوارع مخططة تخطيطاً حسناً والكثير من المباني الجديدة.

وقال لي: إن الطلب على البيوت كان شديداً جداً حتى إن العمال غير المهرة الذين يتم استخدامهم في التشييد كانوا يتقاضون أجراً كبيراً يصل إلى جنيه في اليوم.

وكان بناء القوارب من تخصص هذه المدينة، ويبدو أن الميناء كان مليئاً بالسنابك. وقد رأيت إحداها على الشاطئ وهي جاهزة لتوها للانطلاق. والسوق مليئة بالبضائع من السويس وجدة، وكان بالتأكيد يبدو شديد الحركة تماماً. وكان الفحم النباتي من الصادرات

الرئيسة إلى أسواق السويس، بينما كانت أصداف الكوكيان ترسل إلى بورسودان، حيث تذهب من هناك إلى إيطاليا بصورة رئيسة لتجارة أم اللؤلؤ. وبعد الوادي والخليج الصغير الذي يمتد في الميناء ويفصل المدينة عن الخط الساحلي البعيد، يوجد عدد من الضواحي التي يسكنها بشكل رئيس الصيادون وعائلاتهم وهي الصيادلة (وسميت بذلك على اسم أحد أقسام قبيلة جهينة) وأم الحوت وواحدة أو اثنين آخرين، كلها متراصة على الجبل المنخفض الذي يمتد متوازياً ولصيقاً بالبحر. وفي أحد المرات كان هناك حديث عن استغلال رواسب ذرق الطيور على الجزر الكائنة في المنطقة المغمورة، وأكبرها جزيرة الحساني البارزة على بعد مسافة ما داخل البحر وهي غير مأهولة إلا من أعداد هائلة من طيور النورس. وفي أملج، مثل الوجه، عيادة طبية ومحطة لاسلكي، بينما توجد بها قوة شرطة من حوالي ثلاثين رجلاً ومفرزة صغيرة من ستة عشر رجلاً مسلحاً كحرس شخصي مرافق للأمير.

وقد تحركنا مبكراً في الصباح التالي وكان علينا الاختيار بين طريقين إلى ينبع، كل منهما يمتد حوالي تسعين ميلاً، أحدهما على طول شاطئ البحر والآخر يمر خلال التلال في المناطق الداخلية. وقد اخترت الأخير لأنه من المرجح أن يكون أكثر إثارة، ناهيك عن حقيقة أن الآخر قد يكون مليئاً بالسبخات أو المستنقعات في بعض

أجزائه نتيجة للأمطار والسيول الأخيرة. وبعد مرورنا بسرعة على قرى الصيادين عن يسارنا أتينا إلىٰ مفترق الطرق في أقل من ثلاثة أميال في الدلتا الواسعة لوادي الغُمَيْر الذي تركنا نخيله على يميننا عندما كنا نحرث طريقنا في رماله وحصبائه الناعمة لندخل في قناة شعيب مطيردة المنحدر خلال ممر صخري ضيق على بُعد حوالي خمسة أميال من أملج.

وكانت الأجراف البازلتية على كلا جانبينا بهية المنظر بدرجة كافية، ولكن آمالي في العثور على نقوش قد خابت.

وفي الحقيقة لم أجد شيئاً على الإطلاق من رأس وادي الأبيض مروراً بمدين وعلى طول سهل تهامة، في حين أنه في هذا الركن الشمالي - الغربي من الجزيرة العربية كنت آمل أن أصادف نصوصاً من النوع السينائي القديم. ونظراً لأن الطريق الساحلي قد أدى دوراً مهماً في جميع العصور، في تجارة الجزيرة العربية وموقعها الاستراتيجي، فمن الصعب أن نفسر التباين بين الصخور الصامتة في السهل والأجراف "الثرثارة" في حسمى. وربما وجد المسافرون بالقوافل الساحلية الأسطح البازلتية والجرانيتية في المنطقة غير مناسبة للكتابة عليها، على الرغم من أنها لم تهمل تماماً في المناطق الداخلية. وهناك تفسير آخر محتمل وهو أنهم ربما كانوا يستخدمون

مواد أشد حداثة في اتصالاتهم مثل ورق البردي أو الجلد، الذي لن يبقى طويلاً إلا في ظروف غير عادية.

التزمنا قناة مطيردة ثلاثة أميال قبل أن نتركها لنصعد رافداً يسمى المنسفة الذي سرنا من رأسه في طريق جبلي متعرج هبوطاً وصعوداً في واديين ضيقين لنصل إلى سفح ممر يشتهر باسم طلعة السويلم تخليداً لذكرى تطوير هذا الطريق من قبل أمير نجدي سابق لأملج. وكانت هذه الطلعة في الواقع العقبة الحقيقية الوحيدة في مسافة التسعين ميلاً بين أملج وينبع، ولكنها لم تكن مستحيلة العبور. وهناك ممر صخري ضيق يؤدي إلى أرض فضاء واسعة يغطيها رمل ناعم، في دائرة من التلال البازلتية، منها ينزل الطريق بممر صخري منحدر إلى رأس شعيب الوكالة الواسعة. وكان ابن سويلم قد أمر برصف الطريق عبر هذه الأرض الفضاء بالحجارة على الرغم من أن بعض الحشوات قد تآكلت وانجرفت مع المياه، وانغرزت السيارة في الرمل كما هو متوقع وانتهى الأمر للحظات قليلة من المعالجة اليدوية.

بعد هذه الهضبة يوجد حوض رملي عظيم على هيئة قمع كوّنه وادي وكالة وواجد، وينزل بانحدار من خلال ممر ضيق في الجبل الساحلي حتى البحر. وبعد أن ينزل الطريق باتجاه الجنوب - الغربي في شعيب الوكالة، يلتف فجأة للجنوب - الشرقي صاعداً في وادي

واجد عند التقائهما، الذي كان كوماً حقيقياً من رمال عميقة. ولم يكن هناك طريقة لتفادي هذه المشكلة التي يجب أن نتغلب عليها بالكامل بشيء من المشقة لرفاقي. وقد قضيت هذه اللحظات في أنشطة جغرافية. وفي الوقت المناسب وصلنا رأس واجد لننزل في وادي القُواَق الرملي الواسع، ولكنه ليس صعب العبور وهو يمتد حتى البحر في دلتا واسعة بعد الحاجز الضيق من الجبل الساحلي، وبعد عبوره دخلنا في أرض فضاء طويلة بين جبال بازلتية منخفضة ومكسوة بشكل كثيف بأشجار وشجيرات السنط، وتمتد حوالي أربعة أميال من هنا فصاعداً.

كان هذا هو شعيب العميري الذي كانت رأسه على بعد اثنين وعشرين ميلاً من نقطة انطلاقنا في أملج، ومنه مررنا عبر الأطراف الممتدة من منحدرٍ على هيئة مروحة ذي جداول مائية صغيرة متعددة تتجمع عند صدعٍ في الجبل الساحلي على يميننا، ومن خلاله تنساب لتلتقي بدلتا وادي القُواَق واسم هذه المنطقة على الأرجح هو أم حماة ربما من اسم التلال المنخفضة التي تغطي امتداد الأرض الدائرية، حما وجمعها حمم. على الرغم من أنه خلال رحلاتي المتنوعة على طول هذه المنطقة كان من الواضح أن الأدلاء لديهم آراء مختلفة فكانوا يسمونها أم حماة أو أم خميس أو مخيمس أو أم خماة. التزمنا طريق قوافل الحجاج شديد الوضوح من النقطة التي

صعدنا عندها من وادي القُوَاق حتى منطقة العميري الفضاء متجهين نحو آبار وادي نَبْط أمامنا، التي تعطي اسمها للطريق لتميّزه عن الطريق الساحلي (درب البحر). وبعد منطقة أم حماة بقليل يتجه الطريق موازياً لواد كبير يسمى أم حرمل والذي ينحدر عبر تلال تقع على يسارنا، ولكنه يظل ملازماً للأرض المرتفعة، التي سرعان ما أتينا فيها على قبر يُعرف باسم قبر العبد تخليداً لذكرى حادث من الحرب العالمية الأولى، حيث كانت مفرزة صغيرة من جيش الأمير فيصل بقيادة عبد -الذي لم يذكر اسمه على الرغم من شجاعته الأسطورية- قد تصدت لقوة من الأتراك عند هذه النقطة في ١٩١٦م خلال زحف الأشراف على الوجه. وقد قتل العبد هنا، وتقهقر رجاله على طول الطريق يطاردهم الأتراك.

وصلنا تلك البقعة التي تعرف باسم قبر العبد في الوقت المناسب بعد حوالي خمسة أميال من السير، وقد أجبرت هذه المفرزة على قتال الأتراك الذين قضوا عليها بالكامل، وبقيت هذه المقابر تخليداً لذكرى هذه الحادثة، وأصبحت مزاراً دينياً للبدو المحليين. وقد تم وضع كتل ضخمة من الجرانيت والكوارتز على القبور، وعلى إحداها وجدنا رأس وعظام خروفٍ ذُبح تضحية للشخص المدفون فيه، كما قام الزوار أيضاً بتحديد مكان قريب للصلاة وأحاطوه بحجارة مزينة، ومحراب الصلاة العادي متجه

تقريباً نحو الجنوب تماماً (٥ر١١٧ درجة). بعد هذه النقطة تلتقي قناة أم حرمل بقناة أخرى تسمى الحوضة أو " الحضة " والوادي المشترك يعبر الطريق ليلتقي بوادي نبط بعد عدة أميال، ومررنا في مجمع جذاب نسبياً من تلال وكتل من الجرانيت الرمادي تسمى الدباب وخلالها قادتنا أرضٌ فضاءٌ شاسعةٌ من الرمل الناعم إلى وادي نبط الرائع الذي يرتفع في جبل رضوى الشهير والشاهق بارتفاع يصل ٦٠٠٠ قدم، الذي يُعرف تقليدياً بأنه أحد جبال الجنة السبعة. وكانت جماعة من نسوة جهينة يسقين أغنامهن عند الآبار الواقعة على مسافة قريبة من الوادي بين أجراف حادة من الجرانيت الوعر.

وكان الأتراك قد نظموا هذه المجموعة من الآبار لمصلحة الحجاج، والثلاثة المستخدمة الآن منها، ماؤها عذب غزير على عمق ثلاث أو أربع قامات، وهي قصبات دائرية مشيّدة بالحجارة أقطارها ١٥ قدماً و ١٠ أقدام و ٨ أقدام على التوالي، ولم يكن أصغر هذه الآبار مستخدماً في هذا الوقت لأنه قد دفنته السيول ولم يكترث البدو بعدُ بحفره مرة أخرى.

وعلى مقربة منها كانت توجد أساسات مبنى ربما كان قلعة لحراسة المروى، وربما كانت هذه الآبار تمثل الجزء العلوي من خزان. ويرتفع الجانب الأسود من جبل رضوى شاهقاً فوق منطقتي الدباب وبض الموجودتين على حافتي الوادي يمتدان في مساحات مليئة بجلاميد

الصخر والكتل الجرانيتية الضخمة التي تنتشر انتشاراً واسعاً بغير نظام في الجبال والمنحدرات لتعطي مشهداً موحشاً من الفوضى الطبيعية بأقصى ما يمكن أن يتخيله المرء. وكانت آبار نبط على بُعد ستة وثلاثين ميلاً تقريباً على طريقنا من أملج.

ومنها تمتد أرض فضاء ضيقة عبر الجبل من الضفة اليسرى للوادي لتؤدي إلى وادي مُرَتِّجة وهو رافد يلتقي به في أسفل مجراه. ومنه مررنا منذ مدة داخل التلال على ضفته اليسرى بأرض فضاء صاعدة وهابطة، وفي أعلى نقطة بها أتينا على مقبرة للحجاج وبعض الركام الحجرية بجوار تل صغير منخفض (عشرة أميال من آبار نبط)، وقد أخطأ بعض الأدلاء في اسم هذه القبور، التي سموها المذبح بدلاً من تلك القبور الخاصة بالعبد ورجاله الذين ذبحهم الأتراك في ١٩١٦م. وبعد الهبوط نحو ميلين من هنا دخلنا في وادي العجال الواسع، ومنه مررنا في رافد أبروطه إلى مضيق بين قمتين، ومنه نزلنا في وادي حَسَنَة الذي يمتد في النهاية حتى البحر بواجهة دلتا واسعة، تسمى أحياناً النميصة أو النماصة تبعاً لرافدين بهذين الاسمين يأتيان من الضفة اليمنى.

وتوجد آبار في الرافد الأخير على مسافة قريبة عكس اتجاه التيار من نقطة الالتقاء التي عندها كان الحجاج يتزودون بالماء عندما يرغبون، ويَكُون الفرعان قريبين من بعضهما عند نقطة على مسافة

ثلاثة وعشرين ميلاً تقريباً من آبار نبط، بينما كان الوادي الرئيس، الذي يتراوح عرضه بين ٥٠٠ و ١٠٠٠ ياردة، يمتد نازلاً حوالي خمسة أميال إلى ثنية يلتقي عندها بقناة كبيرة أخرى، هي وادي خمال، ولتفادي الثنية والرمال الكثيفة عند التقاء القنوات، يأخذ الطريق مساراً مختصراً عبر جبل الضفة اليمنى بممر يعرف باسم المستعجلة أي الطريق المختصرة، باتساع حوالي ٢٠٠ ياردة فقط. وفي وسطه يوجد متراس أو جدار مصنوع من كتل صخرية كبيرة، لا شك في أنه كان حاجزاً لاستخراج رسوم غير شرعية من الحجاج المارين بالطريق.

ومنه نزلنا بسهولة إلى قناة وادي خمال وبعدها وجدنا أنفسنا في أرض فضاء رملية شاسعة، تمتد باتجاه الجنوب - الشرقي بالتوازي مع سهل تهامة العظيم عن يميننا ولم يكن يفصله عنا إلا جبل الخنيفة الطويل النحيل، ويسمى هذا الممر أحياناً دبة الخنيفسة في حين أن الجزء الممتد نزولاً حتى وادي خمال يسمى شعيب «أبو خربوش»، ويمتد حوالي خمسة أميال لكي يقطع جبل الخنيفسة الجرانيتي، الذي يخرج به طريق الحجاج في النهاية من التلال في رحلة شاقة طويلة عبر السهل حتى ينبع البحر، على بعد ثمانية عشر ميلاً من هنا.

لقد كانت المنطقة الجبلية كلها التي قطعناها منذ مغادرة أملج جافة نسبياً ومهجورة لا حياة فيها بسبب عدم هبوط الأمطار الموسمية تماماً

وانعدام السيول العادية في الشتاء. وكان سهل تهامة الذي يمتد أمامنا الآن في قفر لا حدود له فيما يبدو، يعرف باسم الخبت وشرعنا في آخر مرحلة من رحلتنا، بعد أن سافرنا ثلاثين ميلاً من آبار نبط وستة وستين ميلاً من أملج.

إن سهل تهامة ليس منبسطاً كما يبدو من أول وهلة، وليس كئيباً كما قد يتصور المرء، وهو قد تكّون بوصة بعد بوصة من الطمي والركام المنجرف إليه من الجبال على مدى مليون سنة أو يزيد حيث دفع البحر أمامه حوالي عشرين ميلاً حتى تتكون منطقة ينبع. وكان ذات يوم أرضاً عظيمة للصيد والقنص، بما يحويه من عشرات الآلاف من الغزلان حسبما يستطيع الناس الذين ما زالوا أحياء أن يتذكروا على الرغم من أن العلم ومنتجاته التي استخدمها الأمراء والفلاحون غير المسؤولين، قد مسحتها تماماً عن وجه الأرض. ولا يزال المرء يرى الغزلان بأعداد صغيرة جداً في المراعي الغنية التي تحييها السيول الموسمية في قفر الخبت الشاسع، المتكون من دلتا أنهار عدة تخرج من المرتفعات.

وتصب فجوة الخنيفسة وجبلها الجرانيتي المنخفض الممتد لحوالي ثلاثة أو أربعة أميال على جانبيها بالشمال والجنوب، بعضاً من مياه التصريف في حوض دائري وواسع يسمى شعيب الحج. وقد سُميّ بذلك لأن قوافل الحجاج اعتادت أن تخرج من الرحلة المخيفة الشاقة

عبر الجبال لترتاح قليلاً هنا وترعى إبلها، قبل أن تستأنف سيرها المستقيم عبر السهل. وفي الطرف الجنوبي من جبل الخنيفسة، يمتد خط مماثل منخفض من التلال للخلف نحو الشرق على طول سفح جبل رضوى الذي كانت قممه وأجرافه الكثيرة تلوح الآن فوق المنطقة عن قرب، وبينها واحد من روافد وادي ينبع النخل.

وتتكون قناة الحج من خطوط تصريف عديدة تتجمع مع بعضها من نقاط مختلفة في المنطقة المرتفعة لتمر في السهل بين الجبل ذاته وعلى طول ضفته اليمنى وجبل التفيدة الذي يتجه عبره طريق الحجاج إلى امتداد حصوي كبير، الذي يجري فيه وادي العويص المنحدر من رضوى.

وعبرناه عند التقائه مع شعيب الجُفينة وهو قناة قصيرة مليئة بالشجيرات والأشجار الصغيرة، التي تصرّف مياه جبل النقيرة الصغير. وبعده بأميال قليلة مررنا بين حوضين واسعين بالاسم نفسه، مليئين بالشجيرات.

وبعد هذا مرة أخرى تقع قناة وادي الغرّة الواسعة، التي ترتفع أيضاً في رضوى بالشمال - الشرقي وتنثني تقريباً للغرب تماماً لتلتقي بالبحر شمال ينبع، وقد أصبحت ينبع بمآذنها ومبانيها العالية الآن واضحة للعيان لأول مرة، على بُعد خمسة أميال عبر سهل الفسل المنبسط.

لقد انتهت رحلتنا من ناحية عملية وكان همنا الوحيد أن نصل إلى جدة بأقصى سرعة ممكنة، ولكن اللباقة على كل حال، كانت تقتضي منا زيارة أحمد بن عيسى، الأمير النجدي للميناء والمنطقة حيث أمضينا ساعتين رائعتين ونحن نرشف القهوة والشاي في صحبته الساحرة قبل أن نستأنف سيرنا عند حوالي الساعة الخامسة عصراً. وبسبب عدم نزول الأمطار خلال موسم الشتاء كان الطريق الساحلي المباشر عبر سبخات طينية واسعة ومستنقعات جافة صالحاً للسير، وسرنا بلا توقف حتى العاشرة مساءً، إلى أن وصلنا إلى قهوة وفندق المستورة لنرتاح في الليل على كنبة (سرير) في جو الساحل المعتدل، والرطب قليلاً.

لقد سرنا تسعين ميلاً من ينبع، و١٧٤ من أملج فيما يزيد عن ثلاث عشرة ساعة بقليل، تشمل جميع الوقفات أي تقريباً عشر ساعات من التحرك الحقيقي، وخلالها كان السيد وشاحنته القديمة يتصرفان بأقصى قدر من مراعاة الآخرين وظروفهم؛ إن الحمار المرهق سوف يُظهر أحياناً أفضل خطواته عند نهاية يوم طويل ليصل إلى العلف المطلوب والمأوى في حظيرته. وكنا قد استيقظنا مبكراً في صباح الغد من يوم ٢٣ فبراير ١٩٥١م، وبحلول وقت الغداء كنا قد وصلنا إلى بيتنا بجدة، بعد أن قطعنا ١١٨ ميلاً في ست ساعات. وكنت قد خرجت من الرياض قبل ذلك بثمانية وتسعين يوماً، وفي

هذه المدة سافرت نحو ٣٠٠٠ ميل، معظمها في أرضٍ لم يكتشفها أي أوروبي أبداً من قبل. ولقد رأيت الكثير من مدين مما يجعلني أرغب في رؤية المزيد منها، والفرصة لعمل ذلك قد تسنح خلال العام في الغالب.



الملاحق

قبور الأنباط في مغاير شعيب (مدين)

المجموعة (أ): (لم يذكرها موسل)

قبر وحيد ذو حجم كبير، على الرغم من أنه متهدم بالكامل. وقد اختفت واجهته تماماً، بينما في داخل الغرفة كانت توجد اثنتا عشرة تجويفة في الجدار الخلفي، تواجه المدخل، وثلاث تجاويف مشابهة في الجدار الجانبي على اليمين من الأخير (المدخل). من الواضح أنه ضريح عائلة ذات أهمية ما، على الرغم من عدم وجود أي دليل على هوية مالكيه أو ساكنيه.

في الواجهة الصخرية على جانبي هذا القبر كانت توجد عدة تجاويف صغيرة في الجرف، التي يحتمل أن تكون قبوراً قليلة الأهمية.

المجموعة (ب):

(الشكل ٤١ عند موسل): على الجانب البعيد (الجنوبي) من جبل المصلى ومفصولة عنه بشعيب صغير. هذه المجموعة تتكون من سبعة قبور، محفورة في جناح تل صغير (انظر ص ٢٢٠).

١) الواجهة متآكلة، والباب سقط كله تقريباً في الداخل. وأبعاد الغرفة ١٠ × ٨ × ٥ أقدام إضافة إلى تجويفين اثنين في الجدار الخلفي (مقاساتهما على التوالي ٥ر٧ × ٥ر٢ × ٥ أقدام و ٥ر٧ × ٥ر٣ × ٥ أقدام). وعلى طرفي الجدار الأيمن يوجد تجويف أبعاده ٥ر٧ × ٥ر٢ × ٥ أقدام. ولا توجد تجاويف في الجدار الأيسر.

٢) اختفت فيه جدران الواجهة والجانبان، وكل ما تبقى من القبر هو الجدار الخلفي، مع تجويفين في الطرف الأيمن منه على مستوى الأرض وقياسات كليهما ٥ر٢ × ٥ر١ × ٢ قدمين فقط. ويوجد أيضاً تجويف صغير (٥ر٢ × ٣/ ٤ ١× ٥ر٢ قدمين) عند التقاء الجدار الأيسر بالجدار الخلفي، ويوجد أيضاً تجويفان قرب الزاوية المكونة من الواجهة المتهدمة والجدران اليمنى، وكلاهما بمقاس ٥ر٧ × ٢٥ر١ × ٥ر١ قدم.

(ما ذكر في الفقرتين ب ١ و ب ٢ متجاوران جنباً إلى جنب في المستوى نفسه).

٣) هذا على مستوى أسفل بحوالي ١٠ أقدام من ١ و ٢ أعلاه. جدار الواجهة ومعظم سقفه والأجزاء العلوية من الجدران الجانبية قد اختفت. وبناءً على ما يمكن رؤيته من جزء صغير من السقف المجاور للجدار الخلفي، فإن ارتفاع القبر كان حوالي ٣ أو ٥ر٣ أقدام.

وغرفة الدفن ٥ر١٢ قدماً مربعاً مع ثلاثة، وثلاثة تجاويف، وتجويفين على التوالي في الجدار الأيسر، والخلفي، والأيمن. هذه تتراوح في العرض ما بين ٥ر١ إلى ٣ أقدام، ولكنها كلها كانت بارتفاع ٣ أقدام وتخترق الجدران بمقدار ٥ر٣ أقدام ونصف القدم.

٤) هذا مجاور للقبر السابق وعلى المستوى نفسه. وليس به سقف أو جدار واجهة، بينما يوجد تجويفان في الجدار الأيسر وثلاثة في الجدار الخلفي وأربعة في الجدار الأيمن. ويبلغ متوسط العرض والارتفاع ثماني عشرة بوصة، وتخترق الجدران بنحو قدمين إلى أربعة أقدام.

٥) هذا في درجة بالغة من التهدم والدمار، حيث كان جدار الواجهة مختفياً والجدار الأيمن قد انخفض إلى كوم من الأنقاض. وكل ما تبقى كان أجزاء من أربعة وثلاثة تجاويف صغيرة في الجدارين الأيسر والخلفي.

٦) لم يبق شيء من هذا القبر إلا جزء من تجويف واحد في الزاوية المكوّنة من الجدارين الأمامي والأيمن. وحتى ذلك الجزء كان متهدماً والجزء الداخلي فقط من تجويفته هو الذي يحتفظ بسقفه.

٧) هذا حوالي ١٠ أقدام فوق مستوى القبرين الأخيرين، وقريب جداً من قمة التل الصغير. وكل ما تبقى منه هو التجويف الضحل،

عرضه ٥ر١٢ قدماً ونصف القدم، وارتفاعه ٣ أقدام، وطوله ٥ر٢ قدمان ونصف القدم. أما باقي البناء فقد انهار على جانب التل الصغير.

ملاحظة: باستثناء الصورة الشمسية العامة (الشكل ٤١) التي التقطها للتل الصغير بالمجموعة (ب) لم يشر موسل أو يصف أو يصور أياً من البنود الواردة أعلاه.

المجموعة (ج):

(الشكل ٣٩ عند موسل): في أعلى وعلى الجانب نفسه من الشعيب مثل المجموعة (ب). وتوجد ثمانية قبور في هذه المجموعة (انظر ص ٢٢٠).

١) (الشكل ٤٨ و ٤٩ عند موسل) يوجد لهذا القبر ممر مؤدي إليه مُسوّر، مع منصات على جانبي الجدران بكامل طولها، ومكوّنة من درجتين (كل درجة بارتفاع قدم: وطول الممر المؤدي إليه ٨ أقدام تقريباً). والباب المستطيل البسيط الكبير غير المزخرف تكسر عند الركن الأيمن السفلي، مع وجود شق في الجدار فوق الجزء المكسور مباشرة. وهناك إفريز فوق الباب من أربعة أبراج مدرجة ونصف برج على كلا الجانبين. وفوق هذا مساحة خالية، يعلوها إفريز آخر من أبراج مدرجة، والذي كان، على كل حال، في حالة سيئة من

الحفظ بحيث لا تظهر منه أي تفاصيل. ويبلغ عرض الغرفة ١٦ قدماً، و ١٢ قدماً من الأمام للخلف، وارتفاعها ٦ أقدام. وتوجد في الجدار الخلفي غرفة داخلية صغيرة، عرضها ٥ر٥ أقدام ونصف القدم، وعمقه ستة أقدام ونصف القدم، وارتفاعها ٦ أقدام ويحتمل أن تكون ضريحاً. ويوجد في الزاوية اليسرى الخلفية من الغرفة الرئيسة قبران محفوران في الأرضية على الجانب، أحدهما أمام الآخر، بينما في الزاوية اليمنى الخلفية يوجد قبر مماثل. وحيث إنه كان من الواضح وجود مساحة شاغرة لخمسة قبور إضافية على الأقل في المدفن، فيبدو أن مالكيه قد توقفوا عن استخدامه ربما عندما هجر الأنباط مدين.

٢) (الشكل ٤٣ و ٥٢ عند موسل). الواجهة باهتة من أثر العوامل الطبيعية، التي أثرت على وجه الخصوص في إفريز الزينة (بتصميم الأزهار)، ولكن تاج الأعمدة الكورنثية (Corinthian) واضح نسبياً، والممر المؤدي إلى القبر مُسوّر على جانبيه، مع درجة أو منصة بارتفاع قدم واحد على طول كل جانب، وطولها ٥ر٢٢ قدماً ونصف القدم وعرضها ١٠ أقدام. الباب بسيط بدون زخارف، ومتكسر شيئاً ما في الزاوية العلوية اليسرى، في حين أن الغرفة نفسها عرضها ١٨ قدماً وعمقها ١٥ قدماً حتى الجدار الخلفي، وارتفاعها ٥ر٥ أقدام ونصف القدم. وبها تجويفان في

الجدار الأيمن عند زاويته مع الجدار الأمامي، وكوّة في منتصف الجدار نفسه. وارتفاع باب المدخل ٤ أقدام تقريباً، وعلى الجدار الخلفي وجدت نصاً نبطياً من خمسة أو ستة حروف. ومن الطريف أن موسل لم يكتشف أي نقوش أو حتى حروف يمكن معرفة معناها في أي من هذه القبور، وكان هذا هو الوحيد الذي رأيته.

٣) (لم يصوره أو يصفه موسل). ممر الدخول ٢٠ × ٧ أقدام، مع منصة من درجتين (مجموعهما قدمان ونصف القدم) على كلا الجانبين، بينما تحتوي الواجهة على صف واحد من الأبراج المدرّجة، التي يصعب تمييزها بسبب العوامل الطبيعية. ويبلغ ارتفاع الباب ٥ أقدام وعرضه قدمان ونصف القدم. والغرفة عرضها ٥ر١٢ قدماً ونصف القدم، وعمقها ٥ر١٣ قدماً ونصف القدم نحو الداخل، وارتفاعها ٦ أقدام. وبها قبر واحد في الأرضية بالركن الخلفي الأيسر، مع أثر لقبر ثان غير مكتمل (إلا إذا كان هذا الأخير ناتج عن حفر غير ناجح من قبل لصوص القبور).

ملاحظة: القبور ١ و ٢ و ٣ من هذه المجموعة متجاورة مع بعضها البعض، ولكن كل منها على مستوى مختلف قليلاً، هبوطاً من ١ إلى ٣.

٤) (الشكل ٤٤ و ٤٧ عند موسل). وهذا على نفس مستوى ٣ وبعده وله ممر دخول طوله ٣٢ قدماً وعرضه ٥ر٧ أقدام ونصف

القدم، وقدمين ونصف منصات مدرّجة على امتداد كل جدار. وقد اختفت الواجهة في القسم بين الباب والطرف الأيسر. وكل من باب الغرفة وسقفها على ارتفاع ٥ر٥ أقدام ونصف القدم، بينما داخلها مربع من ١٥ قدماً، مع أربعة تجاويف في الجدار الخلفي ترتفع من مستوى الأرضية حتى ٥ أقدام، وكل منها بعرض ٥ر٢ قدمين ونصف القدم وعمق ٥ أقدام في الجدار. القبر الوحيد في الأرضية بالزاوية الخلفية اليمنى، الذي يوحي به الشكل ٤٤ عند موسل، لا يبدو أن له وجوداً.

٥) (لم يصّوره موسل). هذا القبر بجوار الضريح وعلى مستوى منخفض عنه قليلاً، وقد تآكل بسبب العوامل الطبيعية بشكل كامل تقريباً، ولم يبق منه إلا تجويف بمقاس ٣ أقدام من الأرض للسقف و ١٢ قدماً مربعاً تقريباً. ولم نعثر على أي تجاويف أو قبور فيه، بينما كان ممر الدخول، ١٠ أقدام مربعة وليس به منصات جانبية على امتداد جدرانه.

٦) (لم يصوّره موسل). هذا القبر في مستوى أعلى من ج ١، ومن الواضح أنه غير مكتمل، لأنّ الجدارَ الخلفي والجدارين على الجانبين، علاوة على جزء من ممر الدخول، كان قد تم قطعها بينما الحفرة العميقة، بعرض الغرفة ولكن طولها ٥ر٢ قدمان ونصف القدم فقط، قد حُفرت حتى عمق ١٠ أقدام. ونحو ثلاثة أقدام أسفل جانب

الحفرة كان قد تم حفر الغرفة حتى مستوى الأرضية ولكن كان من المستحيل تماماً الوصول إليها، ولم أستطع التحقق من طبيعة ما بالداخل، ويبدو أن هذا القبر يوضح طريقة العمل المستخدمة في حفر أضرحة الأنباط.

٧) (لم يذكره موسل). واجهة، وباب، والجدار الأمامي لهذا القبر لم تعد موجودة، ولكن يوجد ممر واسع للدخول، طوله ٣٠ قدماً وعرضه ٢٢ قدماً، وكان جداره الأيسر متآكلاً ومتهدماً بصورة سيئة بسبب العوامل الجوية، بينما في منتصف الجدار الأيمن توجد كوّة ضحلة ومستطيلة تقريباً، ارتفاعها ٤ أقدام، وعرضها قدمان وعمقها قدمان ونصف. والقبر من الداخل بيضوي الشكل تقريباً يمتد ١٥ قدماً للداخل حتى الجدار الخلفي، وعرضه ١٧ قدماً، على الرغم من أن الجدار الأيسر كان فقط نحو ١١ قدماً. ارتداد في الجدار الخلفي عبارة عن قوس ضحل.

وفي الجدار الأيمن، في الزاوية المكونة مع الجدار الأمامي يوجد تجويف بعرض قدمين ونصف القدم، وعمق ٥ أقدام وارتفاع ٥ أقدام. وكان ارتفاع الغرفة أيضاً ٥ أقدام. وبجوارها في الجدار الأيمن توجد كوّة مستطيلة غير عميقة، بعرض قدمين ونصف القدم، وارتفاع ٤ر٥ أقدام ونصف القدم وعمق قدم واحد. وبجانب الكوّة يوجد تجويف، بعرض ٤ أقدام، وعمق ٥ أقدام في

الجدار، وتنحدر أرضيته حتى الغرفة، مما يعطي ارتفاعاً قدره ٤ أقدام عند الطرف الداخلي و ٥ أقدام عند طرف الغرفة.

ويبدأ الارتداد الضحل بعد مسافة قدم عن يسار هذا التجويف، وعمقه ١٨ بوصة فقط وطوله ١٢ر٥ قدماً ونصف القدم.

٨) (لم يذكره موسل). ممر الدخول لهذا القبر قد اختفى تماماً بسبب العوامل الجوية، والواجهة قد انمحت، على الرغم من أن الجدار الأمامي سليم، وكذلك باب المدخل الذي يبلغ ارتفاعه ٤ر٥ أقدام ونصف القدم وعرضه قدمان ونصف القدم. والشكل الداخلي مربع من ١٢ر٥ قدماً ونصف القدم بارتفاع ٦ أقدام تقريباً، وبه أربعة تجاويف في الجدار الخلفي.

المجموعة (د)

(الشكل ٤٠ عند موسل): في الجرف من جبل المصلى المتجة عبر الشعيب المجموعتان (ب) و (ج). (انظر الصفحات ٢٢٠ و ٢٢١).

١) لهذا القبر مدخل مسقوف مع جدران جانبية، وبينها كان جانب الجرف قد حُفر للداخل حتى الارتفاع المطلوب للواجهة بالكامل. ويبلغ عرض المدخل المسقوف ١٨ر٥ قدماً ونصف القدم وطوله ٦ر٥ خطوات ونصف الخطوة حتى الباب في منتصف الواجهة. وعلى جانبي هذا الباب تقع طبقة من ثلاث درجات على

طول واجهة الجدار الأمامي، وتستمر على طول جوانب المدخل المسقوف. وعلى الجانب الأيسر كانت هذه الدرجات سليمة، كلٌ منها بارتفاع قدم واحد، بينما على الجانب المقابل كانت غير موجودة على الإطلاق بسبب العوامل الجوية. وأبعاد الباب نفسه ٦ × ٥ر٢ قدمين ونصف القدم وفيه قوس زينة أو بروز في أعلاه، والذي اختفى تماماً، لا يوجد إلا أثر طفيف يدل على شكله على الحائط. ظاهرة الباب وقوس الزينة تفسر وجود ٩ أقدام من الجدار الذي يستمر دون علامة مميزة لأربعة أقدام، حيث توجد عتبة تدعم إفريزاً من ست أبراج مدرجة، يحفها نصف برج عند كل طرف.

وتوجد فوق الإفريز حلية معمارية بارزة قليلاً، تدعم الجدار مسافة ٣ أقدام الذي ينتهي ببروز بسيط يقف عليه إفريز ثان من خمسة أبراج مدرجة ونصف برج على كل طرف، وأخيراً مثلث بارز يصل رأسه إلى قمة الواجهة الصخرية من الحجر الجيري الصلب، التي تكسو الطبقات الرملية الناعمة التي كان القبر قد حُفر فيها. وقد قدّرت ارتفاع الواجهة بالكامل بين ٢٠ و ٢٢ قدماً، بينما عرض المبنى كان حوالي ١٦ قدماً، مع ارتداد بعرض ١٥ بوصة وعمق ٦ بوصات فوق الدرجات مباشرة على كلا جانبيه

والمدخل يفتح في اتجاه الشرق ويقابله بالضبط في الجدار الخلفي وبعد مسافة قدمين فوق مستوى الأرضية باب آخر ارتفاعه ٦ أقدام

وعرضه قدمان ويؤدي إلى غرفة مربعة صغيرة أبعادها ٥ر١٠ × ٥ر١٠ × ٥ر٥ أقدام ونصف القدم والتي كانت خالية تماماً. وكانت قياسات داخل الغرفة الرئيسة ١٥ × ٥ر١٣ × ٧ أقدام ومساحة الأرضية كلها مأهولة بعشرة قبور، تمتد طولياً بالنسبة للمحور الشرقي - الغربي من الضريح، أبعاد الواحد منها ٦ × ٥ر٢ قدمين ونصف القدم. وتوجد ست منها في صف مقابل للجدار الخلفي، واثنان على جانبي ممر يؤدي من الباب إلى مساحة تفصل الصف الخارجي عن الداخلي. وبين الأولى وداخل الجدار الأمامي يوجد ممر عرضه ٢٥ر١ قدم وربع القدم، ويمتد بكامل عرض القبر.

ومن المؤكد أن كافة هذه القبور قد نبشها لصوص الكنوز، وفي بعضها رأيت أكواماً من العظام، بينما كانت أخرى قد أفرغت من محتوياتها الأصلية لإيواء الأغنام أو البشر الأحياء. وكان هناك الكثير من كسر الخشب المتناثرة حول القبر، ربما كان شظايا من حطب النار، على الرغم من أنني كنت أعتقد أنها ربما كانت أجزاء من توابيت خشبية.

(الشكل ٥١ عند موسل): يبين واجهة هذا الضريح وهو العنصر الخارجي (الجنوبي) من مجموعة مكوّنة من ثلاثة.

٢) (الشكل ٥٠ عند موسل): بجوار (د ١) المذكور أعلاه وعلى اليمين منه وهو مشابه له في مظهره العام. والدرجات المكونة

للمنصات على كلا الجانبين ما زالت باقية، على الرغم من تهدمها قليلاً في بعض أجزائها. ويحتوي الصف الأسفل من الأبراج على خمسة أنصاف ونصفين مثل الصف العلوي في كلا القبرين، ولكنه لا يشبه الإفريز الأسفل في (د ١)، الذي يوجد به ستة أنصاف ونصفان.

وتبلغ قياسات الداخل ١٥ قدماً بالعرض و ٥ر١٣ قدماً ونصف القدم بالعمق للداخل، و ٥ر٦ أقدام ونصف القدم ارتفاعاً من الأرضية حتى السقف. وأبعاد الغرفة الداخلية (التي يحتمل أن تكون ضريحاً في كلا الحالتين) ١٢ × ٥ر١٠ × ٥ر٥ أقدام ونصف القدم وتقع في منتصف الجدار الأيمن، الذي ترتبط به بممر ضيق قصير. وتوجد خمسة قبور مُرتّبة بالعرض على طول الجدار الأيسر، مع ممر عرضه ٥ر٣ أقدام ونصف القدم على طول الحواف الداخلية للقبور الأربعة الأولى. وعلى اليمين من هذا الممر يوجد قبران طوليان قرب الجدار الأمامي وثلاثة أخرى مماثلة على جانب الجدار الخلفي. وهاتان المجموعتان مفصولتان بممر يؤدي إلى الغرفة الصغيرة في الجدار الأيمن.

في هذه المقبرة، مثل ما في المقبرة (د ١)، يبدو أن القبور قد حُفرت في الأرض الصخرية حتى عمق ٦ أقدام تقريباً، على الرغم من وجود الكثير من الرمل والأنقاض في معظمها، حتى إنه كان من الصعب التوصل إلى تقدير دقيق. ويواجه باب هذه المقبرة الجنوب

من الشرق تقريباً. وكانت هاتان المقبرتان أفضل ما في المجموعة كلها حتى الآن، ويبدو أنهما جديرتان أن تعدا من "مقابر الملوك".

٣) ينتصب هذا القبر على اليمين وقريب من (د ٢)، ولكن واجهته مشوهة بصورة سيئة. وكان قياس الداخل ١٠ × ١٠ × ٦ أقدام ويوجد تجويف كبير في الزاوية المكونة من الجدارين الأمامي والأيسر، وأبعاده ٥ × ٦ × ٥ أقدام. ويحتل تجويف مماثل منتصف الجدار الخلفي، بينما يوجد آخر أصغر مشابه له عرضه ١٫٢٥ قدم وربع القدم وعمقه ٦ أقدام في الجدار ويقع بينه وبين الزاوية في الركن المكون من الجدارين الخلفي والأيمن. وفي الزاوية نفسها يوجد تجويف بمقاس ٨٫٥ × ٦ أقدام، في حين يوجد آخر أيضاً في الجدار الأيمن وعرضه قدمان ونصف.

ملاحظة: ما ورد أعلاه يوضح قائمة كاملة بجميع المقابر التي فحصتها، ومن المحتمل أنني ربما أغفلت عدداً منها، إما في واحدة أو أخرى من هذه المجموعات الأربع أو في بعض المناطق التي لم أزرها. وفي الحقيقة يوجد مخططان للمقابر بين العشرة التي نشرها موسل، على هيئة صور فوتوغرافية أو رسومات كروكية أو مخططات أرضية، والتي فشلت في أن أحدّد نوعها. إن انقضاء ثلاثين عاماً بين زيارته وزيارتي ربما تفسر بعضاً من هذه الاختلافات البسيطة، وسوف يجد رحالة المستقبل في التفاصيل المذكورة أعلاه كثيراً مما سيقارنونه بما قد يرونه هم بأنفسهم.

ويبدو من البيانات الواردة هنا أنه يوجد ما يقل قليلاً عن ثمانين قبراً منتشرة في حوالي عشرين ضريحاً من النوع النبطي في منطقة مغاور شعيب. ومع إدراكنا لحقيقة أن الناس العاديين قد دُفنوا في قبور عادية، وأن الأضرحة كانت مقصورة على الأسر الحاكمة والنبلاء والوجهاء من كبار حكام الأنباط، فإن هذا العدد لا يوحي بكثرة في عدد السكان الأنباط، أو في المقابل طول مدة حكمهم في مدين.

الكشاف



كشاف الأعلام والأسماء والقبائل
والأماكن والمواضع والبلدان والجبال ونحوها

(أ)

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(خ)

(د)

(ر)

(ش)

(ص)

(غ)

(ف)

(ن)

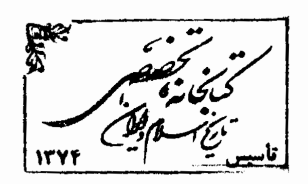
(هـ)

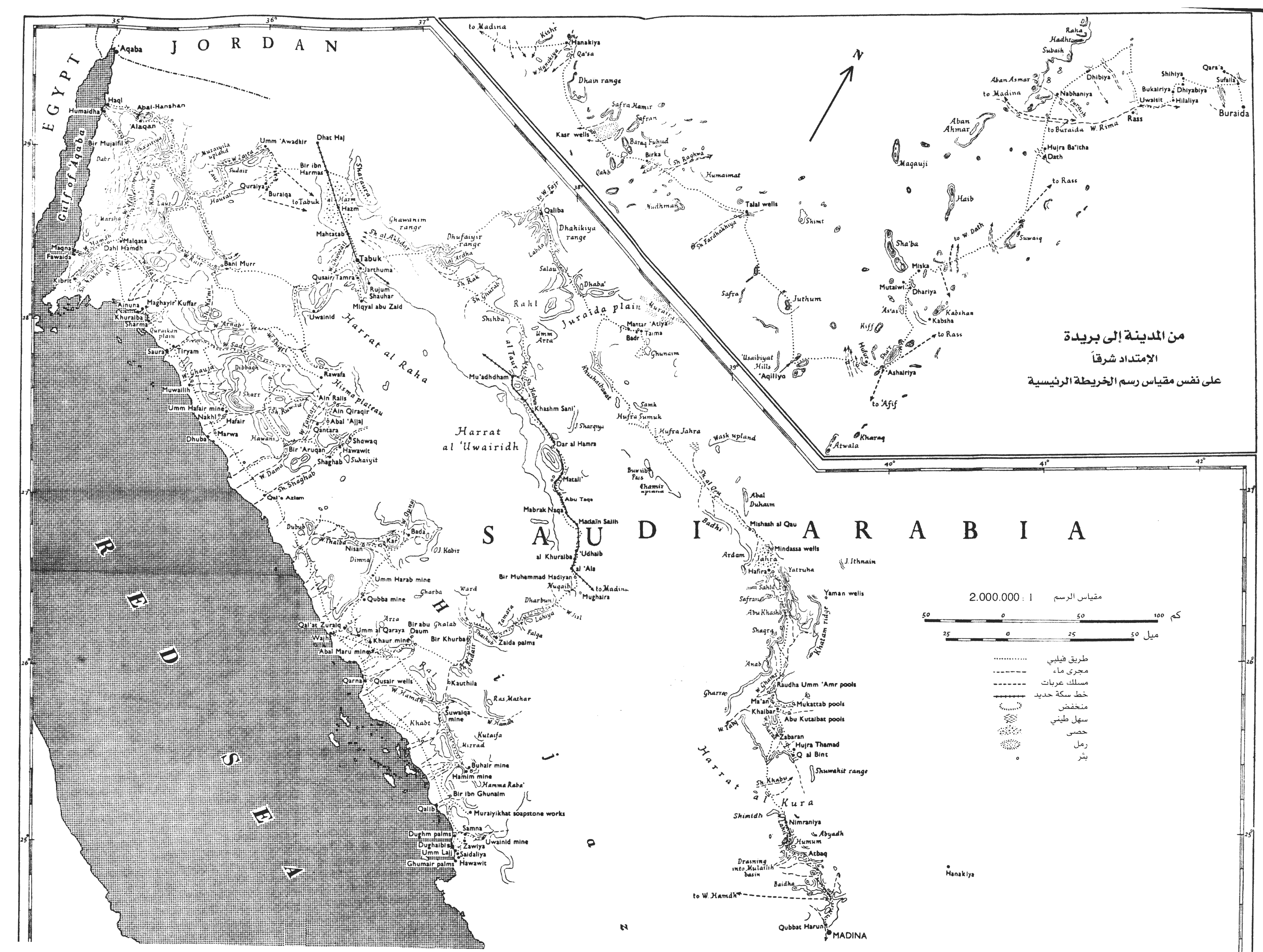
(و)

(ي)



المحتويات


کتابخانه تخصصی
تاریخ اسلام و ایران
تاسیس ۱۳۷۴



SAUDI ARABIA
JORDAN
EGYPT
RED SEA
Gulf of 'Aqaba
Harrat al Raha
Harrat al 'Uwairidh
Harrat al Kura
Juraida plain
Hisma plateau
'Aqaba
Haql
Tabuk
Dhat Haj
Mu'adhdham
Madain Salih
al Khuraiba
al 'Ala
Mughaira
to Madina
Taima
Badr
Dhuba
Muwailih
Wajh
Khaibar
Hanakiya
Qubbat Harun
MADINA
to W. Hamdh
Buraida
Rass
Suwaiq
'Aqiliya
Kabsha
to 'Afif
N
من المدينة إلى بريدة
الإمتداد شرقاً
على نفس مقياس رسم الخريطة الرئيسية
مقياس الرسم
2.000.000 : 1
كم
ميل
طريق فيلبي
مجرى ماء
مسلك عربات
خط سكة حديد
منخفض
سهل طيني
حصى
رمل
بئر